

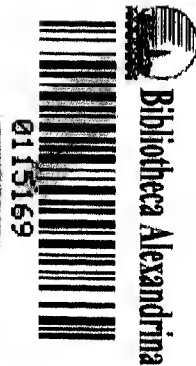
كلود جوليان

الحلم والتاريخ

أو

مئة عام من تاريخ أمريكا

نقله إلى العربية
نخلة كلاس



Amib



دمشق — أوتوستراد المزة
هاتف

٢٤٤١٢٦ — ٢٤٣٩٥١ — ٢١٣٨٢١

تلكس: ٤١٢٠٥٠

ص.ب: ١٦٠٣٥

العنوان البرقي

طلاسدار

TLASDAR

بيع الدار مخصص
لصالح مدارس أبناء الشهداء في القطر العربي السوري

الحلم والتاريخ أو مئة عام من تاريخ أمريكا

جميع الحقوق محفوظة
لدار طلاس للدراسات والترجمة والنشر

الطبعة الثانية

١٩٨٩

كلود جوليان

الحلم والتاريخ

أو

مئة عام من تاريخ أمريكا

نقله إلى العربية
نخلة كلاس

الآراء الواردة في كتب الدار تعبر عن فكر مؤلفيها
ولا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

CLAUDE JULIEN

**LE REVE
ET L'HISTOIRE**

Deux siècles d'Amérique

تمهيد

القتال

خرجت إنكلترا منتصرة من حرب السنوات السبع (١٧٥٦—١٧٦٣)، التي خاضتها ضد فرنسا والنمسا، ولما يخف عبء الديون الذي كانت تنوء به، فقررت أن تُحمّل مستعمراتها الأمريكية جزءاً منها، فكان أن أعطت التدابير المتخذة، في هذا السبيل، إشارة التمرد. ذلك أن مندوبين عن جميع المستعمرات، ما عدا جيورجيا، انطلقوا منها ليجتمعوا في فلادلفيا، فيتألف من إجتماعهم المؤتمر «الكونغرس» القاري الأول في ٥ أيلول ١٧٧٤. ولم يؤل مؤتمراتهم هذا إلى المطالبة بالاستقلال، بل بأن تحترم لندن حقوقهم المنبثقة من الدستور الإنكليزي. غير أن الملك جورج الثالث، رأى في بادرتهم عمل عصيان ينبغي قمعه بالقوة.

في ليل ١٨ نيسان ١٧٧٥، قام الجنرال توماس غاج Thomas Gage، قائد القوات الإنكليزية في بوسطن بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه، فعمد إلى إخراج قسم من جنود الحامية، بدؤوا المسير إلى ليكسنغتن Lexington، عند بزوغ فجر ١٩ نيسان، وكان هدفه مزدوجاً، أوله اعتقال زعيمين وطنيين هما صموئيل أداير وجون هانكوك Samuel Adams et John Hancock، كانا في إتجاه ضيعة «كونكورد»، ثم—وفي الأخص—تدمير العتاد الحربي الذي كان أصداقائهم قد وضعوه في تلك الضيعة الصغيرة من ولاية الماساشوستس. وعلى الرغم من الظلام، لم تخف حركة القوات، لأن وطنياً آخر هو بول روفير Paul Revere، الذي ألهم، فيما بعد، الشاعر

لونغفيللو Longfellow قصيدته الشهيرة، غادر بوسطن ممتطياً جواده ليحذر أصدقائه، ووصل إلى ليكسنغتون عند منتصف الليل.

تجمع متطوعون، على الفور، لمواجهة الوحدات الإنكليزية، وتسمو بـ «رجال الدقيقة» Minutemen لأنهم ما لبثوا أن تأهبوا، في دقيقة واحدة. وقد استعارت اسمهم في الستينيات من عصرنا هذا مجموعات يسارية، ودُعيت به. وكان عدد أولئك المتطوعين، عندما دخلت المفزة الإنكليزية ليكسنغتون، سبعين رجلاً... أمّا من أطلق الرصاصة الأولى، فهذا—بلاشك—ما لم يُعرف أبداً: قُتل ثمانية أمريكيين وجرح عشرة، ولم يصب سوى جندي إنكليزي واحد إصابة خفيفة. هكذا بدأت حرب الاستقلال.

لم تكن البدايات تبشر بالخير، فقد مُني الوطنيون بالخيبات في بانكرهيل Bunker Hill، في ١٧ حزيران ١٧٧٥، ثم في نيويورك، وبراندي واين Brandywine، وجرمان تاون Germantown، وأماكن أخرى... إلا أنهم انتصروا في ساراتوغا (١٧ تشرين الأول ١٧٧٧)، وفي العام التالي، تدخلت فرنسا واشتركت في القتال، وتمكنت القوات الفرنسية—الأمريكية من فرض الاستسلام على وحدات Cornwallis في يورك تاون YorkTown في ١٧ تشرين الأول ١٧٨١. وبعد انقضاء عامين، تُوّجت معاهدة باريس استقلال الولايات المتحدة، التي لم يكن يتجاوز عدد سكانها، آنذاك، أربعة ملايين.

عُقد مؤتمر اتحادي في فلادلفيا استمر من أيار إلى أيلول ١٧٨٧، وذلك لوضع دستور، أقرته ووافقت عليه الولايات المختلفة بين ١٧٨٨ و ١٧٩٠. وفي ٣٠ نيسان ١٧٨٩، أقسم جورج واشنطن، القائد العام في أثناء الحرب، وأول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية، اليمين الدستورية. وقبل ذلك، لثلاثة عشر عاماً خلت، أي في ٤ تموز ١٧٧٦، كان بيان إعلان الاستقلال، الذي تحتفل أمريكا في هذا العام (١٩٧٦) بمرور القرن الثاني عليه، قد نُشر على العالم بأسره، محدداً المبادئ التي كان الوطنيون يقاتلون «باسمها» منذ أكثر من عام.

وهذا نصه:

الإعلان الإجماعي للولايات المتحدة الأمريكية الثلاث عشرة

عندما يرى شعب ما— في مجرى الحوادث البشرية— أن الضرورة تحدوه إلى قطع العلاقات السياسية التي تربطه بشعب آخر، وإلى أن يحتل، بين دول العالم وبمساواتها، مكانه الخاص الذي تمنحه الحق به قوانين الطبيعة وإله الطبيعة، فإن الاحترام الصحيح لرأي الإنسان، يتطلب من هذا الشعب أن يعلن الأسباب التي حملته على هذا الانفصال.

هذه الحقائق هي— في نظرنا— حقائق بديهية في جوهرها، وهي أن جميع الناس يولدون متساوين، وأن خالقهم منحهم حقوقاً ثابتة، منها حق الحياة والحرية والسعي وراء السعادة.

وأن الناس يقيمون الحكومات التي تستمد سلطتها العادلة من رضى المحكومين وموافقتهم، لصيانة تلك الحقوق.

وأن حكومة ما— مهما كان نظام حكمها— إذا ما أنكرت هذه الحقوق «أو تنكرت لها»، فمن حق الشعب أن يغيرها أو أن يزيلها ليحل محلها حكومة جديدة وقيمها على مثل هذه الحقوق والمبادئ وينظم سلطاتها، حسبما يبدو له أنسب الأشكال وأضمنها لتحقيق أمنه وسعادته.

ومن الحكمة— بلا شك— ألا يُعتمد، لأسباب بسيطة وعابرة، إلى قلب حكومات استقرت منذ أميد طويل. فالناس— كالعهد بهم دائماً— مهيوون لمعاناة الشرور التي يمكن احتلالها، أكثر من تهيبتهم لانتزاع حقوقهم بقلب الأنظمة التي اعتادوها وألفوها.

لكن، عندما ينم استمرار الفساد والتعسف— في إتجاههما الثابت إلى هدف واحد— على نية إخضاع الناس لاستبداد مطلق، فمن حق هؤلاء، بل من واجبهم أن يطيحوا بحكم كهذا، ويسعوا وراء ضمانات أخرى، يصونون بها أمنهم في المستقبل.

هكذا، طال صبر المستعمرات على ما هي فيه، وهذه هي الضرورة التي تضطرهم الآن إلى تغيير نظام حكمهم السابق. فتاريخ الجالس على عرش بريطانيا

اليوم، تاريخٌ حافل بالتعسف والمظالم المتكررة التي لا تتوخى جميعها إلا هدفاً مباشراً واحداً هو توطيد حكم طغيان مطلق على ولاياتنا. وإقامة البرهان على ذلك، يكفي أن نسرد الحوادث الواقعة ليحكم عليها عالمٌ حيادي:

رفض الملك الموافقة على أكثر القوانين ملائمة للمصلحة العامة.

منع حكاه من إصدار قوانين ضرورية وملحة، إلا إذا أرجأ تطبيقها على موافقته، وهكذا أهملها كل الإهمال ولم يعرها شيئاً من اهتمامه.

رفض إصدار قوانين أخرى نافعة ولزامة لعدد كبير من السكان، إلا إذا تخلى هؤلاء عن حقهم في أن يُمثّلوا في المجالس التشريعية، وهو الحق الثمين الذي لا يخشاه سوى الطغاة.

دعا إلى انعقاد المجالس في أمكنة غير مألوفة، لراحة فيها، وبعيدة عن أماكن الوثائق والسجلات ومستودعاتها، وهدفه إكراه المجتمعين على الرضوخ لإجراءاته، فأرهاقهم وشلّ أفعالهم.

عمد، في مناسبات متعددة، إلى حل المجالس التشريعية التي عبّرت بحزم وشجاعة عن موقفها من انتهاك حقوق الشعب.

وبعد حل تلك المجالس، ظلّ مدة طويلة، يرفض انتخاب غيرها. وهكذا عاد حق ممارسة السلطة التشريعية إلى الشعب، بطريقة لا سبيل إلى تغييرها أو إلزالتها... وفي آن واحد، كانت البلاد معرضة للعدوان الخارجي وللاضطرابات الداخلية.

حال دون ازدياد السكان في ولاياتنا، بإعاقته تطبيق قوانين منح الجنسية للأجانب، كما رفض إقرار غيرها من القوانين المشجعة على الهجرة إلى المستعمرات الأمريكية، وأقام الحواجز والعقبات دون تملك أراضي جديدة.

أعاق لإحقاق العدالة برفضه الموافقة على قوانين تستهدف توطيد سلطات قضائية.

أخضع القضاة لمشيئته فيما يخص مدة استمرارهم في أعمالهم وتحديد رواتبهم ودفعها لهم.

أحدث عدداً كبيراً من الوظائف الجديدة، وبعث إلى أرضنا جماعات من الضباط ترهق شعبنا وتلتهم خيراته .

أبقى على أراضينا، في زمن السلم، جيوشاً دائمة وعاملة، بلا موافقة مجالسنا التشريعية، لقد أراد أن تكون السلطة العسكرية مستقلة عن السلطة المدنية وفوقها .

انضم إلى آخرين لإخضاعنا لتشريع غريب عن دستورنا ولا تعترف به قوانيننا، مانحاً موافقته على أحكامهم التشريعية التي :

- تخول إقامة عدد كبير من الجند بين ظهرائنا .
- تدرأ عنهم، بمحاكمات صورية، العقوبات على جرائم القتل التي قد يرتكبونها ضد سكان ولاياتنا .
- تسد السبل على تجارتنا في جميع أرجاء العالم .
- تفرض علينا ضرائب لم نوافق عليها .
- تخرمنا، في كثير من الحالات، من ضمانات المحاكمة بطريقة المحلفين .
- تخول نقلنا، عبر البحار، إلى حيث نُحاكم من أجل جُنح مزعومة .
- تلغي نظام القوانين الإنكليزية الحر في إقليم مجاور مقيمة فيه حكماً استبدادياً، وموسعة حدوده بطريقة تجعله مثلاً يُحتذى، وفي آن واحد، أداة ووسيلة لإدخال نظام الحكم الاستبدادي إلى مستعمراتنا .
- تزيل مواثيقنا وتلغي أفضل قوانيننا وتغير أشكال حكوماتنا في مبادئها الأساسية .
- تُعطل مجالسنا التشريعية وتتيح لها التصريح بأنها مخولة الحلول محلنا في التشريع، بدلاً عنا في جميع الأحوال .

تخلى الملك عن الحق في حكمنا، بإعلانه أننا خارج نطاق حمايته وإعلانه الحرب علينا . كما أغار على بحارنا واجتاح سواحلنا وأحرق مدننا ودمر حياة شعبنا .

وهاهو الآن يواجه جيوشاً جرارة من المرتزقة الأجانب، ليأتي علينا، ويتم عملية الدمار والطغيان بأساليب من القسوة والغدر لا تكاد تبلغها أساليب العصور الهمجية، ولا تليق البتة برئيس دولة متمدن .

لقد أكره مواطنينا المأسورين في عرض البحر على إشهار السلاح في وجه

بلادهم ، وعلى أن يصبحوا جلاّدي أصدقائهم وإخوتهم ، أو أن يسقطوا صرعى تحت ضربات هؤلاء .

أثار فتناً داخلية وبذل قصارى جهده ليستعديّ على سكان حدودنا الهنود المتوحشين القساة الذين تقضي شريعة الحرب عندهم بقتل جميع الناس بلا تمييز في العمر والجنس .

وفي كل مرحلة من مراحل هذا القمع وهذا الجور كنا نطالب بإحقاق الحق والعدالة ، بأكثر التعابير تواضعاً ، فلم يكن الرد على مطالبنا والمنااساتنا المتكررة ، إلا بتكرار المظالم . إن عاهلاً ترسخ فيه هذه الخصال الخُلقية التي تميّز الطاغية ، لا يستطيع أن يزعم لنفسه الحق بحكم شعب حر .

كذلك لم نتمكن من إثارة إخوتنا البريطانيين . فقد حذرناهم وبينا لهم ، مرات عدة ، إن مجلسهم النيابي يحاول أن يطبق علينا سلطته التشريعية وقوانينه تطبيقاً غير قانوني ، وذكرناهم بالظروف والمناسبات التي هاجرنا فيها وأقمنا هنا مستعمراتنا . وقد أهبنا بالإحساس الطبيعي بالعدالة وبسموّ النفس اللذين يُفترض اتصافهم بهما ، وناشدناهم باسم أوامر القرى التي تربط بيننا ، أن يشجبوا هذه الاعتداءات التي لا بدّ من أن تؤدي إلى تحطيم الصلات والروابط بيننا .. فأصمّوا آذانهم عن سماع صوت العدالة والقرى الدموية .. فواجبنا إذاً أن نرضخ للضرورة ونعلن الانفصال .. كما علينا أن نعدّهم ، كما نعدّ سائر شعوب العالم ، أعداء في الحرب وأصدقاء في السلم .

لذلك ، نحن ، ممثلي الولايات المتحدة الأمريكية ، المجتمعين في مؤتمر « كونغرس » عام ، إذ نشهد الإله الدّيان على سلامة مقاصدنا ، وباسم شعب هذه المستعمرات الطيب وبالنيابة عنه نوّكد ، ونعلن :

أن هذه المستعمرات المتحدة — ومن واجبها أن تصبح — ولايات حرة مستقلة .. وأنها تحررت من كل ولاء للتاج البريطاني ، وإن كل صلة بينها وبين دولة بريطانيا العظمى قد فُصمت ، وينبغي أن تفصم ، وإن هذه الولايات ، بوصفها حرة ومستقلة ، تتمتع بالسلطة المطلقة في إعلان الحرب وإقرار السلام وإبرام المعاهدات والأحلاف وإقامة علاقات تجارية ... والقيام بكل أمر آخر يحق للدولة المستقلة أن تقوم به .

ونحن إذ نتكل على العناية الإلهية كلّ الاتكال ، ودعماً لهذا الإعلان ، نأخذ على
أنفسنا العهد بوضع حياتنا وما ملكت أيماننا وشرفنا رهناً في هذا السبيل ..
« انتهى الإعلان »

المدخل

الحلم والنزاع

« قضيتنا شريفة : إنها قضية الإنسانية ». هذا ما كتبه الجنرال جورج واشنطن ، بعد أربع سنوات خلت على العيارات النارية الأولى التي أطلقها الوطنيون الأمريكيون على « القمصان الحمراء »^(١) في ليكسنغتون وكونكورد . وقبل ذلك (بعامين) ، بينما كان لافاييت يبحر إلى أمريكا على « فيكتوار » عبر عن الفكرة ذاتها بصيغة مختلفة ، إذ قال : « سعادة أمريكا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسعادة الإنسانية »^(٢) .

انقضى قرنان ، وفي داخل حدود الولايات المتحدة وخارجها ، على السواء ، لا تزال شائعة شيوعاً واسعاً الفكرة القائلة إن أمريكا هي أفضل حارس للكرامة والحرية الإنسائيتين . فقد كتب ، هرمان ملفيل ، صادقاً كل الصدق : « إننا نحمل على كواهلنا حريات العالم » . وفي عهد أقرب إلينا ، ردد جون ف . كندي ، الصدى ذاته بقوله : « الأمريكيون هم الحراس على معاقل الحرية في العالم »^(٣) . وقبيل الثورة الفرنسية . قال روسو : « الإنسان يولد حراً ، لكنه أينما كان ، مقيد بالأغلال » . أما

(١) رسالة إلى James Warren من الماساشوستس Massachusetts آذار ١٧٧٩ .

(٢) هرمان ملفيل U.S.Book C., White Jacket, Herman Melville ، ونيو يورك ١٨٩٢ ص : ١٤٤ .

(٣) « الإمبراطورية الأمريكية » Edit.B.Grasset باريس ١٩٦٨ — طبعة جديدة Edit.Livre De Poche .

باريس ١٩٧٣ . ص : ٤٣ — ٤٧ .

الأمريكيون ، فهم في بادئ الأمر يهرعون إلى السلاح للحصول على حريتهم ، ثم يعمدون في العام التالي ، بينما هم يقاتلون ، إلى شرح معنى نضالهم للعالم كله ، وهو بكل بساطة : «لأننا نرى في هذه الحريات حريات بدهية في جوهرها وهي : أن الناس جميعاً يولدون متساوين ، وأن خالقهم زودهم بحقوق لا يجوز المساس بها ومنها حق الحياة والحرية ، وطلب السعادة . ولضمان هذه الحقوق ، يقيم الناس حكومات تنيثق سلطتها العادلة من قبول المحكومين بها» .

استناداً إلى ذلك انتزع الأمريكيون استقلالهم ، ونالوه حرباً وعنوةً ، وهم يقيمون حكومتهم التي تستمد سلطتها من قبول المحكومين وموافقتهم ، وتتوخى حماية المواطنين وحريتهم ، والمساواة بينهم ، وتحمي أمامهم سبل السعي وراء السعادة . وقد أخذ عدد كبير من الأمريكيين ، معهم مواطنون كثيرون من جنسيات وبلدان أخرى ، العبارات الأولى من إعلان الاستقلال ، بمعناها الحرفي ، ولذلك اقتنعوا بها ، معتقدين أن مستقبلهم وسعادتهم يرتبطان ، ارتباطاً وثيقاً بالديمقراطية الأمريكية الكبرى ، إلا في بعض نقاط بسيطة لا بدّ من وجودها على الصعيد السياسي .

الحلم والكاينوس

هذه القناعة بلغت من عمق الرسوخ ، ما لم تبلغه أية قناعة أخرى ، اللهم سوى تلك التي — على نقيضها — ترى في الولايات المتحدة المسؤول الأساسي عما تعانيه الإنسانية من آلام وشور ، وهذه القناعة ، شأنها شأن السابقة ، منتشرة وشائعة شيوعاً واسعاً في الولايات المتحدة الأمريكية وخارجها وأمريكي هو بول غودمان Paul Goodman ، الذي وجه كلامه إلى زهاء مئتي رجل من قادة بلاده ، بينهم عسكريون ودبلوماسيون ورجال أعمال ، وخاطبهم قائلاً بكل هدوء : «أنتم مجموعة الرجال الأشد خطراً وضرراً في عالم اليوم» . وهؤلاء في الحقيقة ، يسكون بزمام السلطة الفعلية ، وبول غودمان يتهمهم بزرع البؤس والشقاء في الأرض ، بتفتيت المجتمعات وزعزعتها ، وبإفساد ثقافتها ، وبالإقدام على استخدام أساليب الإبادة والتعذيب استخداماً واسعاً للقضاء على الشعوب ، يدفعهم اهتمام أناني بمصلحتهم الخاصة والضيقة^(٤) . وفي الواقع ، هناك ضحايا ، لا حصر لها ، يعذبها ويمزقها ، روحاً وجسداً ،

(٤) من خطبة له في ١٩ تشرين الثاني ١٩٦٧ .

جلادون قائمون على أنظمة حكم دكتاتورية تدعمها الولايات المتحدة الأمريكية . تلك الضحايا متأهبة ومستعدة لأن تأخذ على عاتقها وتستأنف صرخة غيفارا، الذي لم يتردد، قبل أن يهوي تحت ضربات المخابرات الأمريكية «C.I.A» و«القبعات الخضراء» والجيش البوليفي، في إدانة الولايات المتحدة بوصفها «عدو الجنس البشري اللدود» . أما الباقون على قيد الحياة، ممن ألقوا في «أقفاص النور» وفي معتقلات الأشغال الشاقة في جنوب الفيتنام، والرجال والنساء الذين قد لا يجدون سبيلاً إلى النجاة من سجون Pinochet، فلا يخامرهم أي شك في ذلك .

وهل لمجتمع بشري، مهما كانت عقيدته، ومهما بلغت قدرته، أن يكون جديراً بكل هذا القدر من التعجيد أو بكل هذا القدر من الشحنة والبغضاء؟ لقد انتشر وامتد، خلال العالم بأسره، الحلم الأمريكي، الحامل أملاً عريضاً، منذ إعلان الاستقلال . ولم يكن هدفه إعلان استقلال المستعمرات، بل أن يشرح للعالم الأسباب التي تدفع تلك المستعمرات إلى الإفلات والتخلص من الوصاية البريطانية . فالبادئ التي يدينها إعلان الاستقلال الأمريكي، لا تسري صحتها على أمريكا وحدها، بل على شعوب الأرض قاطبة... هكذا فهمت على الفور . فلاحدى عشر سنة خلت، قبل الاستيلاء على الباستيل، رأى ميرابو Mirabeau في نص الإعلان الأمريكي «بياناً متسامياً»^(٥)، ورأى فيه كوندورسيه Condorcet «عرضاً بسيطاً لهذه الحقوق المقدسة جداً، التي طال عليها النسيان»^(٦) .

غير أن هذه الحقوق — حرية، مساواة —، على كل قدسيتهما وشموليتهما العالمية، كُوفحت وأنتهكت، وأهملت في أحيان كثيرة . فمنذ سنوات، عندما دُعي مواطنون أمريكيون، في أحد شوارع نيويورك، إلى التوقيع على بيان، رفض معظمهم ذلك غاضبين مستنكرين، على الرغم من أن النص الذي عُرض عليهم للتوقيع، هو نص إعلان الاستقلال، الذي بدا لهم محتواه هداماً، ومناوئاً للولايات المتحدة .

وما لا شك فيه أن رد الفعل العفوي هذا لا يكفي لتحديد الدرك الذي انحدر إليه الحلم الأمريكي . ولا بد لنا كي ندرك مدى هذا التردّي، من أن نعرف ما هي

(٥) ميرابو — أوامر النفي والسجن .

(٦) مؤلفات كوندورسيه — الجزء الثامن . ص: ١١ .

المساومات التي سبقت وضع نص الإعلان ، وفي أي شروط عُدِّل ثم تمت الموافقة عليه ، وبأي السبيل والوسائل تُرجم إلى أعمال ، وبأيها لم يترجم .

ينبغي لنا أن نضع الحلم والتاريخ وجهاً لوجه ، خلال الأعوام الممتين التي تلت انبثاق أمل هذا الأمل .. هذا الحلم بالحرية هو وحده الذي يقبل أناس أن يموتوا من أجله ، إذا ما استثنينا المعتقدات الدينية . وهذا التاريخ هو تاريخ الصراع الذي خاضه رجال لينتزعوا حقوقهم من آخرين أبوا عليهم . والتناقض هو أن الطرفين يطالبان بالمبادئ عينها ، ويريد ، كل منهما ، على طريقته ، البقاء على ولائهما للثورة الأمريكية . لكن الحلم الذي يتحدثان عنه ليس واحداً ، فهؤلاء يغامرون بمثلتيهم عندما يريدون أن يجعلوه « مطلقاً » لا يُنال ولا سبيل إلى تحقيقه ، وأولئك يستطيعون ، بواقعتهم ، تشويبه وتحويله إلى كابوس ينشر الملح والظلم والاضطهاد .

التاريخ والتسويات

الحلم الأمريكي سمح بقدر ما هو ثوري ، وإكراهات التاريخ وقبوده هي التي تسمه بالتبسات متعددة . أولها وأكبرها خطراً ، يُمتُّ بالصلة إلى النقطة الأساسية في رسالة الحرية التي حملت أمريكا لواءها إلى العالم . فالمستعمرات لا يُتاح لها الانتصار إلا إذا ظلت متحدة ، لكنها انقسمت في مواقفها من القضية التي أدت ، بعد مرور قرن على ذلك ، إلى مأساة حرب الانفصال ، وهي قضية الرق وتجارة العبيد . ثم قررت المستعمرات أن تكون كتلة متراصة حيال خطر العدو الداهم وإلى التضحية ، في سبيل ذلك وباسم الواقعية ، بمبدأ كانت تنادي بقدسيته . وقبل أن تمسك بزمام مصيرها ، تخلت عن حيز واسع من حلمها ، عندما عمدت ، لإرضاء لولاية كارولينا الجنوبية وولاية جيجورجيا ، إلى إلغاء الفقرة التي تحرم النخاسة في نص الإعلان . وقد تصور أعداء نظام الرق ، وعلى رأسهم توماس جيفرسون ، أن في وسعهم القبول بهذا التنازل ، ذلك أن العبارات الأولى من النص التي تنادي وتطالب بحرية البشر جميعاً ، وبالمساواة بينهم ، تنطبق أيضاً على العبيد السود . فالجوهري ، في رأيهم لم يُمس .

غير أن أمريكياً « موالياً » مخلصاً للتاج البريطاني ، أدرك من منفاة في إنكلترا ما في الأمر من تناقض ، إذ كيف يستطيع أنصار الاستقلال ودعائه المنادة بأن الناس جميعاً أحرار ومتساوون ، بينما هم ، في آن واحد ، يحرمون أكثر من مئة ألف أفريقي من

حقهم في الحرية^(٧)؟ .. وبعد مضي قرن على ذلك ، كانت الديمقراطية الأمريكية تُخضع زهاء أربعة ملايين من السود ، وتفرض عليهم نير العبودية . والآن بعد مرور القرن الثاني على إعلان الاستقلال ، تجاوز عدد ذرائعهم مئة مليون من السود ، ليست الحرية في نظرهم ، إلا سراباً خادعاً . أما أنصار العبودية الذين اشتد أزهرهم ، بعد الالتباس الذي قبل به موقعو بيان إعلان الاستقلال ، فلم يلقوا أي عناء في فرض وجهات نظرهم . ومعظمهم يرون أن دساتير الولايات جميعاً ، تتبنّى في مقدمتها مبادئ إعلان (١٧٧٦) العامة . وهكذا يؤكد دستور ولاية الماساشوستس ، الموضوع عام ١٧٨٠ ، على أن جميع الرجال يولدون أحراراً ومتساوين وتمتعين بحقوق مقدسة . كذلك أوضح دستور ولاية نيوهامبشاير New Hampshire (١٧٨٤) ، أن جميع الناس يولدون أحراراً . إنما يكون من عبث الأطفال بعد ذلك اللجوء إلى الكلمات ذاتها للدلالة على النقيض ، إذ منذ أواخر القرن الثامن عشر ، صارت دساتير ولايات الألباما والأركنساس وفلوريدا وكنتوكي .. ثم بعدها دستور ولايتي المسيسيبي والتكساس ، تتضمن هذه العبارة : « جميع الناس الأحرار متساوون ، عندما يلتزمون بعقد إجتماعي » إنها الكلمات ذاتها ، لكنها تخون المبدأ هنا . وواضعو دستور ولاية الكنساس يشبهون بتوضيح ذلك بالنص القائل : « إن حق الملكية هو فوق أي قيد دستوري » وهذا الحق ، يتضمن ، بلا شك ، حق ملكية العبيد كما تُملك الحيوانات والآلات ، وهكذا يعمد الرجال الذين أعلنوا على العالم كله الحق في الحرية والمساواة ، إلى تسوير تلك الكلمات بحدود وقيود تفرغها من معناها الحقيقي .

الحق والقانون

غير أن ثمة أصواتاً أخرى ترتفع ، بلا انقطاع ، من أجل استمرار الحلم الأمريكي وبقائه ، ومن أجل كرامة أمريكا على السواء ، مُدنية هذا الدجل . وأولها كانت أصوات العبيد أنفسهم الذين ثاروا محاولين الحصول على حريتهم^(٨) ، بلا جدوى ، ثم البيض بعدهم ، الذين كانوا ضد الرق والعبودية . ويقول هنري ثورو : (١٨٦٢ — ١٨١٧) إن على المواطن أن يحترم الحق أكثر من القانون . ويخلص إلى

(٧) Thomas Hutchinson, *Strictures upon the Declaration of the Congress at Philadelphia: In a Letter to a Noble Lord, Londres, 1776.*

(٨) المصدر ذاته الفصل الثالث .

الاستنتاج بقوله: «أي موقف يستطيع أن يتخذه في أيامنا مواطن، من الحكومة الأمريكية؟. إنني أجيب أنه لا يمكنه التضامن وإياها، إلا إذا غامر بتلطّيح شرفه.. فلا أستطيع، حتى خلال دقيقة واحدة أن أعدّ هذا التنظيم السياسي حكومتي عندما يكون في آن واحد حكومة القن»^(٩)، والشبان الأمريكيون البيض الذين يناضلون في سبيل حقوق السود، ويحفظهم المثل الأعلى ذاته، رفضوا الاشتراك في الحرب الفيتنامية، وهم يطرحون فكرة Thoreau تورو، الوفية لروح بيان إعلان الاستقلال، ويتابعون كفاحه. فمثلما فعل تورو، أراد—قبله—الأمريكيون الذين حاربوا إنكلترا، أن يتفوق الحق الطبيعي على قانون يخضعهم للتاج البريطاني. غير أنهم ما كادوا يحصلون على سيادتهم، حتى صاغوا عقيدتهم الخاصة التي تنتهك بقبولها الرق، الحق الذي يطالبون به لأنفسهم، بسن قوانين جائرة. فلم يكفهم الحصول على حذف الفقرة التي تدين النخاسة وتحرمها، بل عمدوا إلى إفراغ العبارة المتعلقة بالحرية والمساواة من معناها، والتي ظن جيفرسون أنه بوجودها في الدستور، يُبقي على الجوهر والأساس. وراح أولئك الأمريكيون يقولون إن هذه الأفكار ليست أمريكية حقاً، وإذا كانت قد وجدت في إعلان الاستقلال، فذلك لأن جيفرسون قد وقع تحت تأثير الفكر الفرنسي. وأفضل من يعبر عن رد الفعل هو جيمس. ه. هموند (James H. Hammond) حاكم ولاية كارولينا الجنوبية (١٨٤٤ — ١٨٤٢)، إذ يقول: «هذا الكلام في موضوع الحرية والمساواة لم يكن إلا عبارة من تلك العبارات الرنانة، التي تميزت بها الفلسفة الفرنسية العاطفية الرقيقة، التي شاعت كثيراً في ذلك العهد، والتي أدت بعد ذلك إلى نتائج دموية جداً»^(١٠). وفي رأيه أن الإرهاب وإلغاء الرق اللذين أقدمت عليهما الثورة الفرنسية منبثقان من فكرة ضارة واحدة.

أما الحاكم هاموند، المذكور، فهو لا يستسلم «لفلسفة عاطفية» وقد أنتخب عضواً في مجلس الشيوخ، عندما كانت تقوم كل الدلائل النذيرة بحرب الانفصال، ودخل التاريخ بخطابه المشهور: «القطن ملك»، وقال إن زراعة القطن تتطلب عمل العبيد. والمصلحة الاقتصادية تتقدم الحرية ولها الأفضلية، وهذا ما اكتشفه، في تاريخ لاحق، العمال البيض، في منتصف القرن التاسع عشر، في الشروط الرهيبة التي كانوا يعملون فيها بأجور بائسة، وهم خاضعون لاستبداد أرباب العمل وسلطتهم المطلقة،

(٩) Writings of Thoreau (edit. de 981906) Civil Disobedience, t.IV, P.360.

(١٠) كارل بيكر، إعلان الاستقلال. للنشر Seghers—باريس ١٩٦٧ ص: ١٥٨.

بموافقة الديمقراطية ، وأدركوا أن المجتمع عينه ، ومفهوم التقدم والنظام والسلطة أيضاً هما ، وفي آن واحد ، اللذان يخضعان ، السود للعبودية بكل معانيها ، والعمال « لعبودية الأجر » كما سموها .

ميزة الحرية

كان لا بدّ من كفاح دام مئة عام ، كي تصل قلة أمريكية إلى التفكير في أن هذا المجتمع لا قبل له بأن يعيش نصف حر ونصف عبد . غير أن هذا التيار اصطدم حينئذٍ بالفكرة التي لم تكن تسيطر على الجنوب فحسب ، بل على قسم كبير من سكان الشمال ، وقد صاغ هذه الفكرة ، وعبّر عنها بوضوح تام جون . س . كلهون (John C. Colhoun) الذي شغل مناصب كبيرة متعددة ، إذ كان وزيراً للحرب ، ثم نائباً لرئيس الولايات المتحدة ، وعضواً في مجلس الشيوخ عن ولاية كارولينا الجنوبية . وهو ، فيما كتبه عن العبودية والحرية ، يعبر عما يريد بأقوال تبلغ من الشمول ما يرفعها إلى مستوى نظرية لا تنطبق على السود وحدهم . ذلك أن القضايا التي يعالجها تعني المجتمع بأسره ، والشعوب كلها وتهمهم ، وهو يرى أن العامل « الأساسي » في التقدم يكمن في « الرغبة التي يملكها كل فرد بتحسين حاله » ، والفرد لا يستطيع سدها وإشباعها إلا إذا ملك حريته . ليست هذه الحرية إذاً ، حقاً أساسياً في نظره ، بل وسيلة ووساطة لتطور الإنسان . وما كتبه : « إنه لخطأ كبير وفادح التأكيد أن جميع الشعوب سواسية في حقها من الحرية ، لأن الحرية مكافأة ينبغي أن يستحقها من يبتغيها ، وليست بركة تسبغ على الناس جميعاً بلا تمييز » . غير أنه لا يقول أن للبيض وحدهم الحق في الحرية ، بل يقول إنها « وقف على الرجال الأذكياء ، من المواطنين الصالحين ، ذوي الفضائل والمناقب ، وليست هبة يُمنحها شعب جاهل بلغ من الانحطاط والولوغ في الرذيلة ما يحول دون قدرته على التمتع بها » (١١) .

هذا النص يُعرّف فلسفة كل « الدكتاتوريات الخيرة » تعريفاً جديراً بالإعجاب... فالقائمون على السلطة ينتحلون لأنفسهم الحق في فرز من تتوافر فيهم — من جماهير المواطنين جميعاً — المعايير والشروط التي يحددها ويعرفها

(١١) مؤلفات جون كلهون — الجزء الأول ص : ٥٥ . Works Of John C. Calhoun .

كالهون Calhoun ، أي الذين تكون الحرية حقاً لهم دون غيرهم ، وينبغي لهؤلاء أن يكونوا :

— « مثقفين » ، إذ بعد تحرر العبيد ، وحتى منتصف القرن العشرين ، كان وجود اسم المواطن على اللوائح الانتخابية ، في عدد من ولايات الجنوب ، مرهوناً بنجاحه في « اختبار » مستواه العلمي ، وكان يقوم بذلك موظفون في المجالس البلدية ، هم — غالباً — جهلة .. وهكذا كان يُحرم من حق الانتخاب والتصويت أساتذة سود ، بينما كانت تظهر على اللوائح أسماء سود « جيدين » لا يكادون يعرفون القراءة ، وعند الاقتضاء كان يُحرم منها بيض عُذّوا مخربين ، في هذه الحال ، يعلن الموظفون المذكورون أنهم أميون .

— « مواطنين صالحين » : الجديرون بهذه الصفة هم المواطنون الذين يلتزمون بوجهة نظر الأغلبية ، أو بوجهة نظر القائمين على السلطة . وهكذا كتب الحاكم هاموند Hammond ، يقول : إن جيفرسون وأصدقائه يريدون أن يبدو « بمظهر المواطنين » ، من الطراز الأول ، إلا أنهم بعدما اتدفعوا وراء غضبهم على إنكلترا ، وأكثر من ذلك ، بعدما أثرت فيهم أفكار عصر النور « لم يكونوا في الشروط الفضلى التي تصنع الفلاسفة » . فينبغي إذاً ، أن لا نحمل كثيراً ، على محمل الجد ، آراءهم التي ستؤدي بأمريكا إلى الدمار . وسيكون الفوضويون والاشتراكيون ومحبو السلام والمناضلون النقييون : الذين سيطرحون في السجون ، مثلهم أذى وخطراً . أما الرجال الذين لاحقتهم « المكارية » ، فقد بلغت بهم الرذيلة حداً جعلهم يخونون أمريكا ، وسينالهم العقاب . ثم أن رتشارد نكسون وسبيرو أغنيو . (Spiro Agnew) لم يترددا في الإشارة والتلميح إلى أن المثقفين من معارضي الحرب الفيتنامية خونة .

— « فضلاء » : إن أحصاء جيفرسون يتهمونه بالإلحاد والفسق ، فالأخلاق الطهرية تبلغ من الصلابة مبلغاً يجعل النجاح المادي مكافأة للفضيلة . وحينما تدعو الحاجة ، يطير « المراقبون » الجواسيس خفافاً إلى نصرّة العناية الإلهية ، لمعاقبة المنحرفين الآثمين المجرمين ، لا لأنهم رفضوا الانتماء إلى حلف وطني فحسب ، بل لأن لهم عشيقات ، ولأنهم يعاشرون أناساً ساديين في لهوهم . وهذا جورج بابت (Georges Babbitt) ينفضّ عنه زبائنه ، ثم يأتيه وفد من رجال الأعمال ، ليعلموه أن ما فعلوه به ، ليس سوى بداية^(١٢) . وأعضاء الحلف الوطني المذكور يجمعون على إدانة

(١٢) سنكلير لويس ، بابت (١٩٢٢) — الناشر — بانتام بوك . ص : ٢٧٧ .

« جرائم النقابات » و« مضار المهجرة » على التسبيح بنعمة « ملذات لعبة الغولف والسيرة الحسنة ، والأرصدة والحسابات المصرفية »^(١٣) .. وهذا هو قانون الأخلاق السياسي ! .. — « ذوي جدارة » . والجدارة هنا لا تُقدر إلا بمعايير موضوعية هي الثروة والنجاح المادي . والثروة والنجاح المادي اللذان يمكن أن ينالهما كل من يقدم على « عمل حر » ، يضيفان على صاحبهما مجداً واحتراماً . و« البارونات اللصوص » المعروفون في أواخر القرن التاسع عشر ، والمغامرون في ميادين الصناعة والمال ، ومورغان Morgans ، وغولد Gould ، وفاندريلت Vanderbilt ، وروكفلر . وغيرهم ، غدوا جميعاً من غير اللصوص والاحتالين لأنهم أثروا ، ورثارد نكسون لا يرى ما يخرجه أو يضيئه في معاشره رجل مال وغد هو « بيب » روبوزو Rebozzo (Bebe) .

وتعريف الحرية ، كما يراه كلهون Calhoun ، هو تعريف الحكام المستبدين والرجعيين جميعاً لها . ولما توضح هذا التعريف ، عند الخلاف الكبير على العبودية ، أضحي من المتعذر توجيهه إلى السود وحدهم : ومن البدهي أن يعنهم ويقصدهم ، لأنهم ، دون الناس جميعاً ، « جهلة » و« أوغاد » و« منحطون » ، إلا أنه ينطبق على سائر المواطنين ، أيّاً كان لونهم . ففي نهاية القرن التاسع عشر (في الولايات المتحدة) ، صار العمال ، بدورهم ، جهلة ، ذهبت بعقولهم وأخبلتهم ساعات العمل الاثنتا عشرة والخمسة فأية حرية يتجرؤون على المطالبة بها ؟ ..

الحق في التفاوت (اللامساواة)

إن رسم حدود الحرية لا يكفي لتحديد نظرية إجتماعية ، لذلك يعتمد جون كلهون ، وهو الناطق الأمين باسم الفكرة السائدة ولسانها ، إلى دراسة الحرية ، في علاقاتها بالمساواة ، فقد كتب يقول : « يتباين الأفراد بعضهم عن بعض ، ذكاءً ونفاذ بصيرة وطاقات ، وجلداً ومثابرة وكفاءة ، كما يختلفون في العادات المتبعة في العمل والاقتصاد واللياقة البدنية ، وفي الظروف والفرص التي تُتاح لهم . وينجم عن ذلك أنهم ، إذا ما أُتيحت لهم حرية السعي في تحسين شروطهم ، فلا بدّ من أن يتأتى عن هذه الفروق تفاوت ما وعدم مساواة . » .

فالتفاوت الاجتماعي والاقتصادي يتمتع إذاً بكل ما يملكه قانون من قوانين

(١٣) المصدر ذاته ص : ٣٩٤ .

الطبيعة ... وتلك التفاوتات والفوارق ، لا تنجم إذاً عن السرقة ولا عن الفساد والحظوة السياسية ، إنما هي من طبيعة الأشياء ، والوسيلة الوحيدة لمكافحتها قد تكون « إما بفرض تنازلات على المواطنين الأكثر كفاءة تجعلهم لا يتفوقون على من هم دونهم كفاءة وحظوة ، وإما بتجريدهم من ثمار جهودهم . » إن تدخلاً كهذا سيكون جائراً في الأخص ، .. لكن « كالهون » يخصصه بملاحظته قائلاً إنه « سيهدم الحرية ، ويوقف سير التقدم » . وإذا كان ينبغي أن يكون المواطنون جميعاً متساوين « أمام القانون » ، فلا بد من التخلي عن فكرة « تكافؤ الشروط والفرص » بينهم .

وهكذا ، ما دامت الفوارق الاجتماعية والاقتصادية أمراً لا بد منه ، فهي تفسح المجال واسعاً لحب البشر ، ثم ببطء ، إلى تدخلات من قبل الدولة يُدينها بحدة وعنف أبطال « الأمركة » . وما لا شك فيه ، أن تدخل الدولة ينسجم ورؤية ما للحلم الأمريكي ، عندما تتيح هذه الدولة لمواطنين « جيدين وفضلاء وأكفاء » ، تحقيق الإزدهار والنجاح في أعمالهم ، بفضل العمل الذي يقوم به « الشعب الجاهل » ، وذلك عندما تعتمد إلى رفع الرسوم الجمركية ومنح الأراضي ، وفرض الضرائب . الخ .. وعلى هذا الشعب الجاهل تندفع ميليشيا الجيش ، إذا ما تجرأ على الإضراب . إن تاريخ الحركة العمالية الأمريكية ، الدامي ، ماثل هناك ليذكرنا بأن على أضعف المواطنين أن « يستحقوا » هذه الحرية التي ستتيح لهم « تحسين أحوالهم » .

إن جون كالهون John Calhoun ، هو تاريخياً ، على صواب ، عندما يقول إن الحرية ليست « هبة تُمنح » . فإنك لترا لم تقدم للولايات المتحدة استقلالها منحة ، بل انتزعت هذه كفاحاً وغلاباً . وأمريكا البيضاء لم تمنح للسود المتحررين المساواة منحة ، فهم لا يزالون يقارعون للحصول عليها . وإنه لقتال دامٍ ذاك الذي أشعل حرائق في جميع المدن الكبرى . وأمريكا « ذات الفضيلة والجدارة » لم تمنح النقابات حقوقها ، وقد توقفت هذه عن إحصاء عدد مناضليها المقتولين اغتيالاً ، فاللائحة ، خلال قرن ونصف القرن من النضال العمالي ، ستكون جدّ مديدة ... وظلت متوقفة حتى اليوم الذي اعترف فيه العهد الجديد النيوديل New Deal ، ١٩٣٥ بأن وجود النقابات هو وجود شرعي .

وهكذا ، بينما كانت أمريكا ، ثرية وقادرة ، تشد على الحلم الأمريكي الخناق محاولة ، بهياج وعصبية ، إفراغه من كل أمل ، كانت أمريكا أخرى ، أكثر « أمركة »

وأكثر أمانة، ووفاء لروح نص لإعلان الاستقلال، تسعى، بصبر وعناد، وغالباً بعنف، إلى رد الحياة لحلم الحرية والمساواة. وهو سعي أشبه بسعي النملة لتسبق جبابرة الصناعة الذين استطاعوا سبيلاً إلى وضع كل قدرة جهاز الدولة في خدمتهم. غير أن جهاز الدولة هذا ينتقل أحياناً من معسكر إلى آخر، لمراحل قصيرة الأمد، وعندئذ تُتاح الفرصة لترسيخ انتصارات أولئك الذين ما يمسوا قط من الحلم. إلا أن التاريخ كان قاسياً عليهم، فقد أساء معاملتهم ولا يزال يسيئها.

مع الاستقلال الوطني، حصل صغار المزارعين والحرفيون وكل من لا يملك—فيما حصلوا عليه من «حقوق ثابتة»—، على الحق في «لامساواة» مزدوجة، أي ليس على «لامساواة» اقتصادية فحسب بل، في الأخص، على التفاوت وعدم المساواة في ممارسة الإنسان حريته، وعلى هاتين الجبهتين، يقاتل الأمريكيون، منذ قرنين من الزمن في سبيل إنقاذ حلمهم.

النظام والسلطة أولاً

أولئك المناضلون لإنقاذ الحلم، يقف في وجههم أناس لا يستطيعون الاكتفاء بإنكار الحقوق التي ضمنها بيان الاستقلال إنكاراً عملياً، ينكرونها مبدئياً أيضاً. وأقوى النصوص حجة بين التي كُتبت لتدين الروح العامة السائدة في بيان إعلان الاستقلال منذ نشره، هو، بلا شك، النص الذي حثت الحكومة البريطانية المحامي الإنكليزي جون ليند John Lind، على كتابته^(١٤). وهو نص أو بالأحرى دراسة لا تقتصر على دحض الاتهامات الموجهة إلى إنكلترا، بل تتوخى أيضاً، وفي الأخص، الدلالة على أن المثل الأعلى الذي يستوحيه البيان لا يقوم على أي أساس متين، وعلى أن الحقوق الممنوحة للمواطنين لا تتوافق وممارسة السلطة ممارسة طبيعية، حتى لو تألف الحكم وقام بموافقة المحكومين. فالرؤية الأمريكية هي، في نظر المحامي الإنكليزي المذكور، رؤية طوباوية: فإما أن يمارس المواطنون حقوقهم، وفي هذه الحال يزول إمكان وجود الحكومة، وإما أن تقوم الحكومة بواجبها، فلا تحترم حقوق المواطنين هذه. وهذا ينطبق على كل ما عُرف، (حتى ذلك العهد)، من أشكال الحكم، وعلى كل شكل قد يستطيع الإنسان سبيلاً إلى تخيله في المستقبل. ثم يقول جون ليند John Lind، وفي

(١٤) نُشر في لندن في العام ١٧٧٦ تحت عنوان: «سؤال عن إعلان (بيان) المؤتمر الأمريكي».

كل الأحوال، «إن أي حق من هذه الحقوق التي يزعمون عدم جواز المساس بها، يُمس ويُسلب في الواقع»، ولا مفر من ذلك.

فمثل الثورة الأمريكية الأعلى يتضمن إذاً، في ذاته، خطراً على كل حكومة لا سبيل من دونها إلى وجود المجتمع واستمراره. ناهيك عن أن من يدعو إلى هذه الفرضية، هو البلد الذي تزعم أمريكا على انتزاع استقلالها منه. والأجدر بالملاحظة ولفت النظر، هو أن أشخاصاً لهم تأثيرهم، ومن ناضلوا في سبيل استقلال الولايات المتحدة ما لبثوا أن أخذوا هذه الفرضية على عاتقهم وتبنوها. لقد كان تأكيد حقوق الكائن البشري أمراً لا بد منه لتعبئة شعب بأسره في الكفاح والوقوف في وجه إنكلترا، إنما، بعد النصر، عمد القائمون على السلطة والنظام إلى تثبيت عزيمة هذا الشعب، ليستطيعوا أن يقيموا، على قواعد متينة، سلطة الحكومة الحديثة العهد بالاستقلال التي كانوا يغذون السعي لتنظيمها آنذاك.

هذا المفهوم لا يشوبه شيء من الخطأ، مادام النزاع بين الحرية والسلطة مستمراً وعالمياً، إلا أنه يغدو واهياً عندما ينزع إلى التقلص داخل خيار لا بد منه هو: إما الحرية، وإما السلطة. (إما حرية بلا سلطة وإما سلطة بلا حرية). وهكذا تضع الديمقراطية الإنسان أمام تحد دائم، وتوجهه إليه: فالتوتر الحتمي بين حريات المحكومين، وسلطة الحاكمين يؤدي إلى توازن هو دائماً غير مستقر، وينزع بلا انقطاع إلى تقدم المجتمع، وتقدم الناس الذين يتألف منهم المجتمع. أما الذين تعينهم وتقلقهم طريقة ممارسة المواطنين حرياتهم، فهم لا يترددون في التنديد بالفوضى وبيرون سلفاً، كل أنواع الاستبداد وأنظمتها. إذ ما كاد الوجهاء الأمريكيون يسكون بقبضتهم استقلالاً جد حديث حصلوا عليه بمشقة وعناء، حتى راحوا يطالبون بسلطان قوي يحمي حقوقاً لا تزال هشة وضعيفة. ورغب الكثير منهم في إقامة نظام حكم ملكي، ليتلاشى الحلم الأمريكي إذا ما فازوا بذلك. ووقف في وجههم جمهور الرجال من الطيبين الذين لا يملكون، بلا ريب، الثقافة والفضيلة اللتين يجعل جون كالهون الحق فيهما مرتبطاً بالحرية (يجعلهما شرطاً لاكتساب هذا الحق). إلا أن هؤلاء هم الذين أنقذوا الحلم: ولم يستجب أولو الأمر لمطالبهم، ولم يمنحهم حقوقاً، إنما سلموا بها وقبلوا، بكثير من الحذر وبغير طيبة خاطر، في أحيان كثيرة، وعندما لم يكن ميزان القوى يُتيح لهم سلوك مسلك آخر.

ولم يكن مزاجهم وحده يدفعهم إلى إثارة السلطة على الحرية ، فهم رجال مال
لأولو أمر فحسب ، يهتمون بالسهر على مصالحهم الشخصية وعلى ما هو ، لخير
الوطن ، في آن واحد! ..

من « الملكية » إلى الجري « وراء السعادة »

إن ما يُفاجئنا ، في مقدمة بيان إعلان الاستقلال ، ليس هو تأكيد مبادئ
وأفكار كانت معروفة وحديث الناس منذ زمن طويل ، كالمساواة بينهم وحقوقهم في
الحرية ، لا ، بل إن ما يُذهل حقاً هو أن هذا النص الواسع الجريء يتجاهل تجاهلاً تاماً
حقاً أصبح فيما بعد ، مذهب المجتمع الجديد وعقيدته ، وهو حق الملكية . فإنك لترا ،
حين خرفت مبدأ « لا ضرائب بلا تمثيل نيابي » كانت تريد ، بلا ريب ، أن تفرض على
المستعمرات أعباء إضافية لتمتص الديون التي خلفتها لها حرب السنوات السبع ، فتمس
بهذه الضرائب مصالح المستعمرات . لكن جورج واشنطن يؤكد ويوضح أن
الموضوع ليس موضوع « ضريبة شاي مقدارها ستة قروش على ٥٠٠ غ » . فصميم
الخلافا ليس مسألة مال ودراهم ، بل قضية مبدأ . ويضيف واشنطن قائلاً : « إن ما
ننكره هو هذا الحق وحده » الحق الذي تنتحله إنك لترا بفرض الضرائب على
المستعمرات التي لم تكن ممثلة في البرلمان البريطاني . وإن أمريكا حين خاضت
الحرب ، لم تفعل ذلك من أجل مصالحها المادية . هذه الكلمات لا وجود لها في بيان
إعلان الاستقلال الذي وردت فيه ، مرات عدة ، كلمة « اغتصاب » ، فما الذي
يُغتصب ، إن لم يكن حقاً من الحقوق ؟ ..

وإذا لم يذكر حق الملكية في هذا البيان ، فالفضل في ذلك يعود إلى قلم
جيفرسون . فلسنة خلت وفي أثناء انعقاد المؤتمر الأول ، أجمعت المستعمرات موحدة
كلمتها ، على نص صاغه جون أدامز John Adams ، جاء فيه : « إن للأمريكيين حقاً في
الحياة والحرية والملكية » وأثر جيفرسون الصيغة : « الحياة والحرية وطلب السعادة » .

تأثير الصدمة مزدوج إذاً : رجال يؤكدون أنهم لا يقاتلون لتحقيق مصالح
شخصية ، بل في سبيل مبادئ ، منها مبدأ يبعث الحيرة والدهشة ، بما يتسم به من

(١٥) من رسالة جورج واشنطن إلى بريان فاكس Bryan Fairfax كتابات واشنطن بوسطن
١٨٣٤ — الفصل الأول ص : ٣٩٢ .

الجلدة المطلقة، وهو الحق في السعادة. وبعد هذا النص بقليل، يذكر الإعلان أن «الشعب سينظم السلطات حسب الصيغ التي من شأنها، في رأيه، تحقيق أمنه وسعادته». فنص جون أدامز المذكور كان يعبر عن اهتمام الوجهاء، بينما يجعل جيفرسون، من نشدان السعادة فكرة ثورية. وكما يرى جيفرسون، لسنا بصدد حق ثانوي. وقد كتب يقول: «إن الغرض القويم الوحيد في تأسيس حكومة هو أن يتحقق للجماهير أعلى مستوى ممكن من السعادة... لكن ما هي السعادة؟».

لم يف أي تعريف من تعاريف جيفرسون لها بمرامه^(١٦). وإذا كانت مبادئ الحرية والمساواة لا تمتنع عن تفاسير جد متباينة، فهل ثمة استطاعة أو إمكان إلى تحديد محتواها؟ أما السعادة؟.. فكيف السبيل لحاكم من الحكام إلى التشريع فيها وسن القوانين؟.. وأي صلات يمكنها أن تقوم بين السعادة الفردية وسعادة المجتمع؟ وقبل محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة، يكفي الانتباه إلى أن هذا «الحق في السعادة»، قد حمل على أكبر محمل من الجدد، وإلى أن ثمة أمريكيين، اليوم، يأخذون على جيفرسون ما كتبه فيها. وقد كتب أحد المعاصرين يقول: «موطن السخرية في الموضوع يكمن في أن نشدان السعادة هو الذي يسبب الشقاء، ويجعلنا أشقياء لأن هذا المسعى وراء السعادة زجنا في سباق مدمر، هو الجري وراء المال... وفي السعي المسعور وراء ضروب من اللهو واللعب لا مفر من أن تفصلنا بعضاً عن بعض»^(١٧).

وإذا ما استطاعت حكومة ما أن تسبب شقاء الشعب، فما يُشك فيه هو أن تكون سعادة المحكومين منوطة بهذه الحكومة وحدها، كما أن مما يُشك فيه أيضاً أن امرأ يجعل من الجري وراء السعادة غرضه الأساسي والأولي، سيتمكن من الوصول إليها. وكما لاحظ الكاتب المعاصر ذاته، أن الجري وراء السعادة آل إلى مصدر منافع هائلة. لكن قبل أن يضحى كذلك، كان اهتمام المجدودين، الذين أتاح لهم الثروة حرية لم ينلها أو يعرفها الكثيرون حرماناً، بالسعي وراء السعادة التي يتحدث عنها بيان إعلان الاستقلال، أقل من اهتمامهم بحقوقهم كملاكين.. وهي حقوق لم تُذكر في الإعلان، وقد اصططنعوا، بكل ترو، تحالفاً وثيقاً ودائماً بين الملكية الخاصة والسلطات

(١٦) مما كتب جيمس ويلسون في كراسه «نظرات في طبيعة السلطة التشريعية وتطورها في البرلمان البريطاني» يقول: سعادة المجتمع هي القانون الأول لكل حكومة...

(١٧) أناثا بلور فليمنغ—Taylor (The Jefferson Swimille): Fleming (The Jefferson Swimille): ١٠ آذار ١٩٧٥.

العامة، فالسعادة في نظرهم تحتاج إلى نظام، والنظام لا سبيل إلى إدراكه بلا سلطة، وهذه السلطة تقوم على التفاوتات الاجتماعية—الاقتصادية وترعاها: وهكذا كانت حرية الشعب وسعادته أول ضحايا هذا النظام البورجوازي الذي تمخض عنه الكفاح الثوري.

إن الامتناع عن كل إدانة صريحة للرق والعبودية، قد وسم بالهشاشة تلك الحرية التي وعد بها إعلان الاستقلال. وعلى النقيض، لم يحل الامتناع عن ذكر حقوق الملكية المقدسة دون تقدم هذه الحقوق على الحق في السعادة المُعلن عنه رسمياً. فبإحلال مبدأ آخر في إعلان الاستقلال، لم يكن جيفرسون ليستطيع الأمل بتغيير ترتيب اهتمامات أولي الأمر. فهؤلاء الوجهاء «الأذكياء»، والمواطنون الصالحون، والفضلاء وأصحاب الجدارة، يملكون تعريفهم الخاص لسعادتهم الشخصية، ومآل هذا التعريف هو أن عليهم، وهم القابضون على القدرة الاقتصادية، أن يسيطروا على السلطة العامة التي يستطيعون وحدهم استخدامها استخداماً حسناً، كما يجزمون.

واجب التمرد

هناك التباس آخر في إعلان الاستقلال، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالالتباسات السابقة المذكورة، وهو أن الإعلان ينادي بمبادئ عامة. لا تنطبق على الأمريكيين وحدهم، بل على شعوب العالم كلها، بينما يضرب صفحاً—وباللعجب—عن صلات أمريكا بسائر البشر. وليس في الإعلان سوى جزء واحد من جملة، في الخاتمة، يشير إلى دور الولايات المتحدة العالمي «التي بوصفها ولايات حرة ومستقلة، تملك الحق الناجز في إعلان الحرب ونخوضها وإبرام الصلح، وعقد الأحلاف، وإقامة علاقات تجارية، والقيام بكل عمل آخر تتحَوَّل الدولة المستقلة القيام به». أما لأي غاية؟.. فليس في النص ما يُتيح تخيل ذلك، إذ يبدو أن إمكان التصرف تصرف دولة مستقلة، قد عُدَّ هدفاً قائماً في ذاته. وهذا، بلا شك، مطعم قاصر لبلد يدعو شعوب الأرض الأخرى إلى الأخذ بالمبادئ التي يقيم عليها ثورته: فالشعوب تملك حقوقاً لا يجوز مسها، وإذا ما هددها «حكم استبدادي مطلق». فعندئذٍ وبلا أي تردد، «من حقها، بل من واجبها أن تطيح بالحكومة». إن ما يدعو إليه بيان إعلان الاستقلال هو الثورة العالمية.

من هنا . من هذه الجملة الصغيرة ، ولدت الفكرة التي لا تزال نابضة بالحياة ، هي أن الولايات المتحدة كانت تشعر ، ولا تزال ، بحملها رسالة عالمية . إلا أن هذه الرسالة الديمقراطية ، اصطدمت على الفور بواقع مرير ، وهو وجود أقوام هندية على الأرض الأمريكية ، اتخذت لنفسها التنظيم الإجتماعي وأسلوب الحكم اللذين اختارتهما . وبعد الاستقلال أقصي هؤلاء الهنود إلى الشرق ، كما كان يحل بهم في أثناء حكم المستعمرات . ثم اضطروا ، وقد انسحقوا أمام قوة البيض ، إلى توقيع معاهدات سلام لا يلبث البيض أن يخرقوها . وهكذا كانت القبائل تنور الواحدة بعد الأخرى ، غير أن أمريكا ، المستقلة ذات السيادة ، ما كانت تعترف لهم بحقوقهم في الفرد أو العصيان ، ولا بواجب التمرد ، الذي نادى به على العالم أجمع ، بل قهرتهم عنوة واقتداراً .

إن الدولة الحديثة (الولايات المتحدة المستقلة) تحتاج إلى أراضي واسعة ، فأمریکا ، كما كتب واشنطنون إلى لافاييت ، تطمح إلى أن تصبح ، في يوم آت ، بلداً له « وزنه على مستوى الإمبراطوريات » . هذه الكلمة ، الأخيرة ، التي ما فتئت تتردد وتكرر في خطب العصر ومراسلاته ، لتعبر عن ظمأ للقوة حقيقي لا أثر له في بيان الاستقلال . والحرية والقدرة ، إن لم تنف كل منهما الأخرى ، فقد كانتا دائماً تتأذيان من السير معاً منسجمتين . ولادة الإمبراطورية الأمريكية حملت معها ، في آن واحد ، تاريخ أول ملحمة هندية .

غير أن للهنود ميزة لم تُمنح للأرقاء السود ، هي أنهم ذُكروا في بيان « إعلان الاستقلال » . ففي لائحة « المظالم والغضب والعدوان » المديدة ، التي اقترعها « الجالس اليوم على عرش بريطانيا العظمى » توجد هذه المظلمة التي تبرز مع الكثير من مثيلاتها ثورة الأمريكيين ، وهي أن ملك إنكلترا « قد سبب وأثار أعمال تمرد داخلية وبذل جهده ليثير علينا سكان تخوم بلادنا ، الهنود المتوحشين القساة ، الذين تقضي قاعدة الحرب عندهم بإبادة الناس ، من مختلف الأعمار ، بلا تمييز بين جنس وحالة » . وهنا لا مجال للبس أو غموض : « فهؤلاء المتوحشون القساة الجهلة » لا سبيل إلى تشبيههم ومقارنتهم بالرجال « الفضلاء ذوي الجدارة » الذين يقف عليهم جون كاهون الحق في الحرية . وكذلك شأن المكسيكيين ، في العام ١٨٤٨ ، الذين اغتصبت الولايات المتحدة تحمسي أراضيهم . وبعد مضي نصف قرن على ذلك . أخضعت « آخر الفاكة الفاسدة » من الإمبراطورية الاسبانية ، أي كوبا ، وبورتوريكو ، والفيليبين ، للسيطرة الأمريكية . ثم باللجوء إلى ممارسة الحق في الثورة والتمرد ممارسة غير متوقعة ، أشعل

الأمريكيون نار الفتنة ليُتاح لهم الاستيلاء على منطقة باناما، ثم وجهوا أسطولهم البحري ليحتل بلدان أمريكا الوسطى والكاريبية، كل منها بدوره. فالولايات المتحدة، في مثابة رائعة على بذل الجهد، تشعل تارة نار الثورات، وطوراً تخمدتها، إلا أن كلا الطريقتين، تتيح لها إقامة حكومات تناسبها^(١٨).

هذه السياسة لا يشوبها شيء من الأنانية. ففي أيلول ١٩٧٤، برر الرئيس جيرارد فورد وزير شؤون خارجيته هنري كيسنجر الدور الذي قامت به الولايات المتحدة، قبل ذلك بمدة عام واحد، لقلب نظام حكم سلفادور اللندي: وكان رائدها مصلحة الولايات المتحدة—كما زعماء—، إنما كذلك، أيضاً مصلحة الشعب التشيلي!.. فهذه المصلحة هي جزء لا يتجزأ من الحقوق المقدسة المعدودة في إعلان الاستقلال: فليس النظام، الذي يوطده الجنرال Pinochet بينوشي (عميل الولايات المتحدة)، هو السائد في تشيلي، بل الحرية والمساواة!.. وإذا ما قُدر للتشيليين التصور أن من حقهم أو من واجبهم أن يثوروا على «الحكم الاستبدادي المطلق»، حكم العصابة المعروفة، فسيبرهنون على أنهم «شعب جاهل بلغ من الانحطاط أو الرذيلة ما يحول دون تمتعه بالحرية» التي أسهمت أميركا في حرمانهم منها، وسيستفض جون كاهون خارجياً من قبره ليذكرهم بذلك.

كأن الولايات المتحدة مسؤولة عن العالم كله. فهي، خلال ثلاثين عاماً، تستمر في توسيع «دور الشرطي» الذي قامت به أولاً في أمريكا اللاتينية ليشمل كوكب الأرض كلها. وهي، كي يُتاح لها ذلك، تُطيل بلا انقطاع. لائحة الأفراد الذين يستطيعون سبيلاً إلى إقامة «نظام حكم استبدادي مطلق»، هو النظام الذي أهاب إعلان استقلالها بشعوب الأرض قاطبة، أن تثور عليه. أما حقوق الملكية. التي لم يشأ جيفرسون أن يشير إليها، فهي تفوق في نظر الولايات المتحدة حق حرية الشعوب التي يحوي ظاهر أرض بلادها أو باطنها، ثروات أثارت لعب رؤوس أموال أمريكية. إن فصاحة العالم الحر وبلاغته قد غطتا، خلال ربع قرن، هذه السياسة الماضية في الاستمرار باسم «العالم المستقر» الذي يريد أن يبينه هنري كيسنجر. فما ينبغي أن يكون هذا «العالم المستقر»؟....

(١٨) الإمبراطورية الأمريكية، للمؤلف، الجزء الأول: «تاريخ الإمبراطورية».

يؤكد السيد هنري كيسنجر، مشيراً إلى الصعوبات الجديدة التي يواجهها الاقتصاد العالمي، أنه ينبغي أن «يحسب حساب الخبرة والتجربة، وينبغي التذكر أن العقيدة هي دليل قليل الأمانة»، في التفتيش عن الحلول. والتجربة تدلنا على «النظم الاقتصادية التي تكملت بالنجاح» وهي نظم البلدان الرأسمالية، وبالدرجة الأولى منها، اقتصاد الولايات المتحدة كما تدلنا «على التي أخفقت»^(١٩). ولنجاح الاقتصاد الأمريكي—حسب الأخلاقية الطهرية—دلالة تفوق سير الأعمال وتتجاوزها، كما تفوق وتتجاوز الميزان التجاري والسيولة النقدية، ويجب أن تصان هذه القوة الاقتصادية، لا لمصلحة الولايات المتحدة فحسب، بل لمصلحة العالم بأسره، أيضاً. ومباحثات الرئيس فورد وقادة أوروبا الغربية والشرقية واليابان، كما يقول هنري كيسنجر، موضعاً، قد «تناولت الأهمية الكبرى والأساسية التي يكتسبها اقتصاد أمريكي مزدهر، من أجل نهوض الاقتصاد العالمي»^(٢٠) ويضيف كيسنجر قائلاً: «لن نسمح أبداً بممارسة الضغوط التي تقوم بها تكتلات، كما لا نسمح بحملات الدعاوة التي تحاول دول عدة، بواسطتها، أن تبتز من الولايات المتحدة «منافع اقتصادية كبيرة». فهذه البلدان، عندما تسعى إلى إضعاف اقتصاد الولايات المتحدة، إنما تقوم، في آن واحد، بتجريب قواعد انطلاقتها وتقدمها هي، فالعالم بحاجة إلى أمريكا قادرة وواثقة بذاتها»^(٢١). فلتنتفهم إذاً شعوب العالم وتدرك الصعوبات التي يعانيها الاقتصاد الأمريكي، ولتنتع عن كل ما من شأنه أن يعيق تقدم هذا الاقتصاد وسيرو. هكذا نرى كيسنجر يُطالب البلدان المنتجة للمواد الأولية، وهو يقلب «الأخلاقية الطهرية» رأساً على عقب، بصورة عجيبة، كما يُطالب معها البلدان التي تعج بفروع الشركات المتعددة الجنسيات أو البلدان التي تتحمل صدمة التضخم الأمريكي، أن تطير لنجدة العناية الإلهية لتؤكد تفوق النظام الاقتصادي الأمريكي ومزاياه، وأن ذلك جدير ببعض التوضيحات.

فالرسالات (الخيرة) لم تمت إذاً، واهتمامها بمستقبل الديمقراطية أقل من اهتمامها بإزدهار أمريكا الذي ينبغي لجميع قارات الأرض أن تسهم به: إنها الرسالة المقلوبة. فالدكتاتوريات العسكرية التي تدعمها الولايات المتحدة في العالم تناقض روح

(١٩) من خطبة لكيسنجر في ١٤ تموز ١٩٧٥، في معهد الشؤون الدولية لجامعة وسكونسن.

(٢٠) من خطبة كيسنجر في ١٤ آب ١٩٧٥ في برمنغهام، في مؤتمر متجى المواد الأولية في الجنوب.

(٢١) خطبة له أيضاً في ١٤ آب ١٩٧٥.

إعلان الاستقلال الأمريكي وما جاء فيه من مبادئ الحرية والمساواة والسعي وراء السعادة،.. إلا أنها لا تناقض اهتمامات الأمريكيين الذين أرسوا قواعد المجتمع وقواعد الحكم في الولايات المتحدة، بعد هزيمة إنكلترا، وثبتوا حقوق الملكية، كما ثبتوا ووطدوا النظام والسلطة ! ...

المجاهبة

الدول جميعاً تعيش تناقضات كتلك، بين المُثل التي تنادي بها وبين واقعها التاريخي، والولايات المتحدة لا تنفرد، وحدها، بهذا النقص أو الاعوجاج، فهو قائم في جميع البلدان، الرأسمالية وغير الرأسمالية، والديمقراطية وغير الديمقراطية. وهي كلها تتجاهلها آمالها من جهة ومصالحها القريبة من جهة معاكسة، وتتنازعها حقوق المواطنين ومصلحة الدولة والتطلعات العالمية والشمولية والمتطلبات القومية والمحلية.

وفي أمريكا، كما في سواها، بذل أناس أقصى الجهد، ليخضعوا إلى مصالحهم وإلى أرائهم المبتسرة الحلم الذي كافح في سبيل بقائه وحياته رجال آخرون، ومنذ قرنين والمجاهبة ذاتها مستمرة. وسنرى أن هذا الحلم قد طلع على الحياة قبل استقلال الولايات المتحدة ذاته، والأشكال التي يتخذها اليوم هذا الحلم، لا سبيل إلى أن تجد معناها أو معانيها، إلا في ضوء المعارك التي تقدمت الحلم وحددته إلى حد كبير، وتقويم الحلم الأمريكي في المجتمع القائم اليوم هو من الحال، إن لم يواجه هذا الحلم في مدة قرنين من التاريخ. ولقد قمنا بهذه النظرة إليه هنا، من زوايا أساسية أربع هي:

- النزاع بين الحلم الديمقراطي وإرادة قيام رأسمالية قديرة (الفصل الأول).
- النزاع بين الحق والحرية، وإرادة تفوق قوة دولة قادرة على توطيد سيادة القانون والنظام «Law and order»، (الفصل الثاني)، .
- النزاع بين المساواة (المساواة بين المواطنين) ومظاهر التمييز المختلفة (الفصل الثالث).
- النزاع بين عالمية الحلم المحتوى في الإعلان، وصيانة مصالح الأمة الاقتصادية (الفصل الرابع).

إن قضية أمريكا—إذا ما استشهدنا بتعبير جورج واشنطن—تتحد بقضية الإنسانية كلما تشبثت أمريكا بنقاء الحلم الأمريكي. ولكن أمريكا لا تتمسك كلها

بنقاء هذا الحلم . وكفاح الرجال الذين مازالوا على عهد الوفاء له والولاء ، لم تبلغ معرفة العالم به ما يبرر عرضه هنا . والذين يجهدون لخنقه ، لا يُفوتون فرصة يستطيعون أن يعزوا فيها لأنفسهم حمل أسمى مطالب هذا الحلم : لذلك كان ينبغي إلقاء بعض الضوء على هذا الكفاح الطبقي الذي تحيطه الدعاوة بالظُّلمات .

ولعل ارتباط سعادة الإنسانية بسعادة أمريكا ، هو أقل وثوقاً مما قاله لافاييت ، لكنها ترتبط ، بقدر واسع ، بتقلبات المجاهدة الدائمة بين أنصار الحلم وخصومه ، الحلم الذي طالما قُوبِلَ ولا يزال يقابل بالخيانة .

الفصل الأول

الرأسمالية ضد الديمقراطية

« إن أكثر أسباب النزاعات تكراراً وديمومة توزيع الملكية المتباين المجحف ، فأبداً ودائماً أقام المالكون وغير المالكين ، في المجتمع ، مصالح متنافرة ومتضاربة . كذلك يفترق الدائنون والمدينون افتراقاً مائلاً ، وهناك منفعة أرض ومنفعة صناعية ، ومنفعة تجارية ومنفعة مالية ، ومنافع أخرى دونها شأن ، لا بد لها جميعاً من أن تنمو بين ظهرائي الأمم والشعوب المتمدنة فتقسمها إلى طبقات متباينة . تحركها مشاعر ووجهات نظر متباينة . ومن تنظيم هذه المصالح والمنافع المتجابهة وتقنينها ، يتكون عمل التشريع الحديث ومهمته الأساسية ، ومنه تتسرب الروح التحزبية والنزاع إلى عمل الحكومة »

James Madison

جيمس ماديسون

« على الذين يملكون البلد أن يحكموه » ، هذا ما كان يقوله جون جاي Jhon Jay ^(١) عند قيام الجمهورية الأمريكية . وهو منهج بسيط وواضح ومتأسك لم يكن قد أنجز بتمامه عند احتفال الولايات المتحدة بمرور المئة الثانية على إعلان استقلالها . على أن الكثير من الناس كانوا ، منذ قرنين ، يشاركون جون جاي ، وجهات نظره . وهم على نقيض خلفائهم القائمين على الحكم في الولايات المتحدة ، ما كانوا يشعرون بأن ثمة حاجة إلى إخفاء معتقد راسخ أو تمويه : فالمل يحوّل كل من يملكه الحق الطبيعي في القيام بأسمى المسؤوليات ، والثروة تعيد لصاحبها الدور الأدق ، من كل الأدوار ، والقائم على قيادة الآخرين وحكمهم .

ما يصح في داخل المجتمع الأمريكي هو صحيح أيضاً على المسرح العالمي ، فإذا ما نقلنا مبدأ جون جاي John Jay على المستوى العالمي . أدى إلى التأكيد التالي : « إن منجزاتنا التكنولوجية وإنتاجية استثماراتنا الزراعية وصناعاتنا ، وشعبنا الصناعي المتعلم ، وما نملك من موارد وثروات طبيعية .. كل ذلك زودنا بالقدرة والإحساس بالمسؤوليات اللازمة للقيام بدور القيادة » هذا ما قاله هنري كيسنجر وزير خارجية الرئيس فورد في ١٤ آب ١٩٧٥ .

وهذا جسم ماديسون ذاته (James Madison) ^(٢) ، الذي كان يتخذ إلى جانب جيفرسون

(١) John Jay (١٧٤٥-١٨٢٩) ، محامي ، المسهم الأكبر في وضع أول دستور لولاية نيويورك ، عُين وزيراً للشؤون الخارجية ، ثم أول رئيس للمحكمة العليا في الولايات المتحدة .

(٢) James Madison (١٧٥١-١٨٣٦) « أبو الدستور » ، كان وزيراً للخارجية في رئاستي جيفرسون (١٨٠١-١٨٠٩) ثم رئيساً للولايات المتحدة مرتين (١٨٠٩-١٨١٧) .

وجهاً تقديمياً، يتمنى أن يصبح مجلس الشيوخ ممثل الملكية الكبيرة وحامياً من محاولات الذين ناؤوا بعبء مشقات الحياة وآلامها، فراحوا يتطلعون خفية إلى توزيع السعادة توزيعاً أكثر تساوياً^(٣). أما Gouverneur Morris^(٤) فهو يمضي أبعد من ذلك في المغالاة قائلاً:

« ما وجد قط ولن يوجد مجتمع متمدن بلا استقرائية ... ينبغي أن يكون عضو مجلس الشيوخ غنياً، وأن يتسم بروح أرستوقراطية وأن يُبدي أرستوقراطيته هذه بفخر واعتزاز .. كما ينبغي أن يكون مستقلاً، ولا سبيل إلى استقلاله إلا إذا سُمي عضواً في المجلس مدى الحياة ... قد يقول بعضهم، لكنه في هذه الحال، سيسيء. وهذا ما اعتقده بل ما أطمح إليه. إن الأغنياء يبدلون الجهود لتوطيد سيطرتهم ولوضع أعناق سائر أفراد الشعب في النير، هذا ما فعلوه وما سيفعلونه دائماً، والضمانة الوحيدة للوقوف ضدهم، هي أن يجعلوا منهم طبقة منفردة، لها مصالح منفصلة خاصة بها. وهكذا تستطيع القوات (قوة الشعب وقوة الأرستوقراطية) أن تتوازنا^(٥). إنما لابد من اختلال هذا التوازن بين الفقراء من جهة، والأغنياء من جهة ثانية، الذين عليهم أن يقرنوا بقوة المال قوة أخرى هي سلطات مجلس الشيوخ السياسية. فالحلم الذي كان يراود أناساً كهؤلاء، لا يدين بشيء ذي قيمة للديمقراطية. لقد قاموا بدور كبير في النضال من أجل استقلال الولايات المتحدة، لكن ما أن اهتز النير البريطاني، حتى تبدت رغبتهم في الاحتفاظ بامتيازاتهم الاقتصادية التي كانوا يستطيعون استخدامها بحرية أوسع، بعد تهرّبهم من الضرائب والقيود التجارية التي أقرها برلمان لندن، كما كانوا يرون أن النضال من أجل الاستقلال الوطني، لا يقترن أبداً بالنضال في سبيل مجتمع ديمقراطي. أما الآخرون الذين لا ثروات مادية عندهم يحمونها ويصونونها فقد كانوا، على نقيض الأغنياء، يستوحون رؤيا تغير جذري. وستظل الثورة الأمريكية تحمل من النزاع بين هذين الإتجاهين أثراً عميقاً.

من رجال النظام الأمريكي الذين قاموا بالدور الأول في الحرب، كان الذي يملك المفهوم الأوضح والأكمل، ينحدر من أسرة جد متواضعة، وبزواجه دخل المجتمع المالي الثري، وخدم مصالح هذا المجتمع بأفضل مما خدمه أبناء الأسر الغنية، وبنجاح وتفوق وفاعلية. كان نقيباً

(٣) Madison Papers، الجزء الثاني: ص: ٩٦٤.

(٤) G.Morris (١٧٥٢-١٨١٦)، اسمه Gouverneur كان محامياً، ثم عضو منتدباً للمؤتمر القاري، فوئراً (مفوضاً) في فرنسا، ثم عضواً في مجلس الشيوخ.

(٥) الجزء الثاني: ١٠٤٣، ١٠١٨، Morris، Cité In Madison Papers

Capitaine ، في سلاح المدفعية ، ثم عقيداً إلى أن أصبح مرافقاً للجنرال جورج واشنطن ، الذي عينه ، بعد ذلك وزيراً للخزانة في أول حكومة تألفت في الجمهورية الفتية . وفي وزارته هذه استطاع أن يرسى القواعد الاقتصادية لبلد لا يزال في أساسه بلداً زراعياً ، إلا أنه سرعان ما تصنع بتأثير هذا الرجل وقوة دفعه ، ولعله ، على انحذاره من أسرة فقيرة جداً ، أكثر اقتناعاً من أصحاب الامتيازات ، بأن « الأغنياء وأبناء الأسر الكبيرة هم وحدهم القادرون على النهوض بأعباء حكومة حسنة » (لأن التغيير لا يستطيع أن يحمل إليهم أي مكسب) ^(٦) هكذا كان الكسندر هاملتون Alexander Hamilton ، مؤسس الرأسمالية الأمريكية الحقيقي ، الذي سعى إلى تطبيق إجراءات الحماية الجمركية والنظام المالي للذين لا بدّ منهما لإزدهارها . وقد كان في حياته ، كما لا يزال في القرن العشرين ، مثالا لجميع الذين قدّر لهم أن يتحملوا أعباء الدولة .

لا غرو ، أن يعمد غيزو Guizot بعد أمد طويل وهو ، القائل : « اغتتوا أيها السادة » ، إلى إبداء إعجابه الكبير بالكسندر هاملتون وأن يقول عنه « ليس في دستور الولايات المتحدة مادة أو فقرة فيها عنصر نظام أو قوة ، أو ديمومة إلا وفيه أثر أسهم هاملتون في إبرازه » ^(٧) . هذان النظام والقوة ، بين أيدي أصحاب الحظوظ لا بدّ منهما لإنجاح مشروع تصنيع طموح يستخدم عدداً ضخماً من اليد العاملة ، زهيدة الأجر دائماً ، عدداً متجدداً متجدداً مستمراً بتدفق المهاجرين إلى الولايات المتحدة .

في وجه التيار الذي كان هاملتون منظره ورائده ، كان يقف رجال ، ما هم بالأغنياء ولا من ذوي النسب يأملون من الثورة شيئاً غير القطيعة بين الولايات المتحدة وإنكلترا ، فكان حلمهم ، لتحقيق المساواة والحرية ، هو قيام حكومة شعبية . ومن الغريب أن يكون زعيمهم توماس جيفرسون ، أحد نبلاء ولاية فيرجينيا ، وزير الشؤون الخارجية في الحكومة ذاتها التي كان هاملتون وزير الخزانة فيها ، وغيزو Guizot ، الذي لا يعرف حدوداً في إطراء هاملتون والثناء عليه ، ينحني عند مرور اسم جيفرسون ، يكرمه ويرى فيه « محباً متحمساً للإنسانية والحرية والعلم ، واثقاً بفضائلها متأثراً بالمظالم » . أي أن جيفرسون هو بإيجاز ، أنسي Humaniste حالم ، خالٍ ومجرد من المطامع الشخصية ، ولا يفقه شيئاً في الأعمال ، أما هاملتون فلا يشوبه شيء من هذه السذجات .

كان لا بدّ لهاملتون الوصولي ، وهو الذي يجسد فضائل النظام والسلطة ، قيم الإيمان الخالدة ،

(٦) مؤلفات هاملتون Hamilton Works الجزء الأول — الفصل الأول ص : ٤٠١ .

(٧) دراسة تاريخية على واشنطن ص ٥٨ Guizot, Etudes-historiques sur Washington .

من أن يصطدم بجيفرسون، مالك العبيد، الذي يجعل من نفسه بطل الحريات والتقدم الاجتماعي. كان على الأول، هاملتون، حيال ضغط الأحداث أن يرخي العنان قليلاً للمطالب الشعبية ويقدم بعض التنازلات للديمقراطية، إلا أنه كان يقف جل اهتمامه وعنايته على إقامة حكومة قوية وعلى تطوير صناعة متينة تقيم صلات وثيقة بين الأعمال والشؤون الخاصة والسلطات العامة: فكان الكفاح بين الرجلين مريراً، لا هوادة فيه، مع كل ما رافقه من موكب القذح والسياب، والتمائم والتهديد، والهجمات العنيفة المتبادلة في الصحف.

انقسم الأمريكيون في هذه المعركة، إلى معسكرين، لا يزال التنازع بينهما مستمراً حتى أيامنا. في البدء، كان يقف، من جهة، التجار الكبار ورجال القانون وضباط الجيش القاري والوجهاء. بينما يقف في الجهة الثانية الفلاحون والعمال الحرفيون الذين أثقلتهم الحرب بالديون، وجند الجيش الذي حُل بعد انتهاء الحرب، وكل فرد يقدم قدرة عمله بأجر زهيد، وهؤلاء جميعاً أكثر عدداً من أنصار الطرف الآخر، لكنهم أضعف.

وكان الرئيس جورج واشنطن، وهو الأقرب إلى المعسكر الأول يعتقد أنه يستطيع أن يحكم البلاد كما يدير مزرعته، (١٠٠٠ هكتار و١٣٥ عبداً)، أو كما يقود جيشه. والشكوك والوساوس التي كانت تثيرها في نفسه خطط هاملتون المالية، سرعان ما كانت تتبدد أمام اهتمامه في إظهار حزمه حيال احتياج الجماهير الشعبية، فقد كانت هذه، على قلة وعيها لقدرتها السياسية، تهدد النظام القائم. وابتداءً من ذلك الحين، زال كل تردد. وألقى واشنطن بكل ثقله في الميزان، داعماً هاملتون واقفاً إلى جانبه. ففلسفة وزير الخزانة تلتخص في هذه الكلمات التي كان يؤكد بها: إن السلطة يجب أن تقوم على «رجال المال» لأنهم «أعقل أصدقاء الحكم الجيد»^(٨) وواشنطن كان يريد «حكومة جيدة» وهذا ما لم يشك فيه أحد.

وهكذا، بمشيئة رئيس الولايات المتحدة، وتعدد الروابط بين السلطة السياسية وعالم الأعمال، المتداخلين تداخلاً وثيقاً، قام المشروع الرأسمالي على أسس متينة. وهذا الاختيار، على حساب المشروع الديمقراطي، تحكم في مستقبل الولايات المتحدة، وحتى اليوم. والقواعد التي وضعها واشنطن وهاملتون، مع اسهام أرستقراطية المال، هي قواعد مستقرة، ولا تزال كذلك في

(٨) مؤلفات هاملتون—الجزء التاسع—ص: ٣٤١—٣٤٢.

جمهوريةها. ونظرة محافظة على الأوضاع المالية، تتيح لنا أن ندرك ما للاختيارات التي تمت في رئاسة واشنطن من مدى تاريخي، ادراكاً أوضح.

السلطة والمال

لم تبلغ الصلات، في ماضي قريب، بين أوساط رجال الأعمال والسلطة السياسية، من الوضوح والجلء، ما بلغته في الحكومة التي ألفها أيزنهاور في العام ١٩٥٣. وقد شبهت الصحافة الأمريكية هذه الحكومة بـ «إجتماع مجلس إدارة». وما لاشك فيه أن أيزنهاور حرص على أن يولي أحد النقبائين واسمه Durkin دوركين منصب وزير العمل، إلا أن هذا لم يلبث أن تخلى عن مهامه، عندما طرح الحزب الجمهوري الحاكم مشروع قانون يشدد القيود المفروضة على العمل النقابي.

إن فريق أيزنهاور الأول هذا، وهو الصورة (الكارينكاتورية) الفظة عن النفوذ الذي تستطيع أوساط الأعمال أن تخدمه في الحكومة، لم يكن يعطي فكرة حسنة عن العلاقات القائمة بين القوة الاقتصادية والسلطة السياسية، والتي جرت العادة على أن تكون محاطة بسياج أمتن من الكتمان. وصلات كهذه لا بدّ من أن تؤدي إلى الفضيحة، سواء أكانت صريحة أم مموهة. وعندما أعلنت هذه الفضيحة. وكأنها ظاهرة جديدة تُعلن، ارتفعت أصوات الإحتجاج على الفساد واستنكاره، وهكذا كان الأمر، ولا سيما لدى سقوط نيكسون. على الرغم من أن «الوتر غيت تضرب جنوراً عميقة في تقليد من أكبر تقاليد الفساد السياسي الأمريكي»، كما لحظ وقال بحق دوان لوكارد Duane Lockard أستاذ العلوم السياسية في جامعة برنستون^(٩).

غير أن الجماهير ما كانت تكاد تعي ذلك. فمنذ العام ١٩٣٥، وحتى استقالة نكسون، وهي مدة تبلغ تسعة وثلاثين عاماً، قام معهد غالوب Institut Gallup، بتسعين عملية سر، استهدفت تحديد أكثر المشاكل والمسائل إثارة لاهتمام الرأي العام ولم تذكر الأجوبة الفساد إلا في تسع منها. وإلى أن قامت فضيحة ووتر غيت، ما حدث قط أن أجاب أكثر من ثلاثة أشخاص من مئة بأن الفساد «مشكلة ملحة وخطيرة».

منذ العام ١٩٥٨، ومركز الأبحاث في جامعة ميشغان يسأل الرأي العام عما إذا كان المختلسون من رجال الحكم والسلطة «كثيرين» أو «غير كثيرين» أو «قليلين جداً». وفي خريف

(٩) Duane Lockard (The Great Tradition of American-Corruption, New Society- ٣١ أيار ١٩٧٣.

١٩٧٢ ، كانت نسبة الأجوبة : « كثير » ٣٤ ٪ . وتفسر هذه النتيجة مناورات التزوير وعملياته التي راقت انتخاب نكسون للرئاسة مرة ثانية . وفي شهر شباط من العام ذاته كشفت الصحافة الأمريكية النقاب عن أن الشركة الدولية للهاتف والبرق (I.T.T) وعدت الحزب الجمهوري بمنحه مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ دولار لإنفاقها في الحملة الانتخابية ، على أن توقف وزارة العدل ملاحقتها بموجب قانون مقاومة الاحتكار antitrust . وقد توقفت الملاحقة القضائية في الواقع .

أثار عضو مجلس الشيوخ جورج ماكغفرن George McGovern ، في شهر نيسان ١٩٧٢ عاصفة كبيرة بتأكيده أن الشركة المذكورة لم تدفع أي ضريبة اتحادية فدرالية خلال السنوات الثلاث السابقة ، وأن هذه الشركة وفروعها قد أعطت بيانات عن دخولها تقتضيها أن تدفع كل سنة ، من ٦٧ مليون دولار إلى ٧٠ مليون ضرائب اتحادية . غير أن هذا المبلغ منخفض جداً لأنه يعادل ٢٥ ٪ من الربح الصافي . بينما ينبغي أن يكون (حسب الضرائب المفروضة) على أرباح الشركات ، ٤٨ ٪ . ولم تدفع الشركة حتى هذه المبالغ المنخفضة والكاذبة ، ثم استغلت الشركة التدابير القانونية ، المتخذة من أجل المواد الاستهلاكية ، في العام ١٩٧١ ، فحسمت ٦٤ مليون دولار من ٦٧ أو ٧٠ مليوناً كانت ضرائب متوجبة عليها . ولذلك لم تتردد ، عندما دعت الحاجة . بل دفعت بيسر وسهولة مليوناً من الدولارات إلى المخابرات الجاسوسية الأمريكية (C.I.A.) اسهاماً منها في المؤامرة على الإطاحة بحكم سلفادور أللندي في شيلي .

ليست « الشركة الدولية (الأمريكية) للهاتف والبرق » المذكورة نسيج وحدها في تلاعبها و(صلاحتها بالسلطات العامة) ، فهناك أمثلة عديدة على الخطوة والحجاية اللتين تناههما أوساط الأعمال التجارية من جراء صلاحتها بالسلطة العامة ، وقد قام النائب شارل فنيك Charles Vanik بحساب الضرائب الاتحادية التي دفعتها سبع عشرة شركة من أكبر الشركات الأمريكية . وقد دلت النتائج على أن شركة Radio Corporation of America (R.C.A) ، تتقيد بالأنظمة والقوانين بدفعها ٤٧ ٪ من أرباحها الصافية ، ضرائب اتحادية . ولكن شركة « بيت لحم ستيل Bethlehem Steel » نجحت باختصار النسبة إلى ١٧ ٪ فقط من أرباحها ، وكذلك شركة « International Harvester » . التي لم تدفع أكثر من ذلك ضرائب اتحادية . وعندما اكتشف « شارل فنيك Charles Vanik » ، أن شركة U.S. Steel Corporation التي رجت في العام ١٩٧١ أكثر من ١٥٥ مليون دولار ، لن تدفع أية ضريبة اتحادية ، سأل المجلس مندهلاً : « إذا كانت شركة كهذه لا تدفع .. ففضلوا بالقول : « من الذي سيدفع » . وعلى الرغم مما تتخذه مجلة التايم الأسبوعية من مواقف معتدلة ومحافظة ،

أبدت ملاحظتها قائلة: «سواء أكانت الضريبة المالية المفروضة على شركة الهاتف والبرق، و(هي ضريبة مريحة)، لها مبررها القانوني، أم لا فليس من شأنها إلا أن تزيد في قلق الرأي العام حيال تعسف نظام الضرائب الأمريكي»^(١٠).

إن كلمة «تعسف» في مكانها هنا، لأن التأثير الذي تحدثه أوساط الشركات والمشاريع في السلطة السياسية—وهو تأثير لا مبرر له—يفسح المجال لتكاثر الفساد والرشوة، أي إلى أعمال غير قانونية تعرض مرتكبيها إلى عقوبات قضائية. ولكن أكثر ما يرهب جانبه هو نفوذ أوساط أرباب الأعمال عندما يتيح لهم حمل السلطات التشريعية على إقرار تدابير قانونية تمنحهم امتيازات فائقة، وهذا ما يحصل في تفاوت الضرائب وتطبيق نظامها. فتعسف هذا النظام، عندئذ، يفرغ المؤسسات الديمقراطية من معناها الحقيقي. وسنرى كيف استطاع الكسندر هاملتون، منذ قرنين، يدعمه جورج واشنطن، أن يرسى قواعد هذا النهج الذي يحيل الديمقراطية إلى واجهة فقط، تستطيع الرأسمالية، من ورائها، متابعة إنطلاقتها بكل اطمئنان.

رسخ أيزنهاور، حسب طريقتيه، هذا التكافل بين قادة المشاريع والأعمال والقادة السياسيين، فخلال الثانية عشر شهراً الأولى من توليه الرئاسة أقام في البيت الأبيض ثمانين وعشرين مأدبة فاخرة، دعا إليها ٢٩٤ رجلاً من رجال الأعمال، ومن أساتذة الجامعات ثلاثين فقط. وخلال الساعات الطويلة التي كان يقضيها في لعبة الغولف، كان يفضل أن يرافقه ضباط متقاعدون (منهم الجنرال لوسيوس كلاي Lucius Clay الذي أصبح رئيس شركة Continental Can Company ولا سيما مديرو المشاريع الكبرى: كوكاكولا، وريپوبليك ستهل Young and Rubican, Republic Steel و «Cities Service Oil Co» والجنرال الكترينك، والرينولدز توباكو، والستوديوكر.. وغيرها من الشركات الاحتكارية الكبيرة).

كل ذلك ما كان ليتخذ شأنًا كبيراً، لو لم تكن الأعمال السياسية على صورة الصلات البشرية. فخلال رئاسته أيضاً قدم هو والأغلبية المؤيدة له في الكونغرس هديتين فاخرتين ونفيستين هما: أن بترول ما وراء البحار لن يكون من مرافق القطاع العام، وفي الأخص، أن الطاقة النووية، التي تطورت صناعتها في أثناء الحرب بفضل ضرائب المكلفين، ستكون داخل نطاق القطاع

(١٠) التايم في ١٧ نيسان ١٩٧٢: إن الحكوم الأمريكية لا تدع فرصة تفوتها للإحتجاج على الإعلانات التي تقدمها حكومات أجنبية لبعض الصناعات بغية إبطال لعبة المنافسة الدولية، ولكن التساهل في محارب كبير وهام من الضرائب، هو إعانة مقنعة تضر المزارعين الأجانب وتشله.

الخاص. فإذا كانت الديمقراطية لا تجدد في الهديتين العظيمنتين ما يفيدها، فالرأسمالية تجدد ما يدير عليها الأرباح.

إن فضيحة ووتر غيت، لم تقم فيها عملية السطو التي أقدمت عليها قيادة الحزب إلا بدور الكاشف عن مجموعة عمليات احتيال وسرقة أدت إلى فضح جوانب وأشكال متعددة من الفساد والغش في التطاحن على السلطة والحكم. ففي شهر آذار من العام ١٩٧١، أعلنت وزارة الزراعة أن الإعانات الممنوحة لإنتاج الحليب لن تزداد. وبعد انقضاء ثلاثة عشر يوماً على هذا الإعلان، وفي أثر مؤتمر لأرباب الصناعة عُقد في البيت الأبيض، أبانت الوزارة ذاتها أن الإعانة الاتحادية ستزداد بنسبة ٦٪ فماذا جرى؟ لا شيء سوى أن شركات صناعة الحليب قدمت للحزب الجمهوري من أجل تمديد رئاسة ريتشارد نكسون بانتخابه للمرة الثانية، مبلغاً قدرته النيوز ويك^(١١) الأسبوعية بـ ٣٠٠.٠٠٠ دولار والتايم بـ ٣٢٢.٥٠٠ دولار^(١٢).

لم يثر الأمر، عند إذاعته، رد فعل خاص^(١٣) وقليلون الذين خمنوا أو تنبؤوا بأنه نذير بفضيحة ووتر غيت ومقدمة لها، ولولا لانطوت في غياهب اللامبالاة، إلا أن المسألة تأزمت، بعد ذلك، عندما اتهم جون كونايلي John Connally. من الحزب الديمقراطي، وحاكم ولاية تكساس السابق (وكان قد جُرح في مؤامرة الاغتيال التي ذهب ضحيتها جون كيندي في العام ١٩٦٣) ووزير الخزانة في حكومة الجمهوري نكسون. والتهمة الموجهة إليه أنه قبض من بعض أرباب صناعة الحليب مبلغاً قدره ١٠.٠٠٠ دولار على الرغم من أنه ذو ثروة لا بأس بها، وأن المبلغ دُفع له ليتدخل لصالح رفع الإعانات الاتحادية وزيادتها.

وفي أول تشرين الثاني من العام ١٩٧٤، حُكم على هارولد نلسون Harold Nelson، وعلى معاونه دافيد بار David Parr بالسجن مدة ثلاث سنوات وبغرامة قدرها ١٠.٠٠٠ دولار، لاسهامهما غير القانوني في صندوق الحملات الانتخابية. وكان نلسون مديراً عاماً لشركة منتجي الحليب (Associated Milk Producers). وخلال المحاكمة، اعترف هارولد نلسون أنه دفع مبلغ ١٠.٠٠٠ دولار إلى جون كونايلي، فأحيل هذا إلى المحاكمة في نيسان ١٩٧٥. وفوجئ الناس بتبرئته. وقد أعلن المحلفون بعد مداولتهم التي دامت ٦ ساعات ما يلي: «إن قرارنا لا يعني،

(١١) ٧ شباط ١٩٧٢.

(١٢) ٢ شباط ١٩٧٢.

(١٣) «انتحار الديمقراطية»، للمؤلف— ١٩٧٢ ص: ١٥١.

بالضرورة، أننا رأينا جون كونايلي بريقاً، بل أننا لم نعتبره مجرمًا في الدعوى التي عُرضت علينا. «
فيها من صيغة غامضة تحملك على أجنحة الأحلام.

اتخذ الفساد السياسي الأمريكي في القرن التاسع عشر شكلين، أولهما على مستوى المجالس البلدية، حيث كان سيد (الآلة) السياسية حاكماً بأمره في المدن التي كان يؤمها عدد كبير من المهاجرين، يوزع كما شاء الامتيازات والحظوظ، غير متردد في القضاء على خصومه، وثانيهما، على مستوى الولاية حيث لا غنى عن مساهمة الحاكم أو المجلس التشريعي، للحصول على سندات استثمار الأرض (مراعي، زراعة، استثمار الأجرأج، أو على امتياز استثمار المناجم) مقابل رشاوى كبيرة. ويقدر ما كانت تتسع صلاحيات الحكومة الاتحادية في التدخل، كان لابد من أن يتجه إلى واشنطن المركز الحساس لممارسة النفوذ. وعلى ذلك لم يزل الفساد ولم يختف في المدن (التي تديرها مجالس بلدية) أو في الولايات. فعندما اضطر نكسون قبل سقوطه، للتضحية بنائبه (نائب رئيس الولايات المتحدة)، سبيرو أغنيو Spiro Agnew، كان ذلك بسبب ما ارتكبه هذا من أعمال الفساد والانتحال عندما كان حاكماً لولاية الماساشوستس.

إن تصرف الحاكم السابق سبيرو أغنيو المذكور ليس استثنائياً ولا شاذاً. وسنكتفي بذكر مثال واحد حديث العهد، وهو أن محكمة اتحادية أذانت في شهر آذار من العام ١٩٧٥، بجرم الرشوة والفساد، «دافيد هال David Hall» حاكم ولاية أوكلاهاما السابق و«و. و. تايلور» W.W. Taylor سمسار رهون عقارية، اللذين دفعا مبلغ ٢٥٠٠٠ دولار لوزير خارجية أوكلاهوما لإقناعه بالعمل على التصويت لمشروع قرار بتوظيف مبلغ ١٠ ملايين دولار في صندوق تقاعد يشرف عليه تايلور. وكان على هذا أن يدفع أيضاً للحاكم Hall مبلغ ٥٠٠٠٠ دولار. حكم على المجرمين بالسجن مدة ٢٠ — ٢٥ سنة... والإفراج عنهما مؤقتاً^(١٤).

لكن تأثير بعض الأوساط المالية ونفوذها الفائقين على السلطات العامة بلغا أشدهما على

(١٤) يُضاف إلى هذا التلاعب بالصناديق و(السمسرات) المالية، عملية لم يُكشف عنها القناع حتى الآن، وهي أن معاوناً لمدير F.B.I مكتب الاستعلامات الفدرالي قد أفاد بأن ريتشارد نكسون ونائبه سبيرو أغنيو، عام ١٩٦٨، قبل انتخابهما، قد أجرت معهما — تحقيقاً — دوائر الأمن الاتحادية بشأن اتصالاتهما بحكومة تيو Thieu لحمله على إرجاء اشتراكه في مفاوضات باريس بشأن الحرب الفيتنامية. وإن فساد أخلاق المذكورين قد سمح لهما بقبول مبالغ من المال من مصدر مشبوه، للعمل على إطالة أمد الحرب بلا جدوى، لصالح تحسين الفرص الانتخابية للمرشح للرئاسة (نكسون) (صحيفة انترناسيونال هيرالد تريبيون ٥ شباط ١٩٧٥).

(١٥) انترناسيونال هيرالد تريبيون، ١٧ آذار ١٩٧٥.

المستوى الاتحادي . فالعاصمة واشنطن هي التي تتولى الدفع سواء فيما يتعلق بصفقات العتاد العسكري ومواد التموين المتنوعة ، أو الصفقات المعقودة مع المعامل والمصانع ذات النفع العام . أما السباق على إبرام العقود مع البنتاغون ، وهي عقود تجلب نسبة أرباح أعلى من مستوى الإنتاج المدني ، فهو ، في كل سنة ، يعرض صفقات تبلغ عشرات المليارات من الدولارات^(١٦) . وأما القواعد الموضوعية من أجل وجود تنافس ديمقراطي ومن أجل توفير أموال المواطن المكلف ، فلم تكن تراعى إلا نادرة .

إن الرشوة تكشف القناع عن النفوذ الكبير الذي تحذته شركات كبرى على السلطات الشرعية ، وعن سلطانها عليها ، لا تدع فرصة من الفرص تفوتها . وقد قامت مصلحة الجمارك الأمريكية بتحقيق في اللعبة التي أتاحت اختلاس مبلغ يتراوح بين ألف و ٣٠ ألف مليون دولار ، بتهريبه من الضرائب الجمركية ، في أثناء الحظر على البترول في العام ١٩٧٣ . وتقول صحيفة واشنطن بوست Washington Post إنها مؤامرة حقيقية اشترك في نسج خيوطها رجال أعمال ومخبرون ليحملوا شركات كهرباء ومستشفيات ومدارس والمستهلكين من المواطنين^(١٧) على دفع تعرفة جد باهظة . وطريقة الاحتيال هي أن ناقلة بترول تقل ٥٠٠٠ برميل من نيجيريا (المصدر) ، حين كان سعر البرميل لا يزال ٥٠ دولار ، قد زُورت لتبدو حمولتها قادمة من فنزويلا حيث كان سعر البرميل ١٠ دولارات . كذلك قامت السلطات الجمركية في لوس المجلوس بالتحقيق في عملية استيراد ٤ ملايين برميل سعر الواحد زهاء ٢٥ دولاراً . واكتشفت ادارة الطاقة الاتحادية Federal Energy Administration عملية اختلاس عدة ملايين من الدولارات ، ذلك أن إحدى الشركات الكبيرة ، عمدت إلى تقديم أسماء خمس شركات لا وجود لها ، لتكون وسيطاتها في رفع أسعار المازوت الذي طلبت شركة من شركات الكهرباء شراؤه منها . فكان سعره يرتفع ، ويزداد ارتفاعاً ، من شركة وهمية إلى أخرى . وفي معظم الحالات لم يكن يتم تزوير الوثائق الجمركية ولم يكن يُتاح إلا بحماية أصحاب مناصب رفيعة .

إن عرض الفضائح الأمريكية المماثلة يدل كما يبدو ، منذ ظهور فضيحة ووتر غيت ، على أن أنصار الاتجاه الديمقراطي يسعون إلى إعطاء مبدئهم قوته وفاعليته بمراقبة القوى المالية التي ما فتعت منذ عهد هاملتون ، تسيطر على السلطة السياسية ، لكن الروابط التي حُبكت بين أوساط الأعمال

(١٦) الإمبراطورية الأمريكية للمؤلف ص : ٢٣١ — ٣٥٣ .

(١٧) اترناشيونال هيرالد تريبون ١٧ آذار ١٩٧٥ .

والحكومة ما برحت متينة ، وثمة مثالان هما البترول ، والحبوب يدلان على مدى خيانة التاريخ للحلم الأمريكي .

سياسة الولايات المتحدة البترولية ، في حد ذاتها ، من أهول عمليات « الفساد القانوني » التي دُبرت لخدمة المصالح الخاصة على حساب المصلحة العامة . فالمنتجون الأمريكيون يستفيدون من تخفيض ضريبي (Depletion allowances) أنزل في العام ١٩٦٩ ، من ٢٧.٥٪ إلى ٢٢٪ وهي نسبة تمنح امتيازاً لا مبرر له ، ولا سبيل إلى استمراره وبقائه إلا بشراء المواطنين من أعضاء الكونغرس ومن كبار موظفي الإدارة . ومنذ عهد قريب ، وافقت لجنة الكونغرس على مشروع قانون ضريبي يلغي هذا التخفيض . لكن ، في ٩ تشرين الأول ١٩٧٤ ، سئل الرئيس جيرالد فورد ، في أثناء عقده مؤتمراً صحفياً ، عما إذا كان يوافق على هذا المشروع ، فأجاب : « نعم » وعلى الفور انطلقت جماعة « الضغط البترولي » إلى العمل ، وفي ١٠ تشرين الأول أي في اليوم التالي ، أعلن ناطق باسم البيت الأبيض أن إلغاء التخفيض سيكون غلطة كبيرة^(١٨) . وهذا التخفيض يجلب للشركات البترولية ملياري دولار سنوياً . أما الذي يدفع الفرق ، فهو المواطن المكلف .

جرت عملية مماثلة في شهر آب (١٩٧٢) ، على سعر الحبوب ، وكان الاتحاد السوفيتي قد اشترى من الولايات المتحدة ١٩ مليون طن من القمح . فلكني تضمن إدارة نكسون دعم مصدري الحبوب الأمريكيين لها ، عمدت إلى إلغاء القيود العادية على الطلبات وعلى صفقات البيع إلى الخارج . ولما أدى هذا الإجراء إلى ذوبان المخزون من الحبوب ، لإقبال الشركات على الشراء ، تضاعف سعر القمح في مدة أقل من شهر واحد . أما المستفيدون فلم يكونوا المزارعين ، بل حفنة من كبار المصدريين . كذلك أُجريت عملية من الطراز ذاته في آب ١٩٧٥ ، قامت فيها الحكومة بمضاربة واسعة ، ورفعت فجأة سعر الصاع من القمح (عشر ليرات تقريباً) من ٢٢٠ دولاراً إلى ٤٠٥ في كنساس سيتي ، ومن ٠.٤٢ إلى ٣.١٧ ، سعر صاع الذرة في سوق شيكاغو .

في الحال هذه ، كما في عملية البترول ، لا ينجم ارتفاع الأسعار الحاد المفاجئ عن « قوانين السوق » بل عن اتفاق بين الحكومة ورجال الأعمال ، ضحيته المواطن المستهلك .

إن سياسة البترول وسياسة الحبوب تبرزان تفضيل مصالح الجهاز الرأسمالي على حقوق الديمقراطية . والحكومة التي ينتخبها الشعب لم تكن تهمل ، بين عامي ١٩٦٥ ، و ١٩٧٥ ، أن

(١٨) انترناشيونال هيرالد تريبون ١١ تشرين الثاني ١٨٧٤ ..

دخول الأجور، بالدولار الثابت، قد استقرت ثم مالت إلى الانخفاض، بينما كانت أرباح الشركات البترولية وشركات الحبوب تستمر في الارتفاع: ومع ذلك كانت الديمقراطية السياسية، التي اقتصرت ممارستها على الانتخابات، قد سارت سيراً طبيعياً، غير أن محتواها الاجتماعي والاقتصادي قد ضُحِي به على مذهب منطق الربح الرأسمالي. وهذا الاختلال البنيوي يزداد حدة، كلما تدخلت السلطة بكل وطأتها. كما كان يفعل الكسندر هاملتون لصالح بعض الجماعات الاقتصادية.

لكن ينبغي ألاَّ يحملنا سلوك حكومات أيزنهاور ونكسون وفورد، على الظن أن الجمهوريين هم وحدهم الذين يعرفون، عندما يكونون في الحكم، كيف يدون تفهمهم وتساهلهم حيال الجماعات الصناعية القادرة. فالواقعية السياسية تجبر كل حكومة—جمهورية كانت أو ديمقراطية—على أن تحسب حساباً لميزان القوى، بين عشرات ملايين المواطنين، من جهة، الذين هم ناخبون (إنما مع امتناع ٤٠ ٪ عن الاقتراع) وفي آن واحد مستهلكون ومكلفون، لا يزالون غير منظمين، وموزعين ومتفرقين، يمثلون قوة يزيد في ضعفها أن ضآلة ثقافتها السياسية تجعلها هدفاً للدعوات الانتخابية سهل المنال، وبين جماعات رجال أعمال قديرة، من جهة ثانية، تحت تصرفها جميع الكفاءات الاقتصادية والمالية والحقوقية التي تُتيحها لها وتضمنها مواردها المالية، وهي تتعهد جماعات في العاصمة وتقدمها بالمال، كما تسيطر سيطرة مطلقة على ما تستثمر وتوظف من رؤوس أموالها، تجمع بينها وتوحيدها مصالحها الاقتصادية. فهي، لكل ذلك. تملك القوة الحقيقية. وفي الحملات الانتخابية، يجب إقناع الأولى ومدايتها أو إغرائها، بينما من المناسب أن تُراعى الثانية في كل زمان ومكان. والدستوريون يتنبأهم القلق حيال ما يرونه من بعض اختلال في التوازن... هذا التوازن الذي لا بد من وجوده، لانتظام سير الديمقراطية، بين السلطات الثلاث، التنفيذية والتشريعية والقضائية. أما اختلال التوازن الأخطر منه شأنًا بكثير، فهو الذي يقوم بين المواطنين ذوي التنظيم البسيط أو السيء وبين الجماعات الاقتصادية القادرة التي لها نفوذها وتأثيرها في اتخاذ القرارات.

إن اختلال التوازن هذا الذي اختاره «الآباء المؤسسون» لا يدركونه في الولايات المتحدة ولا يرونه على حقيقته. فمنذ قرنين، وثمة فلسفة سياسية غامضة تقوم على تفسير أولوية المصالح الرأسمالية وتبريرها في الولايات المتحدة وسيطرتها، ما عدا استثناءات قليلة حققت فيها الديمقراطية بعض التقدم، كما حدث في أثناء «ال New Deal العهد الجديد»، أما الفلسفة المذكورة فقد كان التعبير عنها بالصيغة التالية: «أعتقد أن لا سبيل لأي حزب سياسي أن يكون صديقاً للشعب

الأمريكي، إن لم يكن صديقاً لرجال الأعمال، وأعتقد أيضاً أن لا سبيل لسياسي أن يكون صديقاً لهؤلاء إن لم يكن صديقاً مخلصاً للشعب، ومقيماً على الولاء له. فرجال الأعمال ورجال السياسة ليسوا في مجتمعنا الأمريكي لأي حزب أخصاماً طبيعيين، بل على النقيض، لا بدّ لنجاح الطرفين معاً ولتقدمهما، كما لا بدّ لحسن سير نظام حكمنا من أن يعملنا جنباً إلى جنب ويداً في يد «حليفتين متفاهمين».

إن الشخص الذي يلجأ إلى هذا الأسلوب في التعبير، ليس برجل أعمال، ولا قائداً من قادة الحزب الجمهوري، إنه لندن جونسون Lyndon Johnson^(١٩)، وقد قال ذلك عندما كان نائباً للرئيس كندي: فرجل الأعمال والشعب صديقان «طبيعيان» والحكومة تخدم الشعب مع حظوتها لرجل الأعمال!... «وهذا ما يطيب لشركة جنرال موتورز».

تلك الفلسفة السياسية، مهما بدا عليها من التبسيط، قد اكتسبت منذ قرنين من الزمن شهرتها وجدارتها وألقاب شرفها. فجون جاي John Jay الذي ذكرناه، قد تكلم بفظاظة عندما كان يؤكد أن «الذين يملكون البلد عليهم أن يحكموه». أما اليوم فليس ثمة من يجرؤ على كلام فج كهذا. والكسندر هاملتون قد بدا أكثر فطنة وحذقاً عندما قال: «إن أعقل الأصدقاء لحكم جيد» هم «رجال المال». أما لندن جونسون فهو يتكلم في القرن العشرين بأسلوب هاملتون في القرن الثامن عشر.

هكذا لا يزال الاستمرار على أتمه، منذ قرنين حتى الآن، في الحكم كما في الأعمال التي يوحى بها هذا الفكر إلى الحكم: فمصالح «رجال المال» تتطابق وتلتقي ومصالح «حكومة جيدة» تهتم بالسهر على سعادة الشعب الذي اختارها.

هذا المبدأ الأساسي، لم يكتف الكسندر هاملتون بالتعبير عنه وصياغته عند ميلاد الجمهورية الأمريكية، بل نقشه في المؤسسات، وفي العادات والأخلاق، ورسخه كي يبقى إلى اليوم. ولم يكن ذاك بالعمل السهل، فإذا كان قيام الاتجاه الرأسمالي وتطبيقه يفوقان، في نظره، كل شأن آخر، فقد كان يقف في وجهه رجال رأوا في الانفصال عن إنكلترا الفرصة التاريخية المتاحة لإرساء أسس مجتمع ديمقراطي حقاً، يلغي امتيازات المال السياسية.

(١٩) في خطاب له، في ١٢ آب ١٩٦٣، أمام غرفة التجارة في هيوستن (تكساس).

الاستقلال الوطني والنضال الطبقي

انقسمت أمريكا، في أثناء كفاحها من أجل الاستقلال، بفعل نضال حاد بين الطبقات. وقد ظل عشرات الآلاف من الملاكين على ولائهم لإنكلترا، لما انتابهم من خوف وقلق حيال ما أحسوا به من التمهض الثوري الذي كان يتضمنه النضال الطبقي، فهؤلاء غادروا، بعد ذلك، أمريكا إلى كندا. غير أن معظم الوجهاء الذين مست لندن مصالحهم الطبقية بالأذى، اختاروا الوقوف إلى جانب قضية الاستقلال وقد تألفت منهم ملاكات الحرس الوطني (المليشيا) والجيش القاري وعناصره القيادية، بينما تألف معظم الجند فيهما من الزراع والعمال الحرفيين. ومن عقل هذا الشعب المسلح انبثقت أفكار غريبة عرضها الجنرال كنوكس Knokx^(٢٠)، في رسالة بعث بها إلى القيادة وجاء فيها: «يرى الجند (الأفراد العاديون من غير حاملي الرتب)، أن أراضي الولايات المتحدة قد أنقذت من المصادرات التي قامت بها بريطانيا العظمى، بفضل الجهود المشتركة التي بذلها الأمريكيون. ولذلك ينبغي أن تكون هذه الأراضي ملكاً مشتركاً لهم جميعاً وكل من يعارض هذا الشعار أو هذا المبدأ، يكون عدواً للعدالة يستحق الزوال عن وجه الأرض»^(٢١). إنها نظريات «جذرية»، وأحلام «ديماغوجية»، تخلق أنصار الاستقلال من مالكي الأرض الذين يكونون لقيام مجتمع تسود فيه المساواة عداءً عميقاً.

قبل انتهاء العمليات الحربية بين الطرفين، صودرت أملاك التوريز، وهم الموالون للإنكليز وللعرش البريطاني والخلصون له، لا للوطن الذي كانوا يكرهونه ويرفضون وجوده وهو لا يزال في المهدي. ففي ولاية نيوجرسي وحدها صودرت خمسمئة ملكية من أملاك أولئك الموالين، وبيعت أجزاء أصغر. وهذا ما قامت به أيضاً لجان الأمن العام (Commitees of Safty) في ولاية فرجينيا، بمصادرتها أرض فيرفاكس Fairfax البالغة مساحتها ٢٤٠٠٠ ر٢٤٠٠ هكتار، وفي ولاية نيويورك أرض فلبس Philipse ٧٨٠٠٠ هكتار، وفي ولاية الماين Lemaine، أرض السر ويليام ييبيرل Sir William Pepperell، الممتدة مساحتها إلى أكثر من خمسين كم، على طول الشاطئ. ولم يكن ثمة ما يضمن أن تحافظ هذه الموجة الثورية على أملاك الوطنيين الأثرياء.

أما الطبقات الشعبية، فقد كانت إرادتها ورغبتها في الانفصال عن العرش، يشوبها بل يمتزج بها، ظمناً للثورة الاجتماعية. «كان النزاع قائماً بين معظم المتמרدين، كما كتب سيدني لانس

(٢٠) الجنرال هنري كنوكس (١٧٥٠-١٨٠٦)، سُمي بعد ذلك وزيراً للحرب.

(٢١) مؤلفات واشنطن—الجزء التاسع ص: ٢٠٧.

Sidney Lens ، وبين النخبة المحلية والملّك المحلي والمسؤول عن الأمن (العمدة) (Sherif) والقاضي . وكان هؤلاء المتمرّدون يعرفون أنّ بريطانيا العظمى ، في حالة نشوب أزمة ، ستكون عوناً للطبقات صاحبة الامتيازات الأمريكية . غير أنّ أنصار التغيير الجذري ما كانوا يرون في بريطانيا العدو الأساسي ، ولا يصيغون مطالبهم بتعابير الاستقلال ، أو يقصرونها عليه^(٢٢) .

فهل كان القادة يريدون الاستقلال ، ويتمنونه حقاً ؟.. لقد قال جورج واشنطن في المؤتمر الأول في (١٧٧٤) ، الذي عُقد في فلادلفيا ، أنه « مسرور جداً ، من أنّ في أمريكا الشمالية كلها ، لا يوجد رجل واحد قادر على التفكير ، لا يتمنى شيئاً كما يتمنى الاستقلال » . وكان اللورد كامدن Lord Camden (الإنكليزي) قد توقع منذ (العام ١٧٥٩) ، متنبئاً بأنّ الأمريكيين سيسعون إلى قطع ما يصلهم بالتاج البريطاني ، على الرغم من كل ما يبدونه من مظاهر الولاء له . فيجيبه عندئذ بنيامين فرانكلين بقوله : إن فكرة كهذه « لن تساور أبداً أذهان الأمريكيين ، إلا إذا أسأتم معاملتهم إساءة فاضحة » . ويرد اللورد المذكور ، بأن هذا ما يتوقعه^(٢٣) .

وقد رأى صموئيل أدامز Samuel Adams^(٢٤) ، لثاني سنوات قبل إعلان الاستقلال ، وهو الذي ضرب بسهم وافر في إشعال النار بعد ذلك ، أن الأمريكيين لن يكونوا أحراراً ، ما دامت لندن هي التي تعين حكاهم وقضاهم ، إلا أنه يؤكد ، في آن واحد ، « أنّ ثقته لا تترزع في الملك ، زعيمنا وأبيننا جميعاً » . وكان لا بدّ من أن تخرج لندن الوجهاء وأصحاب الامتيازات كي تخرجهم عليها مفكرين بالانفصال ، كما تنبأ فرانكلين . وقد ذكرنا كيف أنّ إنكلترا الخارجة من حرب السنوات السبع (١٧٥٦ — ١٧٦٣) ، وهي تنوء بعبء ديونها ، قررت أن تحمّل مستعمراتها بعضاً من هذا العبء . لذلك عمدت إلى إتخاذ تدابير عدة هي إصدار قانون السكر (١٧٦٤) ، قانون النقد (١٧٦٤) ، قانون الطوابع (١٧٦٥) ، وقانون الشاي (١٧٧٣) الذي توخت إنكلترا منه

(٢٢) سيدني لانس ، الراديكالية في أمريكا ، ص : ٢٥ .

(٢٣) واشنطن — الجزء الثاني ص : ٤٩٦ .

(٢٤) صموئيل أدامز (١٧٢٢ — ١٨٠٣) نشر المفهوم الحديث لحقوق الإنسان ، وعارض كل فكرة تسوية بين أمريكا وإنكلترا . عُيّن حاكماً لولاية الماساشوستس (١٧٩٤ — ١٧٩٩) . كان له دور كبير في نشوب الثورة ، إلا أن تأثيره سرعان ما تلاشى وحل محله تأثير المعتدلين . قام في ١٦ كانون الأول ١٧٧٣ — احتجاجاً على ضريبة الشاي — بتنظيم « جماعة الشاي » حين عمد الوطنيون المتكثرون بزي الهند ، إلى الوثوب على ٣ سفن تحمل الشاي ، وألقوا به في البحر .

إنقاذ شركة الهند الشرقية من الإفلاس، وأخيراً، كل ما سماه الأمريكيون «بالقوانين الجائرة» التي لا تُطاق. ولكيلا تبقى هذه القرارات حبراً على ورق، كما حدث في الماضي، وجهت لندن جيشاً من ١٠.٠٠٠ جندي، يقع عبء إسكانهم وتموينهم على عاتق المستعمرات، وبلا دخول في التفاصيل المتصلة بهذه التدابير المختلفة، حسبنا مثل واحد يرينا كيف أن الوجهاء تأثرت مصالحهم إلى حد دفعهم إلى الخروج على قرارات لندن.. وبينما كان الجيش المذكور يبطأ الأرض الأمريكية، تلقى الأسطول البريطاني الأمر بوضع حد لأعمال التهريب، التي كانت تحرم الخزانة الملكية من موارد ثمينة بتحتييمها الاحتكار التجاري.

والمعروف أن التهريب يدرّ على كبار التجار أرباحاً طائلة. ومشتقات قصب السكر المستورد من جزر الأنتيل الفرنسية، كان يمكن أن يكون سعر شرائها دون السعر البريطاني، بـ ٢٥ إلى ٤٠ ٪. لذلك كانت هذه التجارة غير القانونية تبلغ أبعاداً شاسعة: ففي العام ١٧٦٣ كان ٩٧ ٪ من قصب السكر الوارد إلى ولاية الماساشوستس، مُهرّباً. وجون هانكوك John Hancock أحد موقعي بيان إعلان الاستقلال ومن أعلام الثورة البارزين، وصاحب أضخم ثروة في إنكلترا الجديدة، لقب «بأمير التهريب»، «وإن تسعة أعشار تجار المستعمرات، وربع موقعي بيان الاستقلال سبق لهم أن كانوا من المهربين في وقت من الأوقات»^(٢٥). فلقد بلغت عمليات التهريب من الانتشار مبلغاً أضخم معه غير مستهجن في نظر الناس. حتى أن المحاكم كانت تستنكف عن ملاحقة المهربين. وخلال مدة ثلاثين عاماً (من ١٧٣٣—١٧٦٣)، صرفت السلطات الاستعمارية زهاء ٢٣٠.٠٠٠ ليرة استرلينية في مكافحة التهريب، ولم تستوف من الرسوم أكثر من ١٩٠٠ ليرة استرلينية، فما أبهت النفقة بالنسبة إلى الثمن. فعندما وجهت إنكلترا قواتها المسلحة لتفرض الرسوم الجمركية، وتقضي على التهريب دفعت كبار التجار، الذين أثروا عن هذا الطريق غير القانوني، إلى التضامن ضدها مع الشعب الذي لم يكن مهيباً لدفع أثمان أعلى.

المشكلة قديمة، ومن أوضح الأدلة والشواهد على ذلك، شهادة فرنسي كان أكثر شهرة في الولايات المتحدة منه في فرنسا. ترك قصصاً يتذوق فيها القارئ من المتعة بقدر ما يجد فيها من الوثائق والمستندات. وما كتبه هذا الفرنسي واسمه «جون دوكريف كور Saint John de Crevecoeur» في

(٢٥) سيدني لانس «الرايكلية في أمريكا» ص: ٩٤..

رسائله : « رسائل مزارع أمريكي » ، وكان قد تبع جيش مونكالم إلى كندا وهو في ريعان شبابه ، وقبل أن يُقيم كمزارع في جنوب الحدود ، ما يلي :

« ثمة سبب آخر من أسباب رزوحنا تحت عبء الديون ، هو كثرة الخوانيت التي تنقص بالمنتجات الإنكليزية وتعددتها .. فقد كانت مبعث مغريات لا سبيل إلى مقاومتها .. وهكذا كان نحُمس دخلنا من عملنا يصرف كل عام على شراء المنتجات والبضائع الإنكليزية . وهذه هي الرسوم التي ندفعها . يضاف إلى ذلك أن هذه البضائع والسلع القادمة من إنكلترا هي من الأصناف الرديئة جداً » (٢٦) .

إن هذا الفتى الفرنسي الذي أضحى مزارعاً في أمريكا ، يتحدث عن إثراء الإنكليز باحتكارهم تجارة الشاي ، بأسلوب يفيض بالكآبة والألم . كذلك ، كان التجار الأمريكيون يجنون أرباحاً طائلة من كميات الشاي الضخمة المُهرية ، غير أن الشاب المذكور لم يكن يأخذ عليهم ذلك ، بل يخص الإنكليز وحدهم بانتقاداته . فلبضع سنوات نخلت ، قبل صدور قانون الشاي (١٧٧٣) ، الذي أثار اضطرابات وفتناً كثيرة ، كتب الفتى سان جون دو كريف كور John de Crevecoeur يقول :

« الناس جميعاً يشربون الشاي (...) ، وأنا على يقين بأنه تجارة رائجة وسوق رابحة جداً ... وكان على أجدادنا أن يكتشفوا هذه الأرض ويقوموا بفلاحتها وزراعتها لتستخدم ذريتهم في إثراء حفنة من تجار لندن الذين هم أثرياء الهند الحقيقيون ، على الرغم من كونهم مواطنين بريطانيين . وهم ، على إخلاصهم للحرية في بلدهم ، الحرية لهم ولأبنائهم ، لا يقبلون أن يتمتع أناس آخرون بخيرات الحرية العميمة في ممتلكاتهم . وهذه الفكرة هي أن تجاراً يسعهم أن يصبحوا أمراء ولوردات وطغاة مستبدين .. أما أن يستطيع مزارع أمريكي فقير التعبير عما يجول في نفسه ، فهذا ما لا يجوز » (٢٧) .

فما لا شك فيه ، أن الشاي ليس هو وحده الأصل والسبب : « إن كل صاع (١٠ لترات)

(٢٦) Siant-John de Crevecoeur Lettres From an-American Farmer . رسائل مزارع أمريكي ص : ٩٤ سان

جون دو كريف كور .

(٢٧) المصدر ذاته . ص ١٣٦ — ١٣٧ .

مشروطاً بمبلغ الضرائب المدفوعة أو بقيمة الثروة المملوكة . وقد تفجرت حركات عصيان وتورد متعددة خلال الأعوام المئة والخمسين التي سبقت حرب الاستقلال : وكانت موجهة ضد الأغنياء من معتكري السلطة ومستغليها ، ضد الأغنياء من الأمريكيين ، لا البريطانيين .

لا غرو في ذلك ، ففي فرجينيا—مثلاً—تمكنت الأسر : بافري Beverley وكارتر Carter وياج Page ، من تملك أراضي يبلغ مجموع مساحتها ١٢٠٠٠٠ هكتار ، بدسائس سياسية غامضة ومريبة كما أن العقيد صموئيل اللن Samuel Allen ، حاكم ولاية نيو هامبشاير New Hampshire في العام ١٦٩٢ أصدر قراراً (له صفة القانون) ، بأن الولاية كلها ملك خاص له ، وهدد بطرد المستوطنين الذين لن يدفعوا أجراً عن الأرض التي يعملون فيها . كذلك ، راق للحاكم وينتروب (حاكم ولاية الماساشوستس) أن يرى أجور النجارين ، والعمال اليدويين مرتفعة جداً—على ضآلتها—فاستصدر من محاكم الولاية القضائية قراراً بتخفيضها .

كانت أروع هذه الانتفاضات الثورية صدى وأثراً ، تلك التي وصفها مؤرخ أمريكي بقوله : «إنها نقطة إنطلاق النضال الذي هيمن على تاريخ هذا البلد» . وقد قادها ، في ولاية فرجينيا ، Nathaniel Bacon ناتانيل باكون ، من حملة شهادة جامعة كامبردج ، وثري يملك قصرًا على شاطئ نهر جمس ، وبما كتبه قوله : « لقد بلغ الفقر في بلادنا حداً جعل كل السلطة والنفوذ في أيدي أثرياء جاروا على أفراد الشعب واضطهدوهم بكل الوسائل ، وقد أتاح لهم ذلك انتحالهم الامتيازات ، وإبقاؤهم هؤلاء مدينين لهم . » ثم يفضح السلطات التي تستغل الشعب ، وكبار الملاكين الذين حصلوا على الأرض بأساليب ملتوية قائلاً : إن الفضائح بلغت حداً يبرر اللجوء إلى القوة .

وبينا كان المزارعون يزدادون رزوخاً تحت وطأة الديون ، ولا سيما أن انخفاض سعر التبغ أدى إلى ارتفاع نسبة الفوائد ارتفاعاً باهظاً ، كان الحاكم بركلي Berkeley وحاشيته يستولون على أخصب الأراضي ، ويعفون أنفسهم من الضرائب ، ويغتنون ببيع المشروبات الكحولية والسلاح إلى الهنود ، ثم يفرضون الضرائب لتمويل بناء حصون يحمون بها أنفسهم من هؤلاء الهنود ، ويلغون انتخابات المجلس النيابي مدة أربعة عشر عاماً ، وينتزعون حق الانتخاب ممن لا يملكون أرضاً .

عندئذ عزم ناتانيل باكون على أن يمسك بزمام الأمر ، ولما دخل في يوم من أيام حزيران ١٦٧٦ مدينة جمستاون Jamestown ، على رأس خمسمائة متمرد مسلح ، استقبله السكان استقبال الأبطال . لم تدم سيطرته على ولاية فرجينيا وحكمها سوى أميد يسير لم يبلغ ثلاثة أشهر ، قام خلالها بتحقيق إصلاحات تقدمية . فقد استطاع حاكم الولاية استرداد السلطة من العاصمة ، وتوفي باكون

في أثر حمى أصابته، فانهارت الحركة الثورية « الشعبية » بعد حرمانها من زعيمها « الأرستقراطي » . وعادت السلطة إلى الحاكم البريطاني وحاشيته الأمريكية المتعاونة وإياه، وتدعمهم قوة من ألف مسلح وجّهوا لنجدتهم وتعزيز قواتهم . وأعدم سبعة وثلاثون رجلاً من أنصار ناتانيل باكون .

بيد أن الأسباب التي فجرت هذا الغضب الشعبي، بقيت على حالها، لم تُمس، سواء في فرجينيا أم غيرها من الولايات . وفي العام ذاته جرت اضطرابات أخرى في المارييلاند Maryland وفي ولاية كارولينا الشمالية . وحُكم بالإعدام شنقاً على الزعيمين وليام ديفيس William Davyes ، وجون بات John Pate ، بسبب خيانة أحد أنصارهما ووشايته بهما . فاندلعت حوادث أخرى أيضاً وانتفاضات مسلحة في عامي ١٦٨١ و ١٦٨٩ . وفي نيويورك هاجم جمهور من الصيادين والعمال والمزارعين وصغار الباعة الحصن، بقيادة الكابتن (النقيب) جاكوب لايزر Jacob Leisler ، يدعمهم الحرس الوطني، واستولوا عليه وأطاحوا بحكومة الولاية التي تسيطر عليها الأسر الكبيرة . واستمر الحكم الثوري في الولاية أكثر من العام، أي إلى أن وجهت لندن قوات على رأسها وإل جديد استطاع إعدام جاكوب لايزر شنقاً بتهمة « الخيانة » .

لم يُفاجأ أحد عندما ثار المزارعون في وادي نهر الهدسن في العام ١٧٦٦ ، فقد هبوا في وجه أربع من أسر نيويورك ، كانت تحكم الولاية ، بعد أن وضعت يدها على ٦٤٠,٠٠٠ هكتار من الأراضي . ووقف الحرس الوطني مرة أخرى إلى جانب الثائرين ، ووجهت أيضاً الحكومة البريطانية قواتها التي تدخلت لتعيد السلطة إلى الأثرياء الأمريكيين أنفسهم . وحُكم على ثمانين من « العصاة » بالتشهير وبدفع غرامات باهظة ، وعلى أحدهم « وليام باندرغس » William Perndergas بالإعدام شنقاً ، إنما لم يقبل أحد القيام بمهمة الجزاء ، فاضطر حاكم الولاية إلى العفو عنه .

اندلعت في ولاية نيوجرسي، قبل إعلان الاستقلال بمدة ثلاثين عاماً، فتن عدة، واضطرابات هنا وهناك، (لا رابط بينها) . وتجمع المزارعون ليحولوا دون مبيع أملاك زملائهم المدينين بالمزاد العلني، وهاجموا السجون لتحرير الزراع المحكوم عليهم بالسجن لعجزهم عن وفاء ديونهم، وجاء في أحد بياناتهم: « ليس لأي إنسان الحق الطبيعي في أن يملك من الأرض أكثر من سواه . ولقد وجدت الأرض ليستغلها جميع الناس بالتساوي » .

أثارت هذه الفكرة القلق، عندما انطلقت بصيغ متباينة، بعد الاستقلال . ففي العام ١٧٧١ شهد مزارعون من كارولينا الشمالية، بعدما تظاهروا محتجين على الإدارة الفاسدة في بلدهم،

سبعة من زملائهم يعدمون شوقاً لمناذاتهم بالمبادئ الديمقراطية ذاتها ، التي دفعت مزارعين آخرين ، بعد أربع سنوات ، إلى إطلاق النار على « القمصان الحمر » في ليكنسنغتون وكونكورد . فسموئيل أدامز ، الذي توقع الكفاح من أجل الاستقلال وأعدّه لم يخطئ مرامه ، فما كان يفضح ويدين السيطرة البريطانية فحسب ، بل الطبقة الأرستقراطية أيضاً والمحافظة التي وقعت في النظام الاستعماري على مصدر نفعها الذاتي ومنبعه . وعندما كان الحرس الوطني المجنّدة عناصره من أفراد الشعب ، ينضم إلى المزارعين المتمردين ويقف إلى جانبهم ، كانت القوات البريطانية تأتي لتوطيد سلطة الحاكم المسمى من قبل التاج البريطاني ولتحمي ، في آن واحد ، أموال كبار الملاكين وأثرياء التجار ، وكلهم من المواطنين المحليين الذين جمعوا ثرواتهم من بؤس الشعب وشقاقه .

كان سموئيل أدامز ، الذي عُيّن جاني الضرائب في مدينة بوسطن ، يصغي إلى مطالب أكثر الناس بؤساً ويعود (بعد تجواله للتحصيل) فارغ اليدين ، لم يفرض رسوماً على أحد .. هذا « الجاني » الثوري الذي كان يأبى أن يعطي لقيصر ما ليس لقيصر بحق ، كان يتصف بشيء من شمائل أصحاب الرسالات ، وقد أُنتخب للمرة الثانية حاكماً لولاية الماساشوستس . انتخبه أولئك الذين أصابوا خيراً من إحساسه بالعدالة . وقد إستال أدامز جون هانكوك John Hancock « أمير المهريين » وحمله على الوقوف إلى جانبه .

كان على قوات الجنرال الإنكليزي توماس غاج Thomas Gage أن تلقى القبض على هذين الرجلين في ليكنسنغتون ، عندما أطلقت الرصاصات الأولى من حرب الاستقلال . وسموئيل أدامز معنف الأغنياء وعدو الظلم ، كان يعلم أن الفقراء ورجال الشارع والمضطهدين هم الذين ، كما يقول ، « سينقذوننا أخيراً ، بنعمة الله » .

كان النزاع بين الطبقات حاداً : فالوجهاء الذين أثروا في ظل التاج البريطاني ، ثم قبلوا له ظهر المجن ، عندما أرادت لندن أن تأخذ منهم ضرائب ، وتحذ من بعض مجالات نشاطهم المريح ، رأوا في الاستقلال سبيلاً إلى إفلاتهم من وصاية تهدد مصالحهم .. ورجل الشارع ، الرجل العادي ، كان يعلم أن ثمة سيّدين يضطهدانه ، أحدهما بعيد عنه كثيراً ، عبر البحار ، والثاني قريب جداً ، وما زال حتى ماضٍ حديث يثري في حماية نظام حكم تحافظ عليه لندن . ويريد هو الإطاحة به متزعماً استقلاله من إنكلترا . وهو النظام ذاته الذي سيحافظ عليه في المستقبل الوجهاء الأمريكيون ، عندما لن تكون هنالك قوات بريطانية تقوم بذلك .

ثورة رجل الشارع

غير أن رجل الشارع ما وجد قط لنفسه مكاناً في المؤتمر الدستوري، الذي انعقد بعد مضي أربع سنوات على الانتصار على إنكلترا، في فلادلفيا، واستمر من شهر أيار حتى شهر أيلول من العام ١٧٨٧، كان معظم المندوبين الخمسة والخمسين، «أهل الصلاح» من ملاكي الأرض والتجار والمحامين والمضاربين والماليين وهلم جرا. أي «الأغنياء وذوي الحسب والنسب»، كما يتمنى هاملتون. ومع أنه لم يوجد مندوبون من الشعب في المؤتمر، فقد تغيب أيضاً، «شخصيات اليسار» فجفرسون كان في أوروبا، وكذلك توم بين Tom Paine الذي ألهمت الرأي العام رسائله النقدية، ورسالة «القضية المشتركة» التي بيع منها مئات آلاف النسخ في أشهر معدودة. أما صموئيل أدامز، فلم يُختر مندوباً إلى المؤتمر. وأما باتريك هنري Patrick Henry^(٣١) الذي انطلقت شعبيته من ولاية فرجينيا لتشمل الولايات بأسرها، فقد أُنتخب عضواً في المؤتمر، إلا أنه رفض الجلوس بين الوجهاء الذين لا يتوسم خيراً فيهم. وقد كان مصيباً، إذ أن أول قرار اتخذته المؤتمر الدستوري هو كتمان ما يجري فيه من مناقشات، وهو تدبير «حكيم»

فالدستور لا يمكن أن يوضع، إلا في جو يسوده الهدوء، في منأى عن الغليان «الانفعالي» الذي يثيره أناس «غير مسؤولين». وفي الواقع كانت تلك النخبة من الوجهاء خالية الذهن من كل ما يتصل بتنازع المصالح الذي كان يمزق السكان. فزعة المساواة التي تجيش بها نفوس الجماهير تترك مالكي الأرض: ومن الأفضل إذاً أن تكون مناقشات المؤتمر في منأى عن الضغط الشعبي.

لم ينتظر أصحاب الامتيازات انعقاد المؤتمر الدستوري كي يستغلوا الاستقلال وهو في حداثته عهده. فقبل انعقاده بمدة سنتين، ظهرت في القانون الزراعي الذي وافق عليه الكونغرس (١٧٨٥) الرغبة في حرمان «الرجل العادي» من فوائده. فقد طُرحت الأراضي العائدة إلى الحكومة للبيع بأسهم مساحة كل منها ٢٥٦ هكتاراً، وبسعر ٢٥٠ دولار للهكتار الواحد؟ فمن الذي يستطيع أن يدفع ٦٤٠ دولاراً لشراء سهم واحد؟ فالفقراء والجنود القدماء عليهم أن يقتضوا المال بفوائد فاحشة إذا أرادوا الشراء، وهكذا يقعون بين مخالب المرابين الذين سيستولون على الأرض عند عجز

(٣١) باتريك هنري (١٧٣٦—١٧٩٩) محام وخطيب موهوب بارع، حاكم ولاية فرجينيا، رفض منصب وزير الشؤون الخارجية الذي عرضه عليه واشنطن، عُيِّن رئيساً للمحكمة العليا، لم يوافق على الدستور لأنه—في رأيه—لا يضمن حقوق الأفراد والولايات. قام بدور حاسم في إقرار التعديلات الدستورية التي تتألف منها الحقوق المدنية Bill of Rights، كان كصموئيل أدامز، يمثل «يساراً» تقهقر لصالح الوجهاء المعتدلين.

مدينتهم عن التسديد ، بينما يستطيع الأمريكيون الميسورون شراء سهم أو أكثر يجزئونه إلى عدة أسهم صغيرة المساحة ويبيعونه بثمان يفوق كثيراً سعر الشراء . كان عدد سكان الولايات المتحدة آنذاك زهاء ثلاثة الملايين ، يعمل معظمهم في الزراعة (٩٠ ٪) وهؤلاء حملوا السلاح ، غير أن الأرض التي حرروها ليست لهم ، إنما لتزيد في غنى الأغنياء . وقد بدا واضحاً ، منذ حرب التحرير الأولى تلك ، وكما سيتأكد ذلك ويثبت على نطاق واسع ، بعد قرنين من الزمن ، أن زوال الاستعمار لا يعني حتماً تطبيق الديمقراطية . فأول عمل قامت به الجمهورية الأمريكية كان مضاربة مالية واسعة .

كانت الشروط التي تربط حق الانتخاب بسندات الملكية قد ألغيت في ولايات عدة ، وخففت وطأتها في ولايات أخرى ، وبدأ أنها في سبيل الزوال السريع . وقد اغتنمت ولاية بنسلفانيا تلك الفرصة ، لتدخل في دستورها نصاً يعبر عن الرغبة في عدم وجود ملكيات كبيرة بين أيدي بعض الأغنياء الملاكين من أصحاب الامتيازات ، وكان قد استولى على الخيال الشعبي مثل المساواة ، كما فتن جميع الذين كانوا يريدون الخلاص من مجتمعات أوروبا الإقطاعية والملكية ، المتسلسلة والمتفرعة إلى طبقات يقص علينا ، سان جون دوكريف كور Saint John de Crevecoeur ، بلسان قس من بنسلفانيا ، يحض النصح صهره المهاجر من بولونيا إلى أمريكا ، قبل حرب الاستقلال ، قائلاً له : إن مسرات المستوطنين « حارة وبريئة » ، ولا سيما أن « القوانين التي تميز بين الناس في بلدان أخرى ، محابية بعضهم ومضطهدة بعضاً آخر ، قد وضعت هنا دون محاباة أحد أو تمييزه على سواه » (٣٢) ..

... نعم ، هكذا كان حلم أمريكا ، وسيبقى كذلك حياً وحراراً ... إلا أنه لم يتحول إلى حقيقة إلا في المناطق التي فتحت أبوابها منذ أمد قريب للاستيطان .. ومن هنا كان إلى حد ما ، ذاك المد المستمر الذي يدفع بالحدود إلى الغرب ، على الرغم من الصعوبات والأخطار ، وكان الحلم بالمساواة يتقدم مع تقدم الحدود ، بينما كان يتراجع وينحسر في المناطق الأقدم عهداً بالاستيطان ، أو غالباً ما كان ينهار تحت ضربات سلطة سياسية مرتبطة بامتيازات المال وقائمة عليه .

بعد بضع عشرات من السنين ، راود هذا الحلم خيال الفتى أبراهام لنكولن عندما مضى للإقامة في نيو سالم New Salem ، في ولاية ايلينوي Illinois^(٣٣) التي تقع في وسط أمريكا

Sain-John de Crvecoeur, Eighteenth Century Travels in Pennsylvania and New York, P. 44 . (٣٢)

سبرينغفيلد Springfield ، عاصمة ولاية ايلينوي ، لم يكن عدد سكانها يتجاوز ٢٥٠٠ من العام ١٨٤٠ — ١٨٥٠ . وعدد سكان شيكاغو ١٦٠٠٠ فقط . (٣٣)

جغرافياً، بينما كانت، تاريخياً، على الحدود الغربية. وقد لحظ أحد الكتاب ممن رَووا حياة أبراهام لنكولن أن هذا يستطيع سبيلاً إلى بلوغ مطامحه « في نيو سالم، بأسهل مما يستطيعه في مجتمع استقر منذ أمد أطول، لأن انعدام ثقافته وأصله المتواضع لن يكونا، في نيو سالم، عقبة في وجهة. فنقاط النقص هذه كانت مألوفة في نيو سالم الخالية من الطبقات الاجتماعية، والتي ليس فيها شخص واحد يملك ثروة تميزه عن سواه، حتى أن الديمقراطية فيها حقيقة واقعة، ومثل أعلى في آن واحد. » (٣٤)

بينما، على نقيض ذلك، كان المجتمع في المناطق المستوطنة قديماً، قد انتظم في مراتب وطبقات إجتماعية متفاوتة تفاوتاً دقيقاً، حتى أن صلابة هذه الطبقات الاجتماعية أثارت دهشة شاتوبريان الذي قال: « التفاوت الكبير في الثروات يهدد بالقضاء على روح المساواة » (٣٥).

إن الشعب لم يحمل السلاح لتدعيم امتيازات الأكتيين ثراءً، وبينما كانت ولاية بنسلفانيا تعارض تجمع الثروات، عمدت ولاية الماريلانـد Le Maryland، وقد أغاظتها المضاربة التي كان يقوم بها أحد نائبيها في الكونغرس، إلى تحفيز ترشيح التجار للانتخاب. وكان بنيامين فرانكلن يرى أن الحرية ستصبح في خطر إن لم يتم تحديد الملكية بما هو ضروري لمعيشة الأسرة، كما قدر جيفرسون أن المساواة ستكون أكثر شمولاً وأوسع، إذا ما أُعفي الفقراء من الضرائب، وفرضت هذه على الأغنياء بتباعد المتواليات الهندسية. كذلك طالبت إحدى صحف فرجينيا بتنظيم مجالات النشاط التجاري كما تُنظم الخدمات العامة (أي تحت إشراف الولاية).

اشتد نذير الثورة وزئيرها، في الأنحص، عندما أُلقي الجنود المسرحون بعد عودتهم، في العام ١٧٨٣، مزارعهم مهملة، مهجورة، والأجور منخفضة، وركوداً اقتصادياً بالغ القسوة في ١٧٨٥-١٧٨٦. وكان عدد كبير منهم، قد شروا، لدعم المجهود الحربي، سندات صادرة عن الدولة مدفوعة (الدولار القاري)، انخفضت قيمتها ورقاً حتى ٩٠٪. وبعد تسريحهم، كان معظمهم مهملين بالسجن، لعجزهم عن وفاء ديونهم، التي طالبوا بتأجيلها، إنما بلا جدوى. وقد كتبت صحيفة Boston Gazette (٣٦) تعبيراً عن استنكارها كثرة دعاوى الديون، في المحاكم التي تُغني « بعض المحامين فيثرون من جراء دمار جيرواتهم ».

قام مئات الرجال المسلحين في Exter ونيوهامبشاير New Hampshire، وروتلانـد Rutland،

(٣٤) بنيامين توماس. أبراهام لنكولن حياته ص: ٦٥.

(٣٥) يوميات ما وراء القبر-نشر البليياد ص: ٦٥.

(٣٦) ٥ حزيران ١٧٨٦.

وفيرمونت Vermont ومعظمهم من المحاربين القدماء، بمهاجمة المحاكم مطالبين، إما بإلغاء الديون وإما بتسهيل الدفع. وقد اشتد الغضب الشعبي، ولا سيما في ولاية الماساشوستس التي رفض مجلس نوابها بأكثرية ٨٦ صوتاً (أصوات الوجهاء) ضد ١٩ صوتاً الموافقة على إتخاذ تدابير ديمقراطية أُعتبرت ماسة بمصالح الملاكين. قاد الثورة النقيب Capitaine دانييل شايس Daniel Shays الذي ذاعت شهرته لبلائه الحسن في معارك بانكر هيل Bunker Hill. وساراتوغا. ففي ٢٩ آب من العام ١٧٨٦، منع، وهو على رأس خمسمائة مسلح، المحاكم من الانعقاد، بينما كانت مجموعات مسلحة أخرى تحرر المسجونين الذين عجزوا عن وفاء ديونهم. وبلغ الذعر بالأغنياء ذروته عندما حاصر النقيب المذكور ورجاله المحكمة العليا. ولما أُستدعيت عناصر الحرس الوطني، أبدوا عدم استعدادهم لمقاتلة أناس بائسين، مطالبهم في نظر الحرس الوطني مطالب عادلة. واضطرت السلطات إلى أن تلتبس من الأغنياء جمع المال اللازم لدفع رواتب الجنود لفراغ خزانتها. لقد دقت الساعة، إذ أن رجال شايس بلغوا ١٢٠٠ مسلح، فزحف في أواخر كانون الثاني من العام ١٧٨٧، على دار صناعة الأسلحة. غير أن أحد ضباطه اقترف خطأ في المناورة والحركة أتاح للجيش النظامي سحق التمرد. وحُكم على الزعماء «العصاة» بالموت. لكن الحكم لم يُنفذ بأي منهم، فقد جرت الانتخابات لاختيار حاكم الولاية، وأعلن المرشح جون هانكوك «أمير المهريين»، أنه إذا فاز سيعفو عن المحكومين، فضمن له هذا الوعد انتصاراً حقيقياً في الاقتراع.

أُخذت ثورة، إنما كانت هناك ثورات تهدد بالانبعاث في كل وقت. «فكيف يستتب لنا الأمن حيال عنف رجال لا قانون لهم؟».. هذا السؤال الذي طرحه بكل قلق الجنرال هنري كنوكس، فقد رأى أن من الضروري تغيير شيء ما «لحماية أرواحنا وأموالنا». فتقدم آنذاك سياسيان مقترحين كل ما يمكن تصوره من التغييرات: فإما الإستجابة لمطالب شعب يزرع تحت عبء البؤس والدين، وهذا ما يفترض تحديد امتيازات المال والثراء، وقد يُكتب الفوز عندئذ لمشروع إحقاق ديمقراطية تسود فيها المساواة، وإما توطيد الأمن بفضل حكومة تعتمد كل الاعتماد على أصحاب الثروات الكبيرة، الذين ستمهد أمامهم كل السبل لتطوير مشاريعهم، فتكون الغلبة عندئذ للتوسع الرأسمالي ونموه، على الاتجاه الديمقراطي.

وأُختير السبيل الثاني، وكل القرارات المستوحاة من الاختيار لإرساء قواعد المجتمع الجديد، كانت من وضع الكسندر هاملتون، الذي عينه جورج واشنطن وزيراً للخزانة^(٣٧). والتفت حوله

(٣٧) كان الرئيس، في أول الأمر، قد عهد بهذا المنصب إلى روبرت موريس Robert Morris، غير أن هذا كان منغماً بمشايخ مالية كلها مضاربات انتهت به إلى السجن بعد ذلك. وموريس هو الذي ذكى هاملتون للرئيس.

المجموعة القادرة على توطيد الأمن وتحقيق نمو الدخل الفردي . وهذا الفريق الذي سيطر عندئذ على الحياة السياسية ومهر الجمهورية بسماوات استمرت وبقيت ، كانت توحده وترص صفوفه « مصلحة مشتركة في الملكية وخوف مشترك من الجماهير »^(٣٨) .

وتلاحم الثراء ، والخوف من الثورة الشعبية ، هما صلة ورياط . لا سبيل إلى ما هو أشد منهما وأوثق ، والطبقة التي تدعم الكسندر هاملتون لما تكن تعلم بوضوح أي استخدام معين سيكون استخدامها للسلطة . إلا أنها كانت متفقة على نقطة جوهرية ، هي أن من أجل الدفاع عن أموالها ، ولقمع حركات الجماهير الطائشة ، لا بد من دولة قوية .

إغراء النظام الملكي

كتب هاملتون في العام ١٧٩٤ إلى جورج واشنطن يقول إنه « تعلم منذ أمد طويل أن يرى الرأي العام شيئاً لا قيمة له . » وفي خطاب له في الجمعية الدستورية استمر خمس ساعات ، استنبط النتائج الأساسية التي يستطيع الخروج بها ، من حذره هذا من الرأي العام . ولذلك هو يقترح انتخاب رئيس لمدى الحياة ، وكذلك أعضاء مجلس الشيوخ يختارهم الملاكون لمدى الحياة ، وحكومات يسميها الرئيس لمدى الحياة أيضاً . مع حقها في الاعتراض على كل ما تصدره الدولة من قوانين ، وفي نقضها ، حتى لو صوتت عليها الجمعية العامة بالإجماع .. وهو يتمنى أن تكون للرئيس سلطة النظر في تقدير أي قانون ، بتطبيقه أو تجاهله .. فيأله من مفهوم مدهش للديمقراطية .

احتدم الجدل بين الطرفين : هل كان هاملتون يريد إقامة نظام ملكي ، كما اتهمه جيفرسون ؟ إن ميول هاملتون الشخصية لا تدع مجالاً للشك ، فمما يقوله : « ينبغي للملك أن يورث الملك وأن يكون له من السلطة ما يجعل المغامرة بطلب المزيد في غير مصلحته . » ثم يوضح قائلاً : « إن الأرستقراطية يجب أن تعامل معاملة تحول دون تقديرها أن من مصلحتها إحداث أي تغيير . » والأمن والاستقرار ، في نظره ، لا سبيل إلى توطيدهما إلا على القوى المالية ، ويضيف إلى ذلك قوله : « إن الجمهورية معرضة للفساد » ، ومادام « حكم جمهوري لا يقبل بسلطة تنفيذية شديدة البأس ، فهو لا بد له من أن يكون حكماً سيئاً »^(٣٩) .

(٣٨) كلود بويرز — جيفرسون وهاملتون ص : ١٤٤ Claude G. Bowers-Jefferson and Hamilton .

(٣٩) ذكر ذلك كلود ج . بويرز في (كتابه ذاته) ص : ٣١ .

كان هاملتون ، في الواقع ، يدرك أن العقلية السائدة في أمريكا لا تتيح الأخذ بنظام ملكي . إلا أنه كان يرغب ، على الأقل ، في أن الدستور ، الذي سيوضع ويُقر ، لن يسد الطريق على نظام ملكي سيري هاملتون ، فيما بعد ، أنه يمكن ألا يكون وراثياً . ويضيف : «لاني لأشعر شعوراً واضحاً ، أن من الحق التفكير ، في أيامنا ، بنظام حكم غير النظام الجمهوري . لكنني — وأراء الكثير من الرجال الحكماء تدعمني — لا أتردد في الجهر بأن نظام الحكم الإنكليزي هو أفضل أنظمة الحكم جميعاً»^(٤٠) .

هكذا كان أيضاً شعور جورج واشنطن وهو القائل : «لاني أرى كل الرأي ، إن الذين يميلون إلى الملكية ، لم يستشيروا الرأي العام ، وإنما لم نبلغ زماناً نستطيع فيه الأخذ بالنظام الملكي ، إلا بتزعزع السلام في هذا البلد ، حتى أسسه ، إنما ينبغي إصلاح النظام الحالي ، وإذا ما استمر ، بعد الإصلاح ، على نقص فاعليته ، فسيسود الاعتقاد جميع طبقات الشعب إن التغيير ضروري عندئذ . وعندئذ فحسب ، نستطيع تجربة النظام الملكي ، كما أرى ، دوغما اندلاع نار حرب أهلية»^(٤١) . كان التيار الذي يفضل الملكية قد بلغ من القوة ما جعل ادموند راندولف Edmond Randolph^(٤٢) الذي لا سبيل إلى الشك في معتقداته الديمقراطية ، يشعر بأنه مكروه ، لتسهيل دعوته إلى أفكاره الشخصية ، أن يوجه تحية تقدير شفوية إلى النظام البريطاني في قوله : «لو كنا قادرين على نسخ خطة هذا البناء الممتاز ، فما أنا بمن يعارض ذلك»^(٤٣) . وإن ما رددع الاتحاديين عن فرض الملكية ، لم يكن سوى الخوف من الجماهير ، التي قدمت الأدلة على مدى استعدادها للعنف واللجوء إليه . حتى أن الجمهوريين ، أنفسهم ، يتتابهون في بعض الأحيان ، حيال الهيجان الشعبي ، ما يبعث الشك في فضائل النظام الجمهوري .

إذا كان أفراد الشعب يرفضون النظام الملكي . فذلك لنفورهم من كل ما دفع المهاجرين إلى الهرب ، بمغادرتهم أوروبا ، وذلك أيضاً لأنهم يقرنون الديمقراطية بالكفاح ضد الامتيازات ، ولأنهم يطمحون إلى مجتمع تسوده المساواة . وأبناء الشعب هؤلاء يسميهم أخصامهم بالمهملين

(٤٠) ذكر ذلك في «أوراق ماديسون» الجزء الثاني ص : ٨٨٦ . Madison Papers .

(٤١) مؤلفات واشنطن — الجزء التاسع ص : ٢٤٧ . Washington Writings .

(٤٢) محام ، مرافق واشنطن في الحرب ، حاكم فرجينيا (١٧٨٦) ، قام بدور كبير في المناقشات على الدستور ، وانتقد النص بعنف إذ لم ترد فيه آراؤه وملاحظاته ، وطلب من ولاية فرجينيا تعديله . عُيِّن في (١٧٨٩) وزيراً للعدل ، ثم خلف جيفرسون في وزارة الشؤون الخارجية .

(٤٣) Madison Papers ، الجزء الثاني ص ٧٦٣ .

« المسوئين » ، والكلمة في أفواههم تعني التسوية نحو الأسفل . وقد بلغت قناعة أصحاب الملكية هؤلاء ، من عمق الرسوخ ما حمل Elbridge Gerry^(٤٤) وهو الشديد الولاء للديمقراطية ، على القول ، غير متمكن من إخفاء قلقه : « لقد كنت جمهورياً متطرفاً ولا أزال كذلك .. غير أن التجارب علمتني ما هي أخطار عقلية التسوية والتمهيد »^(٤٥) .

إذاً يستطيع هاملتون أن يقول جذلاً متهللاً : « هذا هو تقدم الرأي العام والعامة ، فأكثرهم صلابة في ولائهم للجمهورية هم أكثر تشهيراً من سواهم بنقائص الديمقراطية »^(٤٦) . فيشر امز Elsher Ames^(٤٧) ، الذي اختارته البيئة الثرية في بوسطن ، وكان مرشحاً ضد صموئيل أدامز ، يقول بتعابير فاقت قسوتها سواها من هذا المجال : « الديمقراطية هي كالموت ، جواز سفر ، فيما وراء الطبيعة ، إلى مكان أكثر شقاءً » .

ولولا ما أوحاه للوجهاء حذرهم ، بأن يتفادوا كل ما من شأنه أن يستفز الشعب ويثير نغمته ، لآلت الثورة ، في الأرجح ، إلى قيام حكم ملكي . ففي فرنسا ، بعد زهاء قرن مضى على الثورة الأمريكية ، وافقت على دستور الجمهورية الثالثة أغلبية ملكية . أما في الولايات المتحدة ، فالنظام الرئاسي الذي لم تكن قد دخلته تعديلات Bill of Right (ميثاق الحقوق) ، كان أقرب ، مما يمكن ابتداعه إلى نظام استبدادي . وقد أتيح لهذا النظام الرئاسي البقاء والصمود ، بعد حرب الانفصال والحربين العالميتين ، وبعد نمو ديمغرافي بلغت زيادة عدد السكان فيه سبعين ضعفاً ، ثم بعد الانتقال من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي .. كذلك صمد للأزمات الاجتماعية والسياسية وللأزمات الخلقية التي زعزعت في بعض الأحيان ثقة المواطنين ، كما فعلت فضيحة ووتر غيت ، غير أن تلك البنى التي وضعت في فلادلفيا ، لم تكن منذ أول أمرها ، ذاك العمل الجريء ، أو ذاك الرهان على

(٤٤) (١٧٤٤ — ١٨١٤) ، اشترك وصموئيل أدامز في إثارة الجماهير ، قبل الثورة ، وكاد يقع في أيدي الإنكليز الذين أرادوا اعتقاله . وهو من موقعي بيان إعلان الاستقلال والدستور . كان ضد فكرة سلطة مركزية شديدة ، غير أن الحركات الشعبية العنيفة ولا سيما حركة دانييل شاييس في الماساشوستس ، خففت من حماسه للجمهورية . كُلف بمهمات في فرنسا في (١٧٩٧) . عُيِّن حاكماً لولاية الماساشوستس ، ثم نائباً لرئيس الولايات المتحدة في عهد ماديسون .

(٤٥) Madison Papers . الجزء (٣) ص : ٧٥٤ .

(٤٦) المصدر ذاته ص ٨٨٦ .

(٤٧) Fisher Ames ، (١٨٠٨ — ١٨٠٨) انتخبته الطبقة الغنية في بوسطن ، للمؤتمر الأول ، (الكونغرس الأول) ، وفاز على خصمه آنذاك ، صموئيل أدامز ، على الرغم من شعبية هذا في الأحياء الفقيرة ، كان تأثيره كبيراً في كتلة هاملتون المحافظة . وكان تدخله فعالاً في إقرار التشريع لصالح الملاكين والأغنياء .

الديمقراطية، الذي ينسبونه إلى آباء الدستور الأمريكي. كل ما في هذه البنى من ديمقراطية هو تساهل (أو اعتراف) بحق الشعب في التمرد.

هذا التساهل اعتبره الكسندر هاملتون تنازلاً بالغاً، وقد كتب قبل وفاته بمدة سنتين إلى موريس Morris، يقول: «إنه لم يؤمن بالدستور منذ أول مرة، وإنه يراه تركيياً مهلهلاً لا قيمة له». وهكذا كان الدستور في أعين المالكين متطرفاً في ديمقراطيته، وفي رأي الشعب غير ديمقراطي إلا قليلاً.. حتى أن الوجهاء والأغنياء أنفسهم طلبوا إلى الشعب التقيد به، بينما راحوا يوجهون إليه اللكمات: فقد كان لا بدّ من ذلك ثمناً لفوز الاتجاه الرأسمالي.

كان هاملتون لا يثق بالديمقراطية. إلا أنه كان يؤمن، بكل قواه، بقيمة الخطط والمشاريع المالية والصناعية التي تدعوها مهامه الوزارية إلى تنفيذها وتسييرها. وموقفه هذا متمسك ومنسجم كل الانسجام وقد كتب يقول: «المجتمعات كلها تنقسمها الصفوة والعامة، فالأولون أغنياء كرام المحتد، والآخرون، أي جماهير الشعب، نادراً ما يكونون قادرين على إبداء رأي سليم وعلى القيام باختيار واعٍ».

هكذا يقف من تسميهم اللغة الإنكليزية Mob. بالسوق أو الغوغاء من جهة، والكلمة الإنكليزية Mob، تحمل (معنى الازدراء والانتقاص من القدر)، حتى أن أصدقاء هاملتون، عندما يريدون مسبة جيفرسون، يتهمون به بأنه يريد إقامة حكم الغوغاء Mobocracy، ومن جهة ثانية، تقف، (طبقة النبلاء) الطبقة العليا الأرستقراطية، التي تتحدد في أمريكا بالثراء، أكثر مما تتحدد بالنسب وكرم المحتد. وهاملتون موال لها ولأهله زاده شدة أنه لم يستطع سبيلاً إلى الوصول إليها إلاّ بالزواج: فمحدثو النعمة يفيضون دائماً حماسة واندفاعاً. وهذه «الصفوة» التي تزعم نفسها، بكل أهبة، «أرستقراطية» تحلم بأن تنقل إلى الصعيد السياسي، القدرة، بل السلطة الشخصية التي يتمتع بها ملاك زراعي أو صاحب مصرف، في إدارة أعمالهما: فإذا لم يكن من سبيل إلى نظام ملكي، «فالأرستقراطية» تريد سلطة شديدة البأس، قادرة على الوقوف في وجه ضغوط «العامة». وهي، سرعان ما قذفت الملاك الفرجينى الموقر جيفرسون بالمسبة الكبرى أو الإهانة الكبرى: «يعقوبى: Jacobin»: وبالطريقة ذاتها، وبعد مرور قرنين من الزمن وأقل، وفي إبان مرحلة «الحرب الباردة»، وُصف الليبراليون الأمريكيون بـ «pinks, reds, fellow travellers»، أي بايجاز عملاء للشيوعية.

ما كان هاملتون قط أن يستطيع سبيلاً إلى تحقيق الغلبة لوجهات نظره، لو لم تتفق وآراء رئيس الولايات المتحدة الأول. فقد كتب الرئيس واشنطن في رسالة وجهها في أثناء الحرب إلى الكولونيل (العقيد) جورج بايلور Georges Baylor، في ٩ كانون الثاني ١٧٧٧، يقول فيها: «لا تختاروا ضباطاً إلا من السادة، «الجنتمان»، أي ممن ينتمون إلى الطبقات العليا. وهذا ما جرى، في الأعم، إذ عندما خوّل واشنطن، في كانون الأول من العام ١٧٧٦، أي إبان حرب الاستقلال، السلطات العسكرية التامة من قبل الكونغرس، اغتنم هذه الفرصة لفصل الضباط «غير الجديرين»، ليحل محلهم ضباط من ذوي الثراء والنسب». وكان الجند يحتجون في بعض الأحيان على طغيان القائد العام واشنطن الذي ما كان يأبه لإحتجاجهم. وقد كتب أحد رواة سيرته يقول: «إن التجربة رسخت ميول واشنطن الأستقراطية، فقد تعلم على حسابه، وأدرك مدى الأذى الذي تلحقه بالجيش المجاملة المتطرفة للديمقراطية». وكان واشنطن يوضح تعليماته كما يلي: «إن ما ينبغي الاحتراس منه في اختيار الضباط، هو ألا يتقارب الضباط والجنود والأفراد كثيراً في أوضاعهم ومستوياتهم. فتسلسل المراتب، غالباً ما ينتقل من الحياة المدنية إلى الحياة العسكرية. وعندما لا يكون القدم في الخدمة عاملاً من عوامل الاختيار، فالقاعدة التي ينبغي أن تهيمن، هي أن نعرف ما إذا كان المرشح لرتبة ضابط يستطيع أن يُعَدَّ بحق من (الجنتمان)، وإذا كان يملك حقاً الإحساس بالشرف والكرامة، وسمعة يعزُّ عليه أن يغامر بها» (٤٨).

هكذا تدوم الثقة ذاتها بصفوة تُعرف بمكانتها الإجتماعية التي تحددها الثروة أما الشعب «الوضيع»، فهو يجهل «الحس بالشرف»، ولا سمعة له يغامر بها. فلا غرو إذاً أن يعتمد الضباط المتكثلون في جمعيات، بعد الحرب، إلى إتخاذ مكانهم بين أصلب المدافعين عن المشاريع المالية التي وضعها هاملتون لكي يعتمد الحكم على وسط رجال الأعمال.

أسس هؤلاء الضباط القدماء «جمعية سينسناتي» التي حددت أهدافها في بيان أصدرته في شهر أيار من العام ١٧٨٣، وهي: «الدفاع عن الحقوق التي قاتلنا من أجلها، وتدعيم وحدة الولايات والشعور القومي للذين لا بدّ منهما لسعادة الإمبراطورية» (٤٩) الأمريكية ولمكانتها في المستقبل، والمحافظة على صلات المحبة والصدقة التي توحد بين الضباط، ومد يد المعونة إلى من يحتاجون منهم إليها».

(٤٨) مؤلفات واشنطن—الجزء الرابع ص ١٣٩.

(٤٩) بدأ ظهور كلمة: «إمبراطورية»، منذ ولادة الجمهورية، في كتابات الشخصيات الكبيرة ونصوصها.

ليس في هذا البرنامج إلا ما يستحق الثناء . غير أن المبادئ الكبرى التي دونها جيفرسون في رأس إعلان الاستقلال ، لا مكان لها فيه : وأما « الحقوق » الوارد ذكرها في بيان جمعية الضباط ، فلم يُقصد بها الحرية والمساواة بين المواطنين ، أي مبادئ يلتقي عندها ويتحد شعب يكافح ، بل هي ، قبالة إنكلترا ، والدول الأخرى ، حقوق بلد ينبغي أن يتوطد فيه ويشتد الشعور بالوحدة الوطنية . أما الضباط السابقون المنتمون إلى الجمعية ، فهم ، إنطلاقاً من طريقة اختيارهم ضباطاً التي ذكرناها ، يعرفون أنفسهم ويتعرفونها في شخص قائدهم العام السابق ، واشنطن الذي تدل ملكيته مونت فرنون Mount Vernon على جذوره « الأرستوقراطية » .

لقد قبل واشنطن أن يترأس في العام ١٧٨٤ أول إجتماع للجمعية المذكورة ، أي رابطة المحاربين القدماء ، إلا أنه اعتذر عن ترؤس إجتماع العام الثاني متذرعاً بأسباب صحية ، وهو الإجتماع الذي عُقد في فلادلفيا بينما كانت تنعقد في آن واحد الجمعية التأسيسية . أما الانتفاء إليها فهو انتفاء وراثي ، استناداً إلى حق البكورية (لا يرث إلا البكر) . وكانت ميولها الأرستوقراطية تثير غيظ الجماهير وحساسيتها الديمقراطية ، ولذلك ضحى واشنطن بميوله الشخصية وتعاطفه وإياها خوفاً من تعكير الأمن ، وابتعد عنها . وفي أيار من العام ١٧٨٢ ، كتبت فئة من الضباط يرأسها ويوجهها العقيد لويس نقولا Lewis Nicola ، إلى واشنطن تحثه على الإطاحة بالجمهورية وإعلان نفسه ملكاً على أمريكا . غير أن واشنطن الذي يعلم أن النظام الملكي لم يكن مقبولاً على الصعيد الشعبي ، رفض العرض مندهشاً « دهشة مؤلة كبيرة »^(٥٠) ، فهو لا يريد أن يكون عائقاً دون الفرص المتاحة للبلد ودون الدور الذي كان يستطيع القيام به .

والضباط ، المحاربون القدماء ، المنتمون إلى « جمعية السنسناتي Cincinnati » يتعرفون أنفسهم أيضاً في شخصية هاملتون البارزة ، الذي قاد في الحرب أحد الهجومين الحاسمين على يوركنتاون Yerktown^(٥١) ، والذي كان يضع آنذاك — وهو المحامي ووزير الخزانة — أسس مجتمع يستطيع فيه الأثرياء أن يزدادوا ثراء . وقد عبّر آموس سنغلترى Amos Singletary نائب متواضع من نواب ولاية الماساشوسيتس ، عن شكوى عامة الناس وبسطائهم المساكين ، يقوله : « هؤلاء المحامون ، هؤلاء المثقفون ، والماليون .. انغ ، هؤلاء جميعاً الذين يتحدثون بتلك الكياسة المفرطة ليحملونا على أن نصدق أكاذيبهم ، نحن الأميين المساكين ، يتمنون أن تكون ملك يمينهم السلطة كلها وكذلك

(٥٠) مؤلفات واشنطن — الجزء الثامن ص ٣٠٠ .

(٥١) الهجوم الآخر قاده لا فاييت .

المال كله ، وعندئذ ، سيفعلون فعلة (الحوت الكبير) وسيبتلعونا كلنا . نحن ، سواد الشعب المساكين » .

موكب الفساد

كان أول عمل كبير يقوم به هاملتون ، لبلوغ هذا المآرب : (السيطرة على السلطة والمال) ، هو تنظيم مالية الجمهورية الأمريكية . وقد أفاد من ذلك ليعزز الروابط بين الأغنياء والدولة ، فجعل الدين الخارجي ١١٧١٠٠٠٠ دولار ، والداخلي ٤١٤٠٠٠ ر٤٢ ، أي ما يبلغ مجموعه ٥٤ مليوناً فأثرتها السنوية ٤٨٧٠٠٠ . ولم يثر أي نقاش في صدد الدين الخارجي : فكل الاتجاهات كانت متفقة على وفاء الدين وتسديد المبالغ التي أقرضتها دول أجنبية كفرنسا . غير أن الجدل بلغ حدة قصوى ، فيما يخص القروض الداخلية ، إذ أن هذه المبالغ ، حسب كلمة ليفرمور Livermore ، مندوب ولاية نيو هامبشاير New Hampshire ، كانت « من الورق النقدي الذي انخفضت قيمته أو بفوائد باهظة جداً ، أو مواد وصفقات بسعر يفوق سعرها الحقيقي ، سلمها أولئك الذين يجنون كل المرباح الناجمة عن تغير أوضاعنا وشروطنا » .

ما كان جورج واشنطن يجهل شيئاً من تلك الفضائح ، فقد كتب في العام ١٧٧٨ أي إبان الحرب ، رسالة إلى Reed^(٥٢) ، يلح فيها على ضرورة إنزال « عقاب رادع » بجميع أولئك « المجرمين ، قتلة قضيتنا ، من المحتكرين والمضاربين والمختزنين » . كما قال في رسالة وجهها إلى هاريسون^(٥٣) : « يبدو أن المضاربة وابتزاز أموال الشعب وظماً للثراء لا يرتوي ، قد تغلبت على كل اعتبار آخر ، وعلى كل قيمة إنسانية » . وجاء في رسالة له ثالثة ، كتبها في شهر آذار ١٧٧٩ : « هذه القبضة من المحتالين الساعين وراء الثراء ، وابتغاء ذلك وإرواء لجشعهم ، هل سيطيحون بالبناء الجميل الذي رفعناه ، بعد لأي زمن طويل ، وبالدم والمال ؟ .. وهل سنغدو في نهاية المطاف ، ضحايا ظمئنا للكسب والريح ؟ » .

(٥٢) جوزف ريد (١٧٤١ — ١٧٨٥) محام ، مرافق واشنطن في حرب الاستقلال مندوب ولاية بنسلفانيا إلى المؤتمر القاري — ألغى الرق في ولايته وهو من مؤسسي جامعتها .

(٥٣) بنيامين هاريسون (١٧٢٦ — ١٧٩١) أحد موقعي بيان الاستقلال ، مندوب ولاية فرجينيا إلى الكونغرس . وحاكم فرجينيا ثلاث مرات . ابنه ، وليام هاريسون (١٧٧٣ — ١٨٤١) هو الرئيس التاسع للولايات المتحدة ، وابن حفيده ، بنيامين هاريسون (١٨٣٣ — ١٩٠١) ، رئيسها الثالث والعشرون .

وإذا عدنا إلى تمييز هاملتون، نرى كيف ظهرت منذ الحرب الطبققتان، الخاصة والعامة The Few and the many. فالأولون قاموا بتمويل الجيش، وقد دُونت وسُجلت أحاديث كثيرة عن الأحمذية التي تتمتع الماء، وعن المؤن والمواد الغذائية الفاسدة، وأغطية تكاد تكون مهترئة: وهؤلاء «المتعهدون» الذين هم من الخاصة ومن النخبة، يتوقعون ويريدون أثماناً جيدة. أما العامة، سواد الشعب، فقد اشتروا بالمبالغ البسيطة التي تمكنوا من توفيرها سندات على الخزينة تصدرها الدولة ويدفع ثمنها ورقاً نقدياً. وقد طبع منها الكثير وانخفضت قيمتها حتى أن الأغنياء أصبحوا يأبون التعامل بها، وحتى أن جورج واشنطن نفسه كان يرفض أن تقبل بقيمتها الاسمية، في العلاقات التجارية الخاصة وفي وفاء ديون ما قبل الحرب. وقد كتب يقول: «إن قبولها بقيمتها الاسمية لا يخدم البلاد، بل إنه يُغني بعض الأفراد ويشجع على عدم النزاهة والأمانة.. والرجل الشريف لا يسعى إلى دفع عشرين شلناً بشلن واحد، ولربما بأقل من نصف شلن واحد.»^(٥٤) (إشارة إلى انخفاض قيمة الأوراق النقدية الكبير). غير أن سواد الشعب لا يملكون سوى تلك الأوراق النقدية، وليتمكنوا من العيش، اضطر قسم كبير منهم إلى أن يبيع بثمن بخس القسائم والسندات المالية التي أصدرتها الدولة لتمويل الجهود الحربية، ويقبض ثمناً لها تلك الأوراق النقدية التي انخفضت قيمتها كثيراً. ولكن هاملتون، تدرّع بحجة «تقوية الثقة بالدولة» وبناء ماليتها على قواعد سليمة، ليقترح شراء تلك القسائم والسندات بقيمتها الاسمية، وذلك في العام ١٧٩٠.

عندما عُرف مشروع وزير الخزانة هاملتون، هذا، بعث مضاربون من الأغنياء والتجار برسولهم إلى جميع أرجاء الولايات المتحدة، ليشتروا (مرة ثانية) أكبر عدد ممكن من تلك القسائم والسندات بأقل سعر ممكن. وإذا كانت وسائل الاتصال والنقل والإعلام آنذاك غير سريعة، ظن الجنود القدماء وصغار المزارعين والكسبة وأصحاب الحوانيت الصغيرة، والحرفيون في المناطق البعيدة، إنهم يحدون خسارتهم إذا ما باعوا قسائمهم، ١٥ سنتاً أو عشرين سنتاً مقابل دولار واحد، وأنهم عثروا بذلك على نعمة لم يكونوا يتوقعونها ولا أمل لهم بها، بينما كانت تلك العروض بالشراء، في الواقع، تمهيداً لعملية مضاربة هائلة. وهكذا أسرع المراسلون على جيادهم متجهين إلى ولاية كارولينا الشمالية، وفي المراكب إلى الجنوبية، مزودين بأوراق نقدية قيمتها جد زهيدة، ليشتروا تلك السندات التي كانت تبدو مجردة من قيمتها، والتي كان أصدقاء الكسندر هاملتون يعلمون أنها ستزدد بسعر إصدارها ذاته.

(٥٤) مؤلفات واشنطن—الجزء السادس ص ٣٢١.

وبعد مضي قرن كامل على ذلك، بدت هذه المناورة الاحتياطية عملاً عبثياً في عين أحد مشاهير ممثلي تلك الأرستقراطية التي لا رادع لها ولا ضمير، هو هنري كابوت لودج Henry Cabot Lodge^(٥٥) (الذي عين أحد أحفاده سفيراً في ساينغون ليدير الحرب الفيتنامية ويوجهها ويغطي اغتيال نغو دينه ديم)، فقد قدم التفسير الواضح، التالي حين قال: «بعد أن أخفق الكسندر هاملتون بأن يُدخل في الدستور ما يوطد النفوذ الطبقي بقصر حق التصويت على المالكين، كان يأمل أن يربط ملكية الأرض بالحكم، ويضمن للذين يملكون البلد نفوذاً كبيراً في الحكومة».

أثارت العملية عاصفة شديدة. وقد قال أحد المشتركين في الجدل المحتدم حولها، وهو جيمس جاكسون^(٥٦)، (من جورجيا)، مخاطباً الرئيس: «ثلاث سفن ياسيدي أقلعت خلال الأيام الخمسة عشر الأخيرة، لتذهب إلى حيث تشتري سندات الدولة الموجودة بين أيدي مواطنين غير مطلعين على ما يجري، إلا أنهم مواطنون شرفاء، في كارولينا الشمالية، وكارولينا الجنوبية، وجورجيا. وإن نفسي لتثور استمزازاً واستنكاراً حيال الخسة الجشعة وغير الخلقية التي ينم عليها سلوك دنيء كهذا»^(٥٧).

تدثّل في الجدل نواب آخرون تحدوهم العقلية ذاتها، حتى جيمس ماديسون، على الرغم من اتفاقه وهاملتون رأياً واتجاهاً، في توطيد دعائم حكم مركزي شديد، أعلن أن ثمة شيئاً «من الخلط الجذري القبول به، هو أن يخسر أولئك الذين قدموا بكل نية حسنة خدمات للأمة، سبعة أثمان ما هو حق لهم، بينما يستطيع الذين ليسوا جديرين بأي شيء ولا قيمة لهم في نظر البلد، أن يربحوا سبعة أضعاف المبلغ الذي قدموه أو ثمانية أضعافه».

هذه المعركة الكلامية لم يتقابل فيها، من جهة، أفراد اضطروا في سبيل العيش والبقاء إلى أن يبيعوا سنداتهم بخسارة، ومن جهة ثانية أفراد هم في غنى لا يُتيح لهم شراءها بضمن بخس فحسب، بل إن الحد الفاصل فرق أيضاً بين الولايات التي أرهقتها ظروف الحرب وأثقلت كاهلها، والولايات

(٥٥) هنري كابوت لودج، الكسندر هاملتون، بوسطن ١٨٩٩، ص: ٩٠-٩١.

(٥٦) جيمس جاكسون (١٧٥٧-١٨٠٦)، ولد في إنكترا، هاجر إلى جورجيا في ١٧٧٢، ضابط في أثناء حرب الاستقلال، أُنْتُخِبَ للمؤتمر (الكونغرس) الأول، ثم أُنْتُخِبَ لمجلس الشيوخ، ثم حاكماً لولاية جورجيا (من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١).

(٥٧) محاضر جلسات الكونغرس الأمريكي، ١٧٨٩-١٨٢٤، ٢٨ كانون الثاني ١٧٩٠.

التي لم يصحبها سوى النذر اليسير من شروها . فاقدم وزارة الخزانة الاتحادية على شراء الديون ، أفاد ولايات الماساشوستس وكارولينا الجنوبية اللتين أصدرتا العدد الأكبر من السندات . أما ولاية فرجينيا فقد استطاعت وفاء القسم الأكبر من ديونها بفضل ضرائب فادحة فرضتها على سكانها . فاعتنم هاملتون هذه الفرصة ، ليتجاهل المضاربين الأفراد ، وبينهم عدد من أصدقائه ، وليتجاهل في آن واحد ، المساومات القذرة والخسيسة التي قامت عليها ، بعد ذلك ، ثروات طائلة وراسخة . وقد دعمه في هذه النقطة جورج واشنطن الذي قال : « القروض كلها كانت من أجل القضية المشتركة ، فلماذا لا تتحملها الحكومة التي هي للجميع ؟ » .

يقف هاملتون كثيراً عند هذه الحجة القائمة على أن الولايات التي عانت من آلام الحرب مالم يعانها سواها ، ينبغي للولايات الأخرى أن تبادر إلى نجدها ، وذلك هو قانون التضامن القومي . وهاملتون مُصِيب فيما يذهب إليه ، إذ لا سبيل إلى قيام روابط متينة بين كل ولاية وأخرى ، تخضع جميعها لقوى متباعدة عن القوة المركزية ، إلا بهذا الثمن ، لكنه يعلم علم اليقين ، أن ثمة مضاربات خاصة وفردية قذرة ، كانت في أوج نشاطها ، تعمل وراء واجهته تلك . وكان عليه أن يعترف ويسلم ، وقد وُوجه من كل صوب ، بأن ليس مما يُعقل « أن يدفع لشخص ما عشرون شلناً ثمناً لليرة قد لا يكون اشتراها بسوى ثلاثة شلنات أو أربعة . يضيفون إلى ذلك أنه من العنت والإرهاق أن نزيد في سوء حظ أصحاب السندات الأولين ، الذين اضطروا إلى بيعها بخسارة جدّ فادحة ، لحاجتهم الماسة إلى ثمنها ، كما يُرجح ، وأن نجبرهم فوق ذلك ، على المساهمة في المعونة لصالح شخص ضارب على بؤسهم وريح » .

نعم ، فما لا سبيل إلى الشك فيه ، أن سواد الشعب الذين باعوا أوراقهم بخسارة واضحة لم يُسرقوا فحسب ، بل كان عليهم أيضاً أن يدفعوا ضرائب فادحة لئتاح للحكومة أن تدفع ثمنها للمضاربين بسعر الإصدار . ووزير الخزانة هاملتون أدرك من أي شخص آخر ، بآلية هذا الجهاز الذي يُتيح سرقة الفقراء مرتين ليزيد أيضاً في إثراء الأَكثَرين ثراء . وماكلاي^(٥٨) Maclay ، يبلغ به الدهول ما يحمله على أن يرى في هذا الإجراء « بادرة تنم على غباء سياسي » ، في أول الأمر ، إلا أنه سرعان ما يكف عن النظر إليه كغباء فحسب . وابتداءً من ذلك لا يصف ماكلاي أعوان هاملتون ودعائمه إلا « بالموكب الفاسد » . وقد وصف جيفرسون بدوره هذه « العملية السافلة » — كما

(٥٨) وليام ماكلاي (١٧٣٧—١٨٠٤) أُنْتُخِبَ لمجلس الشيوخ عام ١٧٨٩ عارض سياسة هاملتون ودعم بذلك وفطنة المفاهيم الديمقراطية .

يسمىها—وصفاً مسهباً. وما كتبه فيها: «ناقلو بريد، على جياد الجر والعربات وسفن سريعة تحت الخطأ في كل الجهات. وعملاء وشركاء نشيطون، في كل ولاية وكل مدينة وكل قرية، مشتركون في كل عملية ومستخدمون، والسندات يبيعها المواطنون بخمسة شلنات وبشلتين في بعض الأحيان، قبل أن يعرفوا أن الكونغرس قد تكفل شراءها بسعر إصدارها. وهكذا سُرت مبالغ طائلة من الفقير والجاهل، وتراكت ثروات».

لم يضق صدر الكسندر هاملتون بشيء من كل تلك الأمور. بل كانت حاله على النقيض. فالأفراد الذين سيغتنون بفضل أول تدبير مالي هام اتخذته الحكومة، ألن يصبحوا أنصاراً متحمسين لهذه الحكومة التي تفتح لهم باباً للإثراء ومورداً للغنى؟ غير أن المعركة بلغت من الشدة ما حمل وزير الخزانة على «استخدام ضغط الإغراء بالكسب والربح ليضمن عون الذين لا سبيل إلى إقناعهم بالمنطق والعقل»^(٥٩). فيا لها من تورية محبة ولبقة. المشاريع والتعديلات التي اقترحتها المعارضة وقدمتها، رُدَّت كلها، لأنها ليست عملية، كما قالوا، إذ كيف السبيل، في الواقع، إلى التمييز بين المكتسبين الأصليين، والمضاربين؟. إذاً يستطيع هاملتون، حينئذٍ، الذي اعتقد أنه أجاد تنظيم أنصاره وتبرير مواقفهم، أن يطلب من الكونغرس الانتقال إلى التصويت وكانت مفاجأة، فقد رفض المشروع بأكثرية ٣١ صوتاً مقابل ٢٩. وبين الذين صوتوا لصالحه، ٢١ نائباً يملكون عدداً ضخماً من السندات. لقد لعب هاملتون ببراعة، لكنه غلب.

اندحر هاملتون لكنه لم ييأس. إذ لا قبل له بالعدول عن مشروعه يربط الثروات الكبرى بالحكم لأن صوتين نقصاه.

فكيف السبيل إلى استدراك الفرصة التي فاتته؟... إن ذهن هاملتون لا تنقصه الحيلة والدهاء، كان معظم المضاربين من شمال الولايات المتحدة، وأشد المعارضة كانت من الجنوب، إذاً، فثمة مسألة أخرى تقسم البلد: هي اختيار العاصمة. وقد أُقترحت ثلاثة أمكنة: في البوتوماك Potomac، وديلاور Delaware، والسوسكهانا Susquehanna، أفلا يفسح ذلك مجالاً لمساومة تجلب دعم الأصوات التي لا غنى عنها لتبني المشاريع المالية؟ ستكون العاصمة من الجنوب، في البوتوماك، وهكذا يتم الحصول على الصوتين اللازمين للموافقة على المشروع.

هنا يدعو هاملتون، على الفور، جيفرسون إلى مأدبة طعام مع بعض الأصدقاء، ويعرض

(٥٩) هنري جونز فورد: «واشنطن وزملائه» ص ٧١.

فكرته : تُقام العاصمة مؤقتاً في فلادلفيا التي ما كان عدد سكانها آنذاك يتجاوز ٦٠.٠٠٠ نسمة ، إلا قليلاً ، ويمكن أن تستمر العاصمة هنالك عشر سنوات ، تُنقل بعدها نهائياً إلى مستنقعات ضفة البوتوماك . وهنا يروي جيفرسون رد الفعل قائلاً : « تعهد نائبان عن البوتوماك هما (وايت White ولى Lee ، إنما كان بطن وايت يهتز اهتزازاً يشبه التشنج) ، بتغيير اقتراحهما ، وأبدى هاملتون استعداده للقيام بالجزء الثاني من التسوية . وهكذا تم التصويت على القانون وأُقسمت عشرون مليون من السندات بين الولايات صاحبة الخطوة ، وقُدمت طعاماً إلى قطيع المضاربين »^(٦٠) ثم يشكو جيفرسون من تلاعب هاملتون به ، قائلاً : « لقد جعل مني أداة في يده ، واستغل جهلى وبراعتي ووضعني في رأس المؤامرة »^(٦١) .

مصالح فردية وخوف من الفوضى

كان لأحد الأشخاص ، وقد قام بدور كبير بين « الكواليس » في دعم هاملتون ، ما يدعوه إلى الاعتباط . وإننا نلجأ هنا إلى كابوت لودج^(٦٢) ، لتدوين ملاحظة له لا تنم على كثير من سوء النية ، فقد قال : « كان واشنطن في حالة الرضا والارتياح لهذا الحل ، إذ لم يكن في التسوية ما يتطلب منه تضحية ما . لقد سرتة وأفرحته الموافقة على السياسة المالية الكبرى التي وضعتها حكومته . وامتثلت نفسه جبوراً بأن تكون العاصمة ، وهي المسألة التي تثير أشد اهتمامه ، على قاب قوسين أو أدنى من أرضه في مونت فرنون Mount Vernon فلم يكن اختيار مكان العاصمة لا يتطلب أي تضحية من قبل الرئيس فحسب ، بل على نقيض هذا ، كان وجود العاصمة على قرب مزرعته يزيد في قيمة الأراضي المجاورة جميعاً » .

هكذا ، إن الأشخاص الذين عجز عن فرضهم على الجماهير نظام حكم ملكي أو أرستقراطي ، فوطنوا النفس على القبول ، بنظام حكم جمهوري ، ما كان لهم أن يضجوا بالشكوى ، وإذا كان استياء الشعب يتبدى ويجد سبيلاً إلى التعبير عن ذاته في الحانات والمقاهي ، فارتياح الأغنياء وذوي الحسب ، كان يضيء ويتألق في القاعات والأبهاء . وسرور كهذا كان يعرف كيف يُحيط ذاته بمظاهر الوفاق والكرامة . فواشنطن ، مثلاً ، عندما قبل الرئاسة ، أعلم الكونغرس بأنه لن

(٦٠) جيفرسون ، يوميات ومراسلات — الجزء الرابع ص : ٤٥٨ .

(٦١) المصدر ذاته ص ٤٥٧ و « مؤلفات واشنطن » الجزء العاشر ص ٥٥٨ .

(٦٢) هنري كابوت لودج « جورج واشنطن » بوسطن ١٨٩٩ ص : ١٠٨ — ١٠٩ .

يستطيع قبول أي أجر أو راتب لقاء الخدمات التي سيحظى بشرف أدائها إلى الأمة ، وسيكتفي بأن يتلقى من الكونغرس مبلغ نفقات عمله الرئاسي ، كما كان شأنه وهو على رأس الجيش .

وتلقت أوساط « المجتمع الراقي » بادرة على هذه الأناقة واللباقة بتعقيبات المداهنة والرياء . وتحدثوا كثيراً عن مأثرة رجل يعرف السبيل إلى الظهور بمظهر المتجرد ، المنزه عن المصلحة الشخصية . إنما لم ينخدع أحد : فرئيس الولايات المتحدة ، عندما رفض الأجر والراتب ، قد أبدع سابقة ، لو تحولت إلى عرف وتقليد يسير عليهما من يخلفه ، لاقتصرت الرئاسة العليا على الأثرياء الذين لن يخشى الملاكون سلوكهم ، في يوم من الأيام ، سلوكاً يناقض مصالح طبقتهم .

أما الكسندر هاملتون ، فلم يكن ينسى أسرته وأصدقائه ، ففي العام ١٧٨١ ، أسس مصرف شمال أمريكا ، الذي كان المسهمان الأساسيان فيه جرميا وادوورث Heremiah Wadsworth هارتفورد ، وجون . ب . تشرتش John B. Church ، نسيب هاملتون (شقيق زوجته) . هذا المصرف أقرض الحكومة القارية ٤٠٠.٠٠٠ دولار لتمويل حرب الاستقلال . وسدد هذا القرض منذ العام ١٧٨٤ مع فائدة ١٤ ٪ إلى المساهمين ، فازداد رأسمال المصرف ٥٠٠.٠٠٠ دولار وهي نتيجة كانت تُعد رائعة ، ولا سيما في حالة البلاد المنكوبة آنذاك ، حتى أن الرئيس واشنطن عندما عجز عن الحصول على إقرار المبالغ اللازمة من قبل الكونغرس ، كتب إلى العقيد جون لورنس John Laurens ، المكلف مهمة في باريس آنذاك ، رسالة ، ليطلع عليها فرانكلين ولويس السادس عشر ، وفيها يقول : « لقد استنفدت قوى البلاد ... ، ونحن وحدنا ، لا نستطيع النهوض بثقة الناس والحصول على المبالغ اللازمة لمتابعة الحرب . وبلا مال ، لن يكون أي جهد إلا جهداً ضعيفاً ، وفي الأرجح الجهد الأخير » (٦٣) .

كانت موارد البلاد قد نضبت حقاً ، ومن هذه الضائقة الخطيرة لم يكن يستطيع الاستفادة والانتفاع إلا الدائنون ، إذ كان الشعب والجيش قد عيل صبرهما . وفي السنة ذاتها التي أقرض فيها مصرف شمال أمريكا الحكومة القارية الذي درّ عليه المبلغ الطائل المذكور وقعت حوادث تمرد في وحدات عدة من وحدات الجيش . ففي العام ١٧٨١ ، تمردت وحدات ولاية بنسلفانيا العسكرية في مورريستاون Morristown ، وقتلت كل من وقف في وجهها ، وزحف الجند ، وعلى رأسهم ضباط الصف على ولاية فلادلفيا ، وهدفهم أن ينتزعوا من الكونغرس بالقوة ، ما تأخر من رواتبهم . فالجرب

(٦٣) مؤلفات واشنطن — الجزء السابع ص ٣٦٨ .

أضحت لا تعنيهم وهم يبتغون انفكاك الوحدات التي أشرفت مدة تطوعها على الانتهاء، وتسريحها . ولم تلبث وحدات نيوجرسي أن أبدت استعدادها للحدو حذوها، غير أن واشنطن طوقها، وتكرّم بمنحها ساعتين للتفكير والتراجع، ثم أجبرها على الاستسلام بلا قيد ولا شرط، وأعدم ريباً بالرصاص من ظهر أنهم قادة التمرد، ووطد دم المعدمين الأمن والنظام، واستطاع المساهمون في مصرف شمال أمريكا أن يقبضوا أرباح أسهمهم الطيبة .

أما الكسندر هاملتون، فإذا كان قد سهر على مصالح شقيق زوجته: جون ب. تشرش John B. Church، إنما لم يفته أن يرعى مصالحه الشخصية. فلعدة أشهر، قبل انتهاء النزاع المسلح، أسس بنفسه مصرف نيويورك، في حزيران ١٧٨٤، برأسمال متواضع قدره ٥١٥٠٠ دولار. وبعد سبع سنوات ازداد رأسمال المصرف أكثر من ستة أضعافه، إذ بلغ ٣١٨٢٥٠ دولار.

إن ما كانت تتمخض به الأيام آنذاك في أمريكا المتحررة من الاستعمار الإنكليزي، ليس بديمقراطية واسعة حية، بل آلة هائلة تسعى إلى جني ثروات طائلة وراسخة على حساب مصلحة الأغلبية. وقد راعت ماديسون Madison « المضاربات بأموال مقترضة بفائدة قدرها ٢٠ ٪ شهرياً وحتى ١ ٪ أسبوعياً، » وإن فائدة كهذه، من ٣٠ ٪ إلى ٢ ٪ في السنة تبعث حمى الرغبة في الأعمال والمشاريع التي تصيب كل من يستطيع سبيلاً، إلى الحصول على ثروة والتصرف بها. والأكثرون جرأة لم يكونوا يجمعون عن شيء: فقد أقدم مهربون على سرقة أوراق بعض الجنود القتلى الثبوتية. وبعض آخر زور هويات شخصية، سواء لشراء سندات الحكومة أو لقبض رواتب تقاعدية.

إن أحد المؤرخين، ممن يبدون الكثير من التلطف والود نحو مفاهيم هاملتون الاقتصادية—السياسية، يجيد وصف ولع المضاربين وكذلك خوفهم من يأس الطبقات الشعبية، ويتفصيل لا حصر لها، هوس المضاربات. هذا المرض الذي يرافق عهود الإضطرابات والفساد، والذي قذف إلى الساحة العامة بمحشود المضاربين الفلستين، والأفراد الناقمين الساخطين والجشعين السفهاء، والمشاغبين الجسورين ممن يريدون استغلال أهواء الجماهير... جماعات ترتدي الخرق البالية تجوب الشوارع وكأنها سيطرت عليها، فينتشر الذعر في الطبقات العليا. ففي الماساشوستس، سرعان ما ارتفع عدد المتمردين إلى ١٥٠٠٠ وقد أُتيح لهم، لبرهة ما، التصور أنهم سادة القارة.. إنهم يفدون من كل أرجاء البلد ويعلنونها حرباً صريحة على المجتمع والحكم، ويؤلفون جيشاً حقيقياً قادراً على أعمال الميدان، يتنامى يوماً فيوماً مما ترفده به المدن من الناقمين والهاججين

الحافقين ، يراودهم الأمل بالتهب والسلب . ويفرقهم الحرس الوطني (المليشيا) ، الذي كان الجرم مستعداً لدعمه . فينفض أولئك «الممهدون Levelers» الأولون إنما «بعد أن فتح انفجار الاشترا هذا أعين الجمهور العاقل»^(٦٤) .

كتب جيفرسون من باريس رسالة يعبر فيها عن ارتياحه لرؤية الطبقات الشعبية غير راضة مستسلمة إلى التخدير ، يقول فيها : «ليحمننا الله من البقاء عشرين عاماً متتابعة بلا فتنة كهذه، فشجرة الحرية تحتاج ، في بعض الأحيان ، إلى أن تُسقى بدم الطغاة» . غير أن شعور السكالميسوريين كان أبعد من أن يكون كشعور جيفرسون . ولقد أثارت الإضطرابات العامة خوفاً حقيقية حفز المصالح الخاصة إلى التجمع والتحالف لتكوين سلطة قوية قادرة على توطيد أمن لا بد منه لتنه الأعمال والمشاريع وسيورها .

يساور القلق كوندورسيه ، Condorcet ، فيكتب إلى فرانكلن قائلاً : «يشق على أن أروح الأرسقراطية تسرب إليكم .» ولو تكلم على عقلية «الأعمال» ، لكان أكثر إلهاماً وإطلاعاً أما الدوق دو لاروشفوكو . فهو يجزع من «سعة السلطة الممنوحة للرئيس» ، ويأمل أن يقوم واشنطن ذاته بتحديثها . إنما لم يتجه التفكير أبداً إلى ذلك ، لأن الرئيس يرى ، من جهة ، أن سلطة تنفيذ قوية هي شرط لا بد منه للتضامن الوطني ، ومن جهة ثانية ، لأنه مال إلى آراء هاملتون الذي يرى المراتب والطبقات الإجتماعية وفي التحالف بين السلطة السياسية والقوة الاقتصادية ضمان للاستقرار والإزدهار . وفي رسالة موجهة إلى لافاييت الذي كان ضد مبدأ إعادة انتخاب الرئيس يرد واشنطن على الانتقادات الصادرة من باريس ، قائلاً : «ليس ثمة أي خطر ، كما أرى ، في استطاء الرئيس أن يبقى برهة واحدة في منصبه ، بوساطة الدس والخداع ، وحتى أن يستمر ، إلا إذا بلغ الدرك الأسفل من الفساد الخُلقي والانهلال السياسي»^(٦٥) . لا ، إن اتساع سلطات الرئيس لا تثقل واشنطن ، بل على النقيض ، إن «الخطر الحقيقي الذي يهددنا — كما يقول جيفرسون — هو الفوضى»^(٦٦) .

(٦٤) كورنيليس دو ويت — قصة واشنطن . Cornelis de Witt .

(٦٥) مؤلفات واشنطن — الجزء التاسع ص ٣٥٨ . ولقد ضرب هذا المثل في «الفساد الخُلقي» و«الانحطاط السياسي» الرئيس نكسون في فضيحة ووتر غيت (١٩٧٢ — ١٩٧٤) وكان لا بد من كفاح استمر عامين لطرده من الحكم .

(٦٦) جيفرسون ، يوميات ومراسلات — الجزء الرابع ص ٤٨٠ .

عداء الشعب للدستور

إن ما يراه الرئيس إيجاباً فوضوياً ليس بالإيجاب أو الميل الذي أذهل عفواً وبلا مبرر جماهير غير مسؤولة. فلقد أحست تلك الجماهير أن ثمة قلة تنهبها وتسعى إلى وضع يدها على مكاسب الاستقلال الوطني وخيرات برمتها، وكان يقسم البلد. ويهدد بتفجيرها، حرب طبقية حقيقية، وإن كان لا يزال غير واضح المعالم والتركيب. وهاملتون، الذي ولد فقيراً، أصبح «منظر» أصحاب الأملاك وزعيمهم..، بينما غدا جيفرسون، الذي ولد في السعة والرخاء ومالك الـ ١٥٤ عبداً في فرجينيا، الناطق باسم الفقراء. وكان هو وماديسون، يخشيان كل الخشية حكماً قوياً يقيم، بالخطوات المالية (كونغرس) فاسداً ينصاع انصياعاً أعمى للسلطة التنفيذية (أي للرئيس). ولم يكنوا مخطئين، فعندما نال هاملتون موافقة الكونغرس، برغم معارضة، على تأسيس مصرف اتحادي هو المصرف الوطني، كانت الموافقة على المشروع بأكثرية ٣٥ صوتاً. غير أن هاملتون تمكن من هذه النتيجة بشراء نواب، عين ثلاثة منهم مدراء للمصرف المذكور، وواحد وعشرون منهم أصبحوا مساهمين فيه، وكان لهاملتون صحيفة يدعو فيها لأرائه وأفكاره ويثبثها فيها هي The Gazette of the United States، (جريدة الولايات المتحدة)، ومديرها جون فيمو John Fenno، الذي كلفه هاملتون أو منحه، ليضمن ولأه، احتكار طبع كل ما يصدر عن الكونغرس ووزارة الخزانة، بأجور تدر أرباحاً واضحة.

فالفساد، مهما كان مكروهاً، يكون في نظر هاملتون، أداة حكم ضرورية. وقد أقام معاونه الأول في وزارة الخزانة ويليام دور William Duer، ووزير الحرب الجنرال كنوكس مضاربة عقارية هائلة على أراضي ولاية أوهايو، Ohio، عندما سُمح باستيطانها واستثمارها منذ نهاية حرب الاستقلال (١٧٧٦). وويليام دور ذاته، أدخل حركة المضاربة على الدين العام ومعه المدعو ماكومب Macomb، وهو شريك عم هاملتون بالمصاهرة (والد زوجته). ترك وليام دور مكتب هاملتون في العام ١٧٩٠، وأفلس وأُقتيد إلى السجن.

(٦٧) مضاربة (مشروعة) بموافقة السلطة. وهي تشبه «الخالفات» في فرنسا التي أتاحت مرباح طائلة برفع قيمة الأراضي السكنية. أو بقرار يصنف في الأقسام المعدة للبناء مساحات أشتريت كمساحات أرض زراعية. وفي مضاربه (اوهايو) تبدو فظاظة الطريقة إذ أن القانون الزراعي ينص على أن أراضي شُباع بأسهم (٢٥٦ هكتار) وبسعر ٢٥٠ دولار للهكتار الواحد لكن صدر أمر ينزّل أصحاب شركة الاوهايو الأثرياء شراء ٦٠٠٠٠ هكتار من أراضي الولاية المذكورة بمليون دولار. أي بسعر ١٧ دولار للهكتار (وبالدولار القاري المنخفض).. وتكررت العملية أكثر من مرة وفي أكثر من ولاية أخرى.. وهكذا، اشتدت الأضرار، حسب رغبة هاملتون، بين الأثرياء والحكومة.

لكن لم يسع أية فضيحة من تلك الفضائح أن توقف مسيرة هاملتون . فبعد أن وضع سياسة مالية من شأنها التشجيع على عمليات المضاربة ، بقي عليه أن يحدد سياسة صناعية تحفز إنطلاقة الرأسمالية ، وهذا ما كان موضوع تقريره عن « السلع المصنوعة » (١٧٩١) . وقبل كتابته ، حمل واشنطن وجيفرسون على القيام بجولة واسعة خلال ولاية نيوجرسي ، لشرح لهما طريقته في تطوير صناعة النسيج باستخدام الطاقة المولدة من الماء . ولم تكن الثورة الصناعية قد بدأت في الولايات المتحدة ، إذ أن أول نول نسيج كان من صنع حداد من باوتكت Powtucket في العام ١٧٩٠ . وما يلاحظه هاملتون في تقريره أن أربعة من سبعة عمال في مصانع القطن في إنكلترا ، هم من النساء والأولاد ، ويضيف (أن أكثر هؤلاء في سن الحداثة الأولى) . وهاملتون لا يزعمه أن يعمل الأولاد منذ نعومة أظفارهم ، بل على النقيض ، يدفعه إلى الملاحظة « أن النساء والأولاد أضحو أكثر نفعاً للتصنيع ، وفي الأنحص الأولاد » .

الأمر إذن تسير بتحسّن . فالهدف هو تشجيع التصنيع بأن نسمح لأصحاب رؤوس الأموال باستثمار اليد العاملة من النساء والأولاد ، بأسرع ما يمكن ، غير مهتمين بشرط العمل والأجور . غير أن لجيفرسون وجهة نظر مختلفة . فقد راعه ، خلال رحلاته إلى باريس ولندن ، مصير النساء والأولاد العاملين في المصانع . ولكن الغلبة كانت لسياسة هاملتون التي عبأت لصالحها كل مَنْ في أمريكا من أصحاب النفوذ والثروات . فكما شجع القانون الزراعي (١٧٨٥) كل القادرين على شراء مساحات واسعة من الأرض وحاباهم ، كذلك كانت سياسة هاملتون الصناعية في طريقها إلى التضحية بالديمقراطية في سبيل رأس المال الناشئ .

لم تعط الأفضلية للاهتمام بتحقيق تكافؤ الفرص ، إنما للرغبة في إرساء قواعد البلد الاقتصادية ، وأبسط وسيلة لبلوغ هذا الهدف هي أن يُسمح لأصحاب رؤوس المال ، اعتماداً على الثقة بالحكم وعلى الضرائب وعلى رسوم جمركية تحمي المنتجات الصناعية الوطنية ، أن يؤسسوا — بمساعدة الدولة — مشاريع تتناقض أرباحها وأجور العمال الزهيدة تناقضاً حاداً وكبيراً . وهكذا تستطيع الصناعة الأمريكية المزدهرة في حماية رسوم جمركية عالية ، أن تبيع منتجاتها بأسعار باهظة ، وأن تحقق بسرعة ، على حساب العمال والمستهلكين ، تكديس رأس المال ، أي مورد استثمارات جديدة .

أما المأجورون (كل من يعيش من أجر عمله) ، فسيقيمون على البؤس والفقر ، وهذا ما سيثير نزاعات إجتماعية خطيرة وانقسامات سياسية عميقة ، وستكثر القلاقل التي سيُتاح السبيل إلى قمعها

بقدر ما يعتمد المالكون في ذلك على الدولة ، الحارسة نظاماً يستند على قوى الأمن . ولم يكن سبب تفوق الاتجاه الرأسمالي على الاتجاه الديمقراطي حدث أو عرض تاريخي ، بل حساب مدروس . ففي الواقع ، كانت المناقشات الدستورية تفيض بالتصريحات الرنانة مُدنية أخطار العقلية الديمقراطية . ولم يكن هاملتون وحده المجلي في تلك الحرب الصليبية . فالرأي السائد في الوسط « الراقي » قد أجاد التعبير عنه القاضي كانت Kant ، (نيويورك) . عندما أكد بلا أي مواربة قائلاً : « ينبغي لمجلس الشيوخ أن يمثل الملكية ومصالح ملاكي الأرض ، ويحميهم من نزوات جماهير الفقراء والمهاجرين الجدد والعمال ، وعمال الأجر المقطوع .. تلك الجماهير المتباينة ، والطبقات التي لا تميز بينها حدود واضحة ، من السكان الذين لا بدّ من أن تجذبهم ولاية أو مدينة كولاييتا ومدينتنا . إن الانتخاب العام يقوّض أسس الملكية ويضع في يد الفقير والفاقد إمكان السيطرة على الأثرياء » .

الازدواجية التي اتسمت بها حرب الاستقلال ظهرت في المناقشات الدستورية : فلما لم يقع اختيار ملاكي الأرض والأغنياء على الولاء للتاج البريطاني ، خاضوا الحرب ليجنبوا امتيازاتهم الاقتصادية السيطرة والقيود التي كانت إنكلترا تحاول فرضها لوفاء ديونها الناجمة عن حرب السنوات السبع . أما صغار المزارعين والحرفيون والبائسون والمهاجرون الجدد فقد قاتلوا ، ليحصلوا ، مع الاستقلال الوطني ، على نظام ديمقراطي حقاً . وقد وجدوا أمامهم أرستقراطية فتية لم تكن تسودها عقلية ليل الرابع من شهر آب^(٦٨) لكن قوة العدد كانت إلى جانب سواد الشعب ، وكان على المالكين أن يقبلوا بالانتخاب العام ، لخوفهم من وقوع نزاعات دامية ، وكذلك بدستور ديمقراطي تبين فيه ريشارد هنري Richard Henry^(٦٩) « إتجهاً أرستقراطياً واضحاً وشديداً » .

لهذا السبب ، قاد بعد ذلك الرئيس المقبل جيمس مونرو James Monroe المعركة في فرجينيا ضد الدستور الذي تمت الموافقة عليه أخيراً ، في هذه الولاية ، بأكثرية ضئيلة من ٨٩ صوتاً عارضها ٧٩ . وفي نيويورك ، قاتل هاملتون كالأسد من أجل الدستور الذي فاز بثلاثين صوتاً ضد سبعة وعشرين . أما في ولاية نيو هامبشاير New Hampshire ، فقد نال الدستور ٥٧ صوتاً ضد ٤٦ ، وفي الماساشوستس ١٨٧ ضد ١٦٨ ، وقد كتب الجنرال كنوكس عن المعركة الانتخابية في هذه الولاية ،

(٦٨) في الثورة الفرنسية ، ١٧٨٩ ، الليلة التي أُلغى فيها المجلس التأسيسي امتيازات الإقطاع والنبل .

(٦٩) (١٧٣٢ — ١٧٩٤) ، صديق جيفرسون السيامي وباتريك هنري ، مندوب فرجينيا ومثلها في المؤتمر القاري الأول ورئيس المؤتمر في ١٧٨٥ ، عارض إقرار الدستور ، وأنتخب عضواً لمجلس الشيوخ عن فرجينيا — المسهم الأول والأساسي في وضع التعديل العاشر الذي يحول الولايات السلطات والصلاحيات التي لم تقصر على السلطة الاتحادية .

ومما قاله : لقد أهد الدستور « الأفراد الذين يعملون في التجارة ومعهم كل أصحاب الملكيات الكبيرة جميعاً ، ورجال الدين والقانون » . وعارضه « المتمردون والمتعاطفون وإياهم ، الذين طالب معظمهم بإلغاء الديون العامة والخاصة » .

كان دستور الولايات المتحدة ، كدساتير العالم جميعاً ، ثمرة تسوية بين مصالح متناقضة ستبقى متعارضة متجابهة خلال قرنين من التاريخ . والثورة الأمريكية ، كانت ، كالثورة الفرنسية ، ثورة « برجوازية » محكوم عليها أن تقدم تنازلات للطبقات الشعبية ، بينما لن تكف هذه عن الكفاح من أجل توسيع ما أعطيته من سلطة ، على مضض يشوبه الخوف والقلق . ولقد أشاد معظم المؤرخين « بحكمة » الآباء المؤسسين الذين عرفوا ألا يقطعوا شعرة معاوية بوضعهم وثيقة « هي الدستور » تنظم توازناً دقيقاً ، وتحدد قواعد السجال في المعارك السياسية — الاجتماعية . غير أن هذه الحكمة لم تكن خالية من حساب بارع ، من شأنه ، بعد إقرار الدستور على الرغم من معارضة شعبية شديدة ، أن يحمل الحكومات الأولى في الجمهورية الأمريكية على أن تبذل الجهد ، لتعوض ، في الوقائع والأعمال ، عما اضطرت إلى التخلي عنه ، في النصوص ، من سلطات ، وذلك بالتدابير والإجراءات الاقتصادية التي اتخذتها .

كتب الكسندر هاملتون إلى أحد أصدقائه ليعبر عن قلقه البالغ والأكبر ، وذلك بعد تركه الحكم ليستأنف العمل في شؤونه الخاصة ، وفي الليلة السابقة للمبارزة التي أودت به إلى الموت . وفي رسالته تلك إلى صديق يهيمه ، كما يقول ، أن يطلعه على « شعور واحد » هو خوفه من أن يكون قد حكم على البلد « بالتجزئة » من جراء تفاقم « مرضنا الحقيقي ، أي الديمقراطية التي ينتشر سمها ، وبانتشاره سيزداد تكثفاً ويكون إذاً أشد فتكاً »^(٧٠) . ولم يخطئ هاملتون : فعلى الرغم من التدابير المتخذة لمقاومة الديمقراطية حقق « سمها » تقدماً ، بخطى بطيئة في أول الأمر ، وفي بعض الأحيان صاعقة ومذهلة ، فقد أقر حق الانتخاب العام تحت الضغط الشعبي الذي تبدى على أيدي أصدقاء جيفرسون وماديسون ، بينما كان الاتحاديون يأملون بأن يقتصر حق الانتخاب على دافعي ضرائب (معينة) . وتحت الضغط ذاته ، أقر إدخال « ميثاق الحقوق » في الدستور (عام ١٧٩١) . والجمهوريون الأمريكيون ، وهم ورثة الاتحاديين ، يدعمون الأعراف والتقاليد التي تشدهم برباط وثيق إلى أوساط الأعمال والمشاريع ، وهم كالاتحاديين ، يتذرعون دائماً باحترام القانون والنظام ، حيال

(٧٠) هاملتون ، مؤلفات — الجزء العاشر ص : ٤٥٨ .

الإخلال بالأمن والإضطرابات التي تقوم بها الفئات الإجتماعية والعنصرية الساعية إلى الحصول على حرياتهما أو تدعيمها^(٧١).

إن حكومة تعتمد على أرستقراطية المال بقوة، تميل بطبيعتها إلى تفضيل الاتجاه الرأسمالي على الديمقراطي. وهدفها الأول هو تحقيق قدرة البلد الاقتصادية، مهما يكن الثمن الإجتماعي والإنساني. ومنذ إنطلاق الثورة، كانت فرصة الاتحاديين التاريخية الكبرى أن يكون خصومهم عاجزين عن وضع سياسة صناعية أخرى، وألا يفكروا بإمكان تحقيق ديمقراطية ما، إلا في نطاق مجتمعات ريفية صغيرة. وهكذا مُنيت ديمقراطية جيفرسون (الديمقراطية الجيفرسونية) بخطأ تاريخي، عند عتبة الثورة الصناعية. وعلى الرغم من هذا الخطأ في النظر إلى الأمور، يبقى أصدقاء جيفرسون حملة المثل الأعلى الديمقراطي الحقيقي، هذا المثل الذي اتضح بعد ذلك، وتحدّد في القرنين التاسع عشر والعشرين من خلال كفاح منظمات العمال والفلاحين ومقاومتها «رأس المال الكبير» أو خلال نضال السود في وجه سيطرة البيض. ومعارك الكفاح والنضال هذه آلت إلى انتصارات حقبة للروح الديمقراطية على الرأسمالية. إلا أنها لم تصل إلى حدّ الكمال الذي كان يسعها أن تبلغه لو لم تؤثر الجمهورية (الأمريكية)، منذ البدء، النظام والسلطة على الحرية، والإزدهار الرأسمالي على تعميق الديمقراطية وترسيخها.

«الجمعيات الديمقراطية»

إذا كانت العداوة الفرنسية—البريطانية قد حملت لويس السادس عشر، ملك فرنسا على الاسهام في ولادة الجمهورية الأمريكية، فالثورة الفرنسية زادت في عمق الهوة التي كانت تفصل بين الفئتين اللتين قادهما هاملتون وجيفرسون. ولقد شهدت أرض الولايات المتحدة لإزدهار نوادٍ و«جمعيات ديمقراطية»، على غرار نادي اليعاقبة الفرنسي، كان يتجمع فيها جميع «الحفاة» ليتداولوا أنباء الساعة ويقرؤوا مقالات توم بين Tom Paine، الهجائية الثورية، ويستعرضوا دسائس الأغنياء، والمطالب التي ينبغي أن يجابهوهم بها. وقد تلقوا أنباء انتصار دوموريه Dumouriez و Kellerman، في معركة فالمي Valmy بمعالم الفرح الشعبي الكبير في بوسطن ونيويورك. أما الطبقة الموسرة، فقد كان أفرادها يسخرون من أفراد الشعب الذين يتبادلون التحية متنادين باسم «مواطن»، ويرفعون الأعلام

(٧١) الفصل الثاني من هذا الكتاب.

والشارات المثلثة الألوان (العلم الفرنسي)، وينشدون المارسييز (نشيد الثورة الفرنسية). وقد بدل السكان في نيويورك اسم شارع الملك بشارع الحرية، وكذلك في بوسطن.

عندما وصلت السفينة التي أقلت وزير فرنسا المفوض شارل إدمون جونييه Charles-Edmond Genet إلى شارلستون Charleston في نيسان ١٧٩٣، استقبلته الأوساط الشعبية بوصفه ممثلاً للثورة الفرنسية، بحماسة هائلة، والأغنياء والوجهاء بكثير من الحذر والتحفظ. وعندما استقبله واشنطن بفتور واضح في المقابلة الأولى، كانت صورتا لويس السادس عشر وماري أنطوانيت تحتلان أفضل مكان في بهو الرئاسة. وأما في الطريق، من شارلستون إلى فلادلفيا حيث مقر الحكومة، فقد كانت رحلة الوزير الفرنسي رحلة مظففة دامت شهراً كاملاً. فالثورة الفرنسية، في نظر الشعب الأمريكي، تمثل العمل الذي لم تكن قد حققت الثورة الأمريكية وهو الإطاحة بالطبقة المسيطرة.

وحيال نجاح رجل يجسد كل ما يكرهه ذوو التفكير الرصين أبدى هؤلاء من القلق ما بلغ حد الفظاظ، وقد أوجز كاتب، ذكرناه، هو هنري كابوت لودج، ردود فعلهم بعد انقضاء قرن على ذلك، وبما كتبه:

«لقد بذر جونييه بذور قلق واضطرابات متعددة، ومنها فكرة الجمعيات المنظمة على غرار نادي اليعاقبة. أما أن يبلغ مواطنون أمريكيون من قلة احترامهم لأنفسهم، إلى حد استعمال لغة باريس السياسية وعاداتها وطرائقها. فهذا ما يبعث على الأسف الشديد. فإتخاذهم القبعات الحمراء لباساً.. وشرهم نخب تحطيم الطغاة، وإنشادهم الأناشيد الثورية، وتناديهم باسم «مواطن».. كل ذلك من الجنون الذي كان يبلغ حد الخبل والعتة. إنما في الأقل لم يكن هذا ليسبب الطرد لأحد ما، لكن عندما بدأ هؤلاء الناس يؤلفون «جمعيات ديمقراطية» من أجل الدفاع عن الحرية ضد حكومة كونها الشعب، فقد تحولوا من حمقى إلى أشرار. فهذه المؤسسات، التي كانت تقليداً أخرق لمثيلائها الفرنسية، والتي لا مبرر حقيقي لدفاعها عن الحرية، أضحت تنظيمات منحازة، يحدوها ميل شديد إلى الإباحية والفضوى، وكان واشنطن ينظر إليهم باشمئزاز واضح، فإليهم، في رأيه يُعزى الهيجان والاستياء لدى المستوطنين المقيمين عبر الجبال».

لم يكن وجود شارل إدمون جونييه، سبب هذا الغليان الشعبي، فكل ما كان من شأنه، هو أن بعض خطبه قد حفزت نقمة الرجل العادي على السلطة والوجهاء وأذكت أمله. إن وزير فرنسا

قد أوجد للحكومة الأمريكية صعوبات لها شأنها ، باستناده إلى معاهدة التجارة والصداقة المعقودة بين فرنسا والولايات المتحدة في العام ١٧٧٨ ، ليعبئ أفراداً أمريكيين ويجعل منهم بحارة على سفن القرصنة لمطاردة السفن الإنكليزية . وقد دفعت بادرته هذه الولايات المتحدة إلى أن تطلب استدعاءه إلى فرنسا ، إلا أنه بدلاً من أن يعود إلى فرنسا ويواجه حكم الإرهاب ! بقي في أمريكا حيث تزوج ابنة الحاكم كلنتون Clinton . وإلى جانب هذا الحادث الدبلوماسي الذي تمت تسويته سريعاً ، كانت المعركة الداخلية الحقيقية تكمن في نشاط «الجمعيات الديمقراطية» ، وهي معركة كان يتجابه فيها حراس نظام بورجوازي ، وأنصار اتساع الحريات . وقد كتب جورج واشنطن يقول :

«إن الجمعيات الديمقراطية هي التي أثارت الفتن في الغرب (غرب أمريكا) . فقد أبدت وجهات نظر ، ستؤدي إلى القضاء عليها بأسرع مما نأمل . وقد توقعْتُ منذ البدء أنها ستزعزع الحكومة ، حتى في أسسها ، إن لم يقاوم تأثيرها باستنكار أصدقاء النظام والحكومة الصالحة ، وليس بالملاحقات القضائية (التي ستكون أفضل الوسائل لتقويتها)»^(٧٢) إذاً فالنظام أولاً ، ولو كان ذلك بامتهان القواعد الحقوقية ، النظام الذي لا سبيل إلى إزدهار النظام الرأسمالي إلّا به . غير أن جيفرسون ينتصب في وجه الرئيس واشنطن ، وهاهو يقول في رسالة إلى صديقه ماديسون : «إن التهجم على الجمعيات الديمقراطية هو من ملاح الصفافة الهائلة التي عودتنا عليها زمرة حكم الفرد الواحد ، فمن الغريب حقاً أن يسمح الرئيس لنفسه بأن يكون أداة هجوم كهذه على حرية المناقشة ، وحرية الكتابة والطبع والنشر»^(٧٣) .

لقد عمد جون أدامز ، بعد انقضاء بضع سنوات على ذلك ، إلى تلطّيح اللوحة بقوله : «إنه الإرهاب الذي أذكى جونه شعلته في العام ١٧٩٣ ، عندما راحت عشرات الألوف من الناس ، في شوارع فلادلفيا ، ويوماً بعد يوم ، تهدد بإخراج واشنطن من بيته وبإشعال نار الثورة» . وفي الواقع ، كان لا بدّ لجون أدامز من أي يكون حقاً على ضلال مبين ، كي يصف الحالة بهذه التعابير المأساوية إلى حد كبير . لكن في ذلك العهد وكما جرى بعده في أيام الاضطرابات الوطنية الكبرى ، أو في عهود «مطاردة الساحرات» ، كان الخوف أقوى على تعبئة الجماهير من الميل إلى الحرية . و«الجمعيات الديمقراطية» التي أقضت مضاجع واشنطن وهاملتون وطبقة أصحاب الامتيازات كلها ، لم تكن في الواقع تهديداً خطيراً . كانت على اتصال بعضها ببعض ، إلا أنها كانت متفرقة بلا

(٧٢) مؤلفات واشنطن — الجزء العاشر ص ٤٢٩ ، ٤٥٤ .

(٧٣) جيفرسون ، يوميات ومراسلات .

ادارة مشتركة، في وجه حكومة قادرة على زج الحرس الوطني ضدها، ثم هناك واشنطن الذي عمد في الواقع إلى تحطيمها^(٧٤).

التقدم الصناعي وثمنه الإنساني

بينما كان القائمون على السلطة يولون الأفضلية لبناء اقتصاد متين. شهدت الرأسمالية أجمل أيامها. ففي عهد هاملتون أرسى هذا تقريره عن الصناعة Report of Manufactures على قواعد رأسمالية فعالة وحيوية. وعندما وصل جيفرسون إلى الرئاسة (١٨٠١ — ١٨٠٩)، بعد واشنطنون (مدة رئاستين متتابتين ١٧٨٩ — ١٧٩٧)، وبعد جون أدامز (١٧٩٧ — ١٨٠١)، تخلى عن حلمه الضبابي بديمقراطية زراعية تنظم بوحدات صغيرة وفي مستوى إنساني، وتحول إلى ضرورة الاقتناع بالتصنيع، سار أسلافه على النهج ذاته، وكان ينبغي انتظار اندرو جاكسون Andrew Jackson، ليدخل البيت الأبيض رجل من الشعب (١٨٣٢ — ١٨٣٦) فيلغي للمال بعض امتيازاته.

من العام ١٨٢٠ إلى ١٨٦٠، ارتفع رأس المال الموظف في الصناعة من ٥٠ مليون دولار إلى ألف مليون وتقدمت الزراعة أيضاً تقدماً سريعاً جداً، بتأثير الآلة (المكننة): فقد كان مزارعو الجنوب، في عهد واشنطنون، ينتجون مليوني ليرة من القطن، وزاد الإنتاج ألف ضعف في العام ١٨٦٠، قبيل حرب الانفصال، وفي آن واحد، وعلى الرغم من دخول الآلة ودعمها، رفعوا عدد عبيدهم من ٧٠٠.٠٠٠ إلى أربعة ملايين.

دفع العمال غالباً ثمن هذا التقدم الاقتصادي، فقد كانوا يعملون منذ شروق الشمس حتى الساعة الثانية والعشرين، وسواء وجدت ديمقراطية أم لم توجد، فمعاملتهم كانت كمعاملة العمال الأوربيين في المرحلة الزمنية ذاتها. وكان ترتيب الأسعار دليلاً على صحة ملاحظات هاملتون وآرائه في عمل النساء والأولاد: إذ بينما كان الرجل يأخذ من ٢٥ إلى ٨٥ دولار في الأسبوع، لم تكن النساء يأخذن سوى ٢٥ دولار، والأولاد نصف دولار (مع المسكن لأن رؤساء المشاريع أدركوا أن مراقبتهم أسهل في هذه الحال). وعلى الفتيات اللواتي يعملن في المشروع أن يعشن في مهاجع هياها لهم أصحابه، ويعاقبن على الفور، بالفصل عن العمل، إذا ما عدن مساءً إلى المهجع بعد الساعة

(٧٤) الفصل الثاني من هذا الكتاب.

المعينة . وكل تأخر عن ابتداء العمل يلزمهم بغرامة قدرها ١٢ر٥ سنتيم ، كما عليهم ، عند قبولهم في العمل ، أن يتعهدن بعدم الانتماء إلى أية منظمة وجدت ، لتحسين أوضاعهن ، وإلا خسرن أجورهن . وفي أحيان كثيرة ، لم تكن هذه الأجور تُدفع سوى مرتين في العام ، وهكذا تؤدي أية محاولة تتوخى تنظيماً نقابياً إلى ضياع عدة أشهر من العمل . لذلك كان ظهور حركة نقابية حقيقية آنذاك وهما من الأوهام . وكان ينبغي انتظار أواخر القرن التاسع عشر ، ليكون للمنظمات العمالية بعض الشأن والخطر ، كما كان ينبغي انتظار العهد الجديد « New Deal » ، كي يُعترف لهم شرعياً بحقوق المواطنة ، بفضل قانون واغنر : Wagner (١٩٣٥) .

والظاهرة الهامة جداً ، هي أن أوائل القرن التاسع عشر تميزت بقيام Factory towns تجمعات سكنية حول المعمل ، الذي تُشرف إدارته على بلديتها وعلى رجال الدين فيها وعلى الصحف والشرطة والقضاة الخ .. وهكذا ، تؤلف المدينة ، تحت سلطة رب العمل ، كتلة يعجز العمال عن مناوأتها عجزاً تاماً . وهكذا أيضاً ، تكون أمنية جون جاي John Jay : إن « الذين يملكون البلد عليهم أن يحكموه » (٧٥) ، قد تحققت كاملة في هذه التجمعات السكنية ، حيث لا سبيل إلى القيام بأي عمل ينافي إرادة رب العمل ، أو بلا موافقته . فالديمقراطية ليس لها أي مكان هنا . والسلطات المحلية تعين ، بلا شك ، بطريق الانتخاب ، إلا أن المنتخبين هم تحت أوامر رئيس المشروع ، (البارون) ، السيد في إقطاعته بلا منازع .

إن استثمار منجم ما أو بناء معمل ما يسببان ظهور مدينة وقيامها ، مدينة خاضعة لسلطان فرد واحد ، يحدد الأجور كما يشاء ويكره العمال على التموّن من مخازنه وحوائثه ويحدد ثمن الأرض ، ويشتري تعاون « النخبة » وإياه . ويضع في السجن ويطرد من العمل ، وإذا ما دعت الحاجة يقتل غير المرغوب فيهم ومثيري الفتن . فالنظام سائد وهو نظام أحادي متراس ، يلقى المشروع في حماه كل الإزدهار ! ...

إن أسماء بعض هذه التجمعات ، ستسم تاريخ الحركة العمالية . ففيها وقعت أعنف النزاعات ، لأن البنية الاقتصادية — السياسية قد أبعدت الآليات الباردة التي فكرت فيها الديمقراطية اللبرالية لتخفيف حدة الصدمات ، لذلك بلغ سحق العمال أوجه فيها ، وفيها ظن رب العمل نفسه مخولاً اللجوء إلى أشد التدابير قسوة لحماية امتيازاته . إن نظام التجمعات المذكورة Factory Towns ،

(٧٥) الفصل الأول من هذا الكتاب .

هو من الأسباب الأساسية للعنف المذهل الذي اتسمت به النزاعات النقابية في الولايات المتحدة ، ولم يعرف له نظير في أوروبا . لكنها ، ليست إلا صورة « كاريكاتورية » فظة عن التنظيم الصناعي على مستوى الأمة . وبينما ، بتأثير هاملتون ودفعه ، اتخذت الإجراءات الضريبية والجمركية الكفيلة بالحث على تقدم الصناعة ، لم يتجه التفكير أبداً إلى حماية العمال وإلى إتخاذ أي تدبير في هذا السبيل... فهم يستطيعون أن يقترعوا ، لكن حسب مشيئة الاتحاديين التي عبروا عنها خلال المناقشات الدستورية ، ارتبطت السلطة السياسية بالقوة الاقتصادية ارتباطاً وثيقاً وأضحّت خادماً لها ، وكرد فعل ، كانت تظهر إلى حيز الوجود الطوباويات التي تلهم القيام بمبادرات أريحية ، سرعان ما كانت تؤول جميعها إلى الإخفاق .

إلا أن شيئاً ما بدأ يتغير عندما رفض الرئيس اندرو جاكسون Andrew Jackson في العام ١٨٣٢ الموافقة على القانون القاضي بتجديد صك الامتياز الممنوح لمصرف الولايات المتحدة . فمنذ عهد هاملتون كان نظام المصارف ، ذات الصكوك ، من الامتيازات الأساسية الممنوحة لأصحاب رؤوس الأموال ، فعندما تمنح الحكومة أحد المصارف صك امتياز ، يصبح هذا المصرف مخولاً حق إصدار نقد ، سرعان ما كانت تنخفض قيمته في أحيان كثيرة ، فيشتريه رجال الأعمال بسعر منخفض في سوق Wall Street ، ويستخدمونه بسعره الاسمي (النظري) في دفع الأجور ، وهي في الأصل زهيدة ، فتزداد انخفاضاً بهذه الطريقة . وكان المصرف ، في آن واحد ، يعطي قروضاً ، تدفع للمدينين بالنقد ذاته وبفائدة مرتفعة جداً . وعندما كان مارتان بورن Martin Van Buren حاكماً لولاية نيويورك ، قبل أن يصبح رئيساً للولايات المتحدة ، أدان « المصارف ذات صكوك الامتياز » بوصفها وسيلة لنهب الطبقات الكادحة . وكان من البدهي أن ينال رأس المال من ذلك نصيبه .

وهاهو ، اندرو جاكسون ، أول رئيس من منشأ بسيط ، الذي كانت خشونته ، وفظاظته أحياناً ، تريعان ذوي الحسب والنسب ، يُحیی في الشعب آمالاً عريضة برفضه الموافقة على صك الامتياز المذكور لمصرف الولايات المتحدة . وقد سببت أقواله في هذا الشأن التأييد الحار من بعض المواطنين وعداءً لدوداً من بعض آخر . فمما قاله : « من المؤسف أن الأغنياء الأقوياء يُخضعون قوانين الحكومة ، في أحيان كثيرة ، لخدمة مآربهم الأنانية ، فعندما يكون من شأن القوانين أن تزيد في غنى الأغنياء وفي قدرة الأقوياء ، فإن لأبسط أفراد المجتمع ، ممن لا وقت لهم ولا وسائل للحصول على حظوات كهذه ، الحق أن يشكوا من جور حكومتهم » .

إن الرئيس اندرو جاكسون ، قد فتح أول ثغرة في الحلف المقدس الذي يجمع بين السلطة السياسية وقادة الصناعة (وبارونات) المال ، بممارسة حقه في الاعتراض . غير أن الرأسمالية الشرسة كانت تملك وسائل أخرى ، وهذا ما يُتيح لصاحب مشروع ما ، أن يتحدث عن عماله ، قائلاً : « طالما يستطيعون القيام بعمل بالآجر الذي اختاره لهم ، فأنا أحتفظ بهم ، آخذاً منهم كل ما يسعني أخذه . فعندما يتقدم الزمن على الآلي وتغدو غير صالحة للاستعمال ، أرمي بها جانباً واستبدلها بأخرى جديدة ، وهؤلاء الناس (العمال) جزء من آلائي » (٧٦) .

إن جموع العمال والمهاجرين الذين قدموا إلى أمريكا صفر الأيدي وغالباً لا يعرفون لغة البلد ، راودهم الأمل بالعيش في مجتمع يعترف بحقوق أفرادهم جميعاً ، على قدم المساواة . إلا أنهم اكتشفوا مجتمعاً يميل ، أولاً وقبل أي شيء آخر ، إلى تكديس الثروات المقصورة على قلة منه . وليس ما هو أكثر صعوبة من تعايش الديمقراطية ورأس المال في تلك المرحلة ، حين كانت الجمهورية تشعر أنها لما تتوطد ، فتتحول الديمقراطية عندئذ إلى بادرة أو حركة ، كل قوامها أن تضع بطاقة الانتخاب في علبة ما ، بينما لا يغامر المنتخبون بتحديد سلطان رجال الأعمال الذي ليس ما يكبح جماحه . كما أن الأحزاب السياسية لا وجود حقيقي لها خارج نطاق مراحل الانتخابات ، لا يزال هذا المفهوم سائداً حتى الآن . وكثيراً ما حذر واشنطن أصدقاءه ومن يتحدث إليهم من مغبة الخطر الذي تنطوي عليه الأحزاب السياسية . فهي في نظره ، مصدر انقسامات قمينة بتعريض بقاء الأمة للخطر . وإذا كانت الديمقراطية سريعة العطب وضعيفة البنية ، تتخللها وتميزها جوهرياً اقتراعات وانتخابات عرضية ، فالرأسمالية هي القضية الكبرى الدائمة . فالمال ملكها ، وقرارات رؤساء المشاريع فيما يخص ساعات العمل اليومي ومستوى الأجور تؤثر في حياة الشعب اليومية ومعيشته أكثر مما تستطيع أن تؤثر مداولات المجالس المحلية أو الوطنية المنتخبة انتخاباً حراً .

مهما يكن الأمر ، فالقوى المحافظة المرتبطة بإنجاح الاتجاه الرأسمالي ، لا تتردد في اللجوء إلى أية وسيلة من شأنها إقصاء كل من يحاول إذكاء شعلة الحياة . ويضرب لنا المثل على ذلك تاريخ « جمعية سانت توماني Saciétté de St Tommany ، في نيويورك ، التي أضحت معقل الحزب الديمقراطي . فقد تأسست في عصر الاستعمار ، ودبت فيها الحياة في العام ١٧٨٩ بدفع وليام مونيسي William Mooney وتحريكه ، فقد جعل منها حركة سياسية فعالة في خدمة الطبقات الشعبية المرفودة بتدفق المهاجرين ، بلا انقطاع . وهي ، جمعية تقدمية ، كانت تسعى لحماية العمال من سوء

(٧٦) ذكر ذلك سدي لانس Sidney Lens في كتابه رادكالية في أمريكا .

استغلال أرباب العمل ، كما كان من الطبيعي أن تقوم بحملة انتخابية لصالح جيفرسون ووصوله إلى الرئاسة ، وكانت المعركة القاسية ، فجيفرسون في نظر السلطة والنظام ، الرجل الذي ينبغي إسقاطه ، فهو قد خان طبقته ووقف مدافعاً عن رجل الشارع ، في وجه السياسة التي كان يدعو إليها هاملتون وأصدقائه . أفلا يهدد وصوله إلى الرئاسة العليا بتدمير ما بناه مالكو البلد وحكامه ؟ ...

أما هاملتون ، فهو يرى أن لا سبيل إلى التردد . « ففي أوقات كهذه ، كما كتب في رسالة إلى صديقه جون جاي ، « لا جدوى في التردد والشك » . ثم يوضح فكرته قائلاً : إنه لا يرى أي مانع من إتخاذ تدابير شرعية ودستورية للحؤول دون إمساك هذا الرجل (جيفرسون) ، الملحد في الدين والمتعصب في السياسة ، بدفة قيادة الدولة »^(٧٧) . فلماذا يلجأ إلى « تدابير قانونية ودستورية » بينما هو يؤكد ، في آن واحد ، ألا جدوى من « التردد والتفكير كثيراً » ؟ إن تعبيره لا يعنى سوى أن التلاعب بالقوانين والدستور أمر ممكن ، لبلوغ غايات لا يقرها الدستور والقوانين . وفي الواقع ، كانت المعركة شاقة ، إلا أن جميع المناورات المُعدّة للحيلولة دون فوز جيفرسون قد باءت بالإخفاق .

لم يتردد أصدقاء هاملتون ، على الرغم من أنهم « دعاة حكومة قوية » في إشهار سلاح التهديد بالانفصال عن إنكلترا الجديدة^(٧٨) إذا فاز جيفرسون .

هكذا اتخذ عمل جمعية سانت تاماني لصالح جيفرسون معنى واضحاً هو كفاح الشعب في وجه أرستقراطية المال ، لكنّ المال والفساد يتدبران الكثير من الأمور ، فبعد مضي سنوات معدودة على انتخاب جيفرسون للرئاسة ، غيرت الجمعية المذكورة خطها ، وقعت تحت سيطرة المحافظين . وعندما عقدت في تشرين الثاني من العام ١٨٣٥ إجتماعاً لتعيين أسماء المرشحين لانتخابات الرئاسة ، تلقى الجمهور بصيحات استنكار الأسماء التي تقدمها إدارة محافظة ومنحازة إلى النظام القائم . غير أن الإدارة لم تفقد رباطة جأشها ، بل غادرت قاعة الإجتماع بهدوء مؤكدة أن لائحة مرشحيها قد قُبِلت . وهنا استولى اليسار على منبر الخطابة ، على الفور ، ليعرض على المجتمعين لائحة بأسماء المرشحين التقدميين . كانت القاعة منارة بقناديل الغاز ، فعند اليمين إلى قطعه لإنهاء المناقشات . وما كاد يخيم الظلام ، حتى أخرج العمال — وقد اختلطوا لكل طارئ — شموعاً من

(٧٧) كلود بويرز ، المصدر نفسه ، ص : ٤٥٤ .

(٧٨) الولايات المتحدة .

جيوبهم أشعلوها بكبريت « لوكوفوكس Locofocos » فأضحى هذا الاسم يشير إلى العمال العازمين على الرد على سوء استغلال أرباب العمل وعلى استغلال مجالس البلدية المؤثرة بأمرهم، وعلى استغلال الادارة القديمة التي « باعت نفسها » لمن ينبغي لها مقاومتهم، وفي الواقع، إن العمال « اللوكوفوكس » الذين هم رواد النقابيين، ستلهج الألسنة بهم. فقد نظموا إضرابات، وجهه كورنيليوس لورانس (حاكم نيويورك) Cornelius Lowrenee لقمعها قوات الحرس الوطني (المليشيا). وفي العام ١٨٣٥، أقتيد خمسة وعشرون خياطاً تجرؤوا على التجمع في نقابة، للمثول أمام المحاكم بتهمة التآمر. وهذا الإجراء الذي شاع تطبيقه في تلك الحقبة، استمر خلال قرن كامل: فقد كان العمال المنتظمون للدفاع عن حقوقهم، والحصول على زيادة أجورهم وتخفيض ساعات عملهم (كانت اثنتي عشر ساعة)، يُعاملون كمتآمرين يهددون المؤسسات القائمة. وهو اتهام يكشف عن تسلسل القيم في مفهوم الطبقة الحاكمة، فمطالب العمال لم تكن تهدد شكل الحكم، وهو الخطر الوحيد الذي يستحق اسم « مؤامرة »، إنما هي تهدد الربح الذي هو المؤسسة الحقيقية المطلوب حمايتها. والإحالة إلى القضاء لإجراء شديد الفعالية، فالقضاة من أنصار النظام القائم (المؤسسات)، ويشاركون أرباب العمل في حماية النظام القائم. وإذا كان المجتمع (الراقي) يشعر بتضامنه، فوعى العمال الطبقي يبدو، مقابل ذلك، غير كاف. فقد كانوا ينتظمون بين الحين والحين. إلا أن اتحادهم كان اتحاداً عابراً، إما لأن رب العمل فصلهم، وإما لأن إضرابهم قد أخفق. أما تضامن الطبقة المسيطرة القائم على الدفاع عن مصالحها المادية، فقد كان يمدُّ المبدأ الرأسمالي بالقوة والنشاط. بينما يحكم فقدان التلاحم والتنظيم المشترك عند المستغلين، على الإتجاه الديمقراطي بالوهن.

إن الخياطين الخمسة والعشرين الذين أحيلوا إلى القضاء بتهمة التآمر توقعوا كل ذلك، وقتلوا أنهم خسروا المعركة سلفاً، لكنهم أخطؤوا، في أنهم لم يحسبوا حساب رعونة السلطة القائمة، الواقعة بتفوقها أكثر مما ينبغي. فالقاضي، في أثناء المحاكمة، وصفهم « بالأجانب » لأنهم حديثو عهد بالهجرة. وكانت الكلمة كافية لانطلاق موجة عارمة من الإحتجاجات. فمن لا يكون « أجنبياً » في بلد المهاجرين هذا؟ ومن الذي سيقوم، ما خلا المهاجرين، بأعمال الصناعة والزراعة الشاقة؟.. وهنا كان لا بدّ للمؤمنين بالحلم الأمريكي (أي بالديمقراطية)، من أن يدينوا تعصب القاضي وانحيازه، وهكذا أعلنت براءة الخياطين الخمسة والعشرين.

معارك سياسية وطوباويات

لم تكن الطبقة المسيطرة تكتفي بالتحكم بمصير العمال ، بل حاولت انتزاع الحقوق السياسية التي أقرها لهم الدستور ، باسم تلك الديمقراطية التي كان هاملتون يراها « سماً » حقيقياً . ففي العام ١٨٤٠ ، ربطت ولاية « رودايلاند L'Etat de Rhodes Island » ، حق الانتخاب بشروط خاصة ، خلاصتها أن حق الاقتراع وقف على من يملكون شيئاً تحت الشمس ، وهكذا أنتزع حق الانتخاب من نصف أصحابه . ووصلت بهذه الطريقة ، إلى الديمقراطية الأمريكية ، الموجة الرجعية التي فرضت شروط ممارسة حق الانتخاب في أوروبا .

دفع الإيمان ، المتوقد دائماً ، بالحلم الأمريكي ، رجلاً اسمه توماس و . دور Thomas W. Dorr ، إلى القيام بتمرد أتاح له في العام ١٨٤٢ ، أن ينظم في رود آيلاند انتخابات متوازنة وانتخابات الحكومة . وهكذا وجدت في هذه الولاية حكومتان تتنازعان السلطة ، ففي طرف يقف ورثة هاملتون السياسيون الذين يعدون أنفسهم أصحاب السلطة الشرعية الوحيدة ، وفي الطرف الثاني ، يقف المتمردون الذين يريدون السيطرة والغلبة لروح الدستور . لجأ المحافظون إلى إعلان القانون العرفي ، فرد عليهم توماس دور ورفاقه بحمل السلاح والتسلح قدر الإمكان وحاولوا الاستيلاء على مستودع الأسلحة ، إنما ، كما جرى في الماضي مراراً ، ارتكب الثوار أخطاءً في التكتيك العسكري ، وأعتقل توماس دور وحوكم ، وحُكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . إلا أن كفاحه لم يذهب سدى ، فقد حررت الولاية القانون ، الذي سبب التمرد ، من قيوده الانتخابية .

لم يستطع الاتجاه الديمقراطي ، الذي هو أصعب منالاً وتحقيقاً من الرأسمالي ، أن يغير شيئاً من أوضاع العمال التي ظلت في بؤسها . وقد حاولت بعض النفوس ، التي يغلب عليها الكرم أكثر من الفعالية ، أن تعالج هذا البؤس . ومن هذا القبيل صديقة لافاييت ، فامسي رايت Fanny Wright ، التي كتبت في الفترة الواقعة بين ١٨٢٠ — ١٨٣٠ الكثير من المحاضرات والمقالات في المجلات والصحف قارعة ناقوس الخطر . وقد تصورت طريقة جديدة لشراء حرية العبيد ، باءت بإخفاق ذريع . كما حاول تلميذ فورييه Fourier ، ألبر بريسمان Albert Brisbane ، (١٨٠٩ — ١٨٩٠) أن يجد حلاً ، بتنظيم تجمعات إنتاجية اشتراكية ، قامت أربعة وثلاثون منها ابتداء من العام ١٨٣٩ ، ولم يبق شيء منها في العام ١٨٥٠ .

كذلك حاول آخرون تأسيس جمعيات تعاونية ، هدفها إنقاذ العمال من جشع حوانيت البيع

والخازن المرتبطة بالمعامل والمصانع، وحمايتهم من العطالة والمرض. ومنها التعاونية التي أنشأها، في العام ١٨٤٥، عمال ميكانيكيون. وهي تُتيح لهم شراء حاجاتهم بأسعار زهيدة، وتضمن لهم ثلاثة دولارات في الأسبوع إذا ما أُصيبوا بمرض، وسبعة دولارات ونصف الدولار، بعد تجاوزهم السنة الخامسة والستين من عمرهم. وهكذا لا تتوخى هذه المؤسسات التعاونية تبديل نظام غير إنساني، بل تخفيف أشد أضراره. وقد اندثرت هذه التعاونيات جميعاً في أثناء حرب الانفصال.

ظهر شخص هو جورج هنري إيفانس Henry Evans (١٨٠٥ — ١٨٥٦)، دعا وهو يرفع شعار «انتخبوا تحصلوا على مزرعة» إلى خطة زراعية، جديدة «أساسها أن الأرض واسعة، فلماذا لا تُعطى مجاناً، كل أسرة غنية راغبة في التخلص من «عبودية الأجر» أرضاً صالحة للزراعة؟ إنه انبعاث الديمقراطية الجيفرسونية، التي لم تندثر اندثاراً تاماً، إنما أصبحت تزداد في مغالطاتها التاريخية، بقدر ما كان التصنيع يبدل وجه أمريكا وغط الحياة فيها، وعادت الفكرة إلى الظهور، على الرغم من ذلك، بفضل إبراهيم لنكولن في قانون Homestead Act^(٧٩)، ١٨٦٢.

أما المسألة الحقيقية، فقد ظلت تكمن في تنظيم العمل حسب صيغ تحترم شخصية العمال. إذ حتى ذلك الوقت، ظل التقدم الاقتصادي الهائل قائماً على سياسة الأجور الزهيدة التي أتاح تدفق سيل المهاجرين تطبيقها، فعدد سكان الولايات المتحدة الذي لم يكن سوى ٢٣ مليوناً في العام ١٨٥٠، بلغ ٧٦ مليوناً في العام ١٩٠٠. واليد العاملة الحديثة العهد بالهجرة إليها، والتي كان يخذعها في أحيان كثيرة، السماسرة الذين كانوا يجوبون أوروبا عارضين عقود عمل مُدهشة، كانت مهياة لقبول أي عمل بأي أجر، وهكذا كانت تثقل كاهل العمال الموجودين قبلها، إذ كانوا يعلمون أن حلول آخرين أكثر تساهلاً منهم محلهم، بين يوم وآخر، هو أمر ممكن. كانت أرباح المشاريع ترتفع بسرعة. فقد ازداد الإنتاج الصناعي من ١٨٥٩ — ١٩١٩، ثلاثة وثلاثين ضعفاً. وبينما كان الاتجاه الديمقراطي يتعثر، كان الاتجاه الرأسمالي يرتفع باندفاع لا يُقاوم.

سجل النصف الثاني من القرن التاسع عشر التقدم الصناعي الأكبر، وهو تقدم تميز بظهور ثروات هائلة تحققت بسرعة وقامت على السرقة والعنف والابتزاز. وفرضت أسماء خيالية نفسها فجأة، صوراً وأمثلة حية على النجاح الأمريكي. وسرعان ما سيطر هؤلاء الناس، بعد ذلك، على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، بالمال المتراكم. وبلغوا من الثراء ما جعل السلطة السياسية تُؤثر

(٧٩) قانون تملك الأراضي.

مداهمتهم على مجاباتهم. وهم جميعاً، من غولد Gould، إلى فاندربيلت وهاريمان وهيل وكوك ومورغان، Morgan, Cooke, Hill, Harriman, Vanderbilt، سواسية في ازدهارهم بالقوانين والقواعد، وباستهتارهم بالدستور، ولا ينافسون ويخاصمون إلا ليغشوا ويفسدوا ويصرعوا كل من يقاومهم. وهم يجسدون في أمريكا وفي الخارج، حيوية مجتمع هائلة، كل شيء ممكن فيه لمن يتجرأ على الإقدام والمغامرة. وروح المغامرة التي أشاد بها المعجبون بهم، .. إنما هم الذين رفعوها إلى أوج مستواها من الابتكار الجسور، وقدموها قدوة ومثلاً لمعاصريهم وللأجيال الآتية.

أرباح حرب و«بارونات لصوص»

لم تكن حرب الانفصال (١٨٦٠ — ١٨٦٥) أبعد من أن تبعث الهوادة في ذاك السباق الجنوني إلى المال فحسب، بل، بعكس ذلك، أتاحت له إمكانات جديدة. فبينما كانت تمزق البلد أخطر أزمة عرفها تاريخه في النزاع الذي فقدت فيه أمريكا من الضحايا البشرية أكثر مما في الحرب العالمية الأولى، اشترى ج. ب. مورغان J.P.Morgan^(٨٠). من الحكومة بـ ١٧٥٠٠ دولار، بنادق فاسدة، وفي غد اليوم ذاته باعها للحكومة ذاتها بمبلغ ١١٠٠٠٠ دولار. وفي رئاسة لنكولن أخذت شركات الخطوط الحديدية من الحكومة الاتحادية رسوماً على النقل تفوق ما تأخذ من القطاع الخاص بـ ٥٠٪. وفيليب آرمور Philip Armour، الذي كان يتمتع وهو في السادسة والعشرين من عمره بحس حاد بالأعمال والمشاريع، اشترى لحم خنزير مملح بسعر ١٨ دولاراً للبرميل — لتموين الجيش — وباعه بـ ٤٠. وكانت الشركات المكلفة تموين الجيش وإمداده تسلمه المواد الغذائية الفاسدة والمهترية، وأحذية وحقائب ظهر بالية، وسفنًا مبنية بالخشب الأخضر، وبنادق تتفجر بين أيدي الجنود.

في العام ١٨٦٢، أعلنت لجنة التحقيق في إدارة الحرب، على الملأ ما ظهر خلالها من التحيز و«المحسوبية» والفساد، فمن حقائب عسكرية تتساقط مرقاً تحت المطر، إلى (بزات) ألبسة تتمزق أيضاً لدى ملاسة الأيدي، إلى أغذية فاسدة ... الخ...

(٨٠) مورغان (١٨٢٧ — ١٩١٣)، هو مؤسس (الفرق) المسمى باسمه، جمع ثروته من المضاربات على الذهب (١٨٦٣)، ومن تجارة الأسلحة وتهريبها في حرب الانفصال، ومن قروض للحكومة بفوائد باهظة (١٨٩٥)، ومن الخطوط الحديدية المنشأة بمساعدة الحكومة أسس أيضاً L'United States Steel Corporation، ولما كان المال يجلب الاحترام، أختير رئيساً للمتحف الفني، فأورثه بعض مجموعاته، كما أورثه كخلف له شخصية بارزة من الكنيسة الأنكليكانية.

وأَسباب حرب الانفصال^(٨١) متعددة . فهي إن أدت إلى إلغاء العبودية التي كان يخضع لها أربعة ملايين من البشر ، من أجل عدد من الأفراد احتلت صورههم فيما بعد أمكنتها بين مشاهير الناس .. ، إلا أنها كانت قبل كل شيء فرصة للإثراء . فنجاح أولئك المغامرين ، المالي ، مهد لهم السبيل إلى إرتقاء أعلى مراتب السلطة ، فأفسدوا « الحلم الأمريكي » : إذ بينما كان الآباء قد هجروا أوروبا هرباً من الاستبداد والامتيازات والتعصب ، ليقيموا في أمريكا مجتمعات تتألف من أناس أحرار وسواسية ، راح بارونات القرن التاسع عشر ، يرسخون في الديمقراطية الأمريكية ، الاستبداد وامتيازات الثروات التي لا نظير لها في إنكلترا القديمة ، وتعصباً فاق عدد ضحايا الملكية المذمومة والمكروهة .

يقول جاي غولد Jay Gould^(٨٢) ، من كبار نجوم هذه الصفحة السوداء من التاريخ : « إلى أستطيع أن أعبي نصف طبقة العمال لأكلها قتل النصف الآخر » . وقد بدأ هذا حياته المسلكية بسرقة اثنين من شركائه في مشروع للجلود ، متواضع بعض التواضع . واستثمر المبلغ المسروق ليدر عليه أرباحاً من عمليات مريبة في بورصة نيويورك . وكان قد بلغ السنة الثانية والثلاثين من عمره ، عندما طبع في العام ١٨٦٧ ، أسهماً مزيفة باسم شركة الخطوط الحديدية : « اري رايلورد » Erie Railroad وباعها . ولما أكتشف هذا الاحتيال لجأ مع شريكه جيم فيسك إلى ولاية نيويورك هرباً من الملاحقات القضائية له في ولاية نيويورك ، حاملاً ستة ملايين دولار نقداً ، وكل حسابات الشركة المذكورة . ومن ملجئه ، في نيويورك ، رشا بعض مشرعي نيويورك ، ونجح في حملهم على التصويت على قانون يضفي الشرعية على اختلاسه ، فالإتجاه الرأسمالي يتجرد من كل معنى ، عندما يتسع قانون ما لمنافسة أبسط مبادئ الأخلاق ، بهذه الصراحة . قام جاي غولد ، بعد ذلك ، بعملية معقدة مستغلاً المال المسروق . ولو لم تعرض الحكومة للتداول جزءاً من احتياطها الذهبي لكان الإخفاق مصير مشروعه هذا . وقد حاول غولد الحصول على مساعدة الرئيس Ulysses S. Grant أولس س . غرانت ، الذي رفض قبول طلبه ورده . غير أن هذا المغامر نجح بعد ذلك

(٨١) الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٨٢) مستخدم صغير توصل بمراجحه من مضارباته ، إلى السيطرة على شبكة واسعة من الخطوط الحديدية وعلى شركة البرق Western union وعلى خط نيويورك الجوي ، وقد أدت مضارباته على الذهب إلى الذعر الكبير الذي سبب إفلاس آلاف الأفراد ، كما أن تزامنه وفريق هاريمان على السيطرة على الخطوط الحديدية جدير بقصة من « السلسلة السوداء » .

برشوة شقيق زوجة الرئيس غرانت وبشرائه، وتوصل إلى قبض أحد عشر مليون دولار، كانت كافية لإضفاء القوة والاحترام عليه، في مجتمع يتفوق فيه الاتجاه الرأسمالي على أي اتجاه سواه.

الثروات الكبرى، لا يمكن أن تُجنى إلا بمساعدة الحكومة، أو في الأقل، بحياها العطوف. وثمة مثل صارخ على ذلك قدّمه استثمار أراضي الدولة. ويتعلق بزهاء ٤٠٠ مليون هكتار أي أكثر من نصف مساحة الولايات المتحدة في تلك الحقبة. فبموجب قانون الـ Homestead، الصادر في العام ١٨٦٢، الذي ينص على تملك أراض للمستوطنين المتقدمين إلى الغرب، تسلم ٣٧٥٠٠٠ شخص في العام ١٨٩٠ زهاء عشرين مليون هكتار، إلا أن مساحة تبلغ أربعة أمثال هذه قد أُعطيت لشركات خطوط حديدية، هي بلا شك، شركات خاصة. وقد تمكنت ثلاث منها من رشوة بعض النواب رشوة أتاح لها تملك ٢٨ مليون هكتار، بين عامي ١٨٦٢—١٨٦٤، يضاف إليها تعويض عن كل «كم» تبنيه من الخطوط الحديدية.

كان نجاح التوغل في الغرب منوطاً، بلا شك، بالخطوط الحديدية، وهي مشاريع ذات نفع عام، إلا أنها مشاريع خاصة تمنحها الدولة مساعدات وامتيازات، كثيراً ما كانت غير قانونية، إنما عليها قامت بعد ذلك بعض من أضخم الثروات، منها ثروتنا فاندربيلت Vanderbilt وهاريمان Harriman.

ولد كورنيليوس فاندربيلت (١٧٩٤—١٨٧٧)، من أبوين فقيرين، وعمل وهو لا يزال يافعاً في نقل المسافرين والبضائع، عبر الجون من ستيشن آيلاند Staten Island إلى مانهاتان Manhattan. وأصبح يملك عدة سفن، ثم سيطر على معظم خطوط عبّارات نيويورك، وهذا ما دعا إلى تسميته بالـ «Commodore» وابتداء من حرب الانفصال انطلق في كبرى مغامرات الخطوط الحديدية، وأضحى رئيساً لشبكة نيويورك المركزية. فهو إذاً حصيلة حقيقية «للحلم الأمريكي»: ارتقى بفضل عصاميته، من درك الفقر إلى أعلى ذرى الثروة. فهل احترام دستور البلاد الذي أتاح له هذا الإرتقاء الباهر؟.. إن صوت كورنيليوس يجلجل (قائلاً): «ولم أهتم بالقانون؟.. ألم أحصل على السلطة؟».

فالmaal في الواقع هو السلطة، بل بالعكس، إن الوصول إلى السلطة هو—في أحيان كثيرة—وسيلة صالحة لكسب المال. فالرئيس رتشارد نكسون، عندما ألقى نفسه—قبل أن يغوص حتى أذنيه في فضيحة وترغيت—يُلام على تهربه من دفع ما عليه من ضرائب للدولة، وعلى

تحسين قصره في كاليفورنيا بأموال الدولة ، وقبول مجوهرات هدية لزوجته ، وإقامة حفلة رقص تنكرية تكريماً لابنته ... ، لم يُر في هذه الأعمال جميعاً سوى هنات بسيطة . وما هو أجدر بالملاحظة ولفت النظر ، أن الرأي العام لم يتسامح ويتحملها ، وأنها أسهمت بالتعجيل في سقوطه . وعندما دافع نكسون عن براءته ، على الرغم من تكاثر الحملات عليه وتلاحقها قائلاً : « أنا لستُ محتالاً » ، كان يحس في قرارة نفسه أن عصر « الفاندر بيلت » قد انتهى .

غير أن الوعي العام ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، كان لا يزال ، مع القوانين المعبرة عنه ، في المهد . وإذا كان الرئيس اولس س . غرانت قد رفض العروض المغرية ، فإن وزير بحريته قد ابتز ٣٢٠.٠٠٠ دولار ، من عقود حكومية أبرمت مع مصانع السفن . كذلك احتالت شركة Gredit Mobilier Combany of America ، التي يديرها عضو الكونغرس Oakes Ames ، على الحكومة بمبلغ ٤٤ مليون دولار في بناء خطوط « الانيون باسيفيك » الحديدية وعمد اميس ذاته ، تحقيقاً لمآربه ، إلى شراء ضمائر بعض زملائه في الكونغرس بإهدائهم أسهماً أرباحها ٦٢٥ ٪ . أما مدير شركة : St. Tammany ، ويليام تويد William M. Tweed ، فقد جمع ثروة قدرها ٢٠٠ مليون دولار من أموال مدينة نيويورك .

فأبطال هذه الحقبة الحقيقيون ليسوا الرواد الذين زحفوا إلى الغرب ، عبر المروج والصحارى ، والمناطق الصخرية (Rocheuses) بل عديمو الضمير الذين أتاح لهم مجتمع ، نصيبه جد ضئيل من الديمقراطية ، الوصول إلى السلطة عن طريق الثروة والمال .

الكفاح في سبيل الديمقراطية

إذا كان الأفراد الذين يملكون البلد ويحكمونه ، وهم فريسة تلك الحمى المرتفعة ، يدعمون ويغذون الاتجاه الرأسمالي ، فذلك لا يعني أن الحلم الديمقراطي قد اندثر . فسواد الشعب وأبنائوه الفقراء يعرفون أنهم ، عندما بدؤوا مسيرتهم بائعي صحف أو ماسحي أحذية ، لن يكون لهم أي أمل ببلوغ نهاية العمر وهم يملكون الملايين . وليس هذا ما يعنيه ، في نظرهم ، الحلم الأمريكي . لانهم آمن من ثروة ، والديمقراطية ، في رأيهم ، تبقى مثلاً ينبغي أن يؤخذ غلاباً .

كان عدد العمال في مصانع الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ زهاء ثلاثة ملايين ، إنما لم يكن قد تنظم منهم في نقابات سوى مئتي ألف . فهم بانتائهم إلى منظمات نقابية ، يعرضون أنفسهم لخطر جسيم هو الحكم عليهم ، على الفور ، بالتآمر . أما أرباب العمل فهم يستطيعون أن ينسقوا أعمالهم

وينتموا إلى تكتلات مثل شركة Iron Founder's أو شركة American National Steel Manufacturers ، وليس من يتهمهم بالتآمر . وهذه التكتلات تقوم بوضع اللوائح السوداء المتضمنة أسماء العمال المعدودين بين القادة أو الموجهين ، ليُرفض قبولهم في النقابات على الفور . وهي تزود أعضائها ، في حالة تهديد بالإضراب ، بالمخبين الخاصين بوساطة الوكالتين المشهورتين بنكرتون Pinkerton وبورنز Burns ، ثم يتسلل هؤلاء المخبرون الخاصون إلى منظمات العمال .

كانت مطالب نقابات العمال جد بسيطة ، إذا ما قورنت بكرم الحكومة في مساعدة الشركات الخاصة . ففي العام ١٨٦٧ اتخذ مؤتمر اتحاد العمل الوطني القرار التالي : « استناداً إلى أن كونغرس الولايات المتحدة ، قد وافق على منح مبالغ من المال كبيرة ، ومساحات من أملاك الدولة ، لصالح شركات الخطوط الحديدية ، الإجتماعي ، ولشركات أخرى ، نطلب باحترام من الكونغرس أن يمنح خلال دورته المقبلة مبلغ ٢٥ ألف دولار للمساعدة على تخفيض ساعات العمل إلى ثمانين » .

كان لا بد من كفاح استمر عقوداً عدة ، لحملهم على القبول بأن العمل اليومي الذي يملأ ثمانين ساعات ، إن كان يوافق الميول الديمقراطية ، فهو لا يعيق في أي شيء نجاح الاتجاه الرأسمالي . أما نواب الشعب فلم يكونوا أكثر حياداً من المحاكم ، إذ أنهم استمروا في منح امتيازات الدولة وحظوتها إلى أرباب الصناعة والمالية ، بينما لم يكن في وسع العمال إلا الاعتماد على قواهم الخاصة لينتزعوا انتصارات بسيطة ، وأكثر من ذلك ، ما كان كفاحهم يبلغ بعض الاتساع ، حتى تنصب في وجههم المليشيا (الحرس الوطني) التي يجنّدها أرباب العمل ، ومعها قوات الشرطة والجيش التي تسيطر عليها الدولة . كان التضامن الفعلي بين الحكومة ورؤساء المشاريع يسم كل النزاعات الإجتماعية في ذلك العصر . وإن تاريخ بعض تلك النزاعات ، بل أشهرها ، يرينا كيف حورب الحلم الديمقراطي — الذي كان حياً عند رجل الشارع — بتآزر الحكام وقادة الصناعة .

كان عشرات آلاف العمال في بنسلفانيا يُستخدمون في مناجم الفحم الانتراسيت ، حيث كانوا يعملون ، في أحيان كثيرة ، والماء يصل إلى ركبهم ، وربعهم أطفال وأولاد بين السابعة والسادسة عشرة من أعمارهم . وإذا كان معظمهم من الأيرلنديين ، فقد أعادوا تنظيم صفوفهم في L' Ancient Order of Hibernians ، الذي تطلق عليه الصحافة المعادية اسم Molly Maguires . وفي ١٨٦٩ — ١٨٧٠ حصل هذا التنظيم الأيرلندي على عقد جماعي لثلاثين ألفاً من عمال المناجم ، يضمن لهم حداً أدنى من الأجر قدره ثلاثة دولارات ، لكل طن واحد من الفحم

المستخرج، لكن في العام ١٨٧٣، استغلَّ رئيس شركة Reading-Railord، فرانكلن ب غوين Franklin P Gowen، الركود الاقتصادي ليخفِّض الأجر المتفق عليه في التعاقد الاجتماعي المذكور. فعمد التنظيم الإيرلندي إلى القيام بإضراب استمر ستة أشهر، إلا أنه لم يقتصر على اختبار الصبر والجلد بين العمال وأرباب العمل. فقد وقَّع رئيس الشركة فرانكلن ب غوين، عقداً مع وكالة المخبرين الخاصين، (بانكرتون)، دافعاً لها مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دولار لتسحق تنظيم العمال الإيرلندي. واستطاع المخبر الخاص جيمس مكبارلن James McParlan، التسلل إلى صفوفهم باسم مستعار هو ماكينا McKenna، ومهمته أن يجمع الأدلة التي تُتيح إدانة زعماء حركة الإضراب، وفي آن واحد، عباً مدير الشركة عدداً من قطاع الطرق وسلحهم، فأقدموا على اغتيال عدد من العمال المضربين. فرد الإيرلنديون المنظمون في جماعة سرية باللجوء إلى العنف أيضاً. وكانت تُشاهد هنا وهناك جثث (ساحقي الإضراب) وجثث عملاء غوين. وبعد ستة أشهر، قبل العمال المنجميون، وقد غدوا خالي الوفاض، استئناف العمل وخفّضت إدارة المنجم أجورهم ٢٠٪.

أُعتقل تسعة عشر منهم بتهمة القتل. وكان شاهد الادعاء، في أثناء المحاكمة المدعو جيمي كاريفان، من عملاء بانكرتون اقترحه شاهداً للمخبر المذكور ماكينا. وكاريفان شخص مشبوه أُلقي القبض عليه لاثامه بالقتل، فوعده المحكمة بالتبوء إذا ما قبل القيام بدور Government's Witness أي «شاهد إثبات»^(٨٣). فحكم على العمال التسعة عشر بالموت ونُفذ فيهم الحكم بين عامي ١٨٧٧-١٨٧٩، استناداً إلى شهادته (الزور). وقد صرَّح فرانكلن غوين أمام المحكمة بأنه ينبغي القضاء على التنظيم العمالي هذا، ليستطيع المجتمع القول: «الآن أصبح الناس جميعاً في أمان». «الناس جميعاً» إنها صيغة جميلة للدلالة على قلة من المالكين، وصحيح أن سواهم لا يُحسب لهم أي حساب، ماداموا غير منظمين. فبعد إخفاق عمال بنسلفانيا أضحى زملاؤهم غير مستعدين البتة، للقيام بحركات إضراب يعرفون بأي همجية فعالة ستُقمع. وإن المسؤولين عن الاقتصاد الأمريكي ليشعرون إذاً بحق أنهم في «أمان» كما تمنى ذلك فرانكلن غوين، والخطر الوحيد الذي قد يَخشونه لا يمكن إلا أن يصدر عنهم أنفسهم.

(٨٣) هذا الإجراء الموروث من القانون البريطاني أصبح فيما بعد يُطبق كثيراً في مكافحة (الإجرام) والتكتلات السياسية المحسوبة تكتلات هدامة. وفي عهد المكافأة أتاح هذا الإجراء للقاضي كوفمان أن يقدم الدليل على تساهله حيال «دافيد غرنغلاس» الذي سبب إعدام أخته وزوجها على الكرسي الكهربائي. وإن تسلل العملاء إلى داخل المنظمات التي تريد الدولة مكافحتها ثم اللجوء إلى شهود الاثبات أصبحتا الوسيلتين الأساسيتين لاستتباب القانون والنظام (انظر الفصل الثاني).

إن الصياغة ورجال الأعمال يجهلون في الواقع كل شيء عن سير اقتصاد السوق، ولا سيما عن الأزمات الدولية. إنهم يكسبون المال ويقيمون امبراطوريات صناعية، لكنهم لا يرون مدى ما تحدثه عمليات مضارباتهم من خلل في الاقتصاد. فنجاحهم الشخصي الباهر يقنعهم بأنهم يتمتعون بكفاءات متمرسين بارزين، أكتسبت بالتجربة. إلا أنهم ينسجون على منوال أولئك الأطباء الذين كانوا يقتلون مرضاهم ليكون شفاؤهم أفضل. وهم ما زالوا ينهجون هذا النهج، والاقتصاد يسير من أزمة إلى أزمة، حتى سببوا انهيار (١٩٢٩—١٩٣٠) الذي أغرق العالم الغربي في الفوضى. ثم ما لبثوا،—وقد طمأنتهم نظريات «كنز» Keynes، وشدت عزائمهم نهضة اقتصادية ناجمة عن الحرب العالمية الثانية،—أن عادوا إلى تفاؤلهم الجميل وإلى الإنطلاق وراء التوسع في الإنشاء حتى سببوا فوضى اقتصادية رافقت الذكرى المثوية الثانية لاستقلال الولايات المتحدة.

هذا الوضع هو الذي أغرق الاقتصاد الأمريكي في ركود اقتصادي شديد، بينما كان تحالف أرباب العمل والحكومة، في آن واحد، يستमित في السعي لإدانة عمال مناجم بنسلفانيا. وفي الفترة الواقعة بين عامي ١٨٧٣ و ١٨٧٦ تلقت غطرسة رجال الأعمال—الذين يضحون بكل شيء من أجل تنمية رأس المال،—انذاراً شديداً، وذلك بتوقف ٢٣٠٠٠ مشروع وإغلاق أبوابها، فكان رد فعل الصناعيين تخفيض الأجور إلى النصف، بالإجماع وبلا أي اهتمام بمعرفة من سيشتري إنتاجهم. وكان من شأن تخفيض القدرة الشرائية الهائل هذا، والمقترن بوجود ثلاثة ملايين من عاطلين عن العمل من مجموع ٤٠ مليوناً من السكان أن عجل في حدوث الأزمة. ولم يدرك أرباب العمل أن إزدهارهم الشخصي مرتبط بإزدهار البلد بمجملة ارتباطاً وثيقاً لا انفصام فيه. لقد اختاروا إزدهارهم الشخصي معتقدين أنهم يستطيعون الاختيار بين مصلحتهم الشخصية ومصلحة الوطن بمجموعه، وهم لا يشكون في أن قرارهم هذا يزيد الصعوبات التي يتخبطون فيها، فقد هبط مستوى الاستهلاك هبوطاً حاداً مسدداً بذلك ضربة ثانية إلى عجلة الإنتاج، واعتقد أرباب العمل—وهم المسؤولون وحدهم عن سير الاقتصاد والمفلتون من كل رقابة ولا يعرفون من القواعد إلا ما يحدونه بأنفسهم—إنهم يستطيعون إنقاذ أموالهم على حساب تخفيض أجور العمال الذين لا يحق لهم الكلام، وهكذا أضافوا الأزمة الاقتصادية، المقترنة بأزمة إجتماعية دامية، إلى الانعكاسات السياسية الشديدة.

أشعلت النار في الهشيم شركة الخطوط الحديدية «بلتيمور»—«أوهايو» وشركاؤها، بفرضهم تخفيضاً جديداً على الأسعار معدله ١٠ ٪. بدا الرد في أول الأمر فاتراً، إذ لم يتوقف عن العمل

سوى ٤٠ مستخدماً وذلك في تموز عام ١٨٧٧، غير أن الإضراب ما لبث أن امتد رويداً إلى مارتسبورغ في ولاية فرجينيا الغربية. أوقفت الشرطة زعماء الإضراب، لكن أطلق سراحهم على الفور جمهور عمال الخطوط الحديدية الهائجين الذين انضم إليهم عمال المناجم. فردّ الحاكم ماتيسوس على هذا التحدي باستنفار الميليشيا التي استخدمت السلاح. ولكن المفاجأة كانت بانضمام سريتين مع ضباطهما إلى معسكر المضربين: فلجأ حاكم ولاية فرجينيا الغربية إلى رئيس الولايات المتحدة الذي قرر تدخل الوحدات العسكرية الاتحادية. فما لبث انتشار هذه القوات أن روع عمال الخطوط الحديدية الذين أعتقل زعمائهم فتمت السيطرة على الإضراب وعادت القطر الحديدية إلى سيرها.

لكن كانت ادارة شركة (بليتيمور—أوهايو) والحكومة قد أوقفتا الإضراب بالقوة، فإن تدخلهما لم يغيّر شيئاً من البؤس الناجم عن تخفيض الأجور والبطالة، فالبنادق عاجزة عن النهوض بالاقتصاد، وهكذا اندلع الإضراب مرة أخرى في (أوهايو—كيتوكي—ميريلاند). فتلقى الجنود المربطون في (بليتيمور) الأمر بالتوجه إلى أماكن النزاع ليحطموا الإضراب. ولكن جمهوراً من عشرات آلاف المواطنين اتخذوا أماكنهم بين الطرفين. وأطلق الجنود النار فقتلوا اثني عشر عاملاً وجرحوا ثمانية عشر. وصلت النجذات وسُحق إضراب الشركة (بليتيمور—أوهايو) في ٢٢ تموز ١٨٧٧، وتنفس النظام القائم الصعداء!...

لا.. فالإضراب امتد إلى شبكات الخطوط الحديدية لشركة (نيويورك المركزية)، التي يشرف عليها ابن كورنيليوس فاندربلت وإلى عمال الخطوط الحديدية في بنسلفانيا. رفضت ميليشيا بنسلفانيا إطلاق النار على المضربين فاستقدمت السلطة وحدات من أماكن أبعد، استعملت أسلحتها فسقط عشرون قتيلاً وجرح تسعة وعشرون من المضربين، فعمد هؤلاء وقد استولى عليهم الهياج إلى إشعال الحرائق التي دمرت من تجهيزات الخطوط الحديدية وعتادها ما تبلغ قيمته زهاء خمسة ملايين دولار.

«روح الشيوعية الشريرة»

دب الدعر وأعلنت صحيفة (نيويورك وورلد) في عنوان كبير أن مدينة (هتسبرغ) في «قبضة رجال تسيطر عليهم روح الشيوعية الشريرة» فما هي الشيوعية؟ لم يكن في أمريكا آنذاك شخص واحد يعرف ذلك معرفة جيدة، إلا أنها، في الأقل، شيء مرعب استمر في صنع المعجزات

مدة قرن كامل، ليثير الهلع ويبرر كل أنواع التجاوز والاستغلال. و(المساء الكبير) قريب، وهناك جند يحرسون الكابتول خوفاً من أن تمتد الفتنة إلى واشنطن، ففي بوفالو، انضمت سرية من الميليشيا إلى المضربين، فهل يرضخ أرباب العمل؟ إن وليام فاندربيلت، في شبكة خطوط نيويورك سنترال الحديدية يبدو عليه القلق، فقد أعطى العمال العاطلين من العمل مئة ألف دولار، ووعد عماله في بوفالو بزيادة جيدة قدرها ٢٦٪ فالمسألة برمتها أثارها قرار أرباب العمل بتخفيض الأجور. وهو تدبير صوره أمراً لا بد منه لبقاء المشروع، إلا أنه حجة كاذبة، فأبي رب عمل كبير يدرك في النهاية أن قدرة العمال الشرائية تسهم في الإزدهار العام، لكن الأمر لم يكن كذلك وليس الوعد بزيادة الأجور ٢٦٪ إلا فخاً، وقد نكث به فاندربيلت، على الفور من عودة العمال إلى عملهم.

سُحق الإضراب في شبكة بلتيمور أوهايو في ٢٢ تموز ١٨٧٧، لكنه اندلع غداة اليوم ذاته في شيكاغو في شبكة شركة ميتشيغان سنترال، حيث توقف العمال، بعد تنزيل الأجر الشهري من ٦٥ دولار إلى ٥٥، محاولين إحباط محاولة تخفيض جديدة. وفي هذه المجاهبات بين المضربين، من جهة، ومن جهة ثانية الشرطة والفرسان، وقف ٢٠٠٠٠ رجل مسلحين في مواجهة رهبة كان حصيلتها أكثر من ثلاثين قتيلاً ومئة جريح. وأعلنت صحيفة النيويورك تايمز أن شيكاغو في «قبضة الشيوعيين».

لم يكن ثمة حزب شيوعي، سواء معترف به رسمياً أو سري. لكن تلك الإضرابات انتشرت انتشار النار في الهشيم، من بلتيمور إلى ولاية فرجينيا الغربية، ثم إلى نيويورك وبوفالو ويتسبرغ وشيكاغو، وهي تعطي الصورة عن مؤامرة واسعة وعن قوة خفية تمسك بالخيوط وتوجه في الظلام.. صورة مقلقة، وكابوس سلطة مضادة متأهبة للإطاحة بالنظام القائم... النظام؟.. نعم، بلا شك، إذ ليس سوى الحالمين والخُلقيين وحدهم، البعيدين عن الواقع، يستطيعون أن يروا في تلك البيئة الكاملة، حيث يأخذ كل فرد مكانه، فوضى منظمة، فالأغنياء هم في مكاتبهم الإدارية وفي أحياء الإقامة والسكن، والفقراء أمام الآلات وفي الضواحي والأكوخ القذرة. وصورة المؤامرة والقوة الخفية... هذه الصورة التي ستعود إلى الظهور في «المكاثرة»، على ما تثيره من قلق، فيها ما يدعو إلى الاطمئنان! وضروري وكاف كشف النقاب عن المؤامرة وتحطيم القوة الخفية، للقضاء على قبضة من الرجال يستغلون الجماهير الجاهلة، وستستخدم كل الوسائل لبلوغ هذه الغاية.

ليس هاماً أن يكون الواقع أكثر تعقيداً، ثم أن يكون الحل أكثر صعوبة إذاً، وإلا فما هي مطالب المضربين. كل ما يطلبونه هو تحقيق شيء يسير من الديمقراطية بتخفيف وطأة رأس المال

واستغلاله . فعشية ، إضراب شيكاغو ، قام Working Mens' Party ، وهو تنظيم عدد عناصره قليل ، بتوزيع منشور هذا نصه : « إننا نطلب من الجمهور أن يدين الحكومة لتوجيهها الجند إلى حماية الرأسماليين وممتلكاتهم ضد مطالب عمال الخطوط الحديدية العادلة » . ولم يطلب المضربون أن تتخلى الولايات المتحدة عن الإلتجاه الرأسمالي ، بل يبتغون ألا يُخنق الإلتجاه الديمقراطي .

لكن المشروع الرأسمالي لم يستهو أقطاب الفولاذ والخطوط الحديدية فحسب ، بل استولى على طبقة وسيطة تعيش في ظلال الأثريين ثراء ، حتى أن الإضراب العام ، عندما اندلع في سانت لويس ، ليشد أزر المطالبين برفع الأجور وبنائي ساعات عمل في اليوم ، ويمنع استخدام الأولاد دون الرابعة عشرة من أعمارهم .. لم يجد العمال الذين سيطروا على المدينة أمامهم الشرطة والحرس والقوات الاتحادية فحسب ، بل كتائب من المتطوعين أيضاً ، وقد أحصى هؤلاء بعملهم تقليد « الساهرين » Vigilantes الذين أخذوا على عاتقهم ، في أثناء غزو الغرب ، توطيد الأمن والنظام .

كان على المضربين أن يستسلموا أمام ذاك العدد الكبير من القوات . وعلى الرغم من ذلك فثمة حدث هام قد وقع . وهو أن أول إضراب على المستوى القومي ، قد تحقق ، وإن آل إلى الإخفاق ، وإن التغلب عليه تطلب حشد ٢٠٠٠٠ مسلح . هذا الإضراب وما رافقه من إضرابات ، عُرفت في تاريخ الحركة العمالية باسم الفتنة الكبرى Great Riots . وعلى الرغم من هذا الإخفاق ، استمر الحلم الديمقراطي في البقاء بعد التوسع الرأسمالي .

حدثت انتفاضات كهذه بين وقت وآخر ، ففي أول أيار ١٨٨٦ ، توقف ٣٥٠.٠٠٠ ر. ٣٥٠ عامل عن العمل في ١١٥٠٠ مشروع ، وحصل نصفهم على مطلبهم بتخفيض ساعات العمل إلى ثمان دوئما لإنقاص أجور . غير أن النزاع الذي نشب في معمل McCormick Harvester ، في شيكاغو أدى إلى الحوادث الدامية التي أصبح أول أيار ، تخليداً لذكراها ، عيد العمال بأسره^(٨٤) . لم تكن تلك النزاعات العنيفة ، على دوما ، مع نزاعات أخرى وكثيرة ، كافية للحؤول دون تقدم النظام الرأسمالي الذي تحميه قوى الحكم . وكانت أمريكا ، إبان حرب الاستقلال ، رابعة الدول الصناعية في العالم . وفي العام ١٨٩٤ غدت الأولى في العالم ، وغدا إنتاجها يعادل ثلث مجموع الإنتاج الصناعي العالمي . وارتفع عدد عمال مصانعها من أقل من ثلاثة ملايين ، إلى زهاء ستة ملايين ، وصحيح أنها استقبلت ٥٠ مليون مهاجر ، في مدة عشر سنوات ، وأن ضغطهم ثبت انخفاض الأسعار . ولم

(٨٤) الفصل الثاني من هذا الكتاب .

تكن الحالة أفضل في أوروبا التي كان يتدفق منها هذا المد البشري المستمر إلى أمريكا التي يتصور سواد الناس وبسطاؤهم أن تحقيق ديمقراطية حقيقية فيها أمر ممكن .

«عقب الحديد»

إن نضال المحرومين المستمر هو وحده الذي قد يُتيح للمجتمع الأمريكي الاقتراب من هدفه أي من تحقيق الديمقراطية .. فتمة ، بين وقت وآخر ، رجل من رجال الحكم ، يقدر كبر المهمة التي ينبغي القيام بها ، فيغضبه ما يراه في أن ميزان القوى يبلغ من التباين وعدم التكافؤ ما يحول دون توافقه والديمقراطية . وهذا ما كان شأن الرئيس غروفر كليفلاند الذي أعلن ، في الكونغرس (١٨٨٨) ، أي بعد مرور عام على إعدام الأبرياء الأربعة الذين حُكم عليهم بسبب إضطرابات هاي ماركيت ، ما يلي : « عندما ننظر إلى المنجزات التي حققها رأس المال الكبير نكتشف وجود شركات التروست والتنظيمات المالية والاحتكارات الأخرى بينما يناضل المواطن متراجعا إلى الوراء بلا جدوى ، أو مسحوقاً حتى الموت تحت وطأة عقب من حديد . فالشركات الكبرى التي ينبغي أن تكون من صنائع القانون ، وأن تراقب بدقة وتوجه إلى خدمة الشعب ، سرعان ما تغدو سيدة الشعب » .

و «عقب الحديد» عنوان قصة خيالية يصف فيها الكاتب جاك لندن^(٨٥) إخفاق نضال العمال ضد سلطة دكتاتورية قائمة على حكم قلة من الناس . وهذا المؤلف يسرد عدداً كبيراً من الحوادث الواقعة التي لا تكاد تنسجم مع أغراض القصة ، ومنها الأستاذ التقدمي المطرود من الجامعة ، والقائد النقابي الذي اشتراه رب العمل وتشكيل المليشيا لقمع الإضطرابات ... كذلك يذكر الكاتب بعض الأحداث التاريخية لدعم بعض المقاطع من قصته ، ومنها تصريح الرئيس تيودور روزفلت التالي في العام ١٩٠٥ : « إن عدداً كبيراً من أكثر المحامين نفوذاً ودخلاً يقومون بوضع أجراً الخطط وأدقها بغية إتاحة المجال لزيائتهم الأثرياء سواء من الأفراد أو الشركات ليتملصوا من القوانين الموضوعية لمصلحة الشعب وتنظيم استخدام الثروات الكبرى »^(٨٦) . ومنها أيضاً هذا القول لإبراهيم لنكولن : « أتوقع أن تنشب في مستقبل قريب أزمة تزعجني وتجعلني أرتجف خوفاً على مستقبل وطني ... لقد وصلت الشركات الكبرى إلى السلطة ، وسيلي ذلك عهد فساد كبير وستشهد

(٨٥) نُشر عام ١٩٠٨ ترجمة لويس بوستيف إلى الفرنسية (ص ١٠-١٨) الناشر Collect .

(٨٦) عقب الحديد ص ٨٠-٨١ .

القدرة الاقتصادية في البلد في إطالة أمد سيادتها معتمدة على أوهام الشعب وستظل كذلك حتى تتجمع الثروة في أيدي معدودة وحتى تهدم الجمهورية»^(٨٧).

عقب الحديد هذا يسحق العمال والمستهلكين على حد سواء، ولا سيما أن المسؤولين عن الاقتصاد، بينما يمجّدون بالأقوال ديناميكية العمل الحر وروح المنافسة، يلجؤون إلى وسائل متعددة للحد من هذه المنافسة كي لا يتبادلوا الضرر، أما الشركات العمالقة فقد أقامت (البول) (Pool) وهو تجمع «منتجين» يستهدف القضاء على المنافسة. غير أن قانون التجارة بين الولايات، في العام ١٨٨٧، أعلن عدم شرعيته لأنه يعيق المنافسة.

ولكن ما قيمة القانون— كما كان يقول كورنيليوس فاندربيلت— عندما يملك المرء القدرة الاقتصادية؟ فالقانون متأخر دائماً عن الفعل والالتفاف عليه ممكن، ففي العام ١٨٨٢ أسس (جون د. روكفلر) شركة اتحاد شركات البترول مطبقاً (Dumping) (وهو إغراق الأسواق الخارجية بسلع أسعارها دون أسعار المنشأ وبخسارة). مع حصوله على أن تقوم شركات الخطوط الحديدية (نيويورك سنترال، بنسلفانيا) وغيرها بنقل إنتاج شركة ستاندار أويل (بأجور مخفضة. فصوّت الكونغرس عندئذٍ على القانون المضاد لشركات (التروست) الذي يحمل اسم عضو مجلس الشيوخ (شيرمان)— (Sherman Antitrust Act, 1890). وقد طُبّق هذا القانون في بعض الأحيان ضد شركات التروست، إلّا أنه لم يحل دون التجمع الصناعي. وليس في ذلك ما يثير الدهشة، فقد أُستعمل قانون شيرمان في الأنحص ضد العمال المنظمين في نقابات والذين يرتكبون جريمة إقامة اتفاق يعيق حرية المنافسة.

يقوم منطق هذا القانون، وهو منطق بارد، على مبدأ مساواة غير صحيح، يضع على قدم المساواة العامل الذي لا يملك سوى القدرة على العمل، والرئيس الصناعي ذا القدرة الكبيرة. وكان ينبغي انتظار صدور قانون كلايتون ١٩١٤ (Clayton Anti-Trust Act) لوضع القاعدة القائلة: «إن عمل الإنسان ليس إنتاجاً أساسياً ولا سلعة تجارية» وإن «الاتفاقات» المعقودة بين العمال لا تقع تحت طائلة المخطورات التي تحطم الموانع الحائلة دون حرية التنافس. غير أن اجتهادات المحاكم الفيدرالية أفرغت معظم مواد هذا القانون من محتواها.

وعلى كل حال، لم يكن أرباب العمل يفتقرون إلى الحيلة. فبفضل شركات التروست، أصبح

(٨٧) المصدر ذاته ص ١٤٧.

معظم أسهم أربعين شركة كبيرة في قبضة تسع شركات تروست ، وأصبح المساهمون يتسلمون شهادات لا تترك لهم أي قوة حقيقية ، كذلك أصبحت نسبة ٩٥ ٪ من الصناعة ، بواسطة الشركات المساهمة التي تسيطر على رأس مال عدة مشاريع ، متجمعة في أيدي معدودة . أما نتائج ذلك فلم تفاجئ أحداً ، إذ دلّ الإحصاء على أن الدخل الفردي قد انخفض إلى معدل ٢٠ — ٢٥ ٪ كما دل على أن أكثر من مليون ولد من ستة ملايين ولد أمريكي يعملون في المصانع ، وهكذا تحققت أمنية الكسندر هاملتون القائل : هؤلاء الصغار ذوو نفع كبير للمجتمع .

أما أرباب العمل الذين قبلوا ، عند قيام الإضرابات الكبرى (١٨٨٥ — ١٨٨٦) ، تخفيض ساعات عمل عمالهم إلى ثماني ساعات ، فقد تراجعوا وجعلوها من عشر ساعات إلى اثنتي عشرة ساعة . وجمع ٣٠٠ شخص ، من أرباب العمل ١١٥٠٠٠ دولار للقيام بحملة واسعة على « الفوضى » التي تسببها النقابات (في نظرهم) وتعهدوا بدفع ١٠٠.٠٠٠ دولار سنوياً لمتابعة هذه الحرب الصليبية المتقدمة .

ظل المؤشر يميل إلى التفاؤل على الرغم من القلق الشديد ، وقد صرح رئيس شركة الخطوط الحديدية في بنسلفانيا من (١٨٧٤ — ١٨٨٠) ، توماس سكوت قائلاً : « أعطوا العمال والمضربين عدة أيام معدودة غذاء من الرصاص والبنادق ، وسترون كيف سيمتصون هذا النوع من الخبز » وكان عدد السياسيين المخترفين المستعدين للانضمام إلى رجال الأعمال كبيراً . وتيودور روزفلت قبل وصوله إلى سدة الرئاسة ، وعلى إتخاذ وجهاً « تقديمياً » بعد ذلك ، لا يتردد في القول : « إن الشعور الذي يخالج الآن جزءاً كبيراً من شعبنا لا يمكن أن يزول إلا بإلقاء القبض على عشرة أو اثني عشر من زعمائهم والصاقهم بحائط وإطلاق النار عليهم حتى موتهم ، وأعتقد أننا سنصل إلى ذلك » .

إن توماس سكوت وتيودور روزفلت يعلمان أن أقوالاً كهذه لا تنفّر الشعب منهما . بل إنها بعكس ذلك ، تقربهما ، في الأقل ، من أناس يُحسب حسابهم في مجتمع لا تزال أغليته مجردة من كل قوة حقيقية . وتصريحاهما تلك تلقى لدى الرأي العام — ومن يستطيع منه سبيلاً إلى التعبير عما يريد — من الصدى الحسن أكثر مما لقيته بلاغة اتهامات صموئيل غامبرز مؤسس اتحاد العمل الأمريكي . وأول رئيس له في العام ١٨٨٦ ، الذي قال ، إن العمال : « هم زيت الآلات ، التي تطحن عظامهم لتحولها إلى مال يُشبع رغبات الوحوش الذين لا يرتنون ، وحوش رهبهم الأوحده هو الكلي — القدرة : « الدولار » . هذا الأسلوب المتكلف — الذي يتوخى الخداع إلى حد كبير غدا ، مع تراجع التاريخ ، عاجزاً عن الخداع .

فصموئيل غامبرز ، الذي بقي ثماني وثلاثين عاماً على رأس اتحاد العمل الأمريكي ، ظل على انتهائه إلى الجناح المحافظ في الحركة العمالية ، وعلى جهده في استمرار وصايته على أكثر التنظيمات استعداداً للنضال ، وفي أشباهه من الرجال يفكر جاك لندن عندما يتحدث عن « خيانة كبار النقابيين » الذين ضللهم من « كان يسعهم أن يصبحوا ثوريين » إلا أن « القلة الحاكمة استألتهم ، فراحوا يستخدمون قوتهم في شد أزرها »^(٨٨) .

إن غامبرز لا يهتم البتة إلا بنخبة من العمال المتمسكين بمظاهر الاحترام ، والقريبين من البرجوازية الصغيرة ، وقد نظم في نقابات الحرفيين أكثر العمال مهارة ، بينما ظل جمهور العمال اليديويين البسطاء بلا مدافع تحت وطأة كل أنواع الاستغلال من قبل السلطة ، ومنذ ذلك الوقت ، كان قد اتضح أنه لا يكفي المرء أن يكون عاملاً ليصبح تقدماً وثورياً . وأن ثمة فرساً اجتماعياً صلباً ينشأ بين العمال اليديويين ، « فطبقات » متباينة تخطط معالمها داخل الطبقة العمالية بدون تضامن حقيقي بينها ، وهذا التقسيم يضع حدوداً لفاعليتها ، وفي أحيان كثيرة ، يحكم بالإخفاق على النظريات القائمة على تحليل إجتماعي بسيط جداً ، يرسم لإتجاهه المتناقض حداً واضحاً بين مجموعتين متنازعتين هما الرأسماليون والعمال ، متجاهلاً انفصامات أخرى لا تقل عمقاً عن هذه ، ونزاعات أخرى ليست أصعب حصراً منها .

كان لا بد من أن يؤدي هذا التفتت إلى إعاقاة النضال الديمقراطي . فهو ، وقد زاده حدة قدم المهاجرين ، يقترب بانفصام يكاد يكون شاملاً ، بين مجموعات عنصرية . وإن تحليلاً يمنح الامتياز للمعطيات الاقتصادية ، باسم معايير « موضوعية » ، هو تحليل يهدده الوهم بأن المستغلين ، سواء كانوا من السود أو البيض ، سيشتركون في نضال واحد . لكن لم يحدث شيء من ذلك ، لا في نهاية القرن التاسع عشر هذه ، ولا بعد الحرب العالمية الثانية ، والحلم الديمقراطي ، على صعوبة تحقيقه بذاته ، لأنه يتوجه بالنداء إلى أغنى سجاجيا الطبيعة الإنسانية ، والذي ضحى به الإتجاه الرأسمالي على مذبح مطامع أشد أنانية ، قد شلته العنصرية ، من جهة أخرى ، منذ وثبة الكفاح العمال الأولى^(٨٩) .

غير أن ظهور معالم لها أثرها ، أحيى آمال جميع الذين لا قبل لهم بالاستسلام إلى مصير مفرط في البؤس . ففي مدة ستة عشر عاماً ، ١٨٦٥ — ١٨٨١ ، سجلت الصناعة الأمريكية ٥٠٠

(٨٨) « عقب الحديد » ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٨٩) الفصل الثالث من هذا الكتاب .

إضراب. ولكن كانت المفاجأة من العام ١٨٨١ إلى العام ١٨٨٥ : أربعة أعوام هز البلاد خلالها زهاء ٣٨٠٠٠ إضراب احتشد فيها ٧٥ مليون من العمال، وكان القمع أكثر وحشية. وقد بلغ ذروته بين (١٩٠١—١٩٠٤) حين قتلت الشرطة والميليشيا الخاصة، خلال ثلاثة أشهر، في ثلاثين ولاية ١٩٨ عاملاً من مفارز المضربين والمسؤولين عن تنفيذ أوامر الإضراب، وجرحت ١٩٦٦ وألقت في السجون ٦١١٤. هكذا لم يكن في «عقب الحديد» أي شيء من صورة مجردة.

أما الوسائل المستخدمة لسحق مطالب العمال فقد أصبحت لها شهرتها الكاملة في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، وذلك بالمسلك الذي سلكته الحكومة وأرباب العمل في الإضرابين الكبار، إضراب هومستيد في بنسلفانيا، وإضراب بولمان في الالبنوا، فقد حقق فيهما مبدأ «القانون والنظام» تكرار أقصى انتهاك للديمقراطية.

معركتان عماليتان كبيرتان

كان مصنع الصلب الكبير الذي يملكه في هومستيد، (الإنساني) أندريو كارنيجي — ويده العيني هنري كلاي فريك — يستخدم في العام ١٨٩٢، ٨٠٠ عامل اختصاصي و ٣٠٠٠ عامل عادي، وكان أصحاب الاختصاص قد حصلوا، بعد إضراب اندلع قبل ثلاث سنوات، على عقد يربط الأجور بتغيرات سعر الفولاذ الذي كان يميل آنذاك إلى الارتفاع. وكانت الخصومة بين العمال الاختصاصيين والعاديين صورة تكاد تكون كاملة عن الخصومة بين السكان المحليين والمهاجرين الجدد، فاستغل هنري كلاي فريك تلك الخصومة بينما كان المشروع في ازدهار واضح، وأعلن تخفيضاً للأجور يتراوح بين ١٨ إلى ٢٦٪. وعندما رفض العمال التخفيض أعلن توقيف العمل وإغلاق أبواب العمل مؤقتاً من خروجه منتصراً من اختبار القوة هذا. منذ ذلك الحين، لم يبق عليه إلا أن يطبق لإجراء بسيطاً، تكرر استخدامه حتى عام ١٩٤٠، فقد لجأ إلى وكالة من وكالات التحري التي تقوم باستخدام محطمي الإضراب الذين يدخلون المصنع تحت حماية الشرطة والجيش.

غير أن تصميم العمال كان أقوى مما تصوره فريك ووكالة بنكرتون الخاصة فقد نشبت معركة حقيقية وجهاً لوجه عند أبواب العمل وأكره بنكرتون على رفع العلم الأبيض، بعد أن قُتل ثلاثة من عملائه وتسعة عمال. وطلب عمال بتسبورغ من مجلس البلدية أن يرد إلى أندريو كارنيجي المليون دولار التي أهداها هذا إلى المدينة لتأسيس مكتبة، فمؤسسو السلالات الصناعية الكبرى يعرفون معرفة جيدة كيف يوحلون بين حب الثقافة وحقارة الشروط التي يحملون عمالهم على العيش فيها،

وقد وصف الروائي الكبير جون دوس باسوس شخصية أندرو كرنيجي المهاجر الفقير المستخدم في أوضاع الأعمال، كما يلي:

ما أن كان يملك دولاراً حتى يوظفه ،
 (أندرو كرنيجي) اشترى أسهماً لشركتي آدم
 اكسبرس وبولمان عندما كانت أسعارها منخفضة ،
 كان يثق بشركات الخطوط الحديدية
 وكان يثق بالمواصلات ،
 كان واثقاً بوسائل النقل
 كان يؤمن بالحديد .
 (أندرو كرنيجي) كان يؤمن بالحديد . فقد بنى
 جسوراً وبنى مصانع (بيسمر)^(٩٠) وأفرائاً لصهر المعادن ،
 وآلات تصفيح .
 (أندرو كرنيجي) كان يؤمن بالبترو
 و(أندرو كرنيجي) كان يؤمن بالفولاذ ،
 وفر أمواله دائماً
 ما أن يملك مليوناً من الدولارات حتى يوظفه .
 (أندرو كرنيجي) غدا أغنى رجل في العالم ومات
 (أندرو كرنيجي) قدم الملايين من أجل السلام .
 أنشأ مكاتب ومعاهد علمية ومؤسسات ،
 وكلما كان يملك ملياراً من الدولارات كان يُقيم
 مؤسسة للاسهام في السلام العالمي ... دائماً كان يفعل ذلك إلا
 في زمن الحرب^(٩١) .

كان من الممكن أن يؤول إضراب هومستيد إلى النجاح لو أن أرباب العمل والعمال ظلوا
 وجهاً لوجه، غير أن الحكومة الفيدرالية عبأت ٨٠٠٠ من الحرس الوطني لسحق الحركة، فعجلت

(٩٠) إنتاج الفولاذ .

(٩١) ص ٢٩٢ دار النشر غاليمار John Dos Passos 42 Parallelc .

ادارة المصنع، وقد اشتد أزرها بهذا الدعم، إلى توجيه ٧٠ من العملاء الذين يستأجرون محطمي الإضراب ليدخلوا المصنع تحت حماية القوى المسلحة. لم يستسلم المضربون، ولا سيما أن جماعات نُظمت في جميع أرجاء البلاد لتمد إليهم يد المعونة، غير أن مدخراتهم ما لبثت أن نضبت وآل الإضراب إلى الإخفاق، أي أواخر تشرين الثاني بعد أن دام خمسة أشهر.

أما إضراب معامل بولان حيث تُصنع عربات النوم الشهيرة، والذي اندلع بعد ثمانية عشر شهراً خلت على إضراب هومستيد، فقد أتاح الفرصة لنشوب معارك أشد عنفاً من إضراب هومستيد، إذ بينت تقاويم هذه المعامل السرعة التي تتجمع فيها الأرباح، ففي الاثنتي عشر شهراً الواقعة بين تموز ١٨٩٢ وتموز ١٨٩٣، دفعت المصانع المذكورة أجوراً مجموعها ٧٢ مليون دولار (أي ١٠٠ دولار لكل عامل شهرياً، تقريباً) بينما بلغت الأرباح التي دُفعت للمساهمين أكثر من ثلث هذا المبلغ أي ٢٥٠٠٠٠ دولار. وكان لادارة الشركة أن تغتبط بهذه النتيجة، إلا أنها كانت تطمع في أرباح أكثر، لذلك عمدت إلى إنقاص عناصرها من ٥٥٠٠ عامل إلى ٣٣٠٠ وإلى تخفيض الأجور بمعدل ٢٥ — ٤٠٪. أضرب العمال حيال هذه السياسة الشاذة وظلت حركتهم محلية محدودة، لكنهم أدركوا ألا سبيل إلى النجاح إلا بتضامن قومي. ولذلك قام الزعيم الاشتراكي أوجين ف. دبس Eugene V. Debes بتنظيم مقاطعة واسعة استهدفت عربات بولان التي قام ١٢٥٠٠٠ من عمال الخطوط الحديدية بفصلها عن خطوطها، وكان طبعياً أن تقاوم شركات الخطوط الحديدية عملاً كهذا وأن تؤدي مقاومة كهذه إلى إضراب عمال الخطوط.

إن شركات الخطوط الحديدية التي كانت آنذاك في أوج ازدهارها، مصدر عدد من أكبر الثروات التي جُمعت بمساعدة الحكومة وبمنحها الشركات أراضي وتعويضات. وكانت متضامنة وشركة بولان التي تصنع جزءاً من تجهيزاتها. ومن جهة أخرى، تجمعت أربع وعشرون شركة منها، دون أن تخشى طائلة القانون، في شركة جنرال ميناجرز التي كان أحد أعضائها ريتشارد ب. أولني محامي شركات الخطوط الحديدية والذي أصبح (وزير العدل) في عهد رئاسة كليفلاند.

وكان الاشتراكي أوجين ف. دبس، قد قام بثلاث حملات انتخابية لصالح غروفر كليفلاند، لأنه كان يقدر الشجاعة التي حفّزته إلى إدانة «عقب الحديد» الذي تسحق الشركات الكبرى المواطن العادي تحت وطأته^(٩٢). غير أن الرئيس كليفلاند، تحذع ببراعة وزير عدله، المشبوه من

(٩٢) المصدر ذاته ص ٩٤.

عدة نواح^(٩٣)، فقد لجأ هذا إلى حجة ملتوية استند فيها إلى أن الحكومة، بموجب الدستور، ملزمة بضمان وصول البريد. مع أن عمال الخطوط المضربين كانوا يُفسحون المجال لمرور عربات البريد. لذلك، أقام وزير العدل المذكور الدعوى القضائية على المضربين، ووجه إلى محكمة التحقيق تعليمات فيها الجملة التالية: «إن الوسيلة الصحيحة لمعالجة هذه القضية هي استخدام قوة رادعة حتى حيال أضعف أشكال المقاومة» ورأى رئيس المحكمة أنه مخول أن يصرح: «إن نمو المنظمات النقابية ينبغي أن يوقفه القانون عند حده».

لم تكن عبثاً هذه الأقوال، إذ بينما استطاعت شركة (الجنرال ميناجر)، بقدرة قادر، الإفلات من وطأة القانون المضاد لشركات التروست (قانون شيومان)، فقد استند إلى هذا القانون ليحظر على النقابيين كل عمل، حتى إرسال برقية بسيطة لصالح الإضراب. وهذا الإجراء، كما أرادوا أن يظهرها، رسمياً، هو إجراء مبرر، لأن الإضراب يفرض في الواقع قيوداً على التجارة، فهو إذاً يقع تحت طائلة قانون مكافحة شركات (التروست). وهكذا اتخذت واشنطن قرارها بتوجيه القوات المسلحة الاتحادية إلى عشرين ولاية، كان عمال الخطوط الحديدية يبدون نشاطاً خاصاً فيها، وتراءى لحاكم ولاية (الايلىنو) أن هذه البادرة لا تُطابق فاحتج عليها إلى الرئيس.

لم يتوجه الجند إلى مواطن الإضراب الحامية ليعرضوا قوة لا تنوي السلطة استخدامها، وفي ٥ تموز ١٨٩٤ شنت على المضربين هجمة سلاحها الحراب فتراجعوا، إلا أنهم أحرقوا في اليوم التالي من أملاك شركات الخطوط الحديدية ما قُدرت قيمته بـ (٣٤٠) ألف دولار ودفعت وحشية القمع مجموعات من الضباط إلى الإحتجاج على الدور الذي تحمل الحكومة الجيش على القيام به. وفي ٧ تموز بلغ عدد القتلى عشرين من المضربين، وعُيبت قوات عسكرية في ولايتي كاليفورنيا وميتشغان. وحيال استمرار الإضراب أصدر الرئيس (غروفر كليفلاند) بلاغاً يحظر التجمع في ثماني ولايات: بلغ عدد القوات المسلحة في مدينة (شيكاغو) وحدها (١٤٠٠٠) رجل. وفي ١٠ تموز أضيف اثنان إلى لائحة القتلى. وبلغ قلق (العقلاء) حداً حمل مجلس النواب على اتخاذ قرار بالموافقة على تدخل الجيش. وهكذا يكون أولئك الذين انتخبهم الأمة قد وقفوا إلى جانب نظام لا يقومون اعوجاجه. وعمدت الشرطة إلى توقيف (٧٠٥) من المضربين الذين آلت حركتهم ابتداءً من ذلك إلى الإخفاق.

(٩٣) لمعرفة دوره في السياسة الامبريالية التي تبناها الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية انظر (الإمبراطورية الأمريكية) لمؤلف هذا الكتاب ص: ١٢٧-١٢٩.

إن نقائص نظام يدعي الديمقراطية ولا يستطيع، على الرغم من الانتخاب العام، التوصل إلى إحقاق العدالة لصالح سواد الشعب، هذه النقائص تحمل عدداً كبيراً من الناس على التساؤل: هل تكون الديمقراطية متلائمة ورأس المال هذا الذي لا يردعه رادع والذي يواجه المتسعين (بفتح الغين) بقوة المال والسلاح؟.

إن (أوجين ف. دبس) المرشح الاشتراكي الذي لم يحصل إلا على (٩٥٠٠٠) صوت في انتخابات الرئاسة عام (١٩٠٠) نال (٤٠٠) ألف صوت فيها بعد أربع سنوات، ونال (٩٠٠٠٠٠) عام ١٩١٢ إنه لتقدم مشجع، إلا أن الرقم الأخير يبقى مع ذلك ضئيلاً ولا يمثل سوى (٦٪) من مجموع الناخبين. ولعل الأمور، إذاً، لا تتقرر أمام صناديق الانتخابات؟ أم لعل الأفكار قد بدأت تتطور؟ لقد أفادت النشرات الاشتراكية—على كل حال، من اسهام أسماء كانت قد اشتهرت أو أصبحت مشهورة بعد ذلك مثل (شروود أندرسون—والتر ليمان—يوتبون سانكلير—جاك لندن—جون ريد وغيرهم...).

وما دامت الانتخابات لم تؤد إلى أي حل، فقد تتابعت النزاعات الدامية. ففي شيكاغو (عام ١٩٠٥) انتهى إضراب سائقي الشحن بمصرع عشرين سائقاً و(٤٠٠) جريح و(٥٠٠) معتقل. وتفاقم إضراب عمال المناجم في (كولورادو) حتى تحول إلى حرب أهلية صغيرة. وفي العام ١٩١٠ كان مليوناً صبي يعملون بأجر وهمي (من دولارين إلى ثلاثة في الأسبوع). وقد جاء في تقرير حكومي أن أكثر من (٣٥٠٠٠) عامل قضوا نحبهم في أثناء العمل خلال العام ١٩١٤ وحده. كان الظلم إلى الكسب لا يرضى بتخصيص اعتمادات للتأمين ضد طوارئ العمل، أو في الأقل، بتخفيف أشد الأخطار الناجمة عن العمل.

إن نتائج مفهوم كهذا لتوسع رأس المال هي نتائج وخيمة. وقد أبدى عليه الرئيس (وودرو ويلسون) عام ١٩١٣ الملاحظة التالية مستنتجاً: «إن سادة الحكم في الولايات المتحدة يتألفون من تحالف الرأسماليين والصناعيين». وقد لخصت لجنة حكومية الوضع الاجتماعي بقولها: «تقدر أكبر ثروة خاصة في الولايات المتحدة بمليار دولار، وهي تعادل ما يملكه (٢٥٠٠٠٠٠) شخص من الفقراء، معدل ثروة كل منهم زهاء ٤٠٠ دولار» وفي آن واحد، هنالك ٢٤ أسرة تربح كل منها أكثر من مليون دولار سنوياً. وديمقراطية كهذه هي ديمقراطية لا تهتم بتخفيف وطأة أكثر أنواع التفاوت والاجحاف شدة، ولا تهتم بتقديم الحد الأدنى اللائق من الأجر لمن يعملون: إذ ما قيمة مواطنين كهؤلاء!؟.

وأكثر من ذلك إن هذه الديمقراطية المدهشة تستمر في قتل من يجزؤ على الإحتجاج . ففي العام ١٩٠٣ — ١٩٠٤ ، أخفق إضراب « كريل كريك » في الكولورادو ، بعد استمراره مدة ١٤ شهراً وانتهى بقتل ٤٢ من عمال المناجم وجرح ١١٢ وتوقيف ١٣٤٥ توقيفاً تعسفياً ، وفي ٧٧٣ عاملاً من الولاية . والحادثة التي لا تكاد تُصدق هي أن القوات المسلحة الفدرالية المكلفة بتوطيد الأمن ، كانت تقبض رواتبها من أرباب العمل وأن الجنرال « شيومان بيل » قائدها ، رفض بكل بساطة الرضوخ لقرار قاضي شريف وشجاع أصدر إليه الأمر بالإفراج عن السجناء المعتقلين اعتقالاتاً غير شرعي . وقد صرح القائد المذكور بكل فظاظه : « فليمض الدستور إلى الجحيم ! نحن لا نتقيد بالدستور » كذلك شملت الحصانة رأسالياً كبيراً هو « جون د. روكفلر » الذي فوجئ عماله في « لودلو » (في الكولورادو) بالجنود يمدقون بمخيمهم ويصبون البترول على الخيم ويشعلون فيها النار . وفي عيد الفصح ، (عام ١٩١٤) ، مات ثلاثة عشر صبياً من عمال المناجم وامرأة في لهيب النار ، وقُتل ستة رجال بطرق مختلفة ، وبعد مرور عامين ، قُتل عاملان من عمال شركة « ستاندر أويل » في ولاية نيوجرسي .

كان ينبغي الكثير من الدم المهرق ليُفرض على عدد متكاثر من العمال ، واقع بسيط هو أن الديمقراطية ، بممارستها على هذا النحو ، وإرادة الحكومات التي وضعت القوات المسلحة في خدمة المؤسسات الصناعية الكبرى ، قد جردت من كل قيمة فعلية النصر الكبير الذي حققته الثورة الأمريكية بإلغائها القيود الانتخابية (ضريبة حق الانتخاب) وإعلانها حق الانتخاب العام . فقد استمرت السلطة في تمثيلها طبقة المالكين ، وفي إتخاذها هويتهم ، أما البسطاء الذين يريدون إبراز حقوقهم إلى حيز الوجود فسُيرغمون على ابتداء وسائل عمل أخرى . وهذا الدور قام به ، في مطلع القرن ، التنظيم الذي عُرف باسم « الووبليس » « Wobblies » ابتداءً من عام ١٩٠٥ ، واسمه الكامل « عمال العالم الصناعيين » (I.W.W.) .

حركة ثورية

كان أولئك العمال ، بمخيلتهم الخصبة ، قادرين على أعمال العنف وفي آن واحد على استثمار تأثير الفجأة ، وعلى التأثير أيضاً في الرأي العام وقد أسبغوا على الحركة العمالية خلال عشر سنوات تألقاً رائعاً . كانت حركتهم عابرة ، وخاصة بمرحلة ساد فيها يؤس كبير ، وفيها كان أناس بسطاء واثقون بحقهم الصريح ، لا يتقيدون بأية صفة شرعية ولا أية نزعة محافظة .

غير أن الحكومة الأمريكية استعملت في مكافحة هذه الحركة سلسلة من الأسلحة وبلا أي هوادة . وما كادت تمضي على تأسيسها أشهر معدودة حتى وُجد حاكم ولاية (الايدaho) —فرانك ستينبرغ— مقتولاً بطريقة غامضة في ٣٠ كانون الأول ١٩٠٥ ، وعمال ١ هم الذين رجحوا كفة نجاحه في الانتخابات . إلا أن ذلك لم يردعه بعد وصوله إلى السلط توجيه الميليشيا إلى عمال المناجم المضربين في عام ١٨٩٢ في (كوردالين : Coeur, d'Alene) أعتقل (٦٠٠) منهم . لكن الحاكم السابق كان يتمتع آنذاك بحرية التقاعد . فمن الذي قت

ثمة ما يُغري بتفسير هذه الجريمة بانتقام قام به العمال . وقد قام بمهمة البحث عن رجل عُرف بمهارته في هذا النوع من الأعمال هو التحري الخاص (جيمس مكبارلان) من (بانكرتون) وكان ، لثلاثين عاماً خلت ، قد سبب لعمال (مولي ماغيرز Molly Maguires) الإعدام شقاً . وبعد تحقيق عاجل أتهم بيغ بيل هايوود زعيم (I.W.W.) حركة العمال الجديدة ، آخرين بالقتل وقدم ضدهم (شاهد إثبات زعم أن اسمه اورتشارد) .

كانت ولاية (الايداهو) التي وقعت الجريمة على أرضها قد طلبت تسليم ثلاثة متهمين ولاية (كولورادو) إليها لكن إجراءات التسليم قد تعطلت وقتاً طويلاً ، بينما كانت السلطات المدنية في الولاية عازمة على أن تُنهي هذه الدعوى بأقصى ما تستطيع إليه سبيلاً من السرعة . وقع (الكولورادو) قرار التسليم مساء يوم سبت ولم يطلع عليه محامو الدفاع ، وسبق المتهمون الثلاثة الفور إلى ولاية (الايداهو) .

لكن هذه الدعوى لم تسر كما كان متوقفاً لها ، ففي المحكمة ظهر أن (شاهد الإثبات) ١ قدمته وكالة (بانكرتون) لا يُسمى كما ادعى ، بل اسمه الحقيقي (الفريد هورسلي) وهو ذو ماضٍ من الإجرام ما فرض عليه عقوبة السجن مدى الحياة . وهكذا برئت ساحة (بيغ بيل هايوود والمتهمين الآخرين) ^(٩٥) .

لم يتردد الرئيس تيودور روزفلت ، غداة الدعوى ، بخرق مبدأ الفصل بين السلطات ١ يعلن أن بيغ بيل وزميلييه هم مواطنون غير مرغوب فيهم ، وعلى الفور اندفع الطلاب في جميع أر

(٩٤) الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٩٥) وصفنا الوسائل التي استخدمتها السلطات لقمع الحركة في الفصل الثاني ، واقتصرنا في هذا الفصل على أساليب الكفاح الجديدة التي ابتدعتها هذه الحركة .

الولايات المتحدة الأمريكية يعلنون تضامنهم حاملين لافتات كتبوا عليها: «أنا مواطن غير مرغوب فيه». وقد عادت هذه الفكرة ذاتها إلى الانبثاق مرة أخرى بعد ثلاثة وستين عاماً تحت شعار: «نحن جميعاً يهود ألمان»، عندما واجه دانييل كوهن Daniel Cohn، في باريس بعض الصعوبات.

يرينا تاريخ هذه الحركة العمالية الرجيز، كيف استطاعت، بمجملها، أن تطبق أساليبها في العمل، حسب التقنيات التي كان يستخدمها أرباب العمل والحكومة. إنما على الرغم مما أبداه مناضلوها من فاعلية (دينامية) نادرة، لم يمسكوا بزمام المبادرة في عملياتهم. لكنهم برهنوا عند مواجهتهم مواقف جديدة، على عقل مبدع فائق الخصب، مع بقائهم عملياً في حالة الدفاع. فمنذ المرحلة التي تقدمت الاستقلال، كان المالكون هم الذين بدؤوا تاريخياً، الكفاح الطبقي، وعلى الرغم من التنازلات التي أكرهوا عليها، ظلوا محتفظين دائماً بالمبادرة، بينما فرض على العمال الاكتفاء بالرد. ولم تشذ حركة العمال الصناعيين (I.W.W) عن القاعدة.

على الرغم من ذلك، وجد أرباب العمل والحكومة أنفسهم أمام خصم ما اعتادوه من قبل. من هذا القبيل ما قام به العمال في تموز من عام ١٩٠٩، عندما أعلنوا الإضراب في معمل المعادن في ولاية بنسلفانيا، احتجاجاً على إجراء واسع الانتشار، هو «الأجر المجمل» Pool System الذي يتلقى بموجبه عمال من اختصاص واحد، أجراً إجمالياً يوزعه عليهم رئيس العمال، وهذا ما يدعم سلطة الرؤساء الصغار، إلا أنه يسبب التعسف والفساد مباشرة. فترئيس العمال يوزع على من هم بأمرته الخطوة أو الاجحاف للفرقة بينهم، وهو يقرر بعض التسيّجات، وعند ملء الوظائف الشاغرة، لا يلقي أي عناء في العثور، بين جمهور المرشحين للعمل، على العامل المستعد أن يدفع من أجره الشخصي مبلغاً ما لمن أنعم عليه بالعمل.

أحدثت قوى الأمن، منذ أول إضراب، بالمصنع (وعدد ٣٠٠ رجل). قُتل أحد العمال، وتلقى الضابط الذي أُلقيت على عاتقه مهمة القمع رسالة تحمل توقيع: لجنة مجهولة. جاء فيها: «كلما قضيت على حياة عامل، سيُقضى على حياة جندي»، لم يكن هذا التهديد من العيب، فقد قُتل خلال أسبوع عشرة جنود، أما المضربون المقبوض عليهم، فقد كانوا يُشَدُّون إلى الجياد ويجرُّون في شوارع المدينة، على الأرض. ولما كان ميزان القوى جد متفاوت، محلياً، فقد حصل العمال الصناعيون على معونة عمال الخطوط الحديدية الذين رفضوا نقل «محطمي الإضراب»، وعلى معظم الخطوط، كان يعتمد المستخدمون، إما إلى إقناع محطمي الإضراب المأجورين بالعدول عن القيام

بعملهم، أو إلى إخراجهم بالقوة من الرتل. وهكذا لم تتخل إدارة المصنع عن أسلوب «الأجر المجمل» فحسب، بل دفعت زيادة أجور قدرها ١٥٪.

واجه هؤلاء العمال في مصانع النسيج في لورانس (ولاية الماساشوستس) موقفاً أشد، إذ ما كاد ينشب النزاع في العام ١٩١٢، حتى أعلن المسؤول عن قوى الأمن عن مقاصده الصريحة قائلاً: «لسنا في صدد ملاعبة المضربين الذين لا يحترمون القانون، فالجنود سيطلقون النار قاصدين القتل». ثم أضيف التهيب إلى الاستثارة، حين اكتشفت الشرطة كمية من الديناميت مخبأة في أماكن عدة واتهمت العمال (Wobblies) بإقامة مستودعات المتفجرات هذه، فأقدمت السلطة على توقيف ٣٣٥ عاملاً من المضربين، وقتلت امرأة في إحدى المناوشات.

خطرت عندئذٍ للعمال طريقة تُتيح تخفيف الأعباء المادية التي كانت تنوء بها كواهلهم، وفي آنٍ واحد، امتداد كفاحهم إلى الصعيد الشعبي وتوسيعه. فطلبوا من بعض أسر مدينة نيويورك أن تستضيف، في مدة النزاع، أبناء المضربين في لورانس، ولا سيما أبناء السجناء منهم. وغادرت أول قافلة من الأولاد المدينة بلا صعوبة، لكن ما أن أُعلنت السلطة بذلك حتى قررت منع المجموعات المقبلة من مغادرة المدينة. وكان جمهور كبير يواكب الأولاد في طريقهم إلى المحطة، عندما قامت الشرطة بهجمة وحشية على الموكب. فأعلن العمال تهديدهم وهو: «إما أن تفتحوا أبواب السجن، وإلا أغلقنا أبواب المصانع» للحيلولة دون دخول محطمي الإضراب الأجورين. وبعد انقضاء شهرين تكلم الإضراب بفوز العمال.

ظلت الدعوى بتهمة إقامة مستودعات سرية للمتفجرات قائمة. وخلال جلسات المحكمة التي تتابعت مدة شهرين، اكتشف القاضي والمحلفون أن مستودعات الديناميت قد أقامها رجل أعمال من مدينة لورانس كان عميلاً لشركة «الأمريكان وولن» صاحبة المصنع. وهكذا كُشف القناع عن مقيمي الدعوى، وورثت ساحة العمال المناضلين الذين أرادوا إلصاق التهمة بهم.

أدهش عمل «الوبليس» الرأي العام، فقد أعطوه عن أنفسهم صورة رجال بسطاء صرخاء وخشنيين، يتمتعون بمخيلة خصبة، وقادرين على اجتذاب عطف قوي. وقد جعلت لهم براءة زعيمهم بيغ بيل، منذ مولد حركتهم، ثم قرار دعوى لورانس، سمعة وشهرة واسعة لافلاتهم من الشراك الفظة التي نصبها لهم حراس النظام. وقد بلغت شعبيتهم الأوج، ولا سيما في أوساط أفقر طبقات العمال، بمهاجمتهم العنيفة أسلوب «الأجر المجمل»، ويحملهم بعض الأسر على إيواء أبناء

عمال مضربين ، وباحاطتهم تهديدات « لجناتهم المجهولة » بجو من الكتمان العجيب ، وكذلك ببلاغة زعمائهم الخالية من التكلف ونشاط مناضليهم الذي لا يفتر ، وهم يجربون أرجاء البلد لتحقيق التضامن عند إعلان أي إضراب للعمال . غير أن اتحاد العمل الأمريكي الذي يقوده صموئيل غامبرز ، مع « نقابات الحرفيين التي تضم أفضل العمال مهارة ، والمتقاضين أجوراً جيدة نسبياً . والراغبين في الاحتفاظ بميزاتهم » كان ينظر إلى العمال الصناعيين (الوبليس أو I.W.W ، بعين الريبة . فهؤلاء هم ، في نظر أرباب العمل ، الحيوان الذي ينبغي أن يُقتل ، وقد دفعوا ، في الواقع ، ثمن شعبيتهم غالياً جداً . ففي العام ١٩١٣ . قُتل خمسة منهم في ولاية الالينوا وأُعتقل ١٥٠٠ . وكان لهم شاعرهم وهو جوي هيل ، صاحب أناشيد مطالب العمال ، وهو وجه أسطوري غدا اسمه مقدساً عند الشعب ، بعد إعدامه في العام ١٩١٥ لجريمة قتل لم يرتكبها على الأرجح . وقد عارض « الوبليس » وهم العمال الأمميون الذين يرون في أي حرب نزاعاً امبريالياً تخسر فيه طبقة العمال كل شيء ولا تريح شيئاً ، تدخل الولايات المتحدة في الحرب العالمية الأولى ، كما عارضه معهم اشتراكيو أوجين دبس . وهذا ما سبب القضاء عليهم فقد طُبق عليهم قانون التجسس^(٩٦) الصادر في العام ١٩١٧ ، كما طُبق على منظمات العمال المسالمة تطبيقاً بلغ غاية الشدة والعنف . واستخدمت الشرطة على نطاق واسع ، لتفتيتهم والتغلب عليهم ، أساليب تم تحسينها ، بعد ذلك ، لافقاد الزعماء السود ومعارضى الحرب الفيتنامية مكاتهم وسمعتهم ، كالسطو على منازلهم والشهادات الكاذبة ضدهم وتوقيفهم بالمئات . وقد اضطر بيع بيل إلى مغادرة البلاد ، تفادياً لدعوى لا سبيل إلى الشك في نيتها والحكم فيها ، وبعد ثورة أكتوبر ، كان لا بدّ من اللجوء إلى الاتحاد السوفييتي حيث قضى نجبه في العام ١٩٢٨ .

« النقابات لا ضرورة لوجودها »

أتاحت الحماسة الوطنية التي أثارها الحرب العالمية الأولى القضاء على أعظم منظمات العمال فاعلية ، بسبب دعوتها إلى السلم . كذلك أوقف ، في آن واحد وحوكم عدد كبير من الاشتراكيين والفوضويين ، وحُكم عليهم بعقوبات سجن شاقة ، وهكذا خلا المسرح من مثيري القلاقل الذين كانوا يعكرون صفو المالكين . وهذه التضحية ، ليست ، في نظر الطبقة الحاكمة ، من أقل مكاسب الحرب العالمية الأولى ، إذ ما كاد السلام يعود حتى غدت أمريكا لا تفكر إلا باستئناف سير الأعمال

(٩٦) الفصل الثاني من هذه الكتاب .

الطبيعي، وقد أضحي هذا أكثر سهولة، فمثيرو القلاقل لا سبيل لهم إلى الأذى، بعد الآن.

ولكن هاهو أكبر إضراب شهدته أمريكا، يندلع في أيلول ١٩١٩، ويشترك فيه ٣٥٠.٠٠٠ عامل من عمال المعادن، قادهم رجل في الثامنة والثلاثين من عمره، هو ويليام ز. فوستر، الذي غدا، بعد ذلك، زعيم الحزب الشيوعي الأمريكي وكان على الحكومة أن تقاوم بشدة وسرعة، إن أرادت ألا تدع الأحداث تتجاوزها. فعمدت إلى تعبئة ٢٥٠.٠٠ رجل استخدموا أسلحتهم، فسقط عشرون من المضربين قتل، وجرح مئتا. وقامت عمليات التوقيف والدعاوى على قدم وساق. وانتهى الأمر بإخفاق الإضراب. إنما لم يلبث أن جاء دور عمال مناجم الفحم في الإضراب، وتوقف ٤٠٠.٠٠٠ منهم عن العمل. فأعلن الرئيس وودرو ولسون (الديمقراطي) أن الإضراب عمل لا شرعي. لكن لماذا؟ وأي قانون ينتهك الإضراب؟ ليس من يعرف هذا. غير أن جون ل. لويس، زعيم عمال المناجم قال مؤكداً: «لا قبل لنا بمقارعة الحكومة». وفي الواقع، راوده الأمل بالحصول بطريق المفاوضة، على ما لا يستطيع الحصول عليه بالإضراب. لكنه أخطأ، فقد استأنف العمال عملهم، حسب الشروط السابقة ذاتها.

اطمأن النظام القائم، حق الاطمئنان. فقد عمد ألبرت هـ. غارزي، الذي أطلق اسمه على المركز الحديدي الكبير في الانديانا إلى استقاء العبرة من التاريخ. وهو (محامي أعمال) أوكل إليه مورغان في عام ١٨٩٨ أمر العناية بتنظيم شركة «الفدرال ستيل». وفي عام ١٩١٩، أقنع هذا المحكمة العليا أن شركته، التي كانت آنذاك أقوى الشركات، لا تقع تحت طائلة القوانين المضادة لشركات التروست. وهو ذاته، الذي حطم هذا العام، إضراب ٣٥٠.٠٠٠ عامل من عمال المعادن. وخاطب أصحاب أسهم شركة U.S ستيل قائلاً لهم ما في خاطره حقاً وما يرغبون هم في سماعه: «قد يكون لوجود النقابات ما يبرره، قبل أيامنا بأمد طويل، فأنا أرى أن العمال لم يُعاملوا دائماً بإنصاف، أما الآن، فرأي الأغلبية الكبرى من أرباب العمل والعمال هو أن نقابات العمال ليس لوجودها أية حاجة» إذاً، كل شيء يسير نحو الأفضل.

أدت الحرب حقاً، إلى رفع مستوى المعيشة، لكن هذا الإزدهار لم يكن في توزيعه أكثر إنصافاً من قبل، حتى أن نشوب نزاع (في تموز ١٩٢٢) أحدث دويماً كبيراً، كذب أقوال ألبرت غارزي السارة. فقد أضرب ٤٠٠ عامل من عمال الخطوط الحديدية، لا للمطالبة بتحسين أوضاعهم، إنما لإحتجاجاً على تخفيض أجورهم. أحس وزير العدل أن الأمر يقتضي السرعة، فحصل من إحدى المحاكم على قرار يمتاز بشدته: وهو تعليق حق التجمع وحظره على عمال الخطوط

الحديدية ، ومنع نقابتهم من استخدام أموالها الخاصة لدعم الإضراب ، والحكم بأن المضربين لا يحق لهم الاتصال ، بعضهم يبيع ، سواء شفهيًا أو بتبادل الرسائل أو المخابرات الهاتفية . وكل مخالفة تُحال إلى المحاكم ، بلا شك ، وتُفرض على المخالفين عقوبات السجن .. فماذا بقي من الاتجاه الديمقراطي ؟ .

القانون يسير ضد العمال : ولكن هذا لا يكفي ، بل ينبغي للقانون أن يخدم أرباب العمل بطريقة مباشرة . وهكذا رأينا الرئيس ولسون الذي أمر بتدخل الجند ضد عمال المعادن ، وأعلن أن إضراب عمال المناجم غير قانوني ، يقنع الكونغرس بالتصويت على القانون : Webb وب (١٩١٨) ، الذي يصفى المرونة على قانون شيرمان (ضد التروست) ، يسمح للمصدرين أن ينتظموا في شركات (الكارتل) ، كي يتمكنوا من مقاومة منافسيهم الأجانب ، مقاومة أشد فاعلية ، في الأسواق العالمية . فهل ثمة تدبير آخر يدل دلالة أوضح على أفضلية الديمقراطية الأمريكية ! ... فسنوات الحياض : (١٩١٤ — ١٩١٧) ، حملت لأمريكا إزدهاراً لا عهد لها به ، بينما كانت الحرب تهدد قوى منافساتها الأوربية . فالتضامن بين الديمقراطيات ليس أكثر وجوداً من التضامن بين الطبقات الاجتماعية داخل المجتمع الأمريكي . وكل اعتبار للمصلحة العامة يُمحي أمام هدف واحد هو التوسع الرأسمالي الأمريكي ، لغير صالح العمال الأمريكيين ، ولغير صالح حلفاء الأُمس .

استمرت السياسة التي اتبعها الديمقراطي وودرو ولسون واتسعت في عهد الرؤساء الجمهوريين ، : وارن هاردينغ (١٩٢٠ — ١٩٢٤) ، وكالفن كوليدج (١٩٢٤ — ١٩٢٨) وهربرت هوفر (١٩٢٨ — ١٩٣٢) . وإذا كان ثمة فروق دقيقة تفصل بين الحزبين الكبيرين فهما يتلاقيان عند موقف يمكن تلخيصه كما يلي : إن تراكم رأس المال ، وهو تراكم ضروري للتنمية الصناعية ، يؤدي ، بلا شك ، إلى مظالم إجتماعية خطيرة ، لا تتلاءم والمثل الديمقراطي الأعلى .. لكن الديمقراطية ليست شاغل أمريكا الأساسي ، وكالفن كوليدج يقول : « إن قضية أمريكا الكبرى ، هي الأعمال » كل شيء يُستغل من أجل إزدهار « الأعمال » .

ازداد المال المدخر بين عامي ١٩١٤ و ١٩٢٥ ، من ٨ مليارات إلى ٢٣ ملياراً من الدولارات . وبين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٩ ، حقق الدخل القومي قفزة من ٥٩٤ مليار دولار إلى ٨٧٢ مليار . والصناعة التي أنتجت في عام ١٩١٤ ، ٥٦٩٠٥٤ سيارة طرحت في الأسواق ، عام ١٩٢٩ ، ١٥٦٢١٧١٥ سيارة وارتفع الدخل الفردي من ٥٢٢ دولار إلى ٧١٦ من عام ١٩٢١ إلى ١٩٢٩ . لكنّها أرقام خادعة ، لأن وسائل الاحصاء المستعملة تسدل القناع على مناطق

بؤس تُجنى فيها ثروات خيالية. وعلى الرغم من ذلك، تحدث الناس مندهشين عن معجزة النجاح الأمريكي. وهو نجاح يعود، في الأخص، إلى الإثراء الناجم عن حياد الولايات المتحدة في أوائل الحرب العالمية الأولى. فقيل هذا النزاع الأوروبي، بلغ توظيف رؤوس المال الأمريكية في الخارج ٣٥٠٠ مليون دولار، بينما بلغت التوظيفات الأجنبية في أمريكا أكثر من الضعف (٧٢٠٠ مليون) فالجرب قلبت هذا الوضع جالبة إلى الولايات المتحدة مبلغ ١٤٠٠٠ مليون دولار من الديمقراطيات الأوروبية^(٩٧).

فهل كان العمال الصناعيون I.W.W. الوبليس على ضلال عندما وسعوا الحرب العالمية الأولى بالسمة الامبريالية؟ لقد أغنى هذا النزاع المسلح الولايات المتحدة، وجعل منها صيرفي العالم الحقيقي، ومكنتها من تمويل استثماراتها، وتتابع السياسة ذاتها، بعد الحرب، فزيدت رسوم الاستيراد على السلع الصناعية. وعندما يُلقى على عاتق الذين (يملكون) البلاد، حكمها أيضاً، لا يمكن أن يسير أمر من الأمور بلا تجاوزات تكشف عن طبيعة النظام. وفي أقل من عامين، كان أحد الوزراء في السجن لثبوت تهمة الرشوة عليه، كما كادت تُفرض عقوبة السجن على وزيرين آخرين. وقد فوت الموت على الرئيس هاردينغ أن يرى اثنين من رجاله المقربين، يحالان إلى القضاء هما: ألبرت ب. فول، وزير الداخلية الذي غش الدولة بستة ملايين دولار، بتحويله حقول بترول احتياطية تابعة للبحرية، إلى شركات خاصة، لقاء رشوة قدرها ٤٠٠٠٠٠ دولار، والنائب العام، هارزي ه. دوغرتي، الذي سحق في عام ١٩٢٢. إضراب عمال الخطوط الحديدية، كما ذكرنا.

أزمة رأس المال ونجاح الديمقراطية

هذا الفساد، حتى عندما يصل أعلى مراتب الحكومة ومستوياتها، لا يعبر، مع ذلك، بدقة عن حقيقة فلسفة القائمين على الحكم. إنه في أحط مستوياته، ترجمان عن حب المال الذي يضحى بكل شيء من أجله. أما ما ينم ويكشف، أكثر من الفساد، فهو الإثراء غير المشروع بطرق قانونية، وهنا لا يتحقق ذلك بانتهاكات فظة لقواعد اللعب، إنما بإرادة سياسية هي إرادة خيانة روح الديمقراطية ذاتها، لوضع القانون العام في خدمة أفراد معدودين.

(٩٧) تخلت فرنسا وإنكلترا للولايات المتحدة (١٩١٤-١٩١٧) عن ٢٠٠٠ مليون دولار (بقيمتها الفعلية) كانت لها في أمريكا، وذلك لتمويل مجهودها الحربي. وينبغي أن يُضاف إلى هذا الرقم الـ ٢٦٠٠ مليون دولار (قروض—بالدولار)، ثم الـ ٩٥٠٠ مليون (حسب قانون الدين)، أو (حرية الدين).

ضرب أول مثل على ذلك ، غداة الحرب العالمية الأولى ، حين عمدت الحكومة الأمريكية إلى بناء محطة توليد كهربائية كبيرة في «موسكل شولز» في وادي «تينيسي» ، بأموال الدولة وذلك لصنع مواد كيميائية ضرورية للتسليح . وما أن وضعت الحرب أوزارها ، حتى اتفق الجمهوريون والديمقراطيون المحافظون على المطالبة بأن تُباع أو تُؤجر محطة التوليد هذه (التي بُنيت بأموال المكلفين) بمبلغ زهيد إلى شركات خاصة . وافق على الطلب ثلاثة رؤساء هم هاردنغ ، وكوليدج وهوفر . وبعد سبع سنوات من الجهود المتتابة ، تمكنت العناصر التقدمية في الكونغرس من حمله على إتخاذ قرار يقضي ببقاء المحطة ملكاً للدولة . غير أن الرئيس كوليدج ، خادم رجال الأعمال الأمين ، استعمل حقه الرئاسي في النقض وتم التصويت على قرار مماثل ، في العام ١٩٣١ ، فلجأ الرئيس هوفر إلى حقه في الاعتراض أيضاً . وهذا يعني بوضوح أن الدولة لا تعد نفسها حارساً للمصلحة العامة ، بل الأصح ، أنها تتظاهر بتقديرها أن الصناعة الكبيرة الخاصة مهما كان رأي ممثلي الشعب ، جديرة كل الجدارة بخدمة النفع العام ، ولا غرض آخر لها .

لم تنته القصة ، فقد بقيت محطة التوليد ملكاً للدولة ، إنما لم يتسن ذلك حتى نشبت أزمة ١٩٢٩-١٩٣٠ الكبرى . والأسباب التقنية التي أثارها معروفة ، إنما لا بدّ من المرور عليها سريعاً لفهم كيف سُحلت هذه المعضلة . فعند نهاية رئاسة وودرو ويلسون التي أدت بدورها إلى إزدهار مصطنع ، وفي عهد الرؤساء الثلاثة ، هاردنغ وكوليدج وهوفر ، تحقق تكديس سريع لرأس المال ، وتكاثرت أسباب الأزمة وتضافرت . حتى أن ٥٠٪ من ثروة البلد الصناعية في العام ١٩٣٠ ، كانت في أيدي ٢٠٠ شركة . وفي ١٩١٩ ، تحقق ٨٩ اندماجاً لـ ٤٣٨ مشروعاً أو مصنعاً ، وعام ١٩٢٨ : اندمج ١٠٣٨ مشروعاً أو مصنعاً ، في ٢٢١ . وتمكنت ستة تكتلات كانت تسيطر في العام ١٩١٥ ، على ٢٢٨٪ من الطاقة الكهربائية ، من السيطرة على ٥٣٪ منها عام ١٩٢٥ . كذلك توقف مفعول القانون المضاد للتروست ، والهادف إلى حماية المستهلك ، بينما كان كل شيء يعمل على تمهيد السبيل لظهور مشاريع جبارة تجهل قوانين المنافسة . وأصبحت حرية المشاريع والأعمال لا تعني حرية التنافس ، وتحولت إلى حرية فرض الأسعار والأجور فرضاً تعسفياً . وشمل التجمع الإنتاج والتجارة والمصرف . فقد كان في الولايات المتحدة في العام ١٩٢١ ، ٣٠٨١٢ مصرفاً انخفضت بعد عشر سنوات إلى ٢٢٠٠٠ مصرف ، وباندماج Chase National Bank وشركة Equitable Trust ، قام أكبر مصرف في العالم ، في ذلك العهد .

إن هذا التقويم لإدارة الرؤساء الثلاثة هاردنغ وكوليدج وهوفر ، تكمله الأعداد التالية التي

سجلها عام ١٩٣٢، مكتب البحوث الاقتصادية القومي: انخفضت القدرة الشرائية إلى ٨٣٪ والإنتاج ٤٠٪ والأجور ٦٠٪، والأسهم ٥٧٪. وزاد في ذلك أن ثلاثة عشر مليون عامل، دمر حياتهم مالكو البلاد وحكامها، أصبحوا يترددون على مكاتب البطالة عن العمل ويتناولون الحساء الشعبي. وقد شجعهم الصيرفي اندرو ميللون الذي عينه الرئيس هوفر وزير خزانته، بقوله: «هكذا سيجهد الشعب أكثر، ويعيش حياة خلقية أفضل» خلال ذلك، يستمر رخاء الأغنياء الذين عجلوا في نشوب الأزمة. لكن الشعب اختار فرانكلن د. روزفلت للرئاسة الذي أحاط محطة الطاقة في «موسكل شولز» بتنظيم Tennessee Valley Authority الشهير. فهل كان ينبغي، لتأخذ مبادئ الديمقراطية حقوقها، أن يفرق رأس المال في أزمة سببها تجاوزه واستغلاله؟

إنها نادرة تلك الظروف التاريخية التي يعتمد فيها رئيس على القوى التي اختارته، فيقف إلى جانب الديمقراطية ويضع قدرة الدولة في خدمة الأغلبية، لا في خدمة قلة من رجال الأعمال. فعندما حاول روزفلت أن يفرض على رأس المال قواعد يتقيد بها ويحترمها، كان في سبيله إلى إنقاذ رأس المال الأمريكي هذا، الذي أريكه وأرهقه أصحاب المشاريع والمصانع، حين لم يضعوا نصب أعينهم سوى الربح الأعظم. وكان رأس المال يتوخى خنق الديمقراطية بإخضاعه سيادة الشعب لسيطرة أرباب العمل الذين استولوا على حيز كبير من السلطتين التشريعية والتنفيذية. وبفضل «العهد الجديد New Deal» حققت الديمقراطية بعض تقدم بعث في رأس المال، (وهو في أزمته)، نشاط جديداً.

في أول الأمر، حوّل قانون الإصلاح الصناعي القومي العمال حق تنظيم أنفسهم وأجبر أصحاب العمل على التقيد بحد الأجور الأدنى وتحديد ساعات العمل. وأتاحت للنقابات حملة اتخذت شعاراً لها: «الرئيس يطلب منكم الانضمام إلى الاتحاد»، دخول أكثر من مليون ونصف المليون عامل فيها. ثم أعطاه قانون «وارنر»، ١٩٣٥ «ميثاقها الكبير» كما أدى انشقاق حدث في صفوف اتحاد العمل الأمريكي، المحافظ المتطرف والذي يضم أرستقراطية العمال داخل «النقابات الحرفية»، إلى ظهور مؤتمر المنظمات الصناعية، وهو أكثر تقدماً ومنظماً في «نقابات الصناعات» التي تضم في قطاع واحد العمال جميعاً، من اليد العاملة العادية إلى أعلى العمال اختصاصاً.

ومن البديهي أن أوائل رئاسة روزفلت لم تمض بلا نزاعات عنيفة لم يستطع «العهد الجديد» إخمادها إلا شيئاً فشيئاً. وبعد مرور عام على تسلم روزفلت مهام الرئاسة، اشترك ٤٧٥٠٠٠ عامل، في عشرين ولاية بإضراب النسيج العام. فعبي ١١٠٠٠ من الحرس الوطني

للقوف في وجههم، في ست عشرة ولاية. قُتل في المناوشات عشرة من العمال المضربين وجرح مئات وسُجلت أسماء ١٥٠٠٠ منهم في «لوائح سوداء» أي (رفض استخدامهم). كذلك أدى إضراب التفريغ والتحميل على ساحل المحيط الهادي، إلى مقتل عاملين. وفي ربيع عام ١٩٣٧، حقق هذا التنظيم الصناعي الفتي انتصاره الكبير الأول بعقد اتفاق جماعي مع ميرون تايلور، رئيس شركة «فولاذ الولايات المتحدة»، آنذاك، ثم ممثل روزفلت في الفاتيكان في أثناء الحرب. غير أن معركة إدخال التنظيم النقابي إلى مصانع الفولاذ الأخرى كانت أشد وأقسى، فقد قُتل عشرة عمال وجرح مئة، عندما حاول التنظيم المذكور ضم عمال مصانع «فولاذ الجمهورية» إليه، كما استمرت المعركة أربع سنوات في شركة «فولاذ بيتلحم».

هذا التنظيم ذاته (مؤتمر المنظمات الصناعية) هو أول من طبق تقنية الإضراب في مكان العمل. ففي مدينة فلنت (ولاية الميتشغان) رفض العمال المعتصمون في مصانع شركة الجنرال موتورز، تنفيذ قرار الخروج منها الذي حصلت عليه إدارة الشركة من المحاكم، وقاوموا هجمات الشرطة معلنين تصميمهم على موقفهم هذا، مهما بلغ عدد الضحايا في صفوفهم. أما الحدث الجديد في هذا الإضراب، فهو أن حاكم الولاية، رفض بلباقة وحزم طلب إدارة الشركة بتدخل الحرس الوطني. وانتهى الإضراب برضوخ شركة الجنرال موتورز لمطالب العمال.

كانت حيوية النقابات، في أثناء الأزمة الاقتصادية، فضيحة حقيقية لأرباب العمل الذين وقفوا في وجه روزفلت، ثم سرعان ما نعتوه بـ «الاشتراكي»، على الرغم من أنه شجع الطلب الذي ساعد على استئناف الأعمال والمشاريع، بدعم مطالب النقابات بتحديد ساعات العمل ورفع الأجور. يضاف إلى ذلك استئناف مشاريع الأشغال العامة الكبرى التي تموّلها الدولة ومعونة العاطلين عن العمل. وقد تضرر أرباب العمل واشتأزوا من هذه التدابير الإصلاحية، قائلين، إنها ستكلفهم غالباً برغم توافقها ومتطلبات الديمقراطية ورأس المال وإنطلاقه في آن واحد. وقد برهنت النقابات، بعد شعورها بهذا الدعم، على فاعلية بدت أنها ستحتاج كل ما يعترض سبيلها. فمن أيلول ١٩٣٥ إلى حزيران ١٩٣٧ احتل أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ عامل مصانعهم. كما نظموا في العامين المذكورين ٩٠٠ اعتصام. غير أن ضريبة الدم التي اضطروا إلى دفعها كانت باهظة، على الرغم مما استفادوه من الدعم الرسمي: فقد قُتل منهم سبعة عشر عاملاً في مصانع فورد وحدها في عام ١٩٣٧. لكن تأثير «مؤتمر المنظمات الصناعية» الحازم والقوي كان مثمراً، إذ بعد انقضاء عام

واحد على الانشقاق الذي أدى إلى ظهور هذا التنظيم النقابي، بلغ عدد أعضائه ٣٧٠٠٠٠٠ ر ٣٧٠٠٠٠٠ عامل، بينما لم يتجاوز عدد «اتحاد العمال الأمريكي» ٣٤٠٠٠٠ ر ٣٤٠٠٠٠٠ عضو.

هكذا بدا أن ثمة توازناً، جد نسبي وسريع العطب، في سبيله إلى التحقق في المجتمع الأمريكي: فبسبب الأزمة الاقتصادية، ضعفت عنجهية أرباب العمل، وأصبحوا لا يستطيعون الاعتماد على دعم السلطات الفدرالية المطلق كما كانوا، بل على التقيض، غدت هذه تدعم نقابات عمال تزداد قدرتها وفعاليتها ازدياداً مستمراً. وقد أدى الركود الاقتصادي، وإفلاسات متعددة لاحصر لها، ثم عطالة ملايين العمال: إلى تصدع في النظام الاقتصادي، شجع، في خضم صعوبات جسيمة، على ظهور نهضة ديمقراطية.

انتخابات وقدرة اقتصادية

جرت الأمور، حتى ذلك الوقت، كما لو كان رأس المال المنتصر، الذي شهد مولد الثروات الطائلة ووثبة التصنيع وإزدهاره، قد خنق التطلعات الديمقراطية. وكان الاتجاه الرأسمالي من رئاسة هاملتون إلى رئاسة هوفر، قد نجح في تجنيد جهاز الدولة لخدمته، ما خلا بعض استثناءات نادرة. وهذا التحالف بين رأس المال والحكم، الذي رفده تدفق المهاجرين المستعدين لقبول أي عمل بأية شروط، قد تمكن من فرض إرادته على أغلبية الشعب الغفيرة.

وعلى ذلك، لم تكف الديمقراطية الانتخابية عن سيرها. والناخبون العائشون في البؤس والفقر والكفاف، يؤلفون أغلبية كبيرة: وكان عليهم، نظرياً، عندما يدعون إلى الاقتراع، أن يضمّنوا السيطرة على السلطة السياسية. غير أن آمالهم كانت تخيب في معظم الأحيان، «فالآلات المهيمنة على الحزبين الكبيرين، ومهنة بعض المنتخبين، وطريقة تمويل الحملات الانتخابية، ونفوذ الشركات الصناعية على النواب والإدارة والموقف الشخصي الذي كان يتخذه أكثر رؤساء الولايات المتحدة محافظة، الذين يستطيعون استخدام حق الاعتراض في مواجهة الإجراءات التشريعية المغالية في التقدم. حسب رأيهم، ومناهج العمل في الكونغرس»^(٩٨)، كل هذه العوامل كانت تتضافر لإحباط التطلعات الشعبية.. والأكثر من ذلك أن أياً من الحزبين، حتى قيام «العهد الجديد»، لم يفكر في تقديم نفسه بوصفه قوة تأخذ على عاتقها خدمة قضية أفقر الطبقات. ومن هنا كانت

(٩٨) قاعدة التقدم التي تقضي بإسناد رئاسة اللجان إلى النواب الأقدم والذين كانوا، في الأعم، من نواب الجنوب المحافظين، ألغيت هذه القاعدة عملياً عام ١٩٧٥، ثم ما لبثت أن بُدلت ورفضت رفضاً باتاً.

محاولات إقامة تنظيم سياسي يدافع عن مصالح العمال فقط . وقد باءت هذه المحاولات والتجارب كلها بالإخفاق . أما الحزب الاشتراكي الذي يرأسه أوجين ف. دبس ، فعلى الرغم من ازدياد الأصوات التي نالها ، بين ١٩٠٠ و ١٩١٢ عشرة أضعاف ، كان أكثر ما حصل عليه هو ٦ ٪ من مجموع أصوات المقترعين . وفي عام ١٩٢٤ ، لم ينل حزب بوب لافولت Bob La Follette ، التقدمي ، الذي قرر اتحاد العمل الأمريكي دعمه ، سوى ٨٠٠.٠٠٠ ر ٤٨٠٠٠ صوت ضد ١٥٧.٠٠٠ ر نالها كوليدج الجمهوري ، و ٨٣٠.٠٠٠ ر نالها الديمقراطي ديفيس . أما حزب العمل الأمريكي المتأسس في عام ١٩٣٦ والحزب التقدمي الذي أسسه نائب الرئيس الأسبق هنري والاس في عام ١٩٤٨ ، فلم يكن مصيرهما أفضل في الانتخابات . أما الأطراف الأخرى ، فما نجحت قط في الحصول على مكان لها ، إما لأن برنامجها كان يبدو مغالياً في جذريته ، وإما لأنها كانت تفتقر إلى الرجال والوسائل المادية ، ولا سيما أن قاعدة الأغلبية الفائزة لم تكن تتيح لها ، في أفضل الأحوال ، سوى انتصارات محلية .

هذا الملح، طلع عصر ذهبي لا للنقابين وحدهم فحسب، بل لجميع المهملين، وانكب روزفلت على التفكير بالعمال وصغار المزارعين والسود، ساعياً إلى إعادة المياه إلى مجاريها، وراح رأس المال يتأمل آثار تدميره، بينما كانت الديمقراطية تستعيد حقوق المواطن^(٩٩).

كانت هذه الغبطة قصيرة الأمد، فقد عقد روزفلت غداة الغارة اليابانية على «بيرل هاربر» مع اتحاد العمل الأمريكي ومع مؤتمر المنظمات الصناعية «هدنة إجتماعية» في كانون الأول ١٩٤١ تنص على ألا يقوم أي إضراب ولا توقيف المصانع عن العمل حتى انتهاء الحرب. وقد اهتمت النقابات كثيراً بتفادي الوقوع في الخطأ الذي كان شؤماً على عمال «البوليس» خلال الحرب العالمية الأولى. فالنزعة السلمية التي كانت تحرك هؤلاء والاشتراكيين في العام ١٩١٧، قد تلاشت أمام الهجوم الياباني. وفي ٢٨ آذار ١٩٤٥، عُقد «ميثاق إجتماعي جديد» بين أرباب العمل والنقابات، يشر بعهد جديد من «المشاركة» العملية بين أرباب العمل وعالم العمال، و«بازدهار يعم الجميع» بفضل ازدياد الإزدهار العام، ويطلب من أرباب العمل والنقابات أن «يكونوا سواسية» في منأى عن الإجراءات التشريعية التي قد تُعيق عملهم.

هذا الحلم بشراكة رأس المال—العمل في معزل عن التدخلات الحكومية، هذا الحلم الذي سيستأنف ديقول تحقيقه، ما لبث أن انهار سريعاً. وخلال الحرب العالمية الثانية، ظل التقيد مستمراً بالأجور المقررة، بينما اهتز قليلاً في الأسعار، وفي نهاية الحرب كانت قدرة الأجراء (العاملين بأجر) الشرائية قد تدنت، ولا سيما أن الأعمال إزدهرت كثيراً. يضاف إلى ذلك، أن أعظم المشاريع والمصانع سرحت جزءاً من عناصرها، متذرعة بحجة التحويل الصناعي، وألغت مكاسب مادية وعلاوات مختلفة، وخفّضت الأجور، وحتى أجور الساعات الإضافية.

هكذا يكون أرباب العمل، وقد نسوا الذعر الذي دبّ فيهم (عام ١٩٣٠)، قد نقضوا «الهدنة الإجتماعية» المعقودة في العام ١٩٤١، وتذكروا «للميثاق الإجتماعي الجديد» ولهم أن يفعلوا ذلك، فبفضل الحرب استردوا قواهم، بل زاد إزدهار أعمالهم عما كان عليه قبل نشوب النزاع في أوروبا. وكانت أغلبية روزفلت الانتخابية، وهي في موقف الضعف، قد استطاعت أن تفرض على الصناعة إجراءات لا يستسيغها أرباب الصناعة. وهذه الأغلبية الانتخابية ذاتها أضحت لا تُعجز

(٩٩) آرثر شليسنجر، «عهد روزفلت» ٣ أجزاء، دار النشر هينان—نيويورك.

لنفسها الإقدام على إجراءات مماثلة، عندما أصبحت الصناعة تختبر، كل يوم، السلطة الواسعة التي أمدتها بها قدرتها المتصاعدة.

أما من أنقذ رأس المال الأمريكي، أكثر من كل إجراءات «العهد الجديد»، فهي الحرب العالمية الثانية. فعدد العاطلين عن العمل في الولايات المتحدة، الذي كان يبلغ عندما فاز روزفلت في انتخابات الرئاسة عام ١٩٣٢، ١٣ مليوناً، انخفض إلى عشرة ملايين في العام ١٩٣٨، وإلى ٩ ملايين عام ١٩٣٩، وثمانية ملايين عام ١٩٤٠. وكما استفادت الولايات المتحدة كثيراً من حيادها بين عامي ١٩١٤ و١٩١٧، كذلك استفادت كثيراً من الستين ونصف السنة، أي من المدة التي ازداد سعر الحرب فيها، ولم تمسها هذه: فقد تضاعف إنتاجها الصناعي بين آب ١٩٣٩ وكانون الأول ١٩٤١، وفي آن واحد، ارتفعت صادراتها من ٣١٧٧ مليون دولار إلى ٥١٤٧. ولا تُعزى هذه الوثبة الاقتصادية إلى صناعة التسليح فحسب، بل إلى إنتاج المواد الاستهلاكية أيضاً (+٢٥٪ بين ١٩٣٩ و١٩٤١). وهكذا ارتفع عدد العمال غير الزراعيين من نيسان ١٩٤٠ إلى كانون الأول ١٩٤١، من ٣٥ مليوناً إلى ٤١، بينما ازداد الأجر الأسبوعي الوسطي ٣٠٪ أي ثلاثة أضعاف ارتفاع أسعار المواد المباعة (بالمفرق، ١٠٪).

هكذا كانت البداية، ثم ازدادت سرعة التيار بعد دخول الولايات المتحدة الحرب. غير أن هذه النهضة لا تعود إلى مبادأة القطاع الصناعي الخاص، بل إلى الحكومة الفيدرالية التي وظفت ستة وعشرين مليار دولار، لمعدات البلاد الصناعية. وقد استخدم عشرون ملياراً منها بعد ذلك، في الإنتاج في زمن السلم، وهذا ما رفع قدرة البلاد الصناعية ٥٠٪، وقضى العمل الحر أكثر من قرن ونصف القرن ليتمكن من زيادتها ٤٠٪، بينما كفت الحكومة سنوات الحرب الخمس لرفعها إلى ٦٠ ملياراً. ومنذ استسلام اليابان كانت الدولة تملك ٩٠٪ من القدرة المعدة لإنتاج السفن والطائرات والكاثوداتشوك التركيبي، والمغنيزيوم، و٧٠٪ للألمنيوم، و٥٠٪ للآلات اليدوية، وبدهياً، ١٠٠٪ للطاقة الذرية، ولجد رأس المال، قدم هذا الجهد الذي مولته الدولة إلى القطاع الخاص، بكرم بالغ.

إن العمل الحر في المفهوم السائد منذ استقلال الولايات المتحدة، لا ينفصل عن الديمقراطية، بل يؤلف مع الانتخاب العام دعامة أساسية من دعائمها. وهذا العمل الحر، بعد أن استثمر اليد العاملة التي كان يقدمها له السود والمهاجرون بضمن بخس مدة خمسين عاماً، هو الذي جرّ البلاد إلى دمار ١٩٢٩ - ١٩٣٠. والدولة التي كانت تدخلاتها في نظر هذا العمل الحر

انتهاكاً للمقدسات هي التي أنقذت البلاد من الدمار، بفضل «العهد الجديد»، والسلطات الاستثنائية في زمن الحرب. وخرج رأس المال منها أقوى مما كان عليه قبل الأزمة وأكثر تجمعاً أيضاً، فقد أصبحت ١٣٥ شركة تسيطر على ٤٥٪ من المنشآت الصناعية وتنتج ما يقارب ربع السلع الصناعية في العالم بأسره، وإن الشركات المئتي والخمسين الأقوى، التي كانت عام ١٩٣٩ تملك ٦٥٪ من المنشآت الصناعية، حصلت خلال الحرب على ٧٨٪ من عقود الحكومة واستفادت من ٧٩٪ من قدرة الإنتاج الجديدة التي حققتها الدولة. وهكذا كبر إلى حد هائل العمالقة الصناعيون الذين راحوا بعد الحرب يجوبون العالم كله سعياً وراء مواد أولية بسعر زهيد ووراء منافذ وأسواق تجارية ويد عاملة زهيدة الأجر أيضاً، أي وراء مصادر سيولة نقد الشركات المتعددة الجنسيات. أما التعاون الذي قام بين القطاع الصناعي الخاص والدولة من أجل الإنتاج في زمن الحرب، فقد لقن القائمين على الاقتصاد درساً لم ينسوه بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وهو أن الخزنة العامة التي تتغذى بضرائب المكلفين هي ينبوع أرباح هائل.

خلال ذلك الوقت لم تكن اليد العاملة الأمريكية تُدرك، بوصفها مكلفة بدفع الضرائب، إلى أي نسبة هائلة قد أسهمت في هذا التمويل الجبار، إلا أنها شهدت عودة الإزدهار، وهي تريد الحصول على نصيبها العادل منه. وقد تميزت سنتا ١٩٤٥ و ١٩٤٦ بإضرابات كبيرة لم تعرها أوروبا ما تستحقه من إلتفات لانشغالها بترميم ما حلَّ بها من دمار، وبذلك أخطأت لأن هذه النزاعات الاجتماعية، التي تجاوزت حدود كفاح بسيط يتوخى تقاسم الأرباح، هي المرحلة الحادة في كفاح من أجل السلطة لا هوادة فيه ولا رحمة.

أما في نظر أوروبا، فإن أمريكا مازالت حتى ذلك الوقت أمريكا روزفلت، وأمريكا العهد الجديد، والديمقراطية الحية. على أن هذا المجتمع الذي كان ينتعش فيه الحلم الأمريكي كان قد دخل مرحلة الاحتضار. وكما أن الولايات المتحدة كانت قبل الاستقلال في حاجة إلى أكثر الرجال «جذرية» وحسماً مثل «جيفرسون» و«صموئيل أدامز» و«توم بين» و«باتريك هنري» وغيرهم لتضحي بعد ذلك بأفكارهم قرباناً لرجعية «هاملتون» و«جون جاي» و«فيشر أيمز» وغيرهم، كذلك أحاطت الولايات المتحدة روزفلت وهي في أوج أزمتها، بأكثر عناصرها فاعلية وحيوية وأكثرهم «ليبرالية»، لتضحي بهم، بعد انتصارها وبلوغها إزدهاراً لا سابق له، قرباناً لشخصيات النظام والتقاليد المتلفة محابة ومراعاة لقوى المال.

هذا التحول ظهر وتبلور في أغراض ثلاثة هي، أولاً، إحباط الضغط الذي تقوم به طبقة

العمال ، ثم فرض قيود وحدود تشريعية على المنظمات النقابية تضعف تأثيرها وقدرتها ، وأخيراً ، تشويه الايديولوجيات الأكثر انتشاراً ، أو الأكثر « ليبرالية » فقط ، كي يحل محل التأيد الذي يتمتع به العهد الجديد ، اتفاق جديد يظل عشرات السنين أساس مفهوم محافظة (رجعية) جديدة لا تشبه المحافظة ، كما يفهمها هاردنغ وكولدج وهوفر .

السيطرة على الإضرابات أولاً ، فبين استسلام اليابان (١٤ آب ١٩٤٥) و ٢١ كانون الأول من العام ذاته ، أي أشهر السلم الأربعة الأولى ، حدث زهاء ١٦٥٠ إضراباً اشترك فيها ١٠٠.٥٠٠.٠٠٠ عامل وأضاعت على البلاد ٢٤ مليون يوم عمل . إذ ما كادت تتوقف المعارك ، حتى كان التعبير عن مطالب طبقة العمال ، الذين ما كانوا يعلمون ، حتى آنذاك ، أن عهد روزفلت قد انقضى ، قد بلغ كل اندفاعه وعنفه ، وخلال عام ١٩٤٦ وحده ، أُضرب ١٠٠.٥٠٠.٠٠٠ عامل ، واستمر التوقف عن العمل في شركة الجنرال موتورز أربعة أشهر . ووصلت الحركة إلى معامل الفولاذ وصناعة البترول وغيرها ... وكان الخطر شديداً على أرباب الصناعة ، إلا أن وثوقهم من قوتهم حال دون ترددهم ، فأقدموا على تخفيض الأجور وتسريح عدد من العمال . كما أدى تسريح ستة ملايين عامل ونصف إلى حدوث ضغط على سوق العمل كان في مصلحة أربابه الذين راحوا ينظرون برضى واعتباط إلى النقابات وهي تمزق بعضها بعضاً بلا رحمة . فمن سوء طالع العمال أن نقاباتهم نجابهت ، في تلك الفترة الحاسمة ، في معركة قاسية اتسمت ، قبل الأوان ، بكل معالم « الحرب الباردة » و« المكارثية » .

ففي الواقع ، أسهم مؤتمر المنظمات الصناعية (C.I.O) ، في تشرين الأول ١٩٤٥ ، بتأسيس الاتحاد النقابي العالمي (F.S.M) في باريس ، بينما رفض اتحاد العمل الأمريكي (A.F.L) ، الجلوس إلى جانب نقابات البلدان الشيوعية ، كما نشب النزاع أيضاً بين التنظيمين ، بسبب مسألة التمييز العنصري ، فقد أدت الحرب إلى تصنيع الجنوب حيث تمكنت حملة قوية جداً من رفع عدد المنضمين إلى التنظيم النقابي ، من ٢٦٠.٠٠٠ في عام ١٩٣٦ ، إلى مليونين في عام ١٩٤٧ . وكانت النقابات المنضمة إلى (A.F.L) والتمسكة بمحافظتها دائماً تضع في أنظمتها مبادئ تمييز عنصري . ولم تكن تضم في عام ١٩٤٦ سوى ٩٠.٠٠٠ من السود ، يقابلهم في (C.I.O) الأكثر تقدمة ، ٥٠٠.٠٠٠ ، وهكذا أحس اتحاد العمل الأمريكي (A.F.L) بالخطر الذي يهدده إذا ما ترك منافسه يسيطر في الجنوب . وهنا لم تكن المعركة قاسية فحسب ، بل دامية أودت بحياة الكثير من مناضلي (C.I.O) ، استُخدمت فيها كل الوسائل حتى القتل . وقد عمد (A.F.L) ، في سبيل

النجاح والتفوق، إلى التلويح أمام أعين أرباب العمل بتقاليده المحافظة وإلى إذكاء الميول العنصرية في عمال الجنوب، مديناً سياسة (C.I.O) الاندماجية، التي تفسح للسود مجال التقدم والتحرر. واتهم رئيساه منافسهم (C.I.O)، لاشتراكه في الـ (F.S.M) بأنه طابور خامس شيوعي.

قمع النقابات

بينما كانت النقابتان تتقاتلان وتتمازجان، فرضت انتخابات (١٩٤٦) على الرئيس ترومان الديمقراطي، كونغرس ذا أغلبية جمهورية، حظيت أكثر مبادراته رجعية بتأييد ديمقراطي الجنوب المفرطين في محافظتهم. وهكذا تم التصويت في حزيران ١٩٤٧، على القانون المضاد للنقابات المعروف باسم قانون، تافت-هارتلي، الذي تجبر إحدى مواده القادة النقابيين، على الإعلان، وهم يقسمون اليمين، أنهم ليسوا شيوعيين. ولا يريدون قلب الحكومة بالقوة. كان رد فعل (C.I.O) رفض هذه المادة، بينما هلّل لها قادة الـ (A.F.L) الذين رأوا فيها سبيلاً لإضعاف خصومهم.

كان عدد اتحاد العمل الأمريكي (A.F.L) آنذاك ٧,٥٠٠,٠٠٠، ومؤتمر المنظمات الصناعية (C.I.O) ستة ملايين، ٢٦٪ منهم يسيطر عليهم الحزب الشيوعي، دون أن يكونوا من الشيوعيين. وهكذا كان وضع نقابات الالكترونيات، ونقابات عمال (التحميل والتفريغ) على ساحل الباسفيك، ونقابات المناجم المعدنية، والمواد الغذائية والفرو، والنقل، الآلات الزراعية وكذلك نقابات الاتحادات المحلية في المدن الكبرى. غير أن مقاومة (C.I.O) للقانون كانت قصيرة الأمد، وانتهت بإنتلاق المهستريا الجماعية، التي أطلقتها «الحرب الباردة» من عقابها، كما اذكاها الخوف الذري، وعملية براغ، والحملات الغوغائية التي قام بها ريتشارد نكسون، (ولا سيما إدانة ألجير هس)، وجوزيف مك آرثي. ولا سبيل إلى تفسير نكسة (C.I.O) وتغييره إتجاهه إلا إذا حسبنا حساب الذعر الذي نشرته «مطاردات الساحرات»^(١٠٠).

انتهى الأمر بأن قطع C.I.O صلاته بـ (F.S.M). وبفصله اثني عشر نقابياً شيوعياً في عامي ١٩٤٩ و ١٩٥٠. وبخسارته، بذلك، مليوناً من أعضائه. وقد أدى هذا «التطهير» إلى تقارب التنظيمين الخصمين اللذين قررا عام ١٩٥٥ الاندماج، ليتألف منهما الاتحاد العمالي الوحيد: (C.I.O-A.F.L) الذي صار يضم ١٦ مليون عامل. وبقي جانباً مليوناً عامل منظمين في نقابات مستقلة، إنما ثلثا العمال، كانوا لا ينتمون لأي تنظيم نقابي، عند الاندماج المذكور.

(١٠٠) الفصل الثاني من هذا الكتاب.

اتضح بعد مرور عشرين عاماً، أن قوة النقابات العددية لم تزد من جراء اندماج التنظيمين، وهذا على نقيض ما كان يرجوه قادتهما، ولذلك أسباب عدة، لا تقتصر على المجتمع الأمريكي وحده، بل تعود إلى كل مجتمع تقدم فيه التصنيع كثيراً. وقد ازداد عدد السكان العاملين، من جهة، مع ازدياد مجموع السكان، غير أن تنامي القطاع الثالث من السكان وانتشار الآلة المنهجية وتعدد وظائف المكاتب واستخداماتها، أدت جميعاً إلى تناقص سرعة ازدياد جماهير العمال، من جهة أخرى، كما يبين الجدول التالي، يضاف إلى ذلك أن نسبة التنظيم النقابي للعمال الفنيين هي أقل بكثير من نسبة العمال اليدويين.

تراجع نسبي للعاملين (الشغيلة) النقابيين

| السكان العاملون | ١٩٥٥ | ١٩٧٤ |
|----------------------------|------------|------------|
| رجال | ٤٣١٩٠.٠٠٠ | ٥١٩٢٧.٠٠٠ |
| نساء | ١٩٨٠٧.٠٠٠ | ٣٣٢٦٥.٠٠٠ |
| المجموع | ٦٢٩٩٧.٠٠٠ | ٨٥١٩٢.٠٠٠ |
| الفنيون | ٢٤٥٨٥.٠٠٠ | ٤١٥٩٠.٠٠٠ |
| اليديويون | ٢٤٧٧١.٠٠٠ | ٢٩١٨٢.٠٠٠ |
| لمجموع | ٤٩٣٥٦.٠٠٠ | ٧٠٧٧٢.٠٠٠ |
| النقابيون C.I.O.-A.F.L. | ١٦٠.٦٢.٠٠٠ | ١٦٥.٠٧.٠٠٠ |
| مستقلون | ١٦٨٧.٠٠٠ | ٤٣٨٧.٠٠٠ |
| المجموع | ١٧٧٤٩.٠٠٠ | ٢٠٨٩٤.٠٠٠ |
| الفنيون النقابيون | ٢٤٦٣.٠٠٠ | ٣٤٣٤.٠٠٠ |

بلغ هذا التطور غاية السرعة: ففي العام ١٩٥٠، تراجع عدد المستخدمين (٢٠٧٠٠٠٠، أي ٤٧٪ من المجموع) ليحل محله العمال (٢٣١٠٠٠٠، و ٥٣٪ من المجموع). وفي العام ١٩٥٥، كانت المجموعتان متساويتين وفي العام ١٩٥٩، انقلبت هذه النسب رأساً على عقب وأصبح هناك ٢٧٧٠٠٠٠ مستخدم (أي ٥٣٪ من المجموع) و ٢٣٨٠٠٠٠ عامل (أي ٤٧٪ من المجموع). وفي هذا التاريخ كان ٩٪ من العمال الفنيين منظمين في نقابات يقابلهم ٦٣٪ من العمال اليدويين.

في العام ١٩٧٤، كان العمال اليدويون لا يمثلون سوى ٤١٪ من مجموع العمال. وفي مدة عشرين عاماً أدى ازدياد العمال الفنيين مع نسبة عدد النقائين الضعيفة منهم، إلى انخفاض نسبة النقائين من ٣٧ إلى ٣١٪، وفي آن واحد ارتفع مجموع العمال من ٧٧٪ إلى ٨٠٪ من مجموع السكان العاملين. إن نسبة النقائين الضعيفة في العمال الفنيين، تعود إلى العقلية التي تسمح لهم بالتفكير والاعتقاد أنهم أقرب إلى عناصر الإدارة منهم إلى العمال اليدويين، كما تعود أيضاً إلى أن كثيراً من العمال الفنيين هم من النساء اللواتي يعملن نصف الساعات، أو يسعين إلى أجر يعينهن على قضاء حاجاتهن المنزلية عندما يبلغ أولادهن سنّاً معينة، وفي أغلب الأحوال، تسهم هاتيك النسوة—اللواتي ارتفع عددهن من ١٩٨٠ مليون إلى ٣٣٢ مليون خلال عشرين عاماً—في المشاريع. ومطاليهن قليلة على الرغم من أنهن أقل أجراً من الرجال، مع تساوي الفاعلية المهنية.

على أنه هذه العوامل الإجتماعية—الاقتصادية، إجمالاً، قد خففت وزن النقابات في جهاز الإنتاج، ومع ذلك فالمأجورون (العمال) الذين أدركوا تراجع منظماتهم التمثيلية النسبي هم قلة ضئيلة.

وبينا كانت قوة النقابات تنخفض عددياً، كانت حريتهم في العمل النقابي يُحد منها وبضيقها قانون تافت—هارتلي الذي عبثاً ما عارضه ترومان، بممارسة حقه الرئاسي في النقض، لأن الكونغرس يحق له، حسب الدستور، أن يتجاوز اعتراض الرئيس أو نقضه بأغلبية تتجاوز ثلثي أعضائه. والقانون المذكور، إذ يحد بعض الحقوق التي ضمّنها قانون «واغنر» عام ١٩٣٥، يطوق العمل النقابي بنير ضيق وقيوده، ومن قيوده:

— إلغاء «المؤسسة الاستهلاكية المغلقة» وهو مشروع استهلاكي كان لا يحق للعمال غير النقائين الانتماء إليه.

- «المؤسسة الاستهلاكية النقابية» التي كانت تجبر كل عامل جديد على الانتماء إلى النقابة، أصبح لا يحق لها ذلك إلا بموافقة أغلبية أعضائها.
- مبلغ الاشتراك الذي يقتطعه رب العمل من أجر العامل ليدفعه إلى النقابة، لا يجوز إلا بموافقة العامل المعني.
- منع النقابة من أي اسهام في حملة انتخابية. وعلى سبيل المثال، كانت نقابة عمال مناجم الفحم في العام ١٩٣٦ قد دفعت ٥٠,٠٠٠ دولار إلى صندوق روزفلت الانتخابي. فعدلت النقابات هذا البند بتأسيس جهاز خاص يعمل عمل تكتل أو تجمع سياسي مستقل.
- لا يجوز القيام بالإضراب إلا بعد إنذار يسبق الابتداء به بمدة ستين يوماً. وإذا رُئي أن الإضراب ضار بمصلحة الوطن، يجوز الإيعاز باستئناف العمل لمدة ثمانين يوماً، بقرار قضائي.
- حق الإضراب محظور على الموظفين، مع أن عددهم في ازدياد مستمر سواء في الإدارات المحلية أو في الإدارة الاتحادية.

يضاف إلى ذلك أن عدداً من الولايات وضعت قيوداً وحدوداً أخرى أشد وطأة استناداً إلى قانون تافت هارتلي، وأطلقت عليها اسم «قوانين حق العمل».

ضعف عددي وموانع تشريعية: عقبنتان هامتان، أُضيفت إليهما ثالثة وضعتها النقابات ذاتها، هي الفساد. فقد رضخت بعض الاتحادات النقابية الكبرى (اتحاد سائقي سيارات الشحن، وعمال التفريغ والتحميل في السفن، والنجارين، وغيرها...) لسيطرة أشقياء حقيقيين، في فترات متقطعة، كان الاغتيال والتخريب والابتزاز ديدنهم ووسائل عملهم التي نادراً ما كان يقاومها العمال الأشداء أو يستطيعون سبيلاً إلى مقاومتها.

وأشهر حوادث هذا الفساد، حادثة سائقي الشاحنات، في ١٩٥٥، وسببها أن مستخدمي محلات «مونتغموي وارد» الكبرى، حاولوا تأسيس نقابة لهم. فردت الإدارة بتسريح ١٥٠ منهم اعتبرتهم محرضين. فأضرب المستخدمون على الفور. ولو لم يتلق سائقو الشاحنات أمراً من رئيس نقابتهم ديف بك، بعدم احترام فرقة الإضراب (المسؤولة عن التقييد بتنفيذه) لكان النجاح حليفه. وفي العام ذاته، بينما كان مؤتمر السائقين منعقداً، أعلن رئيس نقابتهم، ديف بك، أن المليون دولار المقتطعة من صندوق النقابة لشراء أسهم محلات مونتغموي وارد، قد رُحِت ٧٠٠,٠٠٠ دولار. ولم

يُحسب حساب سائقي الشاحنات، ممن كانوا ضحايا حوادث سيارات مفتعلة، أو اغتيلوا اغتيالاً واضحاً لأنهم حاولوا الإفلات من سيطرة النقابة.

وقد أتاحت الشكاوى والاعتراضات المتراكمة على ديف بك، للاتحاد العمالي الموحد C.I.O.-A.F.L، أن يطلب تخليه عن رئاسة النقابة في العام ١٩٥٦ على أن تعطيه هذه ٥٠٠٠٠ دولار في السنة. (أي ما يعادل ٢٥ مليون فرنك آنذاك). وزاد الطين بلة أن من حل محل ديف بك، هو جيمس هوف، الذي مثل، بعد أمد وجيز، أمام محكمة قضت بعقوبة حبسه ثلاث عشرة سنة لثبوت جريمة الاختلاس عليه واستغلال الوظيفة. ولم تمض سنوات حتى عفا عنه الرئيس نكسون. وتفسير هذه البادرة الأرجحية منه، هو أن اتحاد الـ C.I.O.-A.F.L، دعم الحزب الديمقراطي، بينما دعمت نقابة سائقي الشاحنات ونقابتا عمال التحميل والتفريغ والنجارين—(وهما: أكثر النقابات فساداً)—الجمهوريين أيزنهاور ونكسون مع معونة مالية^(١٠١).

لم تكتنف الفساد النقابي الأسرار، ففي حالة إنعدام الضمان الاجتماعي الحقيقي، تقوم النقابات بتنظيم شؤون الرواتب. وقد بلغت المبالغ المخصصة لذلك عام ١٩٥٩، احتياطياً قدره ٢٠ مليار دولار ارتفعت عام ١٩٧٥ إلى ١٧٠ مليار. أما إدارة هذه المبالغ فلا تخضع لأي رقابة، فلا غرو أن يتكاثر الاختلاس وسوء الاستغلال. والنقابات شأنها شأن تجارة الكحول في أثناء حظرها، وشأن المخدرات في أيامنا هذه، تُتيح سبل السرقة وتجذب أشقياء ولصوصاً حقيقيين. وعندما اجتفى جيمس هوف في العام ١٩٧٥. في ظروف غامضة، تبادر لأذهان المحققين أن للمافيا يداً في اختفائه: إذ لماذا لا تتدخل هذه في عملية تتلاعب بمصير مليارات الدولارات، بينما لم تتردد الـ C.I.A (وكالة المخابرات المركزية) ولم تأنف من التماس معونتها لاغتيال فيدل كاسترو ١٩٥٩...

وفي العام ١٩٦٩، أعيد انتخاب توني بويل رئيساً لنقابة عمال المناجم (اتحاد عمال المناجم) فاعترض منافسه، جوزف—يابلنسكي على عدم قانونية الاقتراع، وبعد أمد وجيز قُتل يابلنسكي وزوجته وابنتهما، بيد قتلة مأجورين تمكنت قوى الأمن من اعتقالهم، ووصل التحقيق إلى توني بويل، الذي أُتهم وأوقف عام ١٩٧٣. وهو لا يزال حتى الآن في السجن، بينما يحاول محاموه تأخير سير المحاكمة.

(١٠١) عاش جيمس هوف، بعد خروجه من السجن على المبلغ الذي خصصته له نقابة عمال التفريغ والتحميل (السفن) وهو مليون دولار بعد دفع الضرائب.

كشفت الجريمة والتخريب والابتزاز عن فاعليتهما الشديدة في الحصول على زيادات أجور كبيرة تحرّض العمال على إعادة انتخاب قادتهم النقابيين ، دون التفكير كثيراً بالوسائل . ورواتب هؤلاء القادة النقابيين ودخولهم المالية تكفي للدلالة على أنهم ليسوا بالمناضلين الحقيقيين^(١٠٢) . فهم حسب نظرة متردية وذنينة للحلم الأمريكي ، يديرون النقابات كما تُدار الأعمال والمشاريع التجارية في أمريكا ، وكثيرة هي الحالات التي ظهر فيها التواطؤ بين بعض النقابات وأرباب العمل .

تضخم نقدي وامبريالية

إذا كان الفساد قد حط من شأن بعض التنظيمات العمالية ، ولا سيما القديرة ، وأفقدتها سمعتها ، فقد حصلت التنظيمات الأخرى الأكثر عدداً ، بالاتفاقات الجماعية القانونية على زيادات هامة في الأجور . فالمنتظمون إليها وقادتها يطمحون إلى أن يصبحوا من الطبقة الوسطى التي يحترمونها . وتحليل نتائج الاقتراع تدل على أن عدداً كبيراً من العمال يمنحون أصواتهم للحزب الجمهوري ، وإن كانوا لا يجهلون صلات هذا الحزب بأوساط رجال الأعمال . وعمال البناء ذوو الأجر الجيد هم الذين تظاهروا ، في رئاسة نكسون في نيويورك ، ضد الطلاب المعادين الحرب في الفيتنام .

هذه « النقابية » تنتمي بصورة ما إلى النظام القائم . فاليد العاملة التي تضمها هي من أكثر القطاعات تقدماً صناعياً ، حيث حددت مكنته الإنتاج عدد الاستخدامات اليدوية ، وحيث تستطيع مجموعة صغيرة من العاملين سد حاجة الجهاز بأسره . وقد أدرك أرباب العمل أن إضراباً يطول أمده سيكلفهم كثيراً ، ويكون ، في السوق ، لصالح منافسي مشروعهم المتوقف عن الإنتاج . ولذلك يؤثرون عدم اللجوء إلى القوة ، ويقومون ، في الوقت المناسب ، بالتنازلات الضرورية . وهكذا ازدادت ندرة الإضرابات الكبيرة : فقد تناقص عدد أيام العمل المهدور بسبب الإضراب ، منخفضاً من ٢٦٥٠٠٠ في العام ١٩٥٥ إلى ١٤٧١٤٠٠٠ في العام ١٩٧٢ ، كما انحدر عدد العمال المضربين ، من ٥٢٪ من مجموعهم إلى ٢٣٪ منه .

أما العمال المتأثرون بهذه الاستراتيجية ، فقد غدوا يؤلفون عدداً من السكان العاملين ، هو في تناقص متسمر .. وأضحى بإمكان المشاريع أن تستدرك ، من مصادر أخرى ، زيادة الأجور التي

(١٠٢) أنقص أرنبولد ميللر الذي خلف توني بويل ، في رئاسة النقابة ، راتبه الشخصي إلى ٣٥٠٠٠ دولار سنوياً وكان .. ٥٠٠٠٠

تدفعها لهؤلاء العمال ، فهي تستطيع أن تستأجر عمالاً ، مباشرة أو بوساطة وكلائها التجاريين ، من أوساط العمال غير النقابيين . وأن تزيد فروعها زيادة مستمرة في الخارج ، حيث لا تُتيح لها الأجور الدنيا التي تدفعها ، إرضاء المساهمين فحسب ، بل إرضاء عمالها الأمريكيين أيضاً ، الذين يستفيدون من هذا السبيل ، من استغلال عمال سنغافورة وهونغ كونغ وسيؤول وغيرها .

اهتمام أرباب العمل بتفادي الإضرابات ، لا يدل على شيء أفضل مما تدل عليه الشروط التي تمت فيها المفاوضة على الاتفاقات الجماعية مع عمال المناجم في شهر تشرين الثاني ١٩٧٤ . وقد بلغ معدل ارتفاع الأجور الذي قبلت به النقابات ٦ ٪ في العام ١٩٧٣ ثم ٨ و ٩ ٪ في النصف الأول من العام ١٩٧٤ . وفي خريف ١٩٧٤ ، طالب اتحاد عمال المناجم بزيادة أخرى . فرفض أرباب العمل ، وأضرِب العمال ، فحصلوا بلا إبطاء ، على زيادة ١٤ إلى ١٥ ٪ ، بالإضافة إلى شرط مقياس الأجور المتقلب الذي حصل عليه عمال صناعة السيارات ومصانع الفولاذ . وقد اختار أرباب العمل الرضوخ على الفور ، ... إلا أنهم عمدوا بعد ذلك ، للتعويض عن هذا الارتفاع ، إلى زيادة سعر الفحم ، وهذا ما أدى إلى زيادة التضخم .

أصبح هذا السيناريو تقليدياً ، وليس ما يُتيح حتى الآن إمكان التنبؤ بأنه سيُهمَل . فقد أنتجت الصناعة الأمريكية ، حتى غداة الحرب العالمية الثانية ، ٩٥ ٪ تقريباً ، لسد حاجات سوقها الداخلية^(١٠٣) ومع ذلك فتمت امبريالية أمريكية ، كانت قائمة ، إلا أنها كانت تتوخى ، في الأساس ، تموين الولايات المتحدة بالمواد الأولية بأسعار زهيدة ، وهكذا نكون بصدد « امبريالية استيرادية » . فعندما كان العمال في تلك الفترة ، يعلنون مطالبهم ، كان أرباب العمل إذا ما رأوها متطرفة ، يلجؤون إلى القوة ، وهكذا قد يدوم الإضراب أشهراً . ومع تكاثر فروع الشركات الدولية في الخارج وتعددتها تمت « امبريالية تصديرية » وأصبحت القطاعات الرئيسية تخصص ٢٠ إلى ٤٠ ٪ من إنتاجها للسوق العالمية ، محققة في الخارج جزءاً متنامياً من أرباحها ، وفي الأنخص باستثمار يد عاملة أجنبية أجورها بخسة جداً . وكانت أجرة عامل منجم أمريكي اليومية في العام ١٩٧٥ ، ٥٠ دولاراً ، وستبلغ في العام ١٩٧٨ ، ٥٨ دولاراً بموجب الاتفاق الجماعي الموقع في نهاية عام ١٩٧٤ ، وهذا العامل الأمريكي يأخذ في ثلاثة أيام أو أربعة من الأجر ، ما يأخذه في شهر كامل عامل في فرع شركة أمريكي في بلد متخلف ، وأجر هذا العامل الأمريكي اليوم يعادل دخل الفرد

(١٠٣) لم تكن الولايات المتحدة في أوائل الستينيات تصدر سوى ٥ ٪ من إنتاجها بينما كانت ألمانيا تصدر ١٧ ٪ وبلجيكا ٣٧ ٪ (الإمبراطورية الأمريكية للكاتب نفسه ص ٢٨٠-٢٨٢) .

السنوي لكل من ٦٠٠ مليون كائن بشري في العالم الثالث . وهو مدين بارتفاع مستوى معيشته هذا إلى بنية رأس المال الأمريكي الامبريالية التي تجعل منه أرستقراطياً إذا ما قورن بعمال القارات المتخلفة التي تقيم الشركات الكبرى الدولية فروعاً لها فيها ، كما هو مدين به أيضاً إلى قوة نقابته التي تجعل منه ذا امتياز بالنسبة إلى معظم العمال اليدويين الأمريكيين .

إن نقابة عمال المعادن لا تضم سوى ١٢٠ ألف عضو ، قادرين على إيقاف إنتاج الفحم برمته ، ومن هنا كان ارتفاع أجورهم حتى أصبح يمكننا أن نقارن أجر عامل المنجم اليومي ، وهو ٥٠ دولاراً ، بأجر العامل الأمريكي ، الأسبوعي الوسطي ، وهو ١٥٩ دولاراً . فالمنجم قطاع أساسي ، وقد أدى ارتفاع سعر البترول إلى ارتفاع سعر الفحم ، كما أن نقابة عمال المناجم نقابة قوية . وهذه هي الأسباب الثلاثة التي تفسر وضع عامل المنجم الجيد . ثمة نقطة سوداء واحدة هي أن هذه النقابة كانت تضم منذ ١٥ عاماً ٢٠٠ ألف عضو ، فأدى استخدام الآلة الميكانيكية إلى إلغاء ٨٠ ألف وظيفة في ألف استخدام في مناجم الفحم .

كذلك يتمتع عامل المنجم بأفضلية قلة تأثره بالتضخم ، لأنه أفضل أجراً من العامل الأمريكي العادي وبالزيادات التي استطاع الحصول عليها ، وفي آن واحد ، بفضل مقياس الأجور المتقلب ، لم تتزحزح عملياً قدرته الشرائية الحقيقية . بينما على نقيض ذلك ، وخلال عام ١٩٧٤ فقط ، ارتفع الاجر الأمريكي الوسطي للعمال ٨٧٪ بأرقام مطلقة . غير أن قدرتهم الشرائية الحقيقية قد انخفضت ٥٤٪ من جراء التضخم ، وعلى أمد طويل تزداد الأرقام انخفاضاً ، فبين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٥ ارتفعت الأجرة الأسبوعية الوسطية من ١٣٦ دولاراً إلى ١٥٩ دولاراً ولكن القدرة الشرائية بالدولار عام ١٩٧٦ ، مع حسب التضخم ، قد انخفضت من ٩٧ إلى ٨٩ دولاراً^(١٠٤) . وقد كانت الأزمة الاقتصادية ، التي ليس من يتجرأ على التنبؤ بنتيجتها ، شديدة الوطأة ، على العمال (بالتضخم والعطالة) ، بينما تتنامى أرباح المشاريع الحقيقية ، ولا سيما عندما تبذل هذه المشاريع جهودها ونشاطها في الخارج ، كما أن افتتاح فروع في قارات أخرى يلائم مصلحة الشركات الكبرى ، لكنه يؤدي في آن واحد إلى إغلاق بعض المصانع وتسريح عناصر من العمال داخل أمريكا ، إذ أن جزءاً من الإنتاج الحاصل عبر البحار سيرد ثانية إلى الولايات المتحدة .

هكذا يكون العامل الأمريكي شريكاً في توسع امبريالي لا يستفيد منه إلا جزئياً (بارتفاع

(١٠٤) يو . اس . نيوز اند ورلد ريبورت ، ١٠ شباط ١٩٧٥ .

أجره إذا كان قادراً على العمل)، بينما يضره هذا التوسع بالعطالة عن العمل وبالتضخم في آن واحد وهذان الشران (العطالة والتضخم) ليسا عرضيين. فمنطقهما الداخلي يدفع الشركات الدولية، بدعم الحكومة، إلى تنمية إنتاجها في الخارج، وهذا ما يحرم عمالاً أمريكيين من العمل، كما يدفع في آن واحد، هذه الشركات إلى القبول بتضخم تصدر جزءاً منه إلى الخارج. فقد أضحي (هذا التضخم) مصدراً من مصادر تمويلها الذاتي العادية. وأكبر ضحايا هذا المنطق الأمريكي التركيبي وأولهم ليسوا عمال فروع الشركات في العالم الثالث فحسب، بل الذين لا يتمتعون بكفاءة جيدة من العمال الأمريكيين أيضاً (السود، في الأخص، والبيض أيضاً)، غير النقابيين أو الأعضاء في نقابات ضعيفة^(١٠٥).

وتنعكس نتائج هذه الاستراتيجية الاقتصادية على العامل الأمريكي في بعض الأرقام التي تدل على أن الأمل الأمريكي بعيد عن التحقيق وأن الاتجاه الديمقراطي يصطدم دائماً بمجدار المال ذاته.

لخص أحد معاوني جونسون القدماء الموقف كما يلي: «في العام ١٩٥٨، وفي قمة السلم كان ١٥٪ من الأمريكيين يملكون ٣٠٢ من الثروة الخاصة ويأخذون ٢٤٪ من الدخل القومي، وعندما حلل ريتشارد باركر الإحصاءات المذكورة في مكتب الإحصاء، لاحظ أن أغنى ١٠٪ في ١٩٦٨ كان دخلهم يفوق الدخل الذي يتقاسمه نصف السكان الأقل غنى، ثم أن أكثر الأسر ثراءً زادت حصتها من الثروة القومية بعد ذلك، بينما كانت الحصة النسبية التي تأخذها الأسر الفقيرة أو المتوسطة الدخل في تناقص»^(١٠٦).

فمن هم الأكثر ثراءً؟ ومن هم الذين يقتطعون حصة الأسد؟.. إن الأسر التي يعادل دخلها السنوي أو يفوق ٥٠ ألف دولار (أي أربعة أضعاف الأجرة السنوية لعامل الفحم الأرستقراطي في طبقة العمال) لا تكاد تمثل ١٪ من مجموع الأسر الأمريكية، وهي تملك ٥١٪ من الأسهم المسعرة في (السوق المالية) البورصة وتأخذ ٤٧٪ من أرباحها، بينما ٥٣٪ من الأسر الأمريكية دخلها السنوي دون ١٠.٠٠٠ دولار^(١٠٧) هذه الأرقام لها دلالتها السياسية إذ أن ١٪ من الأسر ذات الدخل السنوي البالغ ٥٠.٠٠٠ دولار، تستطيع الاحتفال بنجاح الاتجاه الرأسمالي،

(١٠٥) قدرة الشركات الدولية — ريتشارد بارنت — نيويورك ١٩٧٤ الناشر سيمون وشستر.

(١٠٦) مجلة «نيوزويك» ٢ كانون الأول ١٩٧٤. بقلم بيل تويرز.

(١٠٧) نشرة «الأعمال الجارية» تشرين الثاني ١٩٧٤. Survey of Current Business, 1974.

يقابلها ٥٣٪ من الأسر ذات الدخل السنوي الأقل من ١٠.٠٠٠ دولار، في بلد تكاليف التعليم والصحة فيه باهظة جداً، وهذا ما يدل على أن المشروع الديمقراطي قد خانوه.

كيف كان الوصول إلى هذا المستوى؟ إن تفسير ذلك يكمن في جهاز سياسي لم يستطع الوفاء بوعوده لأن العمل الحر في المؤسسات الديمقراطية قد حرفته قوة المال وضلته. والشعب هو، نظرياً، السيد، بينما في الواقع، تعود السلطة أولاً إلى المالكين وهذا ما أراده لها هاملتون وصحبه منذ قرنين. نظرياً أيضاً، جميع المواطنين متساوون أمام صناديق الاقتراع (الانتخاب). غير أن تمويل الحملات الانتخابية وكتل الضغط في الواقع قد أدخلت في النظام انتخاباً هو في الحقيقة انتخاب دافعي الضرائب، الواقف وراء الانتخاب العام. ونظرياً، حسب تعابير إعلان الاستقلال «إن السلطة (سلطة الحكومة) الصحيحة تنبع من قبول المحكومين بها»، وفي الواقع تقوم هذه السلطة، من جهة، على رضوخ أغلبية واسعة وشعورها بالعجز حيالها،... أغلبية تجهل المساومات المؤدية إلى القرارات الكبرى أو لا تكشفها إلا بعد فوات الأوان، ومن جهة ثانية، على الدور الفعال الذي تقوم به أقلية تغتصب سيادة الشعب.

ثمّة رجلان لكل منهما طريقته، تجاها مدة طويلة في داخل الحزب الجمهوري، يجسدان رذيلة الجهاز الأساسية.

عندما طُرد ريتشارد نيكسون من الحكم، بعد حياة حافلة بالأكاذيب والتمايم والاختلاسات والتهرب من الضرائب، ومناورات لا رادع لها، وغش، ومحابة أناس مشبوهين وأفعال لا شرعية سواء في خارج الولايات المتحدة، أو في داخلها، وغيرها...، عندما طُرد هذا الرجل من حكم كان ينبغي ألا يصل إليه رجل عُرفت أساليبه منذ عشرين عاماً، اختار الكونغرس أحد أعضائه ليحل محله في البيت الأبيض، موافقاً على أن يكون نائب الرئيس هو منافسه المغلوب منذ ١٥ عاماً داخل الحزب الجمهوري أي «نلسون روكفلر» الذي لم يكن انتهازياً، متغطرساً كنيكسون، بل من ألمع وجوه النظام القائم. قبل أن يوافق مجلس الشيوخ على تسمية روكفلر، كان لا بدّ من إجراء تحقيق يكشف عن طرق استخدامه ثروته الطائلة ليصل إلى أهدافه ويكشف كيف أن المال كان أداة قوته وسلطته وليكشف معها الوسائل—(من تروستات ومحامين وموارد وأسهم وأملاك)—(محاسبين وهبات وقروض وملايين الدولارات) التي استخدمها لتحقيق مآربه السياسية، بينما كان عشرات آلاف الناس يفقدون استثماراتهم في اقتصاد ضائع تائه، وبينما كان ملايين الناس ينفقون ما تبقى من قروشهم لشراء ما يقوم بأودهم. وكان روكفلر، في أثناء ذلك يدلي بشهاداته أمام مجلس الشيوخ، كما

كان، في مكان قريب، «هيربرت كالمباخ» يشرح لهيئة محلفين «وتر غيت» كيف أن رئيس شركة «نورثروب كوربوريشن» قد دفع (بطريقة غير شرعية) ٧٥ ألف دولار، كلها من فئة المئة، من أجل حملة نيكسون. وهاتان حادثتان متباينتان، إلا أن كل منهما تكشف حقيقة نظام تتضمن ميزات الأساسية تجاوزات فاضحة من أجل أقلية من أصحاب الامتيازات وسوء طالع الأغلبية المزمع^(١٠٨).

هذه القلة صاحبة الامتيازات هي الصفوة أي «الأغنياء وذو النسب» الذين أوصى هاملتون بتسليمهم السلطة، أما الأغلبية، فهي في الحقيقة، لا تعاني «سوء الطالع المزمع»، بل هي سواد الشعب الذي أراد «هاملتون» أن يضرب صفحاً عنه لأنه، كما يقول، عاجز عن إبداء رأي سليم والقيام باختيار حسن. فهو يستطيع الاعتباط مع «جون جاي» لأن الذين يملكون البلد قد نجحوا عملياً في حكمها، إما بالمبالغ غير المشروعة التي يدفعونها كي يفوز انتهازي مثل نكسون وإما بشرائهم السلطة إذا كان المرشح أرستقراطياً مثل روكفلر: وفي كلتا الحالتين يسيطر المال على السلطة السياسية سيطرة تشوه معنى الانتخاب العام تشوهاً جذرياً. والسلطة السياسية القائمة على هذا النحو لم تعمل على أن تسود العدالة أكثر من قبل، ففي العام ١٩٧٤ لم يتدن مستوى معيشة الأغنياء على الرغم من التضخم، وبينما كان دخل الأسر الوسطي يرتفع ٧٪ فقط، كان ارتفاع التضخم ١١٪ وهكذا انحدر ١٣٠٠٠٠٠ أمريكي، على الفور إلى ما دون «عتبة الفقر» وهذا ليس بالحدث العرضي.

روكفلر والفساد والسلطة

عندما سألت نلسون روكفلر لجنة مجلس الشيوخ المسؤولة عن الموافقة على تسميته نائباً للرئيس، عما إذا كان باستطاعة المال أن يمنح السلطة، راغ من السؤال وأجاب: «هذه أسطورة من الخير تبديدها».

كان روكفلر عند حملته الانتخابية لمنصب حاكم ولاية نيويورك قد أعلن، كما أعلن معه أعضاء أسرته، أنهم بذلوا في سبيل الحملة ٤٦ ملايين دولار، وقد قدر «هيربرت الكسندر» الخبير في هذه الشؤون أن أسرة روكفلر قد أنفقت ١٠ — ١٢ مليون دولار في حملتها الانتخابية للفوز بمنصب الحاكم

(١٠٨) مجلة «نيوزويك» ٢ كانون الأول ١٩٧٤. بقلم بيل تويرز.

هذا، وأكثر من ١٢ مليون في محاولاتها لإنجاح روكفلر في انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٨. ويعلق على ذلك «انطوني لويس» قائلاً بلا مبالغة: «في مجال المال الذي تبذله أسره ما للاستيلاء على السلطة السياسية، لم يحدث قط على الأرجح، ما يشبه ذلك في تاريخ الولايات المتحدة» (١٠٩).

لم يفز روكفلر على الرغم من كل ذلك، فقد أثر الحزب الجمهوري عليه «باري غولد ووتر» في العام (١٩٦٤)، وريتشارد نيكسون في العام ١٩٦٨، وفي كلتا المرتين، جمع الحزب مبالغ أكثر ضخامة (٣٥ مليون دولار من أجل نيكسون في العام ١٩٦٨) ليدعم الرجل الذي اختاره. هذه المبالغ الهائلة ليست بلا شك من الناخب العادي بل من المبالغ غير الشرعية الضخمة التي اسهمت بها بعض الشركات كما في العام ١٩٧٢: شركة الهاتف والبرق، (٤٠٠ ألف دولار)، (شركة منتجي الحليب) (٣٠٠ ألف دولار)، شركة نورثروب كوربوريشن (٧٥ ألف دولار). وهكذا يكون نيكسون والحزب الجمهوري قد أبرما عقود ديون عليهما الاعتراف بجميل أصحابها. وكانا يبرئان ذمتها بعد انتهاء الانتخابات بمنحهما الواهين الكرماء، إما عقداً مع البنتاغون وإما زيادة إعانات الدولة المالية لأسعار الحليب. وإما بمنصب سفير، وإما بالعفو عن سجين محكوم قبل الأوان، كما حدث لـ «جيمس هوبا» الزعيم النقابي الذي كان يغنى في السجن. والسيدة «روث فاركاس» التي «اشترت» بمبلغ قدره ٣٠٠ ألف دولار دفعته لإعادة انتخاب نيكسون (عام ١٩٧٢) منصب سفيرة الولايات المتحدة في اللكسمبورغ.

أن يُرى رجل عن طريق السياسة، كما فعل نيكسون، أو أن تفتح له ثروته أبواب السلطة السياسية على مصارعها، كما حدث لـ «روكفلر»، فالديمقراطية في كلتا الحالتين، لا تُعطي سوى صورة هزلية عن سيادة الشعب، وفي كلتا الحالتين يعيث الفساد في السلطة. وللبهتان على ذلك، كان لا بدّ من إخزاء ريتشارد نيكسون. فقد كان الرأي العام مهياً للنظر بعين الريبة إلى محترف السياسة هذا ذي المنشأ المتواضع الذي يغتني وهو يرقى مراتب السلطة. هكذا طرد نيكسون من البيت الأبيض. وكان لا بدّ من إقامة البرهان على ذلك أيضاً بشأن نلسون روكفلر، وإن كان الرأي العام يميل إلى الظن بأن رجلاً على هذا القدر من الثراء سيصمد أمام إغراء المال. وعندما كُشفت الوثائق الدامغة في وضوح النهار، أقدم مجلس الشيوخ مع ذلك على تثبيت تسمية روكفلر لنيابة الرئاسة، وهي الوسيلة المحتملة في القفز إلى الرئاسة.

(١٠٩) انطوني لويس، «روكفلر: سلطان المال»، انترناسيونال هيرالد تريبيون، ٨ تشرين الأول ١٩٧٤.

إن عبرة «ووتر غيت» لم تُفهم إذاً حق الفهم. وإذا ما تهاوى الرجل القائم على السلطة مفتوناً بسحر المال، أو إذا ما قُتن سواه بالمال الذي هو في حوزته—أي أن يكون مفسوداً—أو فاسداً—، فالديمقراطية هي الخاسرة في كلتا الحالتين. كتب أيضاً أنطوني لويس في المقال المشار إليه سابقاً يقول: «أية سخرية إذا ما أتحنا الوصول إلى الرئاسة العليا، لرجل استغل سلطان المال والسلطة السياسية بهذه الشناعة».

استخدم نلسون روكفلر، أولاً ثروته الخاصة للدعاية الشخصية، فأحاط نفسه بحاشية دائمة من الحقوقيين والمثقفين والكتاب الذين زَيَّنوا سمعته بحذق، كما ترأسَ وموَّل أعمال لجنتي التحقيق وتقاريرهما عن «أهداف الأمة» وعن «الاختيارات الهامة» التي ينبغي للأمريكان أن تبثَّ فيها. «وهذه مناسبات للشهرة لا تُتاح لأي كان في بلد تتكافأ فيه الفرص». ففي العام ١٩٦٠، أقرض روكفلر رئيس الحزب الجمهوري في ولاية نيويورك مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دولار ليشترى بها أراضي في «لونغ ايلاند» وهي بادرة كريمة لأن عمل رئيس الحزب لا تعويض له، والمحسن إلى رئيس الحزب هذا يريد بإحسانه أن يجعله في معزل عن الإغراءات كما قال هو ذاته. غير أن ذلك لم يكن كافياً مع الأسف، فالمغريات كانت جدد آسرة وقد سُجن الناصر الجميل لإقدامه على الابتزاز والاحتلاس. لكن الحاكم الشهم روكفلر خفّض العقوبة، ثم ازداد سماحة بتحويله ٨٦ ألف دولار من المئة ألف دولار، التي يتألف منها القرض الأصلي، إلى هبة. وذلك، بلا شك، دون عوض أو مقابل... وهكذا كان شأن الخمسين ألف دولار أيضاً التي منحها هنري كيسنجر قبل أن يدخل وزير الخارجية العتيد الذي كان يعمل لحساب روكفلر في خدمة ريتشارد نيكسون في البيت الأبيض. كذلك أيضاً، سعى روكفلر بوصفه حاكماً، إلى بناء عمارات واسعة في عاصمة الولاية: «ألباني» أتاحت الفرصة لإبرام عقود تأمين عجيبة. وبعد الإخفاق الذي مُنيت به شركة «مركز التجارة العالمية»، استأجر الحاكم، بتشجيع أخيه، «دافيد»، عدة مباني من ممتلكاتها، أخذت مقرراً لدوائر إدارية مختلفة من دوائر الولاية ومصالحها. إن أقل ما يُقال في ذلك هو أن الفاصل بين الأعمال الشخصية وشؤون الدولة ليس منيعاً كما ليس للفساد تعريف آخر.

هذا الفساد ازداد وضوحاً عندما عمّد روكفلر، تدفعه الصداقة الخالصة لـ «إلى إهداء لوحة «بيكاسو» لأحد أعضاء الحزب الديمقراطي لمساعدة قدمها إليه في اقتراع حساس جرى في مجلس الولاية التشريعي. أو عندما أقرض ٥٥٠ ألف دولار، حولها بعدئذٍ إلى هبات، لمدير مرفأ نيويورك الذي تُتخذ جميع قراراته طي الكتان، غير خاضعة لأي رقابة ديمقراطية. وكل ذلك لا تربطه أية

صلة بمصالح أسرة روكفلر! .. كما كان من قبيل الصدفة أن يدفع أخوه «لورانس» في العام ١٩٧٠ مبلغ ٦٠ ألف دولار لنشر ١٠٠ ألف نسخة لسيرة حياة لا تخلو من الكذب، هي سيرة حياة «آرثر غولدرغ» الذي رشع نفسه ضد نيكسون لمنصب الحاكم، وبما للعجب. وفي العام ذاته خصص روكفلر حملته الانتخابية ٧ إلى ١٠ ملايين دولار بينما لم يخصص خصمه سوى مليونين: فالديمقراطية أيضاً هي تكافؤ الفرص! وفي العام ١٩٥٢، بينما كان روكفلر يشترك في الحملة الانتخابية مع أيزنهاور الذي اختاره مرشحاً لنيابة الرئاسة، أتهم نيكسون باختلاس بضعة آلاف الدولارات فدافع عنه روكفلر على شاشة التلفزيون، ذلك الدفاع المشهور، ضارباً على وتر الحقد الغامض الذي تحيش به قلوب الفقراء على الأغنياء ومثيراً شفقة السامعين على منشأ نيكسون المتواضع. وإنها «لميلودراما» سيئة، فهي إذاً دعابة «جيدة»، وهاهو الجمهور ينسى ما تنطوي عليه البادرة من انعدام الأخلاق. وتذكر الناس ذلك بعد انقضاء عقدين، عندما علموا أن نيكسون ذاته، بعد رئاسته، مدين لمصلحة الضرائب بنصف مليون دولار، وأنه استخدم المال المخصص للمعركة الانتخابية ليشتري به جواهر لزوجته. وكان هذا حتى ذلك الوقت يجسد في نظر عدد كبير من الناخبين خرافة «النجاح الأمريكي» — أسطورة ماسح الأحذية الصغير — أو الغلام بائع الجرائد الذي يجسد سبيلاً إلى أن يصبح مدير مصرف، في مجتمع لا تؤدي فيه إلى النجاح، سوى الجدارة...

في أقصى الطرف المقابل، ضرب روكفلر، بعكس ذلك، على وتر السحر الغامض الذي يمارسه الأغنياء على الفقراء، إن كانوا حقاً جد أغنياء، فالفقراء يتنازعهم دائماً، أمام ثراء الآخرين، الحقد والإعجاب. وروكفلر يجسد، باسمه وحده، قرناً من تاريخ أمريكا. وذلك بمغامرة البترول الكبرى ومغامرات الخطوط الحديدية والمضاربات والمناجم والمصارف والنزعة الإنسانية! .. هو، شأنه شأن نيكسون، إنما لأسباب أخرى وعلى صعيد آخر، يجسد أيضاً خرافة «النجاح الأمريكي».

لكن، لا شيء أكثر تضليلاً، من هذه التصورات الشعبية، وإن نتائج التحقيق الذي قامت به مجلة، فورتون (Fortune)، منذ سنوات عدة عن مصادر الثروات الكبيرة، لا تزال مقبولة وصحيحة حتى اليوم ومن هذه النتائج أن ٥٣٪ من أصحاب الملايين، وجدوا الثروة وهم في المهد، أو منذ مولدهم، و ٣٠٪ حصلوا عليها من عملهم البترولي المستقل، و ٥٪ من الصفقات العقارية^(١١٠). وكل من هذه المصادر الثلاثة ينطوي على اتهام خطير موجه للجهاز الاقتصادي

(١١٠) فورتون تشرين الثاني ١٩٥٧.

الذي أفسد الجهاز الديمقراطي، إذ أن جميع الثروات الطائلة الموروثة، قد تكدست بوسائل غير شريفة، تكاد تكون كلها بالعنف وذلك في أواخر القرن التاسع عشر، عصر «البارونات اللصوص» وتوورت من جيل إلى جيل بسبب تساهل مصلحة الضرائب في حقوق الإرث.. أما ثروة البترولين المستقلين، فتقوم برمتها على المراعاة في الضرائب—المراعاة المالية المتكونة من التعويضات التي استمرت—بلا مسوغ قانوني أو حق، بالضغط على الرؤساء الذي لا مبرر له، تمارسه شركة احتكارية قادرة: على «ترومان، كندي، فورد»، الذين فكروا في إلغاء تلك التعويضات، أما الثروات التي جُمعت من القطاع العقاري، فقد انحدرت كلها من عمليات المضاربة التي لم تؤت ثمارها إلا بتواطؤ شخصيات سياسية عليا وفي نظر مذهب «المشروع الحر» كما في نظر المبادئ الديمقراطية، ليس بين أصحاب الملايين هؤلاء جميعاً، برأي واحد.

وكما فعل نيكسون فعل روكفلر، إنما باستخدام وسائل مختلفة وبعيداً عن تمثيل حيوية الأمل الأمريكي، ولعله يحمل على التفكير بأن هذا الأمل ليس إلا سراباً. وإن مجتمعاً لا تتحول فيه الديمقراطية إلى ممارسة انتخابية^(١١١)، لا يدع لمثل روكفلر امتياز ثروة بهذه الضخامة يستطيع المحافظة عليها بالتأثير الذي يحده المال على القرارات التشريعية (حقوق الإرث) ويستخدمها للاستيلاء على السلطة السياسية. وإذا لم يكن هو وحده الذي استطاع الحصول على دعم تشريع لديمقراطي يؤيد الثروة، فإنه قد حرص على أن يظهر أنه لم يرث عن آباءه وأجداده ثروة طائلة فحسب، بل إنه تعلم منهم أيضاً، فن استثمارها: فروكفلر إذ أضاف لمستته الشخصية إلى لوحة سوء الائتمان واستغلال الوظيفة، قد تهرب من ضريبة قدرها ٨٢٠٧١٨ دولار بين عامي ١٩٦٩ و١٩٧٣. وعندما اكتشف مجلس الشيوخ العملية، وذلك قبل أن يُثبت روكفلر في مهامه نائباً للرئيس، وجه هذا إليه رسالة يعترف فيها بالوقائع ويعلن عن استعداده للدفع. ولو أقدم على ذلك أي شخص سواه لكان في السجن، أما روكفلر، فهو الآن نائب رئيس الولايات المتحدة.

المال والديمقراطية

بدأ الكونغرس منذ وقت طويل يهتم بإصلاح طرق تمويل الحملات الانتخابية تحلياً، وذلك بعدما ساوره القلق لرؤيته إلى أي حد تُتخذ قرارات أساسية تحت تأثير تكتلات مالية قادرة وليس للمصلحة العامة بل لمصلحة أفراد معدودين. وموجة التطهير التي أثارها فضيحة «وترغيت» قد

(١١١) للمؤلف نفسه «انتحار الديمقراطيات» الناشر غراسيه. باريس، ١٩٧٢ ص ١١١—١٦٢.

شجعت التصويت على قانون سيُطبق في انتخابات الرئاسة (تشرين الثاني ١٩٧٦) تنوحي بنوده هدفًا ثلاثيًا:

- تحديد المبالغ التي يستطيع شخص واحد أن يسهم بها في صندوق انتخابي .
- تحديد النفقات التي يخصصها مرشح للانتخابات .
- اسهام الولاية في تمويل الحملات الانتخابية لتخفيف مدى ارتباطها بالهبات الخاصة .

والأفضل من ذلك أن هذا القانون سيحدد التجاوزات الخطيرة التي سُجلت في الماضي^(١١٢)، وإن لم يستطع القضاء عليها . وهو قانون معقد، إذ كان عليه أن يحسب حساب الفوارق الكبرى القائمة بين الولايات المختلفة باختلاف أبعادها الجغرافية وعدد سكانها، ولا سيما في انتخابات أعضاء مجلس الشيوخ . ولهذا السبب، يستطيع مرشح لعضوية مجلس الشيوخ، أن ينفق للدعاية الانتخابية مبلغاً أعلاه ١٢ ٪ دولار مقابل كل ناخبٍ مسجل في اللوائح الانتخابية، وفي أكثر الولايات سكاناً (كاليفورنيا—نيويورك وغيرها) يُتيح هذا البند نفقات تفوق النفقات التي تُخصصت لأكثر الحملات الانتخابية . والحالة هي على النقيض في الولايات الأقل سكاناً، فقد كلفت إعادة انتخاب عضو مجلس الشيوخ «مكثراً» في ولاية (داكوتا الجنوبية ١٧٢٨٣١ ر دولاراً) أي ما يعادل خمسة أضعاف الحد الأعلى القانوني .

مهما كان ناقصاً هذا القانون الذي سيخضع لرقابة لجنة الانتخابات الفدرالية، إلا أنه قد

(١١٢) لا يتق لأحد أن يعطي أكثر من ألف دولار في كل انتخاب أولي أو عام، ولا أكثر من ٢٥ ألف دولار سنوياً . أما المبالغ التي تُسهم فيها المنظمات، فلا يجوز أن تتجاوز ٥ آلاف دولار سنوياً لكل مرشح . ولا يجوز لمرشح وأسرته أن يدفعوا أكثر من ٥٠ ألف دولار إذا كان الترشيح للرئاسة، و٣٥ ألف دولار إذا كان مجلس الشيوخ و٢٥ ألف لمجلس النواب . على أن تُدفع هذه المبالغ بشيكات .

من جهة أخرى، لا يجوز للحزبين الكبار (الجمهوري والديمقراطي) أن يدفع كل منهما أكثر من مليون دولار من أجل اختيار مرشحهما، كما لا يتق للمرشحين أن يدفعوا أكثر من ١٠ ملايين دولار قبل اختيارهم، ولا أكثر من ٢٠ مليون دولار بعد الترشيح . أما ما يدفعه المرشحون لمجلس الشيوخ، فحده الأعلى ١٠٠ ألف دولار أو ٠.٨ ر مقابل كل ناخب مسجل في اللوائح الانتخابية الأولية و ١٥٠ ألف دولار أو ٠.١٢ ر. دولار مقابل كل ناخب في الانتخابات العامة . والحد الأعلى للمرشح إلى مجلس النواب هو ٧٠ ألف دولار . ويستطيع كل حزب بعد ذلك أن ينفق ٢٠ ألف دولار مقابل كل مرشح من حزبه إلى مجلس الشيوخ و ١٠ آلاف دولار لمجلس النواب . على كل مرشح للرئاسة أن يجمع أولاً مبالغ كل منها دون ٢٥٠ دولار ليبلغ مجموعها ١٠٠ ألف دولار، على أساس ٥ آلاف دولار مقابل كل من العشرين ولاية . وتستطيع الولاية أن تقدم له مبلغاً معادلاً لا يتجاوز مجموعه ٥ ملايين دولار . أما الأحزاب الصغيرة، فينبغي أن تحصل في الأقل على ٥ ٪ من الأصوات لتستفيد من تمويل الولاية، وفق نسبة الأصوات .

يساعد على تخفيف حدة التنافس الانتخابي ، كما أنه سيحد من تزايد مصروفات الانتخابات تزايداً متتابعاً كان من شأنه في الماضي أن يحول الحملات الانتخابية إلى تظاهرات هي أقرب إلى ألعاب « السيرك » منها إلى معركة ديمقراطية ، كما أنه سيحد ميزة انتهاء المرشح إلى أسرة ثرية . والبند الذي يفرض فيه أن يكون كل مبلغ يتجاوز المئة دولار محولاً إلى شيك ، سيسهل الرقابة : فإن رئيس شركة تأمينات شيكاغو—على سبيل المثال—الذي دفع عام ١٩٧٢ مليوني دولار من أجل إعادة انتخاب ريتشارد نيكسون ، لن يجد فرصة للدفع مرة ثانية . إنما مقابل ذلك ، ينطوي البند الذي يحظر على شخص واحد الاسهام بأكثر من ٢٥٠٠٠ دولار سنوياً ، على وهم مفرج ، إذ ما هو عدد المواطنين الأحرار الذين يستطيعون الاسهام بمبلغ كهذا في بلد دخل ٥٣ ٪ من أسره دون ١٠.٠٠٠ سنوياً ؟ .. وإذا ما افترض أن القانون الجديد سيُطبق بحذافيره ، فإنه سيدع للمال امتيازاً لا يتلاءم ومبدأ تكافؤ المواطنين أمام صناديق الاقتراع .

إنما ، لا يكفي في الأحص ، إصلاح تمويل الحملات الانتخابية ، كي تسترد الديمقراطية حقوقها كاملة . وإذا ما افترض أن الكونغرس سيجرؤ ، في المستقبل على زيادة ما في هذا القانون من إلزام فستبقى مع ذلك ، مجالات متعددة تضفي فيها عملية إتخاذ القرار السياسي على الإلتجاه الرأسمالي تفوقاً واضحاً على الإلتجاه الديمقراطي . فنحن إذاً في صدد ظاهرة دائمة ، بينما لا تتدخل الانتخابات ، إلا مرةً في الستين ، أو الأربع أو الست ، حسبما تكون ، لمجلس النواب أو مجلس الشيوخ أو للرئاسة . إن لأصحاب المصالح الاقتصادية الكبرى مكاتب دائمة في العاصمة (يعمل فيها محامون وخبراء في العلاقات العامة وغير ذلك) تدافع عن مصالحهم لدى الكونغرس والادارة ، وهو امتياز لا يحظى به المواطنون العاديون .

والصلات العضوية القائمة بين السلطة السياسية والأعمال والمشاريع الكبيرة الخاصة تتجلى ، في الأحص ، في العقود المتعلقة بالإنتاج الذي قد تحتاجه الوزارات ، ولا سيما وزارة الدفاع (البنتاغون) ونادراً ما تُبرم هذه العقود حسب القواعد الموضوعية (طلب عروض) ، ثم بعد الحصول على العقد وإبرامه ، كثيراً ما تعتمد المشاريع المتعاقدة إلى تجاوز ما فيه (من تصاميم) . وفي الأوضاع الحالية القائمة ، لا وجود عملياً للرقابة البرلمانية على هذه العمليات . وهي لا تُمارس إلا بعد إنهاؤها . كما أن المؤسسات والمشاريع الكبرى ، في الأعم ، تملك إمكانيات ، لا يجد المواطن العادي السبيل إليها ، تحمل بوساطتها النواب والحكومة والصحافة وغيرهم على الانصياع لها . وهكذا وضعت خلال قرنين من التاريخ قوانين تساعد استمرار الإلتجاه الرأسمالي . وتعني هذه القوانين عدداً كبيراً من

المجالات والميادين : استثمارات ، ضرائب ، إرث ، وغير ذلك . وقد نجحت نجاحاً واضحاً بإقامة أقوى جهاز إنتاج عرفه العالم ، في الولايات المتحدة . غير أن هذا الفوز لم يحل أبداً دون ازدياد حدة التفاوت والفوارق الاجتماعية والاقتصادية ، بينما كان الاتجاه الديمقراطي المنقوش في الحلم الأمريكي يطمح إلى تخفيف حدتها لا إلى القضاء عليها برمتها .

والأفراد والجماعات ليسوا سواسية أمام القانون الذي يختلف تطبيقه عليهم باختلاف انتمائهم إلى الاتجاه الرأسمالي أو الديمقراطي ، وهكذا لم يطبق التشريع المضاد لشركات التروست (الشركات الاحتكارية الكبرى) اليوم وفي أوائل القرن أيضاً ، بكل قوته إلا نادراً . بينما يضع قانون « تافت هارتلي » حدوداً وقيوداً شديدة على فاعلية النقابات . وكانت الحكومة قد عمدت في الواقع (تشرين الثاني ١٩٧٤) إلى سن أوسع قانون مضاد للتروستات في تاريخ الولايات المتحدة ، وهو يستهدف شركة الهاتف والبرق الأمريكية (A.T.T) وهي أكبر شركة في العالم ، فرأس مالها ٦٧ مليار دولار وعدد موظفيها ١٠٠٥٠٠٠ ، وكانت مرابحها عام (١٩٧٢) ٢٩٩٠ مليون دولار . ولأول وهلة لا يبدو ثمة شك في انتهاكها قانون « شيرمان » لأنها تملك ٨٢ ٪ من الهواتف المستخدمة وتقوم بـ ٩٠ ٪ من الاتصالات البعيدة . وقد اتهمت ، بالإضافة إلى ذلك ، برفضها بعض المنشآت الهاتفية (مقاسم هاتفية ، هواتف آلية ، خطوط خاصة ، وغير ذلك) إن لم يستخدم فيها التجهيزات التي تنتجها فروعها « بيل » و « وسترن ايلكتريك » . وفي تشرين الثاني عام ١٩٧٤ اتهمتها الحكومة بوضع نسخ طبق الأصل عن نماذج منافسيها ومطالبتها مشتركها المصيرين على استخدام أجهزة ليست من إنتاج مصانعها ، بأجور باهظة ، كما اتهمتها أيضاً بإكراه زبائنها على شراء تجهيزات « مزوجة » أو تجميع أكثر من خط ، بأسعار جد باهظة ، مع أنها لا تفي بأية حاجة تقنية .

فما هي الأسباب التي تدعو مؤسسة احتكارية كهذه إلى تصرف مختلف ؟ . وهي التي تستخدم ، منذ أمد طويل ، أساليب ثلام على استخدامها ، ولماذا لم يطبق القانون المضاد للشركات الاحتكارية (التروستات) ، عليها حتى عام ١٩٧٤ . ومن أية حماية استفادت كل هذه المدة ؟ .. وبأي ثمن ؟ ثم إن الحكومة الأمريكية تتوقع ألا تصل ملاحقتها القضائية المتأخرة ، إلى المحاكم (كدعوى) ، قبل عام ١٩٧٨ . وعندئذ ستستمر إجراءات المحاكمة وأصولها سنوات عدة ، لأن محامي الشركات سيعرفون السبيل إلى الإبطاء بها ، وخلال ذلك ، ستستمر الشركة أيضاً في تكديس الأرباح لاجئة إلى طرق غير شرعية .

وعلى نقيض ذلك ، إن نقابة العمال التي تلجأ إلى الإضراب دعماً لمطلب زيادة الأجور أو

إحتجاجاً على تسريح ، تصطدم على الفور بقانون تافت هارتلي . وأن مؤسسة تنتهك التشريع المضاد للشركات الاحتكارية ، تجد في إطالة إجراءات الدعوى كسباً واضحاً لها ، لأن النصوص القانونية والأعراف ، تمنحها ، في هذه الوجهة ، كل تسهيل . أما نقابة ما ، تريد الدفاع عن قدرة أعضائها الشرائية ، فليس أقل وضوحاً أنها تستفيد من سرعة العمل والإجراءات . لذلك يُفرض عليها قانون « تافت - هارتلي » على الرغم من مصلحة العمال ، مهلاً طويلة الأمد تستمر خلالها قدرة العمال الشرائية في التناقص ، وتمتد المهلة بسبب إشعار مدته ستون يوماً وربما ، بسبب حكم قضائي أو (قرار) ، يقضي باستئناف العمل لمدة ثمانين يوماً . وخلال ذلك ، تمضي الشركة في تكديس أرباح يزيدها انتفاخاً تناقص قدرة الأجور الشرائية . وإذا ما قررت المؤسسة ذاتها زيادة أسعار المبيع ، فليس ثمة نص شرعي يتطلب منها إشعاراً مدته ستون يوماً ، ولا تأجيلاً مدته ثمانون يوماً . فهي تعمل بحرية وبلا إبطاء . وزيادة الأسعار لا تُرهق الاقتصاد العام بقدر ما ترهقه زيادة الأجور ، بل أكثر . وهكذا يزيد القانون صعوبة الإقدام على الإضراب ، إنما يكبح عمل النقابات كبهاً مستمراً ، وما خلا فترات رقابة الأسعار ، وهي فترات نادرة ، لا يكبح القانون أبداً عمل الشركات .

هكذا ما فتئ التشريع منذ قرنين ، وبقصد مدروس ، يتطور في الإتجاه ذاته ، وهو تطويق مبادرات المأجورين العمال والمستهلكين أي سواد الشعب ، الذي كان هاملتون يتحدث عنه بنبرة ازدراء ، لدعم حرية العمل أمام « نخبة » تُعرّف بكلمات المال . هذا هو الموقف المتناقض الذي انتهى إليه المجتمع الأمريكي في دولة ديمقراطية غربية متطورة : فالفارق بين الأغنياء والفقراء يزداد ، ويزداد أكثر عمقاً ، في الأنحص بين انتصاراتها التكنولوجية والصناعية ، ومنجزاتها الاجتماعية الضئيلة . والبلد الذي أرسل أول الرجال إلى القمر والذي يملك أكبر طاقة إنتاج وتدمير ، يقف عاجزاً أمام السخوط أو الرضوخ للذين يبيدهما أكثر من عشرين مليوناً من السود وملايين عدة من « البيض الفقراء » ، أمام تكاثر أحياء الأكواخ القذرة وتردي المدن الكبرى ، أمام عجز مجالس البلديات المتزايد ، وأمام التفاوت في الوصول إلى العناية الطبية وإلى التعليم ، وغير ذلك .. ويقدر عدد الأمريكيين الذين سيقضون ، قبل أن يتمكنوا مرة واحدة من استشارة طبيب ، بأربعين مليوناً : فالولايات المتحدة هي البلد الغربي المصنع الوحيد الذي ليس فيه ضمان إجتماعي ، فمصالح الأطباء الذين يتمتعون بدعم جماعة ضغط بالغة القوة ، تفوق وتتقدم مصالح جماهير السكان التي يقتضي واجب هؤلاء الأطباء أن يخدموها . والولايات المتحدة وكندا هما البلدان اللذان يكلف فيهما التعليم أبهظ النفقات . ومستوى المدارس الابتدائية والثانوية العامة ، هو في الأعم ، على رداءة تدفع الأسر الميسورة إلى إرسال أبنائها إلى

المدارس الخاصة. وأثمان الدراسة في الجامعات الكبيرة التي تحقق لأمریکا الإشعاع الفكري، تضع للدخول إليها حدوداً جذرية.

النظام الاقتصادي قوي ومزدهر، على الرغم من الأزمة الاقتصادية القائمة التي يعانيها العمال والمستهلكون من جراء البطالة وتردي القدرة الشرائية، إنما ينبغي ألا نخدعنا هذه الأزمة، فهي تصيب المواطنين الضعفاء والمشاريع الصغيرة التي هي أضعف من أن تقاوم عمالة الاقتصاد الذين سيطروا على جزء كبير من السلطة السياسية. أما الشركات الكبرى فتعترضها صعوبات خطيرة من الأفضل ألا تُقدر دون قدرها، إلا أنها تحقق من الأرباح ما يُتيح لها التلاؤم وأي وضع جديد. فهذه الشركات التي لم تنتظر نشوب أزمة البترول عام ١٩٧٣، لتعد لها العدة، يتجلى دليل واضح على قوتها السياسية في الأرقام التالية: كانت الضرائب على الأفراد تبلغ ٤٤٪ من إيرادات الدولة من الضرائب عام ١٩٦٠، و٤٣٪ عام ١٩٧٤، أي أنها ازدادت مع تضخم ميزانية الدولة، في آن واحد. وعلى نقيض ذلك، تناقصت واردات الضرائب المفروضة على الشركات، في الحقبة ذاتها، من ٢٣٪ إلى ١٥٪. هذا هو سلطان المال على السلطة السياسية.

والإتجاه الرأسمالي يُبدي نشاطاً خارقاً، بينما لم يف الإتجاه الديمقراطي بعود لإعلان الاستقلال، وقد تخلف تخلفاً مريعاً على آمال الحرية والمساواة التي بعثها منذ قرنين، وما يزال مقصراً أكثر، عن تطلعات الشعب في مجتمع حديث أناط به آمالاً أكبر.

الديمقراطية لا تُعرف بالمؤسسات والبنى وآليات السير التي تضعها في مكانها، فحسب — على كل ما لهذه من شأن حاسم — بل تُعرف أيضاً وفي الأخص بالمبادئ والقيم التي تستلهم منها سيرها، مثل الانتخاب العام والرقابة البرلمانية، والتوازن بين السلطات الثلاث، التشريعية والتنفيذية والقضائية. والمحاکم بنظام الحلفين، وغير ذلك... تلك هي الانتصارات الأساسية التي حققتها الثورة الأمريكية ثم الفرنسية. غير أن الأجهزة المذكورة، تستطيع العمل والسير، دون أن تخدم، في الحقيقة، الغايات التي وجدت من أجلها.

هذه الغايات، في الجوهر، اسمها حرية ومساواة، وقد أعاق تحقيقها تاريخياً خطران هما: أولاً: الإغراء بتضحية تفتُح الحريات لإرادة توطيد النظام بأي ثمن، ولو كان جائراً، وبالدجوة المفرط إلى أساليب استبدادية. ففي الولايات المتحدة، كما في الديمقراطيات الغربية، حث نجاح الإتجاه الرأسمالي، الذي منحه السلطات القائمة أفضلية جليلة، ... جهاز الدولة، في

جميع المستويات ، على إثثار السلطة على الحرية ، مع احترام المؤسسات القائمة . وهكذا كُبح التقدم الديمقراطي . (وهذا موضوع الفصل الثاني) .

ثانياً : الإغراء برعاية تفاوت ومظالم مشهودة ، أو التساهل فيها وتحملها ، وبالرهان عليها من أجل خدمة الاتجاه الرأسمالي وتحقيقه ، ولتعبئة المسكين بزمام السلطة والتفاهم على سياسة استبدادية وهو تفاوت ذو طبيعة اقتصادية وإجتماعية وثقافية وغير ذلك ، منها التفاوت العنصري الذي يجعل من السود كائنات بشرية دون غيرها اقتصادياً وإجتماعياً وثقافياً .

وحالة السود تجسد كما تجسد المرأة المكبرة ما تعانیه من التفاوت الأقليات العنصرية جميعاً ، حتى لو كانت بيضاء . لذلك ندرس هذا النزاع بين العنصرية والمساواة ، من خلال مثل السود النموذجي ، منذ الاستقلال الأمريكي : (وهذا موضوع الفصل الثالث) .

إن مركبات المأساة ، المتباينة ، لا تنفصل ، إنما درسناها ، كلاً على حده من أجل وضوح التحليل فهناك ، من جهة ، التقدم الرأسمالي وحب السلطة والحاجة إلى استتباب الأمن وصيانة التفاوت وهناك القبول بالتمييز العنصري بكل أشكاله أو إذكاؤه : هذا هو مشروع الرجعية الأكبر ، مشروع القوى التي نجحت نجاحاً باهراً في إنجاز برنامجها . ومن جهة مقابلة ، هناك إرادة تقدم الديمقراطية ، والولع بالحرية ، والاهتمام بتفادي الاستبداد والكفاح ضد كل وجوه التفاوت والظلم ، ورفض كل تمييز عنصري : وهذا هو مشروع قوى التقدم الأكبر ، مشروع القوى التي لم تستسلم قط ، طوال قرنين من التاريخ ، مع أن ما حققته من نتائج لا يزال جد متواضع إذا ما قورن بمطامعها .

ومن خلال هذا النزاع بين القيم التي تبني ديمقراطية أو تهدمها ، نتحدث المعركة بين « النخبة » و« الجمهور » ، بين المال والإنسان بين المستغلين والمستغلين ، بين رأس المال والديمقراطية .

الفصل الثاني

النظام ضد الحرية

«We are Going to show the sons of bitches
Where to get off»

«سنري أبناء العاهرات هؤلاء أي منقلب ينقلبون»
لجنة القانون والنظام في غرفة التجارة.
في سان فرانسيسكو، ١٩١٦

«سنوطد النظام واحترام القانون في هذا البلد»
ريتشارد لكسون—١٩٦٨

القانون والنظام

« القانون والنظام » : شعار له من الفاعلية والتأثير ، ما ليس لأي شعار آخر ، في انضواء مواطنين قلقين تحت لوائه . وقد استغله باري غولد ووتر ، المرشح للرئاسة الأولى في العام ١٩٦٤ ، استغلالاً غوغائياً . وبعد انقضاء أربع سنوات على ذلك نسج المرشحون المتنافسون الثلاثة ، نكسون وهمفري وولاس ، على المنوال ذاته في مزايده مسعورة ، وقد شدد رتشارد نكسون ووزير عدله ، جون ميتشل ، منذ وصولهما إلى الحكم لهجة القمع في خطبهما وعمدا إلى تقوية جهاز المراقبة في الشرطة ، وبدلاً من أن يحولا دون قيام الجريمة بوثبة إلى الأمام ، .. أسهما في هذه الوثبة ، وقد أدت بهما عقليتهما ، مباشرة ، إلى ارتكاب أعمال غير مشروعة ، وإلى فضيحة الوترغيت ، ثم إلى السقوط .

إن النظام الذي يتمنون استتبابه يفترض كتمان بعض المداولات الحكومية ، لأنهم لا يستطيعون الوثوق بالرأي العام . والنظام ، عند الحاجة يفترض الكذب ، لأن المواطنين ليسوا دائماً على استعداد لفهم المتطلبات القاسية التي تقتضيها سلطة تسعى ، مع ذلك ، إلى سعادتهم ! ... ، وهو يفترض مناخاً من الخوف ، إذ لا مثيل للخوف في شحذ الطاقات والعزائم . وهو يفترض الغدر والغش في كل معارضة ، ولو أنها في خدمة الأجنبي ، وهو لا يفترض العدالة ، بل القوة .

الأمر ليس بمجديد ، فمنذ ميلاد الجمهورية الأمريكية اهتم جورج واشنطن والكسندر هاملتون وأصدقاؤهم بإقامة دولة قوية لا سبيل إلى إنكار سلطاتها . وتصريحاتهم تنم عن حب النظام للنظام . وكانوا يودون لو استطاعوا كبح جماح المعارضة القائمة سريعاً ، على الرغم من افتقارهم إلى الوسائل

إذ لا شرطة منظمة لديهم في ذلك العصر . وهم يودون لو كانت لهم القدرة على إخماد أجدر حركات الإحتجاج والمعارضة بالتبهر والإنصاف : فتقدم الإتجاه الرأسمالي يقتضي خضوع العمال — شأؤوا أم أبوا — للنظام القائم مهما كانت شاقة شروط حياتهم . وهم لا يرون في أي هياج شعبي انتفاضة على مظالم فادحة ، من حق المواطنين وواجبهم محاربتها ، بل حمى هدامة ترعاها تدخلات دول معادية ، لا سبيل إلى التساهل فيها .

واتهام يد الأجنبي ، هو عند أحبار النظام ، فعل منعكس لا يخلو منه عهد من العهود في جميع البلدان والأزمان . فوليام كولبي William Colby ، مدير وكالة الاستعلامات المركزية (الجانوسية) ، بعد أن أكره على الاعتراف بأن C.I.A هذه ، قامت بالتجسس على مواطنين أمريكيين داخل حدود الولايات المتحدة منتهكة بذلك نظامها الأساسي ذاته ، يقر أن عمليات كهذه هي غير مشروعة ، ثم يحاول تخفيف مسؤولته بلجؤه إلى الحجة القديمة القائلة : كان ينبغي معرفة ما إذا كانت ثمة دول أجنبية توجه بعض الجماعات المعارضة . أما السود الذين يناضلون من أجل حقوقهم ، والطلاب الذين يرفضون أن يمضوا للقتال في الفيتنام ، فهم لا يذهبون إلى موسكو ولا إلى بكين يستوحون منها ، بل يستقون ذلك من إعلان الاستقلال ومن الدستور ومن فكر الثوريين عام ١٧٧٦ ، مما كتبه تورو Thoreau والكثير من الكتاب الأمريكيين سواء .

القانون والنظام : شعار استمرَّ استغلاله خلال قرنين من التاريخ ، ضد الأمريكيين المتعاطفين والثورة الفرنسية لأنهم يرون نظام الحكم المنبثق عن حرب الاستقلال مفراطاً في أرستقراطيته وبرجوازيته . واستخدام الشعار أيضاً ضد المهاجرين الذين حاولوا التخلص من الاستغلال القاسي الذي كان يخضعهم له قادة الصناعة ، كما أشهر ضد تكتلات العمال الأيرلنديين وضد الطليان (الفوضويين) وضد الاشتراكيين والشيوعيين ومؤيديهم والمتعاطفين وإياهم ، وضد المواطنين من ذوي أصل ياباني في أثناء الحرب العالمية الثانية . ولم يكن مستغلوهم من رجال السلطة فحسب ، فقبل الحرب العالمية الأولى ألقت غرف التجارة في صفوفها لجان «قانون ونظام» — وهذا اسمها الرسمي — دلت على تمتعها بفاعلية رهيبية . وفي عهد الرئيسين لندن جونسون ورتشارد نكسون كان من ضحايا هذه السياسة السود الذين أبوا الرضوخ لمعاملتهم مواطنين من الدرجة الثانية ، والطلاب الذين تشبثوا تشبث البائس بنقاء الحلم الأمريكي ، ومنهم الأربعة الذين قتلهم الحرس الوطني في جامعة كانت ستيت ، لأنهم احتجوا على التدخل الأمريكي في كمبوديا فقدموا قرباناً على مذبح القانون والنظام .. فما أبعد هذا عن حلم عام ١٧٧٦ الكبير .

إن حكومة لا تستطيع العمل إلا بدعم قطاع واسع من الرأي العام، تزوده، في هذه الحالة، بالمعلومات التي تتيح له قبول، أو بالأحرى، التماس سياسة حازمة في المحافظة على النظام فتنتشر عليه، من أجل ذلك الإحصاءات الدالة، على أن الإضطراب يزداد والبلاد تسير على حافة الفوضى، ويتكفل مكتب المباحث الفدرالي F.B.I. بهذا العمل، فيشرح للرأي العام كيف أن حوادث القتل قد ازدادت ١١٦ ٪، والاعتصاب ١٩٩ ٪، والسرقه مع استعمال السلاح ٢٥٦ ٪. أفليس من المدهش أن تكشف إدارة شرطة عن خورها بهذه الكياسة أو لا تخشى بإعلانها الدليل على عجزها في هذه الصورة، أن تفقد الاعتبار. لا، وإلا فهذا يعني الجهل بنفسية الجماهير القلقة: فادغار هوفر J. Edgar Hoover، الذي ظل يدير مكتب المباحث هذا مدة نصف قرن، كان ينشر بانتظام إحصاءات مقلقة كهذه، ويحاط في آن واحد، باحترام مواطنيه الذين كانوا يرون فيه، بكل تناقض، الحارس الأفضل لأنهم ..

على أن «الخوف يشتد، وفي آن واحد يرتفع عدد الجرائم .. كما تزداد، ازدياداً مستمراً، المصاريف الخاصة بالحماية الشخصية والناس يبذلون ملايين الدولارات لشراء الأسلحة، وأجهزة الانذار، وأقفال أمان والمشاريع تزيد عدد حرسها الخاص، زيادة مستمرة أيضاً وكذلك الإعلانات عن أجهزة أمان البنايات لجذب المشترين، وحرص مسلح على الأبواب وفي مداخل المساكن»^(١).

إنما عبثاً كان كل ذلك. وهاهو وزير العدل ويليام ب. ساكسب William B. Saxbe ذو السلطان المعروف على الشرطة، يعترف عام ١٩٧٤ قائلاً: «لسنا الآن الراجحين في معركتنا ضد الجريمة ... بل نحن، في الواقع، نراجع»، والرئيس جيرالد فورد، بعد تصريحات كثيرة صدرت عن مسؤولين آخرين، يعد قائلاً: «الجرائم كثيرة جداً، وقد آن وقت العمل». لكن لا سبيل إلى الوهم .. فالجريمة في طريقها إلى التفاقم.

حوادث القتل والاعتصاب والاعتداء والسرقه .. الخ .. هي حقائق واقعة، لم تؤد زيادة قوى الأمن والشرطة والوسائل الموضوعة تحت تصرفها إلى إيقاف تفاقمها وازديادها .. والخوف، هو أيضاً

(١) (U.S) نيوز، ١٦ كانون الأول ١٩٧٤. بلغت السرقات ثلاثة مليارات دولاراً تقريباً عام ١٩٧٤ وهو مبلغ قليل إذا ما قورن بمبالغ إتجاهين آخرين في الجريمة: (الألعاب السرية، ٣٠ ملياراً وأعمال إحتلاس وإبتزاز ١٢ ملياراً).

حقيقة قائمة، ولا سيما في المدن الكبرى، وهاهو الآن يأخذ سبيله إلى مناطق الريف. وباسم هذا الخوف، يقبل المواطنون كل ما يشد أزر جهاز الشرطة.. وإذا لم يستطع هذا سبيلاً إلى زجر موجة الإجرام، فهو رهيب الفاعلية في السيطرة على تظاهرات الشوارع وتصفية تكتلات السود (مثل العنصر السود)، وفي دفع العملاء إلى التسلسل إلى المنظمات المناوئة والتجسس على أكثر المعارضات الدستورية. وإن أفضل شرطة في العالم — هكذا يود مكتب المباحث الفدرالي أن يُسمى — لم تستطع التغلب على (الغانغسترية) في جرائم القتل والسلب، ولا على المافيا ومهرب المخدرات، وعلى حوادث الاعتداء الفردية الخ.. لكن النظام يسود في واشنطن، بينما من الخطر التجول مساء في بعض الأحياء.

والنظام الذي نحن في صددده هو النظام السياسي، فقد ارتكب أكثر من عشرة ملايين جريمة في الولايات المتحدة عام ١٩٧٤. وسجلت الإحصاءات عام ١٩٧٥، رقماً أعلى. والخوف الذي تبعته جرائم الحق العام مائل وقائم ليدعم الخوف من العنف السياسي وليسير وإياه جنباً إلى جنب، هذا الخوف من العنف السياسي الذي قد يهدد المؤسسات والنظام القائم. وهنا يكمن الخطر الحقيقي وقد أدى تحقيق أجراه مركز التكنولوجيا في ولاية الماساشوسيتس إلى الاستنتاج: «إن صبيّاً أمريكياً من مواليد عام ١٩٧٤، في منطقة من مناطق المدن أكثر تعرضاً للقتل من جندي أمريكي قاتل في الحرب العالمية الثانية». وهذا المصير القاسي يبدو حتمياً إلى حد يدفع إلى الرضوخ، لأنه محفور في تركيب المجتمع. وقد كتب المؤرخ الأمريكي هاكر^(٢) يقول: «لم يبق علينا إلا أن نتعلم التعايش وهذه القلائل.. وما العمل حقاً حيال خطر يبلغ هذا المستوى من الانتشار؟».

لكن لسنا في صدد الرضوخ للعنف الذي تطلقه من عقاله مجموعات من البيض أو السود الذين يحلمون بتغيير بنية المجتمع، فمن العام ١٩٦٠ إلى عام ١٩٧٤، ارتفعت ميزانيات الشرطة على مستويي الاتحاد والولاية والمستوى المحلي من ثلاثة مليارات إلى ٨٦ مليار دولار. ولم يتسن — بلا شك — لأي مشروع خاص، على الأرجح، هذا المعدل من الارتفاع. لكن الجريمة عمل مدر والمجرمون لا ريب عندهم في ذلك: «إنهم يعرفون أن الفرصة متاحة لهم»، هذا ما قاله كلارنس م. كيللي Clarence. M. Kelly مدير مكتب المباحث الفدرالي. وإحصاءاته تبين للمجرمين أنهم مصيبون، إذ أن ٢١٪ من الجرائم فقط تؤول بفاعليها إلى التوقيف، بينما التي تنتهي بالعقوبة لا تكاد تبلغ ٥٪ ونسبة السجناء المئوية في تناقص منتظم.

(٢) اندرو هاكر، نهاية عصر أمريكا ص: ٢٣٠.

ازدادت مخالفات قانون المخدرات في مدة ثلاثة عشر عاماً ٤٦٧٣٪ في الشبان الذين هم دون الثامنة عشرة من أعمارهم، و ٧٧٤٪ في الراشدين. ولا تُعزى جميع الجرائم، بلا شك، إلى المخدرات، لكن ينبغي لمعاطيها أن يملك مبلغ ثمانين دولاراً حتى مائة يومياً (٢٩٠٠٠ إلى ٣٦٠٠٠ دولاراً في السنة) كي يحصل على حصته من الهيرويين أو الكوكاكين. ودخل الأسر—لا الأفراد—الوسطى، يبلغ زهاء ١١٠٠٠ دولار سنوياً. فليس إذاً للمدمنين من حيلة للحصول على المال اللازم إلا بالسرقة، وبالقتل إذا ما أبدت الضحية مقاومة.

غير أن دعم الجهاز الشرطي هذا الدعم الهائل، لم يوقف أي شكل من أشكال الجريمة سواء كانت جريمة القتل أو البغاء، أو سوق السيارات في حالة السكر أو تعاطي المخدرات أو اختلاس الأموال. فإذا ما تطورت الحالة في هذه الإتجاهات، وليس من يرى أسباباً لتغيرها، فالبلاد مهددة بالخضوع لنظام بوليسي واسع قد يصبح، كما يتوقع وينذر وزير العدل وليام ب. ساكسب William B. Saxbe، : «أداة قمع على مستوى الوطن».

وإذا ظلت معظم الجرائم المرتكبة ضد الحق العام، بلا عقاب، فتكاثرها المقلق يُتيح تطوير قوى الأمن وتحديثها، وهي القوى الفعالة في القمع السياسي. وقد توقفت المظاهرات الكبرى التي كانت تنظمها حركات السود، كما حدث في الستينيات. وتوقفت الإضطرابات في الأحياء المغلقة (الغيتو) حيث أضحت الشرطة لا تفكر في الحد من سرعة انتشار الجريمة، وحيث تُحبط وحدات التدخل ضد الإضطرابات، كل محاولة إحتجاج أو اعتراض جماعيين. وهكذا تكاثرت حوادث القتل والسلب، لكن مكتب المباحث الفدرالي قد بث عناصره في جميع التنظيمات التي يراها هدامة.

وإذا كان من المألوف أن يتحول جهاز شرطة عن أهدافه الحقيقية، فنادراً ما رافق هذه الظاهرة مثل ذاك العجز والخور في حماية المواطنين. فمنذ شهور عدة، تتدفق التصريحات التي تبين كيف وقفت دوائر الشرطة حيزاً كبيراً من وقتها، ومن عناصرها ووسائلها على أغراض سياسية بحثية، بينما تتضاعف جرائم الحق العام.

تكم وكذب واستبداد

هكذا ظل مكتب المباحث الفدرالي F.B.I، مدة عشر سنوات يجد في انهاك الدكتور

فهي وكالة الاستعلامات المركزية C.I.A. ومن الأشخاص الذين أخضعوا لها النقابي فكتور روثر، والكاتب الروائي جون شتاينبك والعالم الاحيائي لينوس بولينغ (جائزة نوبل). وارثر بورنس، رئيس «الاحتياطي الاتحادي»، وأعضاء مجلس الشيوخ، هويرت همفري وادوارد كندي وفرانك تشرتش، والقس كينغ، وأعضاء عدة في المجلس النيابي.. الخ. كانت الوكالة المذكورة تفتح رسائلهم وتصورها^(٧).

وفي المناسبة ذاتها، أعلن أن F.B.I (مكتب المباحث الاتحادي) ارتكب في الفترة الواقعة بين (١٩٤٢ و ١٩٦٨)، ٢٣٨ عملية سطو على مراكز أربع عشرة جماعة مناضلة. وعندما حاول المكتب المذكور الحصول على موافقة وزارة العدل على تدخلاته تلك رفض ذلك وزير العدل رامزي كلارك وهو من أبرز الشخصيات التي شغلت هذا المنصب، قائلاً: «أنا لا أفهم كيف يستطيع وزير عدل أقسم اليمين على تطبيق القانون، أن يسمح بانتهاكه»^(٨). كان ذلك في أثناء رئاسة لندن جونسون، إلا أن مكتب المباحث تجاوز الأمر وضرب عرض الحائط بالرفض الذي قوبل به.

بلغت دوائر الشرطة من القوة ما جعلها تعمل خفية عن الحكومة، أو تخالف تعليماتها عند الحاجة. وقد حدث أنها عصت أوامر مديرها ذاته. فقد اعترف رتشارد هلمز، أنه أمر باتلاف السموم التي صنعتها مخابره هو، عندما كان يدير وكالة الاستعلامات المركزية C.I.A، لكن قراره هذا لم يكن له أي تأثير^(٩).

وعندما كُشف النقاب عن أعمال مكتب المباحث الاتحادي F.B.I أو أعمال C.I.A، غير القانونية، عرت السواد الأعظم من الناس الدهشة، وابتلعوا المعلومات المثيرة التي كُشف لهم عنها، ثم ما لبثوا أن انتقلوا إلى التفكير في أمور أخرى، دون أن ينتابهم قلق شديد. أما في الكونغرس وفي الصحافة، فقد قامت شخصيات ليبرالية—أي قلة لم تيأس من الحلم الأمريكي—بردود فعل لا تخلو من الشدة، وهي تعلم أن مستقبل الديمقراطية ذاته، مستقبل «مجتمع منفتح» معرض للخطر. فمن تحديد إلى تحديد أضحت الحريات الفردية مهددة بالتلاشي تحت وطأة تجاوز الشرطة وتعسفها.. الشرطة التي تفلت من مراقبة ممثلي الشعب. وإن موجة الفضائح المكشوفة، منذ

(٧) التايم، والنيوزويك في ٦ تشرين الأول ١٩٧٥.

(٨) صحيفة هيرالد تريبون في ١٧ تموز ١٩٧٥.

(٩) صحيفة التايم في ٢٩ أيلول ١٩٧٥.

فضيحة وترغيت ، لا تزود شاشة التلفزيون بمادة رائعة فحسب ، بل تذكر بأن حقوق المواطنين الأساسية تصبح في خطر دائم ، منذ أن يرى هؤلاء أنهم حصلوا عليها نهائياً ويكفون عن الاهتمام بالدفاع عنها .

إن رد فعل الليبراليين يؤدي عندئذ إلى أوضاع تدل ، بكل ما فيها من غرابة ، على أن المعركة لم تخسر سلفاً ، فهكذا نجد وليام كولبي يعلم وزارة العدل ، قبل أن يفقد منصب مدير وكالة الاستعلامات المركزية في تشرين الثاني عام ١٩٧٥ ، أن سلفه رتشارد هلمز سفير الولايات المتحدة في إيران بعد ذلك ، قد ارتكب جرم الحنث باليمين الذي يعرضه لملاحقة القضاء ولعقاب شديد . أما المناسبة التي ارتكب فيها جريمته فهي مثوله أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ التي وافقت على تعيينه سفيراً في طهران . ففي شباط ١٩٧٣ ، جرى الحوار التالي أمام اللجنة المذكورة في جلستها السرية :

السناتور (عضو مجلس الشيوخ) ستوارت سمنغتون : هل حاولت في الوكالة الاطاحة بحكومة تشيلي .

رتشارد هلمز : كلا ، يا سيدي .

السناتور ستوارت سمنغتون : هل دفعتم مالا لأعداء اللندي ..

رتشارد هلمز : كلا يا سيدي .

وقع الانقلاب على سلفادور اللندي ، بعد انقضاء سبعة أشهر على هذا الحوار . وبعد عام ، أي في ايلول ١٩٧٤ ، اعترف الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيته هنري كيسنجر علناً بتدخل الوكالة في الشيلي ، جاهدين في تبريره . وهكذا لم يخدع رتشارد هلمز الكونغرس فحسب ، والكونغرس هو التعبير عن سيادة الشعب ، بل حنث بيمينه بلا جدوى ، لأن معلميه اعترفوا بالكذبة التي حملاه عليها ، فمن الخطر أن تفلت هذه الوكالة الجاسوسية من قبضة السلطة السياسية ورقابتها . والأشد خطراً من ذلك انتهاكها الشرعية بانصياعها لتعليمات السلطة التنفيذية . والأرجح أن دولة بوليسية ليست هي الدولة التي تخرج فيها الشرطة ، بمبادرتها الخاصة ، عن الشرعية ، ولا سبيل إلى تفسير الجرائم بالاكْتفاء بالقول إن شرطة الأمن قد «أفلتت» من رقابة الحزب أو الحكومة . فالدولة البوليسية هي الدولة التي تُقدّم فيها الشرطة على أعمال غير مشروعة بأمر الحكومة أو موافقتها . فأين

تقف ؟ ... إن الاهتمام بالمحافظة على النظام يوحي بأول انتهاك للقانون ، فتكون خطوة أولى سرعان ما تحت على القيام بثانية .

لم تفلت الشرطة السياسية (D.I.N.A.) في الشيلي من رقابة بنوشه وسيطرته بل عملت بامرته : فالشيلي دولة بوليسية ، وفي الولايات المتحدة لم تفلت وكالة الاستعلامات المركزية ومكتب المباحث الاتحادي من رقابة الحكومة وسيطرتها ، بل عملاً بامرته : فالولايات المتحدة ليست بدولة بوليسية لأن الصحافة والكونغرس قد ردا على ذلك بطرد نكسون من البيت الأبيض ، بإعلانهما على الملأ ما قامت به أجهزة الأمن من أعمال الغش والاستغلال .. غير أن الصحافة والكونغرس ظلا مدة عشر سنوات يجهلان هذه الأعمال ، لأن أجهزة السلطة التنفيذية كذبت عليهما . ولو لم تظهر الحقيقة ، وما كان لها قط أن تظهر ، لو لم يتشبث نكسون بالاحتفاظ بالأشرطة التي تجرّمه ، لاستشرى السرطان البوليسي وكان الخطر الذي يهدد الديمقراطية أشد مما يمكن تصديقه . فهي غير مطمئنة على سلامتها ، ولا سبيل إلى إنقاذها إلا بالسهر الدؤوب . ولقد لقنت الصحافة والكونغرس البلاد الأوربية درساً مفيداً ، فثمة أساليب شبيهة تهدد المؤسسات الديمقراطية فيها بالخطر .

إن «تقنية الانقلاب» ، في مجتمع صناعي ، غدت ابتداءً من ذلك ، «فلكور» عهد بائد . فلا إقامة دولة استبدادية ، لا حاجة لعرض القمصان السمر في الشوارع وحرق الرايخستاغ أو اغتيال المعارضين ، إنما ينبغي ويكفي أن يقوم تواطؤ بين السلطة التنفيذية ودوائر الشرطة لتضليل الناطقين باسم الشعب ذي السيادة : السلطة التشريعية والصحافة .

فعندما مثل رتشارد هلمز في ١٩٧٣ أمام لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ سألته الشيخ كليفور كيز وهو من الحزب الجمهوري من ولاية نيوجرسي :

«هل تعرفون شيئاً عن نشاط ما قامت به وكالة الاستعلامات المركزية له صلة (بالحركة المناوئة للحرب الفيتنامية) ... وهل طُلب منها العمل في هذا السبيل ؟» .

ويجيب رتشارد هلمز ، شامخاً وبريق صدق في عينيه :

«لا أذكر أن شيئاً من هذا القبيل قد طُلب منا ، ولم تتدخل في (عمل ضد الحركة المناوئة للحرب) . فقد كان يبدو لي أن ذلك ، لو حصل ، لكان انتهاكاً صريحاً لميثاقنا» .

حسناً . لكن بعد عامين ، أوضح تقرير لجنة روكفلر عن الوكالة ، أن هذه قد أوجدت بادارة

رتشارد نكسون، فريقاً خاصاً عُهد إليه التحقيق في شأن معارضي الحرب والقيام بعملية التشويش على الحركة المناوئة للحرب الفيتنامية. فجمع هذا الفريق الخاص معلومات عن ٣٠.٠٠٠ شخص اشتركوا في الحركة ضد الحرب. وهكذا يكون رتشارد هلمز قد خدع الكونغرس بانكاره عملاً هو، حسب تعبيره، «انتهاك صريح لميثاقنا».

لقد كان سلوك مدير وكالة الاستعلامات المركزية، في هذا الصدد، مثل سلوك أشخاص أعلى منه في مراتب الدولة. ففي شهر آذار من العام ١٩٧٤، سأل السناتور ادوارد كندي (من الحزب الديمقراطي ولاية الماساشوستس)، هنري كيسنجر عن الالتزامات الأمريكية نحو نظام نغوين فان ثيو في سايجون. فأجابه وزير الشؤون الخارجية في ٢٥ آذار برسالة كتب فيها: «ليس للولايات المتحدة أي التزام نحو جمهورية الفيتنام». لكن، في ٥ كانون الثاني ١٩٧٣، كتب الرئيس رتشارد نكسون إلى نغوين فان ثيو قائلاً: «أؤكد لكم أننا سندرك بكل قوتنا على أي خرق للاتفاق تقوم به الفيتنام الشمالية»، وهذه الرسالة من رسائل كثيرات أعلنت بعد أمد وجيز كشفت عن جزء من «الالتزامات السرية» التي تعهد بها رتشارد نكسون لحكومة سايجون، وهي التزامات طالما كذبها هنري كيسنجر. ويبيد انتوني لويس ملاحظته على ذلك قائلاً أن كيسنجر عندما أجاب عن سؤال عضو مجلس الشيوخ كندي، «كان يعرف كل شيء، بلا شك. عن وعود نكسون لثيو، وفي الأرجح أنه هو الذي كتب نصها»^(١٠).

هذه الالتزامات السرية التي لم يطلع عليها الكونغرس، حرضت نغوين فان ثيو على خرق اتفاقات باريس (١٩٧٣)، بشأن الفيتنام. ومع ذلك، لم يردع افشاؤها المتأخر كيسنجر عن ادخال بنود سرية في اتفاقات سيناء الذي وقع في العام ١٩٧٥ مع إسرائيل ومصر. لكن عندما يُنبه الكونغرس، لا يسع وزير الخارجية كيسنجر أن يكذب صراحة كما فعل في رسالة وجهها إلى عضو مجلس الشيوخ كندي، يحتج فيها وراء ستار من أنصاف حقائق تتوخى خداع الكونغرس أيضاً.

من الخير ونحن في عالم يخلط بين الواقعية والوقاحة، أن نبين أن الكذب في العلاقات بين السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية لا يقتصر على الخلق السياسي. فهو ليس خطأ خلقياً فحسب ترتي له النفوس الطيبة، بل غلطة سياسية من شأنها أن تكلف البلاد ثمناً باهظاً. واللجوء إلى الكتمان، في السياسة الداخلية والخارجية، الذي يؤدي طبعياً إلى الكذب لتغطية السر، هو سمة

(١٠) انتوني لويس—هيرالد تريبون ١٨ تموز ١٩٧٥.

الأنظمة الاستبدادية الفارقة. وما أن ينكشف السر أو الكذب حتى ترى الحكومة أن عليها، لتنقذ نفسها، أن تفقد المذنبين الاعتبار أو أن تقصصهم، ولذلك استشرس رتشارد نكسون في الانتقام من دانييل ايلسبرغ الذي نشر «ملفات البنتاغون السرية»، ودفع إلى السطو على عيادة طبيبه النفسي أملاً بالعثور على ما يفقده الاعتبار. ثم تجرأ على ملاحقة جريدتي واشنطن بوست ونيويورك تايمز، قضائياً، لأنهما نشرتا الملفات السرية المذكورة. لذلك أيضاً قامت وكالة الاستعلامات المركزية ومكتب الاستعلامات الاتحادي بعمليات غير قانونية ضد الخصوم، حتى البارزين منهم على صعيد السياسة الرسمية، وأخيراً، لذلك أيضاً، فكرت الحكومة الأمريكية في العمل على اغتيال الصحفي جاك اندرسون الذي أضحى افشاؤه الأسرار مزعجاً جداً. والسر والكذب ليس سوى الحلقتين الأوليين من سلسلة انتهاكات للحقوق الأساسية في مجتمع منفتح. وفي الطرف الثاني من السلسلة، إن لم يتحطم التداخل في الوقت الملائم، لا بد من قيام مجتمع دكتاتوري يتوطد رويداً رويداً، بلا أي لجوء إلى «تقنيات الانقلاب».

والأمريكيون الذين ينتصبون في وجه تنابع انتهاكات الحق، لا يعملون، كما تردد القول كثيراً، باسم أخلاق مدونة في تراثهم الطهري. ولو صح ذلك لظلت مقاومتهم، التي تحملهم على تحريك الكثير من الوحل، غريبة عن الشعوب، اللاتينية—مثلاً—التي لا يسعها أن تدعي الانتماء إلى التراث الطهري ذاته... لا.. لقد أدرك أولئك الأحرار الأمريكيون ادراكاً تاماً، إن الكتمان يجر إلى الكذب الذي يؤدي بدوره إلى تهديد حرية المواطنين وحياتهم أي حقوقهم التي لا يجوز مسها، والمدونة في إعلان الاستقلال والباقية سمة حكم ديمقراطي. ونص جفرسون الرائع، لا يذكر في لائحة هذه الحقوق، الحق في معرفة الحقيقة، والذي تغدو الديمقراطية، من دونه، من المحال، ويمهد تشويهها السبل أمام نظام استبدادي. فما هي قيمة الحقيقة في تغيير الطبقات المتابعة من الانسكلوبيديا السوفيتية؟.. وأين هي حقيقة بينوشه وفرانكو؟.

النضال من أجل الحقيقة هو أول نضال سياسي من أجل ديمقراطية حقيقية. ومنذ إعلان الاستقلال، قاتل سدنة الديمقراطية الأمريكية من أجل الحقيقة التي، من دونها، تزول الحريات. وفي آن واحد رضي أنصار «دولة قوية» تشويه حقيقتهم ليضعوا العوائق دون حرية الآخرين. وكانوا يثق بهم أولئك الذين يؤلفون النخبة والقللة من «الأغنياء وذوي النسب»—على حسب تعبير هاملتون—«والأذكى» المواطنين الصالحون والأكفاء»، حسب تعبير جون كاهلون. إنهم ما كانوا يستطيعون، ومثل رتشارد نكسون وما زالوا لا يستطيعون أيضاً، إلا أن يكونوا على حذر من الجمهور

الذي يفهم وعود إعلان الاستقلال بحذافيرها ، ومن المثاليين الذين يقاتلون من أجلها . وإنه لحذر في مكانه ، فتلك الجماهير وأولئك المثاليون لا هدف لهم إلا انتزاع السلطنة منهم .

هذه السلطة ، حاول دائماً الاستيلاء عليها الليبراليون واعدن بعدالة أكثر ، والمحافظون واعدن بنظام أشد : « سنوطد النظام واحترام القانون في هذا البلد » . هذا ما قاله رتشارد نكسون خلال حملته الانتخابية في العام ١٩٦٨ . وأفضل دراسة استهدفت هذا الجانب من حملته تلخص بما يلي :

« في الشمال ، ردد نكسون أنه سيسحق بحزم الذين يثيرون قلقا ويقتربون جرائم ، وذلك بإطلاق يد الشرطة لتعمل بحرية ، وبإلقاء عدد من المشبوهين في السجون يفوق ضعف العدد الحالي ، ولإضعاف جهود المحكمة العليا التي تتجه إلى إعطاء الفقراء وقصيري النظر الحقوق ذاتها التي يتمتع بها الميسورون ، وفي الجنوب ردد أنه سيعمل على تبطيء السير نحو السدج العنصري »^(١١) .

ويضيف الكاتب ذاته أن جهود المحكمة العليا ، لها ما يبررها ، ولا سيما « أن الحقوق التي ضمنها الدستور ، لم تكن خلال تاريخ الولايات المتحدة كله ، مصنوعة إلا لمن يتمتعون بثروة ونخب كافرين للعشور على محام قادر على إحقاق هذه الحقوق »^(١٢) . غير أن المحافظين أقل اهتماماً بالعدالة منهم بالنظام ، وشعار القانون والنظام يقودهم حتماً ، باسم النظام ، إلى الاستهتار بالقانون فهل يُستثنى من ذلك رتشارد نكسون ؟ .. وعندما عرض جيرالد فورد على الكونغرس رسالته في مكافحة الجريمة ، في حزيران عام ١٩٧٥ تفادى المغالاة في اللجوء إلى بلاغة « القانون والنظام » ، التي أفقدها سلفه قيمتها واعتبارها . ومع ذلك كانت جملته الأساسية : « ركز القانون ، خلال مدة طويلة ، اهتمامه على حقوق المجرم أكثر من تركيزه على ضحية الجريمة وقد آن الأوان لعكس هذا الاتجاه »^(١٣) ولذلك ، قال أنه يقترح أن يمدد إلى خمس سنوات برنامجاً وضع نظرياً لاعداد رجال الشرطة

(١١) رتشارد هاريس عدالة—وأزمة القانون والنظام... في أمريكا—الناشر Dutton—نيويورك ١٩٧٠ ص : ١٤٦ و ٥٦ .

(١٢) المصدر ذاته .

(١٣) رد الفعل هذا لا يقتصر على أمريكا . ففي ٤ شباط ١٩٧٥ صرح وزير الدولة ، وزير الداخلية قائلاً : « إن رجال الشرطة يشكون من حلمه الذي هو حلم قضاة وأنا كذلك » وفي ١٠ تشرين الأول ١٩٧٥ صرح أمام مجلس الأمة (تمنى أن تتوخى قرارات العدالة حماية المجتمع والمواطنين المستقيمين والأبرياء أكثر مما تتوخى الاتهام بمصير المجرمين ومستقبلهم .

المسلكي . وهو في الواقع تخصصه دوائر شرطة الولايات والشرطة المحلية لشراء عتاد ضد القلاقل ، معقد الصنع كثيراً ، لا سبيل إلى استخدامه لحماية السكان من الجرائم التي تشتد شكاوهم منها ومن معاناتها وهي الاعتداءات الفردية . وطلب جيرالد فورد من الكونغرس ، في آن واحد ، زيادة الغرامات وعقوبة السجن المفروضة على الفاعلين . وعلى الرغم من أن ثمانين جرائم من عشر ، أداتها السلاح الناري ، رفض أول إجراء ينبغي إتخاذ معلناً أنه « يعارضه بشدة » ، وهو إخضاع بيع الأسلحة للرقابة .

ليس كل ذلك في الحقيقة سوى تفاصيل . فالأمر الجوهري يكمن في الصيغة التي يؤكد فيها جيرالد فورد أن العدالة الأمريكية اهتمت بالدفاع عن « حقوق المجرمين » فأَي مجرمين هم ؟ .. إنهم بوصفهم هذا ، وبقرار الدعوى المقامة عليهم ، موجودون في السجن حيث لا وزن كبير لحقوقهم . لكن جيرالد فورد يفكر ، في الواقع « بحقوق الاطناء » ، وهم مواطنون أوقفتم الشرطة ، والعدالة تراهم أبرياء ما لم يقدّم الدليل على إجرامهم . وحقوق الاطناء مقدسة وهي حقوق تقيم الفرق بين حكم ديمقراطي والعدالة المتحيزة في الأنظمة الدكتاتورية .

وجيرالد فورد وأشباهه في بلدان أخرى ، شأنهم شأن جميع أنصار « القانون والنظام » يخطون أسماءهم في سلاله من الرجال « الأقوياء » الذين ما فهموا قط أن العدالة الاجتماعية والاقتصادية ، تتكون منها القاعدة الصلبة الوحيدة للنظام الذي يؤثرون فرضه بواسطة شرطة أقوى ويعقوبات أشد . الديمقراطية منوطة بلا شك بالنظام ، إلا أنها تفهمه على خلاف ذلك . وكل مفهوم آخر للنظام غير مفهومها ، يهدم قواعد مجتمع مفتوح . وغولد روتر والاس ، وفورد ، ونكسون لهم أسلاف مشهورون هم أنفسهم ثمرة تقليد قديم جداً ، ينبغي ، وهو يضحي عند الحاجة بالحريات ، ينبغي فرض احترام السلطة أولاً وقبل كل شيء سواه .

سلطة وحرية : والمعركة بينهما محتدمة في الغرب ، عند نهاية القرن العشرين وهي معركة قامت عند مولد الجمهورية الأمريكية ، بدور ينوء بكل كلفة على الولايات المتحدة في أيامنا .

سلطة تعسفية

« لعل رأينا ، عندما أقمنا اتحادنا ، كان حسناً أكثر مما ينبغي في طبيعة الإنسان . وتعلمنا التجربة أن الناس ، دون تدخل سلطة قسرية ، لا يتبنون ولا يطبقون أفضل ما دُرس من إجراءات من

أجل سعادتهم الذاتية»^(١٤). لعل ما يُثير الدهشة أن يكون جورج واشنطن في قوله هذا في العام ١٧٨٦، قد اتخذ موقف المدافع عن «سلطة قسرية» مهمتها تحقيق «سعادة» الناس، ولو كان ذلك ضد رغبتهم. إن نظاماً كهذا يفترض دائماً الأذراء بالمواطنين.

هذا الاهتمام المشبع بحذر عميق من شعب يُعد جاهلاً، وغير قادر على فهم قضايا المجتمع الكبرى، هو اهتمام لا ينفصل عن تاريخ الولايات المتحدة وسائر الدول الحديثة. ففي العام ١٧٩٩ أوضح الكسندر هاملتون رأيه في هذا الصدد قائلاً: «الرأي العام لم يتحسن إنما بالعكس، هناك أعراض تبرر الخوف من ألا تكون أخطاء إتجاه ضار جداً قد استمرت في سيطرتها على العقول لدى أكثر طبقة من طبقات المواطنين عدداً فحسب، بل ازدادت اتساعاً»^(١٥).

وبعد مرور قرنين على ذلك، لا سبيل إلى أن يُعد الرأي العام جاهلاً، فالتعليم مُتاح لجميع الناس، ووسائل الإعلام هي أكثر تعقيداً وتبايناً منها في أي مجتمع آخر. وهذا الرأي العام، الذي يتملقون شعائره، يُخشى من اقدمه على حركات طائشة، ولا سيما أن مشاكل الدولة في ذكرى الاستقلال المثوية الثانية، هي أكثر تعقيداً مما كانت عليه في أيام جورج واشنطن وهاملتون. فكيف يستطيع المواطنون ادراك الدوافع التي تُملي اختيارات الحكومة فيما يخص الطاقة والعلاقات الدولية، وتنظيم الدفاع؟.. مأساة الحكام تزداد عمقاً ولا سيما أن معارضة قراراتهم لا تصدر عن عمال أو فلاحين تعليمهم ضئيل، بل عن الطلاب، طليعة البلد المقبلة. فهم يقومون في الجامعات، بإثارة الإضطراب ضد التدخل العسكري في الفيتنام وكمبوديا، ويفضحون موقف الدولة الفاتر من استفحال العنصرية، وينقدون نظاماً اقتصادياً يبدو رغباً في ربط كل شيء بمتطلبات الإنتاج وغزو الأسواق. وهنا يصف رتشارد نكسون، من مقعده الرئاسي هؤلاء الطلاب بـ: «السوقيين» السيئي التربية. فإذا أطلقت فئة من الفئات المثقفة العنان لتطرفات كهذه، فذلك أن موجهين أشراراً يجرونها إليها. وسبيرو أغنيو Spiro Agnew يظن نفسه مخوَّلاً، قبل أن يُجبر على مغادرة نيابة الرئاسة بسبب الغش والرشوة، في تهجمه على الصحافة، أن يلحق أفضل الجرائد درساً في الأخلاق. ولم يكن الوحيد، في ذلك، ففي العام ١٩٧٥، اتهم الناطق باسم الرئيس فورد الصحافة التي تبحث عن الحقيقة، بأنها تُبدي «سوء ظن وقحة أعميين وأحمقين ولا عقلايين».

والمذنبون هم من المثقفين والجامعيين والصحافيين الأحرار الذين شجعوا على وجود معارضة

(١٤) رسالة إلى جون جاي، مؤلفات واشنطن الجزء التاسع ص: ١٦٧.

(١٥) رسالة إلى يوناتان دايتون، هاملتون الجزء العاشر ص: ٣٢٩.

تزداد جذرية ورسوخاً يوماً بعد يوم، وذلك بانتقاداتهم الطائشة، المستوحاة من مثالية «ساذجة». أما رجال السلطة السياسية والاقتصادية، فهم وحدهم الذين يحتكرون الواقعية. وما همهم أن تنهار سياستهم في سايفون وينوم—بته، وأن يقع الاقتصاد في أزمة، وألا يكون الدولار بعد ذلك «عاقلاً كصورة»، وأن يقيموا أو يدعموا أنظمة حكم دكتاتورية، وأن يؤكدوا أن الحكم الصيني الشيوعي ليس سوى دمية تحركها موسكو؟.. فلا سبيل لأي خطأ من أخطائهم وأي إخفاق أن يقنعا هؤلاء الواقعيين المزيفين، بأن يعيروا أولئك الذين يجروون على انتقاداتهم أذنأ صاغية... لا، فمعارضون كهؤلاء لا يفكرون إلا بتهديم أسس الدولة!....

«في الولايات المتحدة حزب يقارع الحكم بكل قواه ويريد تغيير طبيعته والإطاحة بالدستور بتعطيل أجهزة هذا الحكم. وكل الوسائل تُتبع لبلوغ هذا الهدف»^(١٦). هذه السطور التي وجهها واشنطن إلى لافاييت تدل بوضوح على الفعل المنعكس العفوي الذي يصدر عن كل من يرى قراراته تخضع للنقد. وينبغي أن يعبأ جميع الناس الأخيار ممن يحترمون القانون والنظام والحكم القائم، للوقوف في وجه بادرات هدامة كهذه. وليس ثمة ما هو أخطر من تقدير الأضرار، التي يسع هؤلاء المعارضين أن يحدوها، دون قدرها الحقيقي. وكتب واشنطن أيضاً يقول: «إذا ما نظرنا إلى سلوك هؤلاء الناس نظرة اكتراث، وإذا ما ساد الكذب والنشاط، من جهة أخرى، فالغرائب المتآمرون الناقمون الذين أموا بلادنا لأنهم كانوا في حرب مع حكومتهم، ومعظمهم في حرب مع كل الحكومات، سينمون حزبهم ويزيدون صفوفه يوماً بعد يوم»^(١٧).

وهؤلاء «الغرائب المتآمرون والناقمون» هم إذاً الرجال والنساء الذين هربوا من أنظمة الحكم الاستبدادية والمتعصبة في أوروبا القديمة ليجهدوا في تحقيق الحلم الأمريكي المثير الحماسة، في الجانب الآخر من الأطلسي. أما في النصف الثاني من القرن العشرين فليس من يهدد النظام القائم هم هؤلاء الغرائب، الذين قد نضب معيّنهم أو سُدّ، بل الأمريكيون الأوائل.. أولئك الهنود الحمر الذين يحاولون استرداد حقوقهم^(١٨) أو هؤلاء المهاجرون القادمي، الذين هم أمريكيون، برغم أنوفهم، وأحفاد العبيد، وأخيراً هؤلاء الفتية والفتيات من الأسر العريقة الذين يأخذون على ذوبهم تخليهم عن رسالة الآباء المؤسسين. هذه الاعتراضات هي بكل وضوح من وحي الدول الأجنبية المعادية! وهذا ما

(١٦) مؤلفات واشنطن الجزء الحادي عشر ص: ٣٧٨.

(١٧) رسالة إلى باتريك هنري، مؤلفات واشنطن الجزء الحادي عشر ص: ٢٩٠.

(١٨) الفصلان الثالث والرابع من هذا الكتاب.

حدث في المدة الواقعة بين ١٨٨٠ و ١٩٢١ ، عندما راحت الشرطة تطارد « الفوضويين » ، وهذا ما حدث بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما سيطر الجنون المكارثي على البلاد ، وفي العام ١٩٧٤ أيضاً ، عندما أعلن كلارنس كيللي ، مدير مكتب المباحث الاتحادي ، لينذر مواطنيه بازدياد وسائل التجسس السوفييتي ، أنه مستعد للمخاطرة باتهامه بأنه « يرى شيوعياً وراء كل عمود »^(١٩) .

ازدراء الرأي العام

هكذا تطمئن السلطة ، بإثارة الخوف في أسلوب لا يخلو من الغوغائية ، إلى أنها ستحصل على ما تراه ضرورياً من الدعم ، وهو أسلوب مجرب ويغتنب له القائمون على النظام . فمن قبل ، عندما كانت الجمعيات الديمقراطية التي دعمت جيفرسون ، تُقلق الرئيس الأول ، سرعان ما كان يسمع النداء إلى احترام مبدأ السلطة . ومن بعد ، عندما يصف غيزو^(٢٠) هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ أمريكا بيدي سروره بلا تحفظ قائلاً : « الأناس الأخيار ورجال النظام والعدالة أدركوا أنهم يتركون بطلهم النبيل واشنطن دون دفاع أمام الحملات الدنيئة عليه . ففي البلاد الحرة . يمشي الكذب مرفوع الجبين »^(٢١) .

تلك هي في الواقع سيئة البلدان الحرة . فحقيقة المعارضة ، في نظر حراس النظام هي دائماً كذب . فمنذ المرحلة التي كُشفت فيها معارضة جيفرسون فضيحة وفاء الديون والمضاربات على الأراضي المفتوحة للاستيطان والاستثمار ، وحتى اليوم الذي شهت فيه الصحافة بفضيحة وترغيت كان الرئيس يردد قوله : « لم أكن أعلم » . وكلما فُضح تهرب رتشارد نكسون من الضريبة المالية كان يردد قوله « لست بسارق » من دون أن تطرف له عين . فكل نقد للرجال القائمين على السلطة يدل دلالة فائقة على أن « الكذب يسير مرفوع الجبين » ..

فمن يكذب ؟ .. « للحكومة الحق في أن تكذب ، إذا ما دعت الضرورة ، من أجل إنقاذ نفسها » . هذا ما يؤكد آرثر سلفستر Arthur Sylvester ، عندما كان معاون روبرت مكنامارا على رأس وزارة الدفاع . ففي الواقع كذب الرئيس لندون جونسون عام ١٩٦٤ ، حاصلاً على موافقة أقرب معاونيه إليه ، عندما زعم أن الفيتنام الشمالية اعتدت على سفن أمريكية في خليج تونكين .

(١٩) صحيفة انترناسيونال هيرالد تريبيون ، ١٨ تشرين الأول ١٩٧٤ .

(٢٠) رئيس الحكومة الفرنسية (١٩٤٧—١٩٤٨) ، سببت سياسته الرجعية اندلاع ثورة ١٩٤٨ .

(٢١) مقدمة لتاريخ واشنطن ولقيام جمهورية الولايات المتحدة باريس ١٨٨٤—ص ٤٧ .

فمكنته كذبه هذه من الحصول على موافقة الكونغرس على قصف فيتنام الشمالية . وكذب رتشارد نكسون عندما أخفى عن الكونغرس قصف أراضي كمبوديا . وكذب أيضاً ، وشاركه كذبه هنري كيسنجر ومدير وكالة الاستعلامات C.I.A. المركزية ، عندما أكد أن لا ضلع للولايات المتحدة في الحوادث التي أدت إلى الانقلاب على نظام الحكم في الشيلي ، وإلى موت اللندي عام ١٩٧٣ . ومن قبلهم أكره جون ف . كندي الرجل الشريف ادلاي ستفنسون على الكذب بدفعه إلى التصريح بأن معارك خليج الخنازير لا تلزم ولا تعني إلا الكويتيين . وكان الرئيس أيزنهاور من قبل ، لعدة سنوات خلت ، قد كذب عندما أكد أن طائرة التجسس U-2 التي كان يقودها فرانسيس غاري بوورز Powers ، كانت تقوم بمهمة أرصاد جوية ، عندما أسقطت فوق أراضي الاتحاد السوفيتي .

تلك الأكاذيب كلها غير متشابهة . فبعد إخفاق عملية خليج الخنازير ، تحمل جون كندي مسؤوليتها الكاملة بتواضع وشجاعة ، مبدئياً الأسف لموافقته على تلك العملية التي كانت قد أعدتها دوائر سلفه . وعلى نقيض ذلك ، عكس الرئيس جيرالد فورد ووزير خارجيته الموقف الأمريكي المتخذ سابقاً ، عندما اعترفا بعد مرور عام على مصرع سلفادور اللندي بأن الحكومة الأمريكية قد تدخلت في الشيلي ، وتباهيا بذلك لأنه كان ، كما قالوا ، لصالح الولايات المتحدة والشيلي والحرية .

عندما تهاجم المعارضة الحكومة ، سواء في الصحف أو الكونغرس ، لا تستطيع البتة السماح لنفسها باللجوء إلى الكذب ، لأن السلطة ، سرعان ما تخرجها ، ثم يؤدي الاتهام الذي لم يقم عليه الدليل إلى سلاح يرتد عليهم . وبالعكس ذلك ، وفي شيء من السذاجة ، تميل الحكومة ، وهي القوية بكل ما تحت تصرفها من وسائل ، إلى الاعتقاد بأنها تستطيع الكذب بلا مغبة . فالتجربة لم تعلمها شيئاً وهي تجهل في الخط من شأن المعارضة ذات الحملات التي هي ، في نظر الحكومة حملات شائنة وجائرة ، وفي أسوأ الحالات ، ضد أمريكا .

فمن الصعب إذن القبول بنظام الديمقراطية الحر . وقد كتب إلى جورج واشنطن ضباط حرب الاستقلال القدماء ، وعلى رأسهم العقيد لويس نقولا Lewis Nicola يقولون : « إن الحكم الجمهوري هو أقل جميع أنظمة الحكم استقراراً ، وأقلها قدرة على ضمان الحقوق والاستقلال وملكية المواطنين » . فقد كان « بعض الناس قد أقاموا علاقة جد وثيقة بين فكرة النظام الملكي وفكرة الطغیان » ، لذلك يقترحون أن يتخذ رئيس السلطة التنفيذية « لقباً أكثر تواضعاً من لقب « الملك » في ظاهره » ، إنما مع الأمل بأن يأتي اليوم الذي « سيقبل فيه بلقب الملك » . رفض (٢٢) واشنطن

(٢٢) الفصل الأول من هذا الكتاب .

العرض، إلا أنه وإن كان يعلم، مثل هاملتون، أن الملكية نظام غير مقبول في الظروف الراهنة، فإن هذا لا يحول دون تمنيه حكماً قوياً، يضمن استتباب النظام الذي لاغنى عنه لإزدهار الأعمال.

مغامرون وطهريون

لم تنتظر أمريكا الرئيس كالفن كوليدج كي تدرك أن «قضية أمريكا الكبرى هي الأعمال والمشاريع». وقد عرضت بعض اللوحات الدينية المهاجرين بصورة أشخاص يسعون وراء الحرية والديمقراطية. هذا التبسيط المفرط يخفي دوافع الرجال الحقيقية عندما بنوا وأسسوا الولايات المتحدة. فقبل الكسندر هاملتون، لمدة طويلة، أثر عدد لا حصر له من المهاجرين الاتجاه الاقتصادي على الديمقراطية، وأعطوا لنظام الأقوياء الأولية على إنصاف الضعفاء، ولسلطات المالكين الأولية على حرية المحرومين.

عندما وصل النقيب (الكابتن) جون سميث في العام ١٦٠٧ على رأس رفاقه المائة والعشرين، ليؤسس جيمستاون Gameston، أعلن، بلا أي مواربة، أنهم قادمون «للبحث عن الذهب، وصقل الذهب وتصفية الذهب ونقله». فسعيه لم يكن وراء الحرية، بل وراء الثراء العاجل. ولا حصر لعدد أولئك الذين كانت تحذوهم الدوافع ذاتها، حتى البحث عن الذهب ثم ما بعده، لأمد طويل.

قدم، إلى جانب المغامرين، الطهريون الذين لا تحذوهم الرغبة في الثراء. لقد هربوا من طغيان الكنيسة القائمة في إنكلترا، زاعمين أنهم سينقونها بإقامتهم في أمريكا. غير أنهم، إذ أقاموا مجتمعاتهم على المبدأ الوحيد الذي يعرفونه، أي اتحاد الكنيسة والدولة، ما لبثوا أن أرسوا طغيانهم الذاتي. فالطهري جون كوتون، هو الذي صرح عام ١٦٣٨ أن الله ما اعتبر الديمقراطية قط، «شكل حكم يناسب الكنيسة أو المجتمع». ثم يسأل بذلك: «وإذا حكم الشعب، فمن سيكون المحكوم». ففي نظره ونظر أشباهه، أن أشكال الحكم «التي تؤيدها وتوصي بها الكتب المقدسة» هي الأرستقراطية والملكية وحدهما. ذلك أن الشعب الذي يحتقرونه يحتاج إلى من يحكمه، وسيحكمه الطهريون بيد من حديد. وتحت ظلال حكمهم، لن يستطيع الاقتراع سوى أعضاء كنيستهم الرسمية، ولكي يكون المرء عضواً في الكنيسة، ينبغي أن يقبله رجال الدين الذين يرفضون قبول خمسة من ستة. ثم أنهم، بالشروط التي يفرضون توافرها في الناخب، ينحون الفقراء عن صناديق الانتخاب. فحرية الرأي لا مكان لها: وجماعة «الكويكرز» الذين جرؤوا في بوسطن

أو سالم Salem ، على التأكيد أن جميع الناس متساوون ومنهم الخدم والهنود ، قد تُقطع آذانهم وتُنزع ألسنتهم . والطهريون لا يترددون في الإقدام على قتل عدد كبير من الهنود كي يستولوا على أراضيهم ، أو لتسفيرهم عبيداً إلى « جزيرة باريدوس » .

أما الكويكرز والبابتست (أتباع مذهب المعمدانية القائل بأن المعمودية ينبغي أن تتم بعد سن البلوغ) فيُجلدون بسبب آرائهم ، ويوسمون بالحديد المحمي بالنار ، ويشنقون أو ينفون ، وفي العام ١٦٣٠ وحده ، حلت بأربعة عشر منهم تلك العقوبات . إنه استبداد بعيد عن روح الديمقراطية التي غالباً ما كانت تُعزى إلى الهاريين من الأنظمة الملكية الأوربية . وكان ذلك من حسن الطالع ، من حسن حظ أمريكا ، لأن هذا الاستبداد ، يغذي روح التمرد بمغالاته وتطرفه ! .

ثورة الديمقراطيين الأوائل

عندما وصل الواعظ الفتى روجر ويليامز Roger Williams إلى بوسطن عام ١٦٣١ ، هب على الفور لمقاومة الحكم الديني الذي أقامه الطهريون ، مدينياً « عقيدتهم الدموية في اضطهاد الناس من أجل معتقداتهم » ، وعادى رجال دينهم عداً عنيفاً ، واصفاً إياهم بـ « المرتزقة الخونة » وكنائسهم بـ « الكنائس النخرة التي يعيث فيها الفساد » ، وطالبا إلغاء القوانين التي تجعل من الحضور إلى الكنيسة فريضة مطلقة ، والتي تربط حق الانتخاب بشروط دينية . وكان طبيعياً أن يُحاكم الشاب الواعظ ويُحكم عليه (غيايباً) . وكان ثاراً جميلاً لهنود الناراغنست الذين شكوا كثيراً وعانوا من وحشية الطهريين وعمليات سلبهم ، أن يجد روجر ويليامز ملجأ له بين ظهرائي قبائلهم . وقد اشترى منهم الأرض التي بنى عليها مدينة العناية الألهية (رود آيلاند) .

شادت آن هوتشنسون مدينة بورتسموث بالطريقة والعقولة ذاتهما ، ثم بُينت نيويورك عام ١٦٣٩ . وغدت رود آيلاند ملجأ لجميع المضطهدين آنذاك ، سواء كانوا من الكويكرز أو القائلين بإعادة العمداء : anabaptistes أو يهوداً أو (ساحرات) . ولم يبق مكان لنظام حكم الطهريين الاستبدادي في تلك المدن ، وذهب الحكم الديمقراطي فيها بثقته بحكم الشعب ووعيه إلى أبعد الحدود . وفي الواقع كان المسؤولون عن تسيير دفة الحكم يُنتخبون لمدة عام فقط ، ومن الممكن عزله خلال مدة الولاية بناء على طلب المواطنين . أما رتشارد نكسون الذي ادعى الانتماء إلى الكويكرز ، فلم يقبل بأن تُطبق عليه هذه القاعدة الديمقراطية إلا بعد لأي .

إن القس توماس هوكر ، الذي أقام الكوكتكتكوت Connecticut على قواعد مماثلة ، لخص

مبدأ الديمقراطية الحقيقية بقوله : « إن أساس كل سلطة يكمن في قبول الشعب بها قبولاً حراً » . وعلى نقبض نظام حكم الطهرين الديني ، جسدت الديمقراطية المشتركة التي أقامها الحجاج pelerins مطلباً من أشق مطالب الحكم الأمريكي . فقد كان على أصحابها « المتقاسمين طعامهم وشرابهم وتجهيزاتهم وكل أنواع مؤونتهم » أن يعملوا من أجل الجماعة مدة سبع سنوات . وهي قاعدة أملتها الشروط المادية القاسية السائدة على أرض كل ما فيها يتطلب البناء والعمال . وبعد انقضاء السنوات السبع يأخذ كل من يبلغ سن الرشد ، أياً كان عمره ومنشؤه ، حصّة متساوية من « المساكن والأراضي والأموال والحيوانات » . هذا النظام لم يسر السير الحسن المأمول منه ، وسرعان ما تم التخلي عنه ، إلا أنه عبر عن تطلع دائم إلى الديمقراطية . وقد عادت فكرته إلى الظهور خلال الثلاثيات والرباويات ، ولا سيما الفورية (مذهب Fourier الإجتاعي الاشتراكي القائل بتجمع الأفراد في مجموعات إنتاجية يعيشون فيها عيشة مشتركة) ثم في (الكومونات) التي جذبت مبدئياً في السنوات ١٩٦٠ — ١٩٧٠ ، عدداً متزايداً من معارضي عقيدة المجتمع الصناعي الحديث وبنيتة ومبرراته .

النظام الطهري

بمجموعة مغامرين يسعون وراء ثروة سهلة المنال ، لا يأبهون لمبدأ .. طهريون ينقلون معهم الحكم الديني المقيت الذي هربوا منه ، و « حجاج » يحملون أكثر أشكال الديمقراطية تقدماً : هكذا تجمع تراث أمريكا الروحي والسياسي الكثير التباين واختلط وتمازج خلال مجابهة مستمرة ليعطي الحكم الأمريكي لونه المتموج خلال التاريخ وحتى اليوم .

كان لرسالة « الحجاج » أصداء عديدة رددتها الطبقات الفقيرة التي رأت فيها أملاً بالتخلص من بؤسها ، كما كانت لها أصدواؤها لدى كل الذين لهم ما يبرر مخاوفهم من تعسف السلطة ، أياً كانت أوضاعهم الإجتاعية .

أما ورثة (الكابتن) النقيب جون سميث الروحيون : (البحث عن الذهب وغسله وتنقيته ونقله) فقد حملوا ، من جهة أخرى أسماء متباينة خلال قرنين من التاريخ ، ابتداءً من تجار الرقيق ، والمضاربين في كل عصر ومرحلة ، وقادة الصناعة (غولد ، وفاندريلت ، وروكفلر ، ومورغان ... الخ) ، حتى « الوحوش الباردة » من مدراء المؤسسات أو الحكام التقنيين في المجتمع المعاصر .

ظلت روح الطهرين نشطة وحقت بعض التقدم في الجهود المضطربة ، وقد هدهدت أمل

« نظام خلقي » يفرض بصرامة انتماء المواطنين جميعاً لمعتقدات واحدة ، وبامتنالية فكرية لا تتحمل أي انحراف . وليرى الشعب صفوفه ، فتملك الأمة عندئذ قوة لا سبيل إلى الوقوف في وجهها ، والويل لمن يتجرأ على الانحراف عن الصراط ، فإذا تعذر جلده في الساحة العامة وربطه بعمود التشهير ووسمه بالحديد المحمي ، (كما وقع كل ذلك في بوسطن وسالم في القرن السابع عشر) ، يُنبذ ويُعرض لعقاب الجماعة . وهكذا كان مصير « المخالفين » في القرن العشرين ، الذين لاحقتهم وطاردتهم المكارثية .

والعقيلة الطهرية لا تستهدف العادات فحسب بل تدعو إلى مذهب خلقي مستبد يشمل كل جوانب الحياة ، الفردية والاجتماعية والسياسية . وحلمها هو قيام مجتمع متجانس ، لا في سلوك الأفراد الظاهر الذين يؤلفون هذا المجتمع فحسب ، بل في أخص معتقداتهم وألصقها بحياتهم الداخلية . وهي تنوحي أن تخضع لقواعدها الأفكار والأفعال في آن واحد وهي لخوفها من حياة مجبولة بالتوترات والأهواء والمجابهات ، تحمل بذرة نظام عقيم وفان . وهي أيضاً لا تكتفي بالدعوة إلى مثلها الأعلى ، بل لا تتصور من أجل فرضه ، سوى وسائل الرقابة الضيقة الشديدة على من يحددون عنه ، وإلا أساليب التحقيق والتفتيش كلها ، ومن أقدمها إلى أحدثها . فراحة الضمير عندها ، لشدة ثباتها ، لا تتحقق إلا بهذا الثمن . والقيم والمذاهب في الروح الطهرية تفرض ذاتها بسهولة ، ولا سيما أن الكثير من المواطنين مهيوون عفواً للأخذ بها ليجدوا الراحة النفسية . والآخرون منهم يرضخون لها ، كما لحظ توكفيل Tocqueville : « لأنهم يخشون ألا ينم مظهرهم على الإيمان بها » .

أرستقراطية وعبودية

كان مجتمع فرجينيا ، ما خلا تلك التيارات التي تصنع إنكلترا الجديدة ، يتخذ منذ أوائل عهوده ، سمة خاصة تطلعننا عليها ، في أساليب مختلفة ، شخصيتان من أقوى شخصيات ذاك المجتمع ، وسمتا بطابعهما الجمهورية الناشئة ، وهما جيفرسون وواشنطن .

فإلى جانب المستعمرات التي أسسها رجال منفيون أو مجددون ، كانت ولاية فرجينيا في القرن السابع عشر تجهد وتجد لنسخ صورة طبق الأصل عن مؤسسات إنكلترا وأعرافها ، وهنا لا شيء من تصلب الطهرين وتزمتهم ، ولا شيء من مثلهم الأعلى . فالفرجينيون ، في السنوات القريبة من العام ١٦٠٠ ، أناس حسنو السلوك ، يملأ إهابهم احترام العرش والكنيسة والتقاليد ، ويدعون إلى الحذر الشديد من الملل المنشقة والبابويين . وعقليتهم الأرستقراطية تحمل على النظر بعين الريبة إلى عمل روجر وليامز ، وأن هاتشنسون ، أو عمل توماس هوكر في رود آيلاند والكوكتكوت . وهكذا

ظلت ولاية فرجينيا الموثل الذي يتواعد على الالتقاء فيه المهاجرون الراغبون في أن يجدوا المجتمع الإنكليزي في أميركا. وعندما أطاحت الثورة الإنكليزية بشارل الأول، ظلت فرجينيا على ولائها للملك ووجد فرسان الملك فيها موثلاً وملجأ. وقد قصرت حق الانتخاب على من يملك، وتفادت توزيع الثروات بتوريث البكر فحسب. والطبقة الأرستقراطية فيها تحتل كل المناصب والوظائف العامة.

كانت فرجينيا، بنظامها هذا، أغنى بالسادة منها بالعاملين. إلا أنها كانت تحتاج إلى أيد عاملة وجدها بين العبيد. وهؤلاء العبيد لم يكونوا جميعاً من السود، بل من البيض أيضاً الذين غدت فيهم التجارة جد رابحة. وكانوا من المتسولين والمشردين وطريدي العدالة، يبيعون أنفسهم إلى سيد لمدة أربع سنوات أو سبع، ليتمكنوا من دفع ثمن ركوب السفينة هارين من إنكلترا. وكان ثلثا سكان ولاية فرجينيا في أوائل عهدها، من هؤلاء الخدم — العبيد. وكان عليهم أن يقسموا أمام قاض كبير، يمين الولاء للملك، ثم يباعون، لتوهم، بعشر ليرات، حتى العشرين أو يسلمون إلى قائد محبوب بهم مقيدون بالسلاسل أرجاء البلاد، إلى أن يلقى من يشتريهم. كان زهاء ٣٥٠٠٠ منهم من البريطانيين الذين تخفف أو بُدِّل حكم الإعدام عليهم. وكانوا، عند انتهاء المدة التي ابتيعوا ليقضوها في العبودية، يغامرون بالتوغل نحو الغرب أو يكتفون حيث هم مهضومي الحق. ثم ينتهي بهم الأمر إلى أن يفضل ملاكو الأراضي العبيد السود عليهم. فهؤلاء ملك سادتهم مدى الحياة، ولهذا فهم رأسمال من الخير رعايته واستثماره، وهم يحظون بمعاملة أفضل من معاملة العبيد البيض الذين يفقدون كل قيمة شرائية أو تجارية يوم يستردون حريتهم، والذين يمكن استغلالهم مدة أربع سنوات أو سبع بلا إدارة قواهم أو صيانتها للمستقبل بغية استمرارهم في العمل. فلقد كان عدد سكان ولاية فرجينيا عند إعلان الثورة ٧٤٨٠٠٠، العبيد منهم ٢٠٠٠٠٠ وجميعهم متوزعون في المزارع، ولا يتجمعون في مدن، فلم يكن عدد سكان «ويليامسبرغ» مثلاً يتجاوز آنذاك الألفين.

ولم يكن مجتمع فرجينيا، على أرستقراطيته، متصلياً. وكان يكفي أن يحتل المرء الأرض ويزرعها ليصل إلى مرتبة الملاك ويرسي أسس ثروة جديدة. ولم تكن الأسر الأرستقراطية تحتكر ملكية الأرض، فتمتة إتجاه إذا إلى بعض المساواة في الشروط الاجتماعية. وهكذا نما شكل من أشكال الديمقراطية، بإتاحة الفرص للناس جميعاً أن يملكوا الأرض، غير أن هذا التطور تحقق في نطاق احترام النظام والطاعة.

ألقى توماس جيفرسون في هذا المنحى الأسس المثالية (الطوباوية) لديمقراطيته الزراعية حيث

ترتبط حرية كل فرد بالأرض التي يفلحها، بينما تعالج المسائل والقضايا المشتركة داخل نطاق مجالس محلية صغيرة يتعارف أعضاؤها ويرون، بعضهم في بعض، جيراناً يعملون في مجالات نشاط واحد. هذا الحلم الذي اجتاحه التصنيع، ظل، على ذلك، قوياً وحيّاً، ترعاه الآفاق العريضة التي تفتتحها أراضي الغرب حيث يبدو لكل امرئ أنه يجد مكاناً له تحت الشمس.

أما جورج واشنطن، فلم يكن بلا شك، غير آبه بمفهوم كهذا، إلا أنه يبدو أكثر تأثراً بفضائل النظام والسلطة والانضباط التي أفرزها المجتمع الفرجيني، وهو المضيفي عليها شأناً أكبر، ولا سيما أن الإمكانات الجديدة التي أتاحتها الثورة الصناعية، تقتضي وجود تنظيم في المصانع قادر على إخضاع الفردية الأرضية لمتطلبات الآلة والإنتاج والربح.

سلطة وحرية: المسرح مهياً، بممثليه المستعدين للقيام بأدوارهم التنافسية سواء في الشمال أو الجنوب، من طهرين أو «حجاج»، مغامرين أو أرسقراطيين وأنصار ديمقراطية جيفرسون، أو رواد المشروع الرأسمالي الذي يملك الكسندر هاملتون أوضح رؤية له. وهم جميعاً يشتركون في رفض واحد هو الخضوع لقرارات صادرة عن البرلمان اللندني البعيد، حيث هم غير ممثلين، كما يلتقون أيضاً، بأكثرهم، في رفض كل مذهب استبدادي. وقد قال الكسندر هاملتون وهو من أصلب أنصار النظام: «لتنفاد الطغيان، فالحزم شيء جد مختلف عن العنف». وأين يمر الحد الفاصل بين العنف الطاغوي الذي يأباه والسلطة الحازمة التي يدعو إليها؟ وفي نظر خصومه السياسيين، إلى أين يمكن أن تصل حرية لا تتردى إلى فوضى؟.

معركة قديمة تلتصق بكل مجتمع إنساني، ولا سبيل لها إلى بلوغ مداها كله إلا في مجتمع ديمقراطي. فالطرفان يريدان سلطة تضمن للحريات ممارستها التامة. إلا أن الليبراليين الذين يخشون أكثر ما يخشون، تجاوز سلطة مستبدة، سيقفون في وجه المحافظين الذين يرون في إنطلاق الحريات خطراً يهدد كل سلطة أو حكم. فبين المعسكرين، ليس الحد الفاصل باهر الوضوح دائماً، وسيخطاه، حسب الظروف، وبلا وعي في بعض الأحيان، بعضهم من هنا وهناك وباتجاه أو بآخر، ودوافعهم إلى هذا التخطي ليست مصالحهم الطبقية فحسب، بل قلقهم وخاوفهم ونفسياتهم (سكولوجيتهم) وأوهامهم، فلن الأولى؟ ألسلطة والنظام، أم للحرية والعدالة؟. إن حد الفصل لا يمر بين المجتمعات المتنازعة فحسب، بل في داخل كل فرد، في أحيان كثيرة. والمعركة على وشك النشوب.

الحذر من الجند

عارضت النظام والسلطة، من قبل، في أثناء حرب الاستقلال، أكثر طبقات الجيش شعبية. وتذمر من هذه المعارضة تذمراً مريعاً القائد العام الحالم بقوة عسكرية كاملة الانضباط، جورج واشنطن الذي كتب يقول: «لم يرفض الحرس الوطني إطاعة أوامر الضباط فحسب، بل عبروا عن ارتياح كبير لنباً اقتراب العدو.. ولنا ما يررر خوفنا من أن يوجهوا سلاحهم إلينا في أول مناسبة، بدلاً من استخدامه للدفاع عنا»^(٢٣).

إن بوادر التمرد، على نقيض ما يُشير إليه واشنطن بخذر، مردداً إشاعة بسيطة لم يتحقق من صحتها، لا تعني أن الشعب المتطوع في الحرس الوطني تحركه مشاعر الولاء للإنكليز. فهناك، بلا شك، موالون مخلصون للعرش، إلا أنهم ينتمون إلى المجتمع (الراقي) وقد عاملهم الحرس الوطني بقسوة. أما استياء الجنود، كما ستدل تنمة هذا التاريخ، فله أسباب أخرى: فلقد كانوا يشكون بحق من عتادهم السيئ ومن التأخر في دفع رواتبهم ومن موقف ضباطهم الذين غالباً ما كانوا يعاملونهم معاملة من هم دونهم من البشر. وصحيح أيضاً أن رجال الحرس الوطني كانوا يميلون إلى نخوض القتال من أجل مستعمراتهم، ويتذمرون عندما يدعوهم تطور مسرح القتال إلى الذهاب بعيداً، إلى مستعمرة غير مستعمرتهم الاتصال جد ضعيف بينهم وبينها. لكن هذه أليست غلطة الوجهاء الذين ما كانوا يتوصلون، في مداولاتهم في الكونغرس إلى جمع المبالغ اللازمة لإدارة الحرب، وغلطة الضباط الذين لم يكونوا يعطون جنودهم رؤية عامة جيدة عن العمليات، أو بالأحرى، رؤية وطنية؟.

عندما فوجئت القوات الأمريكية «٢٧ آب ١٧٧٦» وطوقت، فتشتت تاركة بين أيدي البريطانيين أكثر من ألف أسير، بينهم ثلاثة جنرالات، كان ذلك خطأ القيادة التي لم تكن على مستوى الواجب الملقى على عاتقها، وكان أمراً طبيعياً أن تنهار قوى الجند المعنوية وعندما رفضت بعض الألوية المسير، أنحى واشنطنون باللائمة على الجند، لا على الضباط الذين هم من طبقتهم، وكتب إلى الكونغرس يقول: «إنني، بأعمق الأسى والألم، أرى نفسي مضطراً إلى الاعتراف لكم بضعف ثقتي في جموع جيشتي كلها تقريباً»^(٢٤).

رد فعل أرستقراطي ينم عن احتقار سواد الشعب الفقير الذي لم يعدوه أي اعداد لمناورات

(٢٣) مؤلفات واشنطن—الجزء الرابع ص ٢٢٣.

(٢٤) مؤلفات واشنطن—الجزء الرابع ص: ٧٢.

استراتيجية أساؤوا ادارتها ولم يهتم أحد بشرحها له .. لكن ، ... لماذا ؟ ، يقاتل هذا الشعب البسيط ؟ إن ما ينشده من الاستقلال الوطني ، هو قلب النظام القائم . والكفاح الذي خاضه لم يكن موجهاً ضد إنكلترا البعيدة ، بقدر ما كان موجهاً ضد المتسلطين المحليين ^(٢٥) وقد أدرك الكونغرس ذلك أخيراً وصوت على زيادة رواتب الجنود الذين يتطوعون حتى نهاية الحرب وعلى منحهم أراضي للزراعة .

أضفى هذا الإجراء الأخير على قتال الشعب ، بقدر ما يبدو فيه من وعود بأن مجتمع المستعمرات الطبقي ذا الدرجات المتفاوتة ، لن يعيش بعد الاستقلال . ولم يساور الشعب الشك في أن كل شيء ، بعد النصر ، لصالح الوجهاء ^(٢٦) وأنه هو الذي سيدفع ثمن النصر . لكن القائد العام لا يأبه لهذا الشعب وقد كتب يقول : « إذا دُعيت إلى الجواب وأنا أقسم اليمين ، عن السؤال : هل كان الحرس الوطني نافعاً أو ضاراً ؟ .. لما ترددت في الرأي الثاني » . ولم يكن هذا من العقوق بل من العمى والضلال : فأرستقراطي مونت فرنون (أرض واشنطن) ، لا يسعه إلا الاحساس بالخدر من أناس يبلغ بعده الإجتماعي عنهم ما يحول دون فهمهم . وقد ظهر نضال الطبقات طبيعياً في الجيش .

غير أن ميزان القوى كان يقتضي ، مع ذلك أن يُحسب حساب هؤلاء الفلاحين والصحفيين وهؤلاء الجنود الذين يقودهم ضباط اهتم واشنطن بأن يوصي باختيارهم من المجتمع (الراقي) ، فالنظام والسلطة رهن بذلك . وبعد مرور بضع سنوات ، نرى جورج ميسون المزارع الفرجيني الثري ، وواضع إعلان الحقوق الذي أضحى بعد ذلك أساس تعديلات الدستور العشرة الأولى ، يبدي في (اعتراضاته على الدستور) ، رأياً حصيفاً بقوله : « ستبدأ هذه الحكومة بأرستقراطية معتدلة ، ومن الحال ، في وقتنا هذا ، التنبؤ بانبثاق ملكية منها أو أرستقراطية مستبدة وفاسدة . وهي على الأرجح (أي الحكومة) ستأرجح مدة بضع سنوات بين هاتين الهاويتين ، ثم لن تلبث أن تسقط في إحدهما » ^(٢٧) إلا أن الحكم لم يؤل إلى السقوط في هاوية الملكية بسبب المشاعر الشعبية .

(٢٥) الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٢٦) الفصل الأول (في تقسيم الأراضي ووفاء الديون) .

(٢٧) مؤلفات واشنطن الجزء التاسع ص : ٢٦٦ — ٥٤٦ .

الوجهاء يسحقون «عصيان الوسكي»

إن الحكم، الذي كان شكله آخذاً بالتبلور، لم يتسم، في الواقع، بأي صفة بارزة «الاعتدال»، بل كان خلافاً وتحدياً، لكل روح عدالة، يجهد في إثراء الأثرياء الذين هم، حسب تعبير جون جاي: يملكون البلاد وعليهم أن يحكموها. وقد أغنى المضاربين بدفعه، بالسعر المكافئ الأصلي، أثمان أسهمهم التي اشتروها بثمان بجنس، كما وزع مقاسم أراض لا قبل إلا لكبار الملاكين بشرائها، وأسس أول مصرف ذي امتياز يصدق على أرباح غير قانونية، ونظم المضاربة على أراضي ولاية الأهايو. ثم، كي يتوج بناءه الضخم هذا، دفع إلى التصويت على الضرائب الأولى، بناءً على طلب الكسندر هاملتون، ولا سيما ضريبة الكحول. ولم تقع تحت طائلة هذه الضريبة المشروبات الجيدة التي يستهلكها المجتمع المترف، بل اقتصرت على الوسكي البسيط الذي ينتجه المزارعون الفقراء.. فياله من إجراء يحول دون اختبال الشعب «الوضيع» وتسممه بالكحول..!

كانت هذه الضريبة إشارة التمرد، فقد ثار عليها صغار الفلاحين الذين رأوا فيها اجحافاً كبيراً بحقهم، وفي الواقع كانت الطرق في غربي بنسلفانيا، وفي فرجينيا وكارولينا الشمالية في حالة سيئة ورأى الفلاحون أن من الأجدي تقطير ذراهم وشعيرهم، فنقل الوسكي أسهل عليهم من نقل الحبوب. والضريبة على الكحول كما وضعت، تُعفي الأغنياء، وتنوء بكلكلها على الفقراء. وهكذا اندلعت ثورة الوسكي. وفي العام ١٧٩٣، هوجم موظفو الحكومة الذين أتوا لتحصيل الضرائب، ورفضت السلطات المحلية الأوامر الصادرة عن العاصمة، واقتحمت مخافر الشرطة واستولي عليها، وفُرض على مفتش مالي التعذيب الشنيع الذي عاناه عدد من الموالين للعرش البريطاني، في أثناء الحرب، وهو نزع ملابس المعذب وطلية بالقطران وتغطيته بالريش، وهكذا يموت موتاً بطيئاً أمام سخرية الجمهور وهزئه.

ثلاثة آلاف مزارع يستطيعون سبيلاً إلى عصيان قرار الحكومة: لقد طفق الكيل.

أما جورج واشنطن، الذي كان يعجم عود سلطانه بهذا العصيان، فما تساءل قط برهة واحدة عن عدالة الضريبة التي أثارت العصيان الشعبي. فالنظام، في عرفه، قبل العدالة وهو، بدلاً من رفع الظلم، سيعمد إلى إتخاذ تدابير مدوئية لتوطيد الأمن. هذه الثورة الفلاحية التي تذكرنا بـ «حرب الطحين» التي أشعل نارها قرار تورغو، ينبغي أن تُقمع بحزم وقوة. فالفلاحون يتمرّدون،

كما يقول واشنطن: «متذرعين بمعارضتهم قانوناً معيناً، إنما الحقيقة هي أنهم يثرون في روح معادية لكل نظام» (٢٨).

لم يكن ذلك إلا رد فعل تقليدياً من قبل القائمين على الحكم، فسبب نقمة الشعب الحقيقي يُلفظ لفظ النواة، وقد حول إلى ذريعة كاذبة يستغلها مثيرو القلاقل لزعزعة المجتمع، ومن خلاصهم تُتاح الفرصة لضرب المعارضة كلها، ولا سيما الجماعات التي تنظمت على طراز نادي العاقبة والتي تلهمها شخصية توماس جيفرسون الرفيعة. وقد كتب واشنطن يقول: «إنني أعتبر هذه الفتنة الثمرة الأولى والهائلة للجمعيات الديمقراطية» (٢٩). فهو إذاً سيضرب بقوة، إنما يحذر.

نعم يحذر، «فالجمعيات الديمقراطية» تعمل بنشاط في كل مكان، والرجال الخيرون لا يتحكمون إلا بقوة مسلحة جد متواضعة. فقد كان جورج واشنطن، في أوائل ولايته ١٧٨٩ يأمر جيشاً صغيراً مؤلفاً من ٨٤٠ رجلاً. ثم سمح قانون ٣٠ نيسان ١٧٩٠، بتطويع «١٢١٦ ضابطاً وجندياً وموسيقياً»، وبعد مدة وجيزة، خوّل الكونغرس الرئيس، لقمع الهنود على الحدود، سلطة تجنيد وحدات لمدة أقصاها ستة أشهر، على ألا يتجاوز تعدادها ٢٠٠٠ رجل. كما أقر الكونغرس في العام ١٧٩٢ تشكيل ثلاث كتائب، لمكافحة الهنود أيضاً، على أن يُسرح الجنود على الفور من طلب الهنود الحمر الصلح.

فالرئيس إذاً لا يملك قوات هامة يواجه بها ١٣٠٠٠ مزارع متمرد، لذلك كان أرباباً حين أمهلهم أولاً مدة ثلاثة أسابيع للرضوخ، وهي بادرة صلح وشهامة تدع له مهلة لتنظيم فيلق للتدخل عدده ١٥٠٠٠ مقاتل. وقد استدعى الحرس الوطني من فرجينيا وماريلاند ونيوجرسي وبنسلفانيا. غير أن الحرس لا يؤمن جانبه، فقد لا تطلق عناصره الشعبية نارها على عصابات فلاحين سيئة التنظيم، فينبغي اللجوء إذاً إلى اختيار دقيق. وقد أثلج جواب «الأناس الخيئين» صدر جورج واشنطن وحقق كل أمانيه، وهو يصفهم بحماسة لا عهد له بها، قائلاً:

«لقد شوهد جنرالات على رأس فصيلة واحدة وضباط وقادة، يصلون إلى المكان المعين لهم، ولا يجردون القيادات التي تناسب رتبهم، فينضمون إلى الوحدات جنوداً عاديين في الخدمة وبامرة ضباطها الذين هم دونهم رتبة.. وشوهد عدد كبير من أخطر رجال البلاد شأناً يختلطون بالجنود

(٢٨) مؤلفات واشنطن، الجزء الثاني عشر ص: ٤٩.

(٢٩) رسالة إلى هنري لي Henry Lee.

ويقومون ، يوماً بعد يوم بمسير طويل وحقائبهم ومؤناتهم على ظهورهم ، ينامون على القش بغطائين (بطانيتين) تحت خيم الجنود في ليالي الصقيع التي مرت علينا ، ولعل ما هو أدعى للدهشة ، أن عدداً كبيراً من شباب الكويكرز ومن أكرم الأسر وأغناها وأوفرها قد تطوعوا في الخدمة وساروا مع الجند» (٣٠) .

فيا للمشهد الرائع الممتع ! . فلنكي يحمي الوجهاء نظام ضرائب يفضلهم على سواهم ، وليدفعوا من خلاله ، عن النظام الذي أقاموه ، عند بزوغ فجر الديمقراطية .. يدعون ورثتهم الأغنياء الذين يعضون جنباً إلى جنب مع الضباط المنحدرين من الأرستقراطية ، ويرضون الخدمة جنوداً بسطاء ، ليعيدوا أولئك القرويين الأجلاف إلى صوابهم . فقد كان وجهاء بتسبرغ ، الذين أربعتهم الثورة الفرنسية « وفرنسا مأوى النهابين والسفاحين » كما يقول الكسندر هاملتون ، والفرنسيون « طيور جارحة مجنونة » قد بلغ بهم الرعب مبلغاً حملهم على إتخاذ القرار التالي : « نكاد نكون مستعدين لأن نتمى (لبلدنا) ثورة فرنسا ومقصلتها ، لمدة وجيزة من الزمن ، لنوقع بالجاحدين الذين يضعفون حكومتنا ويشوهون سمعتها ، العقاب الذي يستحقونه » . فالمقصلة ليست للأرستقراطيين بل للشعب ! .

فياللدعر الناجع للنفيد . لقد قام المجتمع (الراقي) برد فعل كما ينبغي . إذ أوقف مائة وخمسين من العصاة ، وحُكم على اثنين بالإعدام لارتكابهم جرم الخيانة العظمى .. لكن واشنطن يتمتع بحس مصلحة الدولة ، فقد عفا عنهم واستتب الأمن وانتصر الرئيس وقال : « ما يقول الناس الذين زعموا أننا عاجزون عن حكم أنفسنا بأنفسنا ؟ . وسيرون أن المبدأ الجمهوري ليس البتة شبح خيال مريض . وبالعكس ، فالقوانين لم يدافع عنها ، في أي شكل من أشكال الحكم ، بأفضل مما دافع عنها في الحكم الجمهوري ولم تصن الحرية والملكية بأفضل مما صينت فيه ، ولم توفر السعادة البشرية بأفضل مما وفرت فيه » (٣١) .

انتصر تجنيد (الرجال الخيرين) على غضب الشعب . وقد دوّن مؤرخ أمريكي ملاحظته قائلاً : « إن هذه الحملة العسكرية الباهظة الثمن ، التي لم تحتج للقتال ، يراها الشعب دائماً مُضحكة » (٣٢) . لكن الضحك لا يقتل ، بينما يهدد عصيان الوسكي بقلب النظام الاقتصادي

(٣٠) مؤلفات واشنطن — رسالة إلى جون جاي — الجزء العاشر ص : ٤٥٥ .

(٣١) مؤلفات واشنطن الجزء العاشر ص : ٤٥١ .

(٣٢) هنري فور — واشنطن وزملاؤه ص : ١٨٧ .

والسياسي رأساً على عقب، فبعد سحق التمرد، غدت الجمهورية الأرستقراطية أشد ثباتاً على قواعدها .

تعريف الخيانة

ثمة محنة كانت، مع ذلك، تنتظر أنصار النظام، وكان سبب التوتر، في هذه المرة، خارجياً إلا أنه لمس المجتمع الأمريكي في نقطته الأكثر احساساً: فما هو شكل الجمهورية الذي تريده الولايات المتحدة؟ .

زادت الخصومة الأوربية حدة النزاع بين الاتحاديين (الفدراليين) الذي يمثلهم الكسندر هاملتون و(الجمهوريين) أنصار توماس جيفرسون . وقد بلغ نبأ نشوب الحرب بين فرنسا وإنكلترا، الولايات المتحدة في نيسان ١٧٩٣ . فكتب على الفور، الرئيس واشنطن، الذي كان آنذاك في أرضه (مونت فرنون)، إلى وزير خارجيته جيفرسون، بألا يدع وسيلة إلا استخدمها ليتأكد من «أن أمريكا ستحافظ على حياد دقيق» حيال هذا النزاع . وكانت الولايات المتحدة بعد انتهاء حرب الاستقلال قد وقعت مع إنكلترا معاهدة سلام، إنما منذ عام ١٧٧٨، كانت على ارتباط وثيق بفرنسا التي ساعدتها في كفاحها ضد إنكلترا، بمعاهدة صداقة وتجارة، فإذا قررت الولايات المتحدة أن تلزم الحياد، كما يطلب جورج واشنطن، فعليها أن تمتنع عن فرنسا الامتيازات التي تخولها لإياها معاهدة ١٧٧٨، كانت الجوانب الدبلوماسية في المسألة ثقيلة التبعات على صعيد سياسة الولايات المتحدة الداخلية، (فالفدراليون) المعجبون بشكل الحكم البريطاني، وبالنظام الذي عرف هذا الحكم كيف يفرض احترامه، مذعورون، ولا سيما، منذ عهد الإرهاب Terreur، من اندفاعات الثورة الفرنسية... بينما، على نقيض الفدراليين، كان جيفرسون وأصدقائه مع (جمعياتهم الديمقراطية) النشطة، التي لم يتمكن قمع عصيان الوسكي من تهديدها، من أنصار الثورة الفرنسية العنيدون، ولم يكن ذلك ناجماً عن محبة ما لفرنسا، ولا اعترافاً بجميل لافاييت وروشامبو، بل لأنهم يطمحون إلى إقامة مجتمع لا طبقي، يعتقدون—خطأ—أنهم، يستشفون ظهوره مع الثورة الفرنسية .

هكذا أدى الجدل في الموقف الذي ينبغي إتخاذه من الحرب الأوربية—أحياداً يكون أم تقيداً بالمعاهدة الفرنسية الأمريكية—، إلى إثارة مناقشات حادة في طبيعة المجتمع الأمريكي ذاتها،

وانقسمت البلاد إلى «يسار» صريح الميل لفرنسا (ويمين) يدعو إلى الحياد، لكنه في الواقع إما موال لبريطانيا، وإما قومي قومية ضيقة إلى حد التنكر للمعاهدة الفرنسية.

أستشير رئيس المحكمة العليا، فقدر بواقعية «أن أغلبية كبيرة من الشعب الأمريكي، في رأيه، ستري أن من الإجرام الوقوف موقف المتفرج اللامبالي، من النزاع الذي تتجابه فيه عدوته القديمة، إنكلترا وفرنسا الجمهورية». وتلك الأكتية، تتألف من سواد الشعب الفقير ونصير فرنسا الذي يعادي قلة غنية ومترفة تسيطر على السلطة، وترغب في حكم قوي وقادر على تدمير «الجمعيات الديمقراطية»، وتعلن ولاءها لبريطانيا أو تخفي ذلك وراء حياد ينطوي على النكوث بالعهد.

لجأت المجادلة، في شدة حدتها إلى أقصى الحجج والبراهين، وقد أكد هاملتون لواشنطن أن أنصار جيفرسون «عازمون على التورط مع فرنسا والارتباط بها» وعلى «عقد حلف دفاعي وهجومى أبدي، معها، وعلى تسليمها زمام تجارتنا». إنها حجة ملفقة... ومثال نموذجي للدعاية التي تستطيع حكومة محافظة القيام بها لتتخذ نفسها، فإعدام لويس السادس عشر ونشوب الحرب قد فسخا المعاهدة الفرنسية الأمريكية، في رأي هاملتون، وهو موقف يتضمن عدداً كبيراً من القرارات التي ستُخذ كلما أتاحت فرصة لإثارة الأنانية القومية على التضامن الدولي (٣٣).

والالتزام بالمعاهدة الفرنسية-الأمريكية في رأي هاملتون أيضاً، يسلم لفرنسا السيطرة على تجارة الولايات المتحدة، فهو يطلب إذاً لتفادي هذه النكبة، إزالة كل أصدقاء جيفرسون، وإن كان وزير الخارجية، في مراكز المسؤولية. غير أن الحياد الذي يدعو إليه فيه من قلة «الحياد» ما جعل الصحيفة التي يديرها جون فينو، بإيحاء هاملتون، تقول: «إن حرباً ضد فرنسا، ستعش، في مدة لا تتجاوز شهرين كل قطاعات مجتمعنا، وستنشط تجارتنا، فيزداد المال ويكتسب كل مجال من مجالات نشاط الحياة قوة جديدة» (٣٤).

لو اقتضت هذه القضية على جوانبها الدبلوماسية الصرفة، لأتيح لها، بلا شك، أن تقلص وأن تحل في تسوية غامضة. لكن إرادة الفدرالين القضاء على «الجمعيات الديمقراطية» الحرة الخطرة والصامدة في ثورتها، وعلى كل معارضة مهما كانت متراخية، حالت دون ذلك، وموقف المعارضة

(٣٣) الفصل الرابع من هذا الكتاب.

(٣٤) The Gazette of U.S ١٦ أيار ١٧٩٩.

كما لحظه، بعد ذلك أحد المغالين في الإعجاب بواشنطن، من كتاب سيرة حياته، يزداد في لأمركيته^(٣٥). وتعبير «أن-أمريكان» Un-American اكتسب منذ ذلك الحين معنى واضحاً جداً، طلع على العالم، في الخمسينيات، عندما استتات المكارثية في مكافحة اللأمريكية. وتأويل مترجم سيرة واشنطن ليس فيه شيء من الأرستقراطية والاستنتاج، فهو يطابق فكرة واشنطن ذاته الذي شكّا من المعارضة «المتشبهة بعجلات الحكم تشبث الوز الميت» تريد شلها، مفضلة، مصالح فرنسا على رخاء بلادها، ومؤيدة إياها ضد مصلحة الولايات المتحدة^(٣٦). وهذا ما يعني جريمة الخيانة في معناها الحقيقي، تتهم بها المعارضة اعتباطاً بإتخاذ اختلاف مشروع على سياسة الحكومة الخارجية ذريعة لذلك.

ازدادت المشكلة تأزماً عندما حجز الأسطول البريطاني سفناً أمريكية في تجارة مع فرنسا. وكان جيفرسون قد غادر الحكم في نهاية عام ١٧٩٣، وهذا ما عجل في ظهور النتيجة، وهي عقد معاهدة مع إنكلترا، بعد ثمانية عشر شهراً^(٣٧). ثم خلف واشنطن في رئاسة الولايات المتحدة جون أدامز بعد انتخابه في عام ١٧٩٦. فعمد أصدقاء هاملتون إلى القيام بحملة دعائية لتأسيس جيش قومي متخذين من التهديد المرعب بعدوان فرنسي على الولايات المتحدة الأمريكية سلاحاً لحملتهم، ومرسلين العنان لحقدهم على «الجمعيات الديمقراطية» وعلى جيفرسون الذي أصبح نائب الرئيس في عام ١٧٩٦، متهمين إياه بنشر مبادئ الثورة الفرنسية في الإلحاد والفوضى، والتي هي ضد الأخلاق من جوانب أخرى، وفي هذا التعبير تركيب من مفاهيم الحكم الديني الطهرية «البورتانية» ومن قومية المالكين ومحبته للنظام، أي ما تتألف منه الخلاصة الخالدة في الدعاوة الرجعية.

هكذا هيء الجو للنجاح في التصويت على نصين قانونيين (١٧٩٨) أحدهما ضد الأجانب الهدامين، (في نظر الحكم) والثاني ضد المواطنين المشتبه بقيامهم بنشاط عصياني، وإن ما فيهما من شدة، ينم على مخاوف المالكين وفي آن واحد على تصميمهم، إذ لا يثنهم شيء عن توطيد القانون والنظام: قانون ينتهك المبادئ الدستورية ونظام يقوم على الاستبداد.

قمع المعارضة

تم التصويت على نصي القانون المذكورين بأكثرية ضئيلة:

(٣٥) هنري كابوت لودج. جورج واشنطن ص ٢٧٤.

(٣٦) رسالة إلى باتريك هنري.

(٣٧) الفصل الرابع من هذا الكتاب.

فالأول، أي قانون الأجانب، Alien Law، نال ٤٦ صوتاً ضد ٤٠، وهو يحدد بخمس سنوات إلى أربع عشرة، مدة إقامة المهاجرين إلى الولايات المتحدة، شرطاً لحصولهم على جنسيتها، وهو موجه إلى الأيرلنديين خاصة، الذين يميلون إلى الثورة الفرنسية، لمعاداتهم إنكلترا وهو يخول الحكومة إبعاد «من تعتبرهم خطرين من الأجانب على أمن الولايات المتحدة وسلامتها، أو من ترى أن ثمة أسباباً تبرر ارتيابها في تورطهم بعمليات سرية ضد الحكم أو خيانتها».

والثاني، أي قانون التمرد، وقد وافق عليه ٤٤ صوتاً ضد ٤١، وهو يعد جنائية «نشر أي تصريح كاذب أو شائن أو خبيث، أو كتابته» إذا كان يمس الرئيس أو أحد مجلسي الكونغرس «بالشتمية أو الإحزاء»، أو بإثارة التمرد داخل الولايات المتحدة. وجريمة كهذه تقع تحت طائلة عقوبة السجن مدة سنتين وغرامة ألفي دولار. وهو مبلغ ضخم آنذاك. وهذا القانون، في رأي الحكومة، نسخة طبق الأصل عن نص وافقت عليه ولاية فرجينيا عام ١٧٧٦، غير أن أحد المؤرخين يلاحظ «أن إجراء متخذاً في أثناء الثورة ضد أنصار إنكلترا هو جد مختلف في وجه تطبيقه عن الإجراء ذاته عندما يطبقه حزب محلي على المعارضة الشرعية»^(٣٨). وهنا عقدة المسألة كلها: ففي أثناء حرب الاستقلال تعاون أنصار إنكلترا وتضامنوا مع العدو، بينما بعد مرور اثني وعشرين عاماً على ذلك، كان المتعاطفون وإياها، يطبقون الشدة ذاتها على المعارضة الدستورية التي لا سبيل إلى الشك في ولائها الوطني، والتي لولاها، لما كان على كل حال للديمقراطية وجود. ويرينا القانون الثاني (التمرد) كيف تستطيع أغلبية ضئيلة استغلال موقفها لتحول دون ممارسة «حقوق المواطن» التي أضحت جزءاً من الدستور، ثم بقرار شرعي كل الشرعية، لأن الكونغرس صوت على القانونين، كيف تستطيع هذه الأغلبية السبيل إلى أن تجعل محبتها للنظام تغلب على الشرعية الدستورية. وهي تنقيد بتوصيات واشنطن الذي حذر مواطنيه في خطابه الوداعي (١٧٩٦)، وبأبهى أبهة، من «نتائج روح التحزب المشؤومة».

كان واشنطن قد أدان كل المحاولات التي من شأنها «توجيه مداولات السلطات القائمة، الدورية وأعمالها، أو مراقبتها ومناوأتها أو إخضاعها للإرهاب» وهو يقصد بكلامه هذا الانتقادات التي أبدتها عليها الصحف وسياسيو المعارضة: فالديمقراطية، في نظره تكمن في التنافس الانتخابي الذي يعين الفائز، وعلى هذا الفائز، بعد ذلك، أن يحكم، من دون أن تزعمه المعارضة التي ينبغي

(٣٨) هنري جونز فورد—واشنطن وزملاؤه ص: ٢١٧.

أن يكون مثلها الأعلى التزام الصمت حتى الانتخابات المقبلة . أما إذا خرجت عن هذا الدور الضيق فهي إذاً متمردة .

ينبغي إذاً ألا تدهشنا تجاوزات عدد من القضاة ، أعضاء « المجتمع الراقي » في تطبيقهم قانوني « الأجانب والتمرد » . هكذا يهاجم رئيس المحكمة العليا ، ايلزورث ، أمام عدد كبير من المحلفين أنصار النظام الفرنسي ابتداء من حكومة « الدركتور » في باريس ، إلى نائب الرئيس الأمريكي ، (أي جيفرسون) ثم الأقلية في الكونغرس ، فهم دعاة الإلحاد والفوضى وسفك الدماء والسلب والنهب . وباستطاعة القاضي كوفمان ، وهو الذي حكم بالإعدام على الكرسي الكهربائي ، إبان الحرب الباردة ، على ايثل ويوليوس روزنبرغ ، محملاً إياهما « مسؤولية قتلى الحرب العالمية الثانية » ، أن يعيد إلى الأذهان سوابق بعيدة العهد لا شيء فيها من صفاء العدالة . والقاضي أديسون ، في بنسلفانيا ، تأخذه الحماسة والتأثر ، عندما يذكر ويصف أمام المحلفين فظاظة مشاعر المتهمين الذين ينتقدون حكومة الرئيس جون أدامز ، لأنهم « يخسرون » ، ثم يرسم لوحة رؤيوية عن « جرائم الثورة وأهوالها » .

إن قانون الأجانب الذي يسمح بالنفي دون محاكمة ، لم يطبق إلا قليلاً إذا ما قورن بغيره . إما قانون « التمرد » ، فقد حُكم بموجبه على النائب مایتو ليون ، (من ولاية فرمونت) ، بالسجن مدة أربعة أشهر وبغرامة قدرها ألف دولار لأنه صرح ، في أثناء الحملة الانتخابية (لإعادة انتخابه) بأن الرئيس يحدوه « ظمأً شديداً للترف الباذخ والمضحك » و« تملق جنوني وشح مشين » . وملاحظة النائب هذه تبلغ من الثبوت والصحة^(٣٩) ومن البعد عن روح التمرد ، ما جعله يفوز في الانتخابات

(٣٩) كان جون أدامز ، قبل تسلمه الرئاسة نائب الرئيس في عهد واشنطن ، أي رئيس مجلس الشيوخ أيضاً . وإذا كان مهتماً مع آخرين سواء ، بإحاطة الرئاسة الأولى ببعض الأبهة فقد زاد اهتمامه في معرفة ما إذا كان الرئيس سينادي بـ « صاحب السعادة » أو « صاحب العظمة » أو « صاحب الجلالة » . وعندما اقترح أحدهم أن يُسمى « السيد الرئيس » ، ساور جون أدامز القلق وقال : « عندما يأتي الرئيس إلى مجلس الشيوخ .. فما تكون حالي .. فأنا لن أُسمى « بالرئيس » آنذاك (أي رئيس مجلس الشيوخ) .. فأرغب أيها السادة ، أن تفكروا في تسميتي عندئذٍ . كان يُخيل إليه أن رئيس الدولة لا يمكن أن يكون رئيساً عادياً فقط ، فهناك ، كما يقول « رؤساء اطفائية ونوادي كريكت » . وكان مقر الحكومة في نيويورك ، وعدد سكانها آنذاك ، ٣٥٠٠٠ . فاختر جورج واشنطن ، يوم ممارسة منصبه لأول مرة أن يذهب إلى الكونغرس في عربة خيل ، أوصى بطلبها من لندن مزدانة بصور مذهبة لحوريات ولكيوبيد (إله الحب) ، تجرها ستة جياد في المناسبات الكبرى ، وأربعة في المناسبات الأقل شأنًا . أما توماس جيفرسون فعندما انتُخب رئيساً عام ١٨٠١ ، ذهب سراً على أقدامه لحضور جلسة الاقتراح ، ثم خفض عدد الجيش من ٤٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ فالرجلان كانا متنافرين حتى في أساليبهما الشخصية ، التي كانت تعبر عند واشنطن عن الميل إلى أبهة السلطة ، وعند جيفرسون عن البساطة الديمقراطية .

للمرة الثانية فوزاً باهراً وهو سجين في مكان ، من سخرية القدر وسخرية التاريخ والجغرافية أن يكون اسمه « فرجين Vergennes ، فقد نال ٤٥٧٦ صوتاً ضد ٢٤٤٤ لخصمه » .

أوقف أيضاً قسس وصحفيون وجنود . كما عوقب حضور لإجتاع ، نظمه أصدقاء جيفرسون ، بغرامة كبيرة . ونُهب وتُخرب مطابع وصحف للمعارضة ، باسم القانون والنظام . كما حُكم على رجل بالسجن مدة ثمانية عشر شهراً وغرامة قدرها أربعمئة دولاراً لأنه كتب « الشناعة » هذه : « لقد نشبت معركة حقيقية بين عناصر المجتمع النشطة وهؤلاء الأوغاد الكسالى الذين ابتكروا كل الوسائل التي استطاع الشيطان سبيلاً إلى ادخالها في أذهانهم ، ليدمروا عناصر المجتمع العاملة والنشطة » .

لم يقف أنصار جيفرسون مكتوفي الأيدي أمام الاستبداد الذي تفرضه تلك القوانين المجرمة . وإذا كانوا ضعفاء في الكونغرس ، حيث لا يؤلفون سوى أقلية ، فقد إنطلقوا في هجومهم المعاكس ، من ولايات عدة هم الأقوى فيها . وهكذا استطاع جيفرسون أن يحمل ولاية كنتوكي على إصدار قرارات تنص ، على أن الحكومة الفدرالية مادامت منبثقة من الولايات ، فمن حق هذه الولايات أن تتدخل لمراقبة أعمال الحكومة المركزية ، كذلك حمل جمس مادسون ، وزير الخارجية المقبل والرئيس المقبل ، ولاية فرجينيا على تبني قرارات مماثلة . أما العقيدة التي تحتويها تلك القرارات فقد تم التخلي عنها عند نشوب حرب الانفصال . وأخيراً أضحت القوانين الموضوعية ، ضد الأجانب وضد الفرد حبراً على ورق ، عندما حلت أكتية من أنصار جيفرسون محل الأغلبية الفدرالية . إلا أن روح هذه القوانين ستنبعث بأشكال مختلفة في أخطر مراحل الأزمة .

أما جورج واشنطن ، الذي استأنف حياته الخاصة في أرضه ، مونت فرنون ، فقد بلغ تقديره لأكثر تصريجات القضاة المترسبين محاكمات « الأجانب » و « المتمردين » جنوناً ، مبلغاً جعله يتخذ نسخاً عنها ليرسلها إلى أصدقائه طالباً منهم العمل على أن يتداولها الناس لينتشر الكلام الجيد ، وقد سبب له ميله إلى نظام تسلطي هجمات انتقامية من توم بين Tom Paine ، الهجاء العنيف ، وكاتب كراسة حقوق الإنسان^(٤٠) والقاتل : لقد رضي أول رئيس في تاريخ الولايات المتحدة بتأييده قانون

(٤٠) في « حقوق الإنسان » التي كان لها صدى ونجاح باهر في أميركا يُجيب توم بين عن أسئلة ادموند بورك الإنكليزي ، الذي انتقد الثورة الفرنسية (١٧٩١) . وقد أوصل جمس ماديسون نسخة عنها إلى جيفرسون فأجابه جيفرسون برسالة فيها كثير من الثناء مع إبداء أسفه « للبدع السياسية التي برزت عندنا » . وظهرت هذه الرسالة في مقدمة كراسة توم بين الهجائية فبدت انتقاداً لجون أدامز ، فرد عليه ابن هذا ، وهو جون كنيدي أدامز ، بامتداح الحكومة البريطانية .

التمرد أن يكون « غشاشاً » في الصداقات الشخصية ومنافقاً في حياته العامة « ومارقاً ودجالاً » (٤١) .

راهن الفدراليون ، عند تطبيقهما قانوني « الأجانب » و « التمرد » على عودة الملكية إلى فرنسا سريعاً . ومن الأدلة الكثيرة على ذلك ، هذا الحوار الممتع التالي الذي جرى في تشرين الأول ١٧٩٩ :

الكسندر هاملتون : قبل عيد الميلاد ، سيكون لويس الثامن عشر جالساً على عرشه .

جون أدامز : ومن سيجلسه ؟ ..

هاملتون : التحالف .

أدامز : آه .. إذا فالسلام على استقلال أوروبا .

لكن ما شأن ذلك ، فالأفكار الثورية التي تنتشر في أوروبا ، لا يمكن أن تكون ، في نظر المحافظين الأمريكيين ، إلا أسباب فلاق في الولايات المتحدة . ولكي يفلتوا من هذه العدوى ، هم الذين أدخلوا الجمهورية إلى العالم الجديد ، لا يرون حلاً سوى إعادة توطد الملكية في أوروبا . فاستتب النظام في داخل الولايات المتحدة يفترض سيادة هذا النظام أيضاً في العالم وأن تنطفئ بؤر التفكير الهدام خارج الولايات المتحدة . وقد نسج على هذا المنوال ، في القرن العشرين ، وورثتهم السياسيون الذين يشجعون ، في كل مكان في العالم ، تقريباً ، على ظهور أنظمة دكتاتورية أو على استمرار هذه الأنظمة التي تقوم نهجياً بانتهاك المبادئ الديمقراطية والتي تنسبها أمريكا المحافظة إلى نفسها .

فهل تكون الديمقراطية الحديثة لصالح الأمريكيين فقط ، وليس ، حتماً ، لسائر الشعوب الأخرى ؟ كثيرة هي الحالات التي يتطلب فيها إزدهار الديمقراطية الأمريكية أن تسحق تطلعات شعوب أخرى إلى الديمقراطية ، تحت أقدام الدكتاتورية . وعندما يتوقع هاملتون ويتمنى ، أن يجلس تحالف أجنبي لويس الثامن عشر على عرش فرنسا ، فهو يفكر تفكير الرؤساء المعاصرين الذين ساعدوا على إقامة أنظمة حكم استبدادية ، ومنها حكم العسكريين البرازيليين ، وبينوشيه ، وبادوبولس ، ونغودينه ديم ، وماركوس ، وسورهارتو .. والكثيرين سواهم فالنظام ينبغي ألا يسود في الولايات المتحدة وحدها ، بل في العالم .

(٤١) مؤلفات توم بين — الناشر : كوندلي (٤ أجزاء) نيويورك ١٨٩٤ — ١٨٩٦ (الجزء الثالث ص : ٢١٣ ، ٢٥٢ .

رسالة ديمقراطية

شاعت الفكرة في أن ثمة تناقضاً بين تطبيق الديمقراطية (تجربتها) في الولايات المتحدة وبين أحلافها من الدكتاتوريات في الخارج. ولو صح ذلك، لكان لا بدّ من الافتراض أن الديمقراطية الأمريكية ستحمل على أجنحة رسالتها الدعوة إلى انتشارها في العالم بأسره.

ومما لا ريب فيه أن الكثيرين من الأمريكيين، إذا ما أخذوا فردياً، قد اعتقدوا، كما اعتقد هرمان ملفيل Herman Melville، «أن أمريكا تحمل عبء حريات العالم». لكن الرسالة الديمقراطية، في الواقع، لم تهز الأمريكيين القائمين على السلطة. وقد حذا خلفاء واشنطن وهاملتون حذو هذين في معاداتهم التيارات التي ستقلب نظام الأوضاع القديمة رأساً على عقب، وإن كان نظاماً جائراً، لا يجاري التاريخ. وهم بتوهمهم أن رغباتهم حقائق واقعة، اقتفروا آثاماً جسيمة في تقدير التاريخ، وكما تنبأ هاملتون عام ١٧٩٩ بأن لويس الثامن عشر سيجلس بعد ثلاثة أشهر على العرش، كذلك في العام ١٩٤٩، جاء في التقرير الرسمي الذي يحدد سياسة الولايات المتحدة تجاه الصين الشيوعية أن نظام الحكم في بكين لن يلبث أن ينهار، وإن فئة جديدة من القادة الصينيين ستبرز على المسرح.

وكما أن مفهوم واشنطن وهاملتون للنظام الدولي يقتضيهما الاحجام عن أي مساعدة للجمهورية الفرنسية، كذلك قررت حكومة الولايات المتحدة عام ١٩٤٩، العمل على التعجيل في سقوط النظام الشيوعي الصيني بأحكام حصار تجاري شامل عليه.

على الرغم من ذلك، بعث ثلاثة رؤساء أمريكيين في القرن العشرين، الوهم بأن ثمة دعوة قوية تُدكي شعلة الديمقراطية الأمريكية وأن هذه تتجه طبيعياً إلى أن ترى انتشار أنظمة الحكم الديمقراطية في العالم من مصلحتها، وهؤلاء الرؤساء الثلاثة هم: وودرو ويلسون، الذي كان فصيحاً في حديثه عن عالم تسوده الديمقراطية. لكنه قام بتدخلات امبريالية في أمريكا اللاتينية أكثر من أسلافه^(٤٢)، تاركاً هنا وهناك أنظمة دكتاتورية عمرت طويلاً. وفرانكلن د. روزفلت الذي حمل متأخراً عبء توجيه الشعوب الحرة المناضلة ضد النازية والفاشية، لكنه ترك، بعد ذلك أوروبا الشرقية ترزخ تحت وطأة أنظمة تُسحق فيها الحريات الفردية، وجون كينيدي الذي أعلن أن

(٤٢) تدخلات عسكرية في المكسيك، ونيكاراغوا وسان دومينغ، وسانت دومينغ، وهايتي، وكوبا، وكوستاريكا وبناما والهندوراس وغواتيمالا. انظر كتاب «الإمبراطورية الأمريكية» الفصل الرابع «ولسون أو قناع المثالية».

الأمريكيين هم حراس معازل الحرية في العالم، لكنه أطلق مرتزقة الجاسوسية الأمريكية على كوبا، ثم أعد التدخل المكشوف في الفيتنام وترك التحالف من أجل التقدم، المعقود لدعم «الأنظمة الدستورية» في أمريكا اللاتينية، أداة لتكاثر الدكتاتوريات في القارة.

ولسون وروزفلت وكينيدي، حلموا، لا شك في ذلك، بتوسع الديمقراطية في العالم وتدعيمها لكنهم كانوا يمارسون سلطتهم في مجتمع، الغلبة فيه للإتجاه الرأسمالي على الديمقراطية واضحة في داخل الولايات المتحدة، منذ عهد هاملتون. وبمقتضى ترتيب الأولويات هذا، كان الإتجاه الرأسمالي وحده القادر على حمل «الرسالة» عبر الولايات المتحدة: رسالة الاستيلاء على منافذ وأسواق تجارية، ومواد أولية بسعر بخس، ويد عاملة بأجر زهيد. وكلما دعت الحاجة كانت هذه «الرسالة» الرأسمالية تسحق تطلعات شعوب أخرى إلى التمتع بحريات ديمقراطية.

وسواء داخل الحدود أم على المسرح العالمي، يتطلب توطيد الأمن والنظام سياسة قوة. وفي الميدانين كليهما توحى المتطلبات ذاتها باستخدام الوسائل ذاتها. فقمع عصيان الوسكي، ثم إصدار قانوني «الأجانب» و«التمرد» لا يبرزان سوى المراحل الأولى من تلك المحاولة المستمرة الهادفة إلى ربط الحريات والعدالة بالسلطة وبالامتيازات الاقتصادية التي ينعم بها المتنفذون. ثم يلي ذلك ويمتد إلى أكثر من ثلاثة أرباع القرن، الكفاح غير المتكافئ، بين المالكين من جهة، يدعمهم جهاز الدولة، ومن جهة ثانية العمال بمنظمتهم الضئيلة العدد، مع بنيتها المفرطة في الهزال، ومدة بقائها العابرة والسريعة. فقد توطدت سيادة القانون والنظام بلا صعوبات، بتضامن السلطات العامة وأصحاب المشاريع والأعمال المطمئنين إلى مساعدة الشرطة والقوة المسلحة والمحاكم. وتاريخ استتباب الأمن والنظام يختلط عندئذ بتاريخ توسع رأسمالي يضحي بالحريات الأساسية التي يطالب بها جمهور العمال (٤٣).

القانون والقمع

إن القمع الذي ضرج بالدماء مولد منظمات العمال لم يحل دون نموها نمواً بلغ غاية البطء .
والسناريو التقليدي كما رأينا ، يريد أن تستفيد ادارة الأعمال والمشاريع ، في حالة نشوب نزاع بينها وبين
عناصرها من العمال ، من مساعدة قوى الأمن ، عندما ما يعجز عملاء هذه الادارة ورجال التحري

(٤٣) الفصل الأول من هذا الكتاب.

الخاصون عن توطيد الأمن والنظام. وكان لابد من خطوة جديدة تتحقق، عندما تقرر السلطة الشرعية، بتشديد موقفها وتصلبه، تصفية جماعات أو تكتلات «هدامة» بمحاكمات صورية هزلية ولجوء إلى العدالة تدعو إلى السخرية.

أتاحت فتن هايماركت^(٤٤) ظهور أوسع المشاهد صدئ ودويًا لسير الجهاز السياسي القضائي، وهو في أوج استخدامه وعمله. ففي أيار من العام ١٨٨٦، كان قد أضرب زهاء ٣٥٠,٠٠٠ عامل في ١١,٥٠٠ مشروعاً ومصنعاً وحصل نصفهم على تخفيض العمل اليومي إلى ثماني ساعات دون إنقاص الأجور، إنما قبل هذا بمدة ثلاثة أشهر، كانت إدارة مصانع المعدات الزراعية في شيكاغو قد أعلنت توقف مصانعها عن العمل، وقد تطلب دخول محطمي الإضراب المأجورين إلى المصنع تدخل ٣٥٠ / شرطياً. فعمد المضربون إلى عقد إجتماع على كئيب من المصنع في ساعة انصراف محطمي الإضراب. وكان لا بدّ من مناوشات ومشاجرات استخدمت فيها الحجارة والقرميد. فأطلقت الشرطة النار وقتل أربعة عمال.

لم يكن نضال العمال حتى هذه المرحلة إلا بسيطاً، ولم تأخذ القضية أبعاداً جديدة إلا غداة ذلك اليوم. فقد عقد المضربون في هايماركت سكوير إجتماعاً للإحتجاج حضره ٣,٠٠٠ / رجل وامرأة وصبي (٤ أيار) وكان الإجتماع على وشك الانتهاء عندما أقبل النقيب «الكابتن» وارد، من الشرطة المحلية على رأس ١٧٦ / شرطياً، متدرباً بحجة فض إجتماع جرى دون أي حادث. وكان معظم المتظاهرين قد انصرفوا عندما انفجرت قنبلة.. وأطلقت الشرطة النار وفي أقل من دقيقتين أو ثلاث، قُتل ستة من الشرطة وجرح سبعة وستون، وضعفاً هذا العدد أو ثلاثة أضعافه من العمال. كان عدد الفوضويين كبيراً في صفوف العمال، لكنهم أنكروا أنهم رموا القنبلة واتهموا بها شرطياً قصد الإثارة. لم تول الشرطة قولهم أي اهتمام: إذ عليها أن تتأثر لموتها وتنظف المدينة من مشوري القلاقل الذين يخشاهم (الأناس الأخيار) خشية شديدة، وأن توقف المئات منهم وتقوم بالتحريات والتفتيش. بلا أمر، فالنظام لا يحتاج إلى احترام القانون!..

مضى أسبوعان ومثل أمام عدد كبير من الخلفين عشرة رجال متهمين بقتل أحد رجال الشرطة. استطاع أحد المعتقلين الفرار وأطلق سراح آخر، وبقي ثمانية قيد المحاكمة هم: بيرسونس اوغست سبايس، فيلدن، مكايل شواي، ادولف فيشر، جورج انجل، لوفس لينغ، اوسكار

(٤٤) الفصل الأول من هذا الكتاب.

نيب . والحادثة المجدبة بالملاحظة هي أن واحداً منهم فقط هو فيلدن كان موجوداً عند انفجار القنبلة .. إنما ، لا شأن يذكر لهذا ، فإتجاه الدعوى في منحى آخر وهو إتجاه لخصه النائب يوليوس س. غرينل ، بعد جلسات المحاكمة التي استمرت تسعة وأربعين يوماً ، عندما قال لهيئة المحلفين ، بتعبير تذكر بالدعاوى والمحاكمات التي جرت بموجب قانون التمرد ، قبل ذلك بمئة عام :

« القانون في محنة والفضى في دينونة . وهؤلاء الرجال قد فرزتهم هيئة المحلفين الكبرى (غرفة الاتهام) ، وقد أتهموا لأنهم كانوا من القادة ، فهم أكبر إنمأ من آلاف الرجال الذين يتبعونهم ، فأدينوهم أيها السادة المحلفون وجعلوا منهم عبراً لسواهم .. واشنقوهم تنفذوا مؤسساتنا ومجتمعنا » .

وهيئة المحلفين تفقه هذه اللغة ، وتصدر سبعة أحكام بالموت شنعاً وحكماً واحداً بالسجن خمسة عشر عاماً على نيب Neebe . وقد سجلت الدعوى أن بيرسونس كان في الإجماع ترافقه زوجته وأولاده ، وهو خطر ما كان ليغامر فيه لو علم بأن ثمة مؤامرة تُحاك . وأكثر من هذا ، إن ، مكاييل شواي ، ولوفس لينغ واوسكار نيب ما كانوا قط حاضرين . أما ادولف فيشر وجورج انجل ، فقد مكثا في بيتهم يلعبان بالورق ، لكن النائب العام عندما جعلهما من الفوضويين المعروفين و« من القادة » ، أقنع هيئة محلفين « سديدة التفكير » بأن تجعل منهم عبراً لغيرهم .

كان الحكم فاضحاً إلى حد أثار احتجاجات لا حصر لها في أمريكا وأوروبا ، كما حدث بعد مدة ، بشأن ساكو وفانزيتي ، ثم في محاكمات روزنبرغ . وقد بذل عدد من الكتاب والحقوقيين والنواب الخ .. الكثير من المساعي للحوول دون تنفيذ الحكم . وآتت حملة الرأي العام هذه بعض الثمار إذ خفضت حكم الإعدام على فيلدن ومكاييل شواي ثم شملهما العفو بعد ست سنوات ، مع اوسكار نيب في آن واحد . غير أن الهياج الشعبي الذي كان ثقل الوطأة على قرار المحكمة لم يهدأ مع الزمن ، كما أن حاكم الولاية جون ب . اتغلد الذي خفف العقوبة ، أثار ببادرته الشجاعة النقمة العامة على الحكم إلى حد سبب انتهاء حياته السياسية . وقد عقب دكستر بيركنس على الدعوى بقوله : « إن هذا الحدث لم يكن في مصلحة الديمقراطية الأمريكية »^(٤٥) .

أما المدانون الآخرون ، فلم يفلتوا من العقوبة ، فقد انتحر لوفس لينغ في زنزانته ونفذ الإعدام شنعاً في ادولف فيشر وجورج انجل (١١ تشرين الثاني ١٨٨٧) . لقد أخذت العدالة مجراها .. والشرعية أسيئت معاملتها .. ومع ذلك لم يسد النظام .

(٤٥) دكستر بيركنس ، الطريق الأمريكي ، نيويورك ١٩٥٧ .

كان الاجحاف بوضع العمال قد بلغ، في الواقع، حدّاً حافظ فيه الشعب على شد غضبه، وأدى إلى إضراب عمال المعادن في مصانع اندريو كارنيجي في هومستيد (١٨٩٢) وعمال بولمان (١٨٩٣)، وسائقي سيارات الشحن في شيكاغو (١٩٠٥)، وعمال مناج الكولورادو .. وفي كل منها كان يُصرع عدد من العمال^(١٦). وكأن الحكومة وقوى الشرطة وجهها، القضاء يعطون صورة غريبة عن الديمقراطية بوضع سلطتها في خدمة أصحاب المشاريع والأعمال مؤثرة حجبها النظام على العدالة والحرية.

هذه المرحلة، كما هي، إنما كانت عصر الكفاح البطولي من أجل الديمقراطية. وقد جرت محاكمة فوضوييها يماركت في القرن التاسع عشر. ولكن المجتمع يتطور، ويتحضر، ويقوم توازن القوى بوجه أفضل.. فلا تبقى ثمة جدوى، لتوطيد النظام، من اللجوء إلى هذه المحاكمات الصورية والهزلية. إن المستقبل ويا للأسف، يكذب هذه الرؤيا.

إزدهار وعزة قومية

طلع القرن العشرون في ظروف زادت حدة التوتر بين الحكوميين الذين لم يحققوا أي كسب، وبين المالكين الذين ينبغي لهم ويتحتم عليهم أن يفرضوا النظام على جماهير تزداد شغباً وغلياناً فتزداد معاملة النظام لها جوراً واجحافاً.

كان الإزدهار العام، المنحصر في أيدٍ معدودة، يبلغ أرقاماً تخطف الأبصار: فمن العام ١٨٨٠، إلى العام ١٩١٩ ارتفع الإنتاج الزراعي من ٢٤ مليار من الدولارات، إلى ٢٣٧ مليار من الدولارات، بينما ارتفع الإنتاج الصناعي من ٩٣ إلى ٦٢٤ مليار، وفي العام ١٨٦٠ لم تصل الصادرات الأمريكية إلا إلى ٤٠٠ مليون دولار، لكنها ارتفعت عام ١٩٠٠ إلى ١٤٩٩ مليوناً، ثم إلى ٨٦٦٣ مليوناً، في العام ١٩٢٠.

أما الخطوط الحديدية التي بُنيت بفضل الحكومة وتكرمت هذه بمنحها إلى الشركات الخاصة فقد حفزت هذا التوسع الاقتصادي الهائل، وأسس كبار رأسماليي الصناعة شركات التروست العمالة الأولى التي تستثمر يداً عاملة عددها في ازدياد مستمر، ومستعدة للعمل بأزهد الأجور، فقد استقبلت أمريكا في العقد الواقع بين ١٨٨٠ و ١٨٩٠، ٥٢٤٦٠٠٠ مهاجر ثم

(٤٦) الفصل الأول من هذا الكتاب.

١٨٩٠ و ١٩٠٠ ، وقد غادرت هذه القطعان البشرية أوروبا يدهدها الوصف المدهش للحياة التي تنتظرها في القارة الجديدة . وكان عملاء المشاريع الكبرى يجوبون أرجاء أوروبا ليخدعوا المهجرين للهجرة بوعودهم المعسولة الكاذبة . وفي مسالخ شيكاغو « كان الشيخ دورهام ينظم هذه الهجرات وقد أقسم أن يجعل في باكنغتون جماهير سكان من الحال أن يقوم بينها أي إضراب . ولذلك وجه إلى كل قرى أوروبا عملاء يروون القصص والأساطير عن سهولة العمل والأجور الجيدة في ستوك - ياردس . وتوافد الناس جماعات جماعات غفيرة ، وقد حطمهم الشيخ دورهام واستنفذ قواهم بانهاكهم في العمل حتى الرمق الأخير ، ثم بسحقهم ليستقدم سواهم » (٤٧) .

فما دامت قوة العمل هذه خاضعة للتجديد بلا حدود ، فهي لا تتمتع بأي حق من الحقوق : وإذا ما قضى أصحابها نجهم في أثناء العمل ، فثمة قادمون جدد مستعدون للحلول محلهم على الفور . وعلى « أرض اللجوء » هذه ، يستطيع أرباب العمل ، على نطاق أوسع من أي نطاق آخر في العالم في المرحلة الزمنية ذاتها ، أن يفرضوا تخفيضات متتابة في الأجور . وهكذا سجل تكديس رأس المال ، وهو عصب كل تصنيع سريع رقماً قياسياً . وهذا لا ينحصر في أمريكا وحدها ، بل إنه « العصر الجميل » ، الذي قدم فيه بلجيكيون وبولونيون للعمل في مناجم الشمال والشرق من فرنسا ، والايطاليون للعمل في الجنوب ، في موجات زاهرة ، سابقين ، بأكثر من نصف قرن ، العرب والبرتغاليين والترك ، وغيرهم ، راضين القيام بأدناً الأعمال لقاء ما يقيم أودهم ، ولكن ، في منعطف القرن ، كانت معجزة أمريكا ، في تجديد قوة عملها بسرعة لا عهد لأحد بها في أي مكان وأي زمان من العالم . فالمهاجر يمكن إخضاعه للضرائب وتسخيره إلى آخر رمق فيه . فهو كالحدم بعقود ، عبيد ، ما قبل الاستقلال ، البيض ، يلقي من سوء المعاملة ما لا يلقاه العبد الأسود ، الذي وظف فيه سيده ، عند شرائه ، رأس مال عليه أن يحميه . وإذا ما تمرد المهاجر فقد عمله وأحل محله مهاجر آخر يرضى بأجر أزهـد .

ليس المستخدم وحده المسؤول عن هذا النظام في العمل ، فحوله تتسلسل سلسلة من الناس الذين يجدون لديه ربحاً . ولا غرو أن تضرب رقماً قياسياً في الرواج ، قصص يوبتون سنكلر ، (أوائل القرن العشرين) ، التي تصف خيبات آمال المهاجرين : فالزهد الذي استطاع القادمون الجدد توفيره يذوب ذوبان الثلج تحت الشمس ، في هذه البلد ، حيث الغلاء الشديد بسبب الحواجز الجمركية المرتفعة جداً .. والمهاجرون الجدد تستغلهم الشرطة وينهبهم ويستغلهم « تجار النوم »

(٤٧) يبتون سنكلر ، الغابة (١٩٠٦) مجموعة (١٠-١٨) الجزء الأول ص : ١٨٦ .

يسكنونهم، سبعة أو ثمانية، في غرفة واحدة، ورؤساء العمال يقتطعون جزءاً من أجرهم، .. كما يستغلهم وينهبهم العملاء العقاريون والتجار الذين يعرفون السبيل إلى ربطهم بقروض مغشوشة. فعندما وصل أحد أبطال قصص يوبتون سنكلر إلى أمريكا، وهو يتدفق حماسة. فاكتشف كيف يسير هذا الجهاز المحكم، انهارت قواه وأحس أنه وقع في الفخ فهو قد «بدأ يدرك أنهم على صواب أولئك الذين هزئوا من ثقته الساذجة في النزاهة الأمريكية».

أحرزت النقابات بعض النجاح في حصر هذا السيل من اليد العاملة المستعد للرضى بكل شيء ولكسر الأجور، مثل منع دخول المهاجرين الصينيين (١٨٨٢)، ومنع كل من لا يحمل شهادة عمل (١٨٨٥) وكذلك المعسرین عام (١٨٩١) إلخ.. لكن جهودها اصطدمت بمعارضة ثنائية. فمن جهة معارضة المثاليين السذج الذي ظل الحلم الأمريكي في نفوسهم على صفائه، فهم يريدون أن يجعلوا من بلدهم ملجأ للناس جميعاً. ومن جهة ثانية معارضة (الابتزاز) تحالف أرباب العمل الراغبين في معارضة المطالبة بزيادة الأجور لجمهور العمال المستعدين للعمل بأي ثمن، وشركات الملاحة والخطوط التي تقوم بنقل المهاجرين، والقادة العمال (الصفير) الذين ينظمون عملية استخدام محطمي الإضراب، وكل هذه الفئة من المحتالين، سواء من أصحاب المساكن ومؤجرها أو من التجار ورجال الشرطة والقانون وغيرهم يستغلون بلا رادع القادمين الجدد الذين كانوا يجهلون كل شيء عن لغة البلاد وعاداتها، وبفضل جهودهم استقبلت أمريكا ٨٧٩٥٠٠٠ مهاجر من ١٩٠٠ — ١٩١٠ أي ما يساوي أكثر من ضعف العدد الذي دخل أمريكا في العقد السابق.

وهذه اليد العاملة المعانية ضنكاً شديداً، هي التي ستُتيح للصناعة إزدهارها، كما ستدكي غضب الشعب، وتحمض حماة الأمن على توطيد النظام.

افنعت الحرب الأسبانية الأمريكية (١٨٩٨) واحتلال كوبا وبورتو ريكو والفلبين الكثير من الأمريكيين أنهم غدوا دولة عظمى، ودعم هذا الشعور تقدم اقتصادي يأبى المستفيدون منه تقدير ثمنه الإنساني، كما كانت قد أخذت تسود كبرياء قومية جد شديدة، سيجعل الرئيس هاردينغ من نفسه في العام ١٩٢٠، شاعرها المداحة ليؤكد أنها لا تمت بصلبة إلى «الأناية القومية»، لأنها من وحي «الحماسة الوطنية»، ثم ليطلق شعار «أمريكا أولاً».

غير أن أمريكا هذه، ليست أمريكا الفقراء الذين يزودون التنظيمات العمالية والحزب

الاشتراكي والجماعات الفوضوية، بأفواج متكاثرة تكاثراً مستمراً. أما الفوضويون. فقد ذكروا الناس بوجودهم، بعد مرور خمسة عشر عاماً على قتل رفاقهم في هاجماركت سكوير، عندما قتلت رصاصاً مسدس أطلقهما ليون زولغورز، الرئيس ماكنلي. وأما نشاط «عمال العالم الصناعيين»^(٤٨)، فقد قوبل بمظالم إجتماعية، كما نشر الخوف في أوساط المالكين الأغنياء. ولما كانت أرباح المشاريع الطائلة قائمة على العمل بأجر زهيد يُدفع للمهاجرين، فقد جهد أرباب العمل في تشجيع انقساماتهم العنصرية واللغوية والدينية، كما وجهت وكالة شومان التي تقوم باستئجار محطمي الإضراب واختيارهم من أوساط أفقر الكادحين، الأمر التالي إلى ممثليها في شيكاغو:

«أذكر نار الأحقاد قدر الإمكان، بين الصرب والطلبان». وفي آن واحد، تم استقدام السود من الجنوب لاستخدامهم في إحباط الإضرابات وكسر الأجور. وهي سياسة قصيرة النظر تضمن أرباحاً مادية آنية، إلا أنها مهدت السبيل أمام فتن عنصرية اندلعت في المستقبل واقتضى الأمر، على رغم أنف العدالة، أن تُقمع، باسم النظام قمعاً وحشياً.

اضطهاد «الويليس Wobblies»^(٤٩)

ازدهار اقتصادي يلعب بالعقول، وتيه قومي حماسي. وخوف من كل تحرك شعبي، .. هذه هي العناصر التي تضافرت لتؤدي إلى مغامرة جديدة يُضحى فيها بحقوق الإنسان. وكما أُناحت الحرب الفرنسية الإنكليزية الفرصة لاستصدار قانوني الأجانب والتمرد كذلك ستكون الحرب العالمية الأولى ذريعة لقمع يتم على نطاق واسع.

فبينما كان الرئيس ولسون يبذل ما في وسعه لتفادي انجرار أمريكا إلى الحرب—وهكذا فاز بالرئاسة—، كانت قطاعات متباينة من السكان تنكب بعكس ذلك على زج البلاد في النزاع. ففي كل مكان، من المدن الكبيرة، كان رجال الأعمال وغرف التجارة والجمعيات الوطنية وغيرها، يسعون إلى إيجاد مناخ يلائم تنمية ميزانية وزارة الدفاع، فمعظم المشاريع تعرف أن لها ما تكسبه من ذلك. واندفعت مسيرات كبيرة تجوب الشوارع والطرق الرئيسية، لتبثي الرأي العام للقبول بمجهود حربي.

(٤٨) الفصل الأول.

(٤٩) تنظيم عمالي: (عمال العالم الصناعيون).

نُظم عرض كبير منها في ٢٢ تموز ١٩١٦ في سان فرانسيسكو وتوحي، كشأن هذه التظاهرات جميعاً، إثارة الحماسة الوطنية، ثم كما تقول لجنة القانون والنظام في غرفة التجارة بلا تمويه: افهام «أبناء الكلاب» هؤلاء و«القذرين» مثيري الفتن من العمال، أنهم يتخطون الحدود، وأن على المجتمع الصالح أن يبقى متيقظاً! انفجرت قنبلة في طريق الموكب، وكأن ذلك من قبيل الصدفة، فقتل على الفور ستة أفراد، وجرح أربعون، لم يلبث أربعة منهم أن فارقوا الحياة. وبلغ السخط ذروته.. من الجاني؟.. ولم يتردد أحد رجال التحري الخاصين في الإشارة إلى شخص اسمه توم موني.. وتوم موني هذا، هو، بلا شك، عنصر خطر، لأنه قاد منذ أمد قريب، إضراباً لعمال شركة الخطوط الحديدية المتحدة ومستخدميها إلى الفوز.

تدخل محام وحقوقى كبير، هو فيلكس فرانكفورت، سعيه روزفلت قاضياً في المحكمة العليا، لصالح المتهم، وأثبت بالبرهان، أن رجل التحري الخاص واسمه مارتان سوانسون، قد استخدمته الشركة المذكورة ليغدر بتوم موني. وفي الدعوى، استناداً إلى «إفادة» كاذبة اتضح فيما بعد أنها شهادة زور، حُكم على توم موني بالإعدام. غير أن لجنة تحقيق رئاسية أعربت عن شكوك جدية في مسؤولية المحكوم عليه. أما القاضي الذي ترأس المحكمة، فقد بلغ من قلة الشك في براءة توم ما دفعه إلى أن يتشبه بالطلب إلى ثلاثة حكام متتالين لولاية كاليفورنيا بإصدار عفو عنه. وأخيراً، تُخفف حكم الإعدام وأُستبدل بالسجن المؤبد، وفي النهاية أُطلق سراحه عام ١٩٣٩ حاكم من حكام «العهد الجديد». هكذا أمضى توم ثلاثاً وعشرين سنة في السجن بعد «طبخة» فظة، لأنه قاد إضراباً إلى الفوز. هذا هو ثمن توطيد الأمن.

لم يكن هذا إلا بداية أولى.. ومثلما كان يجري في عصر قانون التمرد، أتاح التوتر الدولي ذريعة لسحق المعارضة الأكثر جذرية. وقد أتاح الوسيلة الشرعية لذلك قانون التجسس الذي وافق عليه الكونغرس عام ١٩١٧. والرجل الذي أُثمن على هذا العمل هو ميتشل بالمر، وزير العدل، ذو السلطة على قوى الأمن والشرطة. وعلى الفور طبق على صحف اليسار أسلوب رقابة مرن: وهو أن ترفض مصلحة البريد الفدرالية، نقل هذه الصحف بالبريد العادي. وحصل جنود وبحارة على إجازات خاصة—الأمر الخالي من كل شرعية—على أن يهاجموا أعضاء تنظيم عمال العالم الصناعيين (الويليس أو I.W.W.). وانطلق هؤلاء المجازون إلى عملهم بكل حبور، فخطفوا بعض عمال الويليس وطلوهم بالقطران وشكّوهم بالريش، وتركوهم في صحراء الأريزونا.

وكان المسؤول عن توطيد الأمن، للمرة الثانية أيضاً، ذا خلق يُثير الريبة. فهو ذاته الذي

أوكلت إليه ، عام ١٩١٧ ، عندما تدخلت الولايات المتحدة في الحرب العالمية ، مهمة مصادرة الأملاك والأموال الألمانية والنمساوية وحجزها ، وقد قُدرت قيمتها بـ ٦٠٠ مليون دولار . وعندما بيعت ، اغتنم هذه الفرصة ليُتيح لأصدقائه صفقات رابحة ، فأنصار النظام ليسوا متزمتين كثيراً وميتشل بالمر يلائمهم كل الملاءمة .

في ٥ أيلول ١٩١٧ دفع ميتشل بالمر رجال الشرطة إلى الانقضاض على الوبليس في خمس عشرة مدينة ، وخلال أربع وعشرين ساعة ، أوقف ١٦٢ مناضلاً منهم ، مع زعيمهم بيغ بيل هايوود^(٥٠) . بتهمة خرقهم قانون التجسس . ثم أعتقل ألفان وجرت محاكمة ١١٣ منهم في أربعة أشهر . كذلك حُكم في العام ١٩١٨ على الزعيم الاشتراكي يوجين ف دبس الذي رُشح للرئاسة عدة مرات ، بالسجن عشر سنوات بتهمة مناوأة النزعة العسكرية ، وبعد مرور ثلاث سنوات ، طلب ميتشل بالمر من الرئيس ولسون إصدار عفو عن يوجين ف دبس الذي كان قد بلغ السنة الخامسة والستين من عمره ، فُرد الطلب ، مع كلمة واحدة ، بخط الرئيس هي : « مرفوض » . لكن الرئيس وارن ج . هاردنغ عفا عن الزعيم الاشتراكي الشيخ .

إن القمع بموجب قانون التجسس ، كما دل على ذلك إضراب ٣٥٠.٠٠٠ من عمال المعادن في أيلول ١٩١٩ (ومصرع ٢٠ عاملاً بأيدي قوى الأمن) ، لم يستطع سبيلاً إلى تثبيط عزيمة العمال المناضلين . وعلى الرغم من توقف الأعمال الحربية ، ومن أن قانون التجسس هو بكل وضوح قانون حرب ، استمرت قوى الأمن في عملها . وكان ميتشل بالمر يلجأ في خطبه إلى التهويل الخرافي ، فمما يقوله : « إن النار الثورية تجتاح كل مؤسسة من مؤسسات القانون والنظام الأمريكية ، اجتياح النار المروج » . وولسون الذي بدا قلقاً من شدة اندفاع وزيره ، لم يفعل شيئاً لإيقافه ، واكتفى بأن يقول له في نيسان ١٩٢٠ ، في أثناء إجتماع للوزراء : « لا تدع ، يا بالمر ، هذا البلد يستشيط غضباً » . غير أن رجال الأعمال يشتهون رؤية البلد هائجاً .

تنبأ ميتشل بالمر ، عند اقتراب أول أيار ١٩٢٠ ، أن مئات آلاف « البلشفيك » سيطيحون بالحكم ، ويرفعون العلم الأحمر خفياً على هضبة الكابتول ، في ذكرى حوادث هابركرت سكوير . وكان قد أوقف في شهر تشرين الثاني ، عدداً من اليساريين في عشرين مدينة منهم ٢٠٠٠ في نيويورك . وفي ٢ كانون الثاني ١٩٢٠ ، وجه غارات الشرطة على الشيوعيين والوبليس ، وهم في مرحلة

ضعفهم وتقهرهم، في ثلاث وثلاثين مدينة. اعتقل ٥٠٠ منهم في بوسطن، وتم العمل بموجب قانون الأجانب، إنما على نطاق أوسع، وأصدرت المحاكم قراراتها بطرد ٥٥٦ أجنبياً، منهم ٢٤٩ روسياً، كانوا قد هربوا من نظام حكم القياصرة، كما حكمت محاكم شيكاغو على ٢٠ شيوعياً، أو متهمين بالشيوعية، بالسجن من سنة إلى خمس سنوات. وفي ولاية كاليفورنيا وحدها ٢٦٤ حكماً. وقد عفا عن بعضهم، فيما بعد، حكام ولايات ليبراليون، يحترمون الدستور والحريات. غير أن البلد، ظل، آنذاك، تحت سيطرة هستريا تمهد الطريق للماكارثية وتجسدها.

لم يكن وزير العدل ميتشل بالمر وحده الذي شن هذه الحملة على المعارضين. ولنذكر مثلاً واحداً، هو بلاغ نشرته ووزعته شركة تأمين المستخدمين الأمريكية، المختصة في خدمة أرباب العمل، في حملتها على النقابيين، وهذا نصه :

« إذا كان هناك نزاع عمل أو إضراب يهددك، يمكنك الاتصال بنا على الفور وسنهتم بأمرك. وإذا شئت أن تدس عميلاً بين عمالك، سنرشدك بالرجل المنشود الذي سيقدم لك تقارير يومية عما يجري. في الإضرابات، سنرسل من يحل محل أي عامل يعتمد على الإضراب ».

الحكم على ساكو وفانزييتي

لم تكن حملة القمع المسعورة هذه ضد الثورة، في مدى استهدافها رجالاً معظمهم لا يريدون ثورة، بل احترام حقوقهم التي ضمنها لهم دستور البلاد الديمقراطي. إنها، في معناها الحصري، حتى لا ديمقراطية تجهد من أجل توطيد نظام لادستوري ينتهك الحقوق الأساسية. وقد بلغت هذه الحمى ذروتها في قضية ساكو وفانزييتي.

عندما شن رجال الشرطة غاراتهم، تنفيذاً لأمر ميتشل بالمر عام ١٩٢٠، أوقف سراً في نيويورك، عامل طباعة اسمه اندريا سالسيدو، رغم أنف القانون، وبكل امتحان للقاعدة التي تقضي باستصدار أمر قضائي بالتوقيف، واستمر اعتقاله خفية في دوائر الشرطة ثمانية أسابيع، وليس من يعرف كيف عومل خلال هذين الشهرين إذ أنه وثب، أو دُفع دفعاً من الطابق الرابع عشر من المبنى الذي كانت تعتقله فيه الشرطة. قام أصدقاؤه على الفور بتنظيم مظاهرة احتجاج أدت إلى اعتقال صديقيه الفوضويين الطليانيين الأصل ساكو وفانزييتي، في ٥ أيار، بينما كانا يوزعان منشوراً يدعو إلى حضور الاجتماع المقرر عقده في ٩ أيار.

فوجئ ساكو وفانزيتي بتهمة قتلها موزع بريد، منذ ثلاثة أسابيع، في ثاوث برانترى (من ولاية الماساشوستس)، ليسرقا منه ١٥٠٠٠ دولار. استمرت المحاكمة التي بدأت في العام التالي سبعة أسابيع. وكانت الشهادات التي قدمتها جهة الاتهام متناقضة، بينما أقسم تسعة من شهود الدفاع، ومستخدم في قنصلية إيطاليا، أنهم شاهدوا ساكو في بوسطن، في ساعة الجريمة وأقسم ستة شهود آخرين أنهم رأوا فانزيتي، في الوقت ذاته، على مسافة ٣٥ ميلاً من ثاوث برانترى.

لم يُعر القاضي، وبستر تاير، رئيس المحكمة، هذه التفاصيل أي اهتمام، بل كان أكثر وضوحاً من النائب العام في دعوى فيوضوي هابماركت سكوير، عندما صرح مخاطباً المحلفين ومشيراً إلى فانزيتي بقوله: «إن هذا الرجل، على الرغم من أنه قد لا يكون، في الواقع، قد ارتكب الجريمة المعزوة إليه، هو مذنب معنوياً، لأنه عدو المؤسسات القائمة».

أخذ المحلفون بتوصية القاضي من غير أن تطرف لهم عين، وحُكم على الرجلين بالإعدام. ويؤكد رئيس الدائرة العدلية ومخبر خاص في قوى الأمن أن الحكومة تعلم أن ساكو وفانزيتي بريهان. مع ذلك، نُفذ فيهما حكم الإعدام في آب ١٩٢٧. وهذه المدة الطويلة التي تجاوزت ست سنوات بين صدور الحكم وتنفيذه قد أجاد استغلالها أنصار النظام المحتاجون إلى الإيمان بنزاهة العدالة الأمريكية وعصمتها. فهم سيوضحون كيف أن المحكوم عليهما قد استفادا من كل المساعي والمراجعات والطعون القضائية. وقد لُجئ إلى الحجة ذاتها، بعد انقضاء ربع قرن لتبرير إعدام يوليوس وإيثيل روزنبرغ. لكن فلكس فرانكفرتر، القاضي في المحكمة العليا، سيؤكد في كتابه الحقوقي أن إعدام ساكو وفانزيتي هو حالة مأساوية من مهزلة العدالة. إنما ما قيمة ذلك، مادام أولياء النظام ورجاله محتاجين إلى الطمأنينة وإلى الثقة المطلقة في مؤسسات البلد. لذلك، بعد ثلاثين عاماً خلت، رُفض طلب إعادة محاكمة ساكو وفانزيتي، بينما كان كل شيء يدعو إلى قبوله وفرضه. والاحتمال الذي لا حدود له، هو أن إعادة النظر في دعوى روزنبرغ لن تُقبل أبداً. ولقد عرفت أمريكا قضايا شبيهة بقضية دريفوس، أي حالات تمكنت فيها العدالة من تجريم أبرياء، استناداً إلى شهادات مزورة. ولكن «قضية دريفوس تعني، أيضاً، إعادة النظر في الدعوى (إعادة المحاكمة) وإعادة اعتبار المحكوم عليهم». وأمريكا تجهل هذا النوع من عذاب الضمير. وتوطيد النظام يستحق كل الاستحقاق أن لا تعترف العدالة بأنها معرضة للخطأ.

الخوف من الأجانب

لا سبيل إلى فهم قضية ساكو وفانزيتي، وبعدها قضية روزنبرغ وتفسيرهما، إلا بهذا الخوف الشائع في الرأي العام. ومن العجيب، ألا يكون في هذا البلد، الذي تُولف فيه الأقلية الهندية جماعة من السكان الأصليين الوحيدة، أمر طبيعي مثل الخوف من الأجانب. وسواء بوعي أو لاوعي، إن التمييز العنصري، في معناه الواسع، الذي يمد هذا الخوف ويُبقي عليه، هو رد فعل ينفر من كل ما يخالف ذلك. والحلم الأمريكي يحمل في ذاته رغبةً شديدةً في الانسجام، ينبوع السلام الاجتماعي، الذي سرعان ما تردى إلى نقيضه وضده، الذي هو تطلع غامض إلى التجانس.

والانسجام، يفترض في تعريفه، وجود فوارق تبرز تباينها، مهما كانت عميقة، في مجموع أو مجمل متحرك ومتزن. أما التجانس، فهو على النقيض، يكتسب التطابق المطلق مع نموذج تم وضعه، سواء في المظهر الخارجي أم في المعتقدات الباطنية (الداخلية)، وهذا (التجانس)، إذ يخل بكل توازن، ينزع إلى فرض نفسه فرضاً موحداً ويرمي بالشك والريبة كل المنحرفين الذين يرفضون بترو الضوابط والمعايير السائدة، أو الذين يعجزون عن تطبيقها.

إن الحلم بإقامة مجتمع منسجم لا يؤدي إلى التساهل البسيط، بل إلى البحث عن تباين المركبات الاجتماعية، التي تُغني بعضها بعضاً وتتبادل الرشد: إنه حلم بالحرية التي لا يبتغيها المرء لنفسه وأشباهه فحسب، بل «للمختلفين» المغايرين، بينما، بعكسه، ينطوي الحلم بمجتمع متجانس، على الخوف من كل فرق في الأوضاع، وفي السلوك والآراء وأنماط الحياة والعيش، لأن هذه الفوارق تُدرك وتحس، على أنها خطر يهدد المجتمع،.. إنه حلم بالتعصب، والتعصب يستدعي الامتثالية والاستبداد. أما المجتمع المنسجم فلا يخلو من توترات حية، مؤاتية لكل ابداع وقدرة على الابداع، بينما يكون المجتمع النازع إلى التجانس، في عجزه عن إزالة التوترات التي ينبغي تفادها، مدعواً إلى إخضاعها إلى نظام إكراهي، فاضاً، بطرق مرنة، امتثالية متحركة لكل ابداعية، ومصيرها إلى العقم والجذب.

يتجابه هذان الحلمان عبر تاريخ الولايات المتحدة، ومثل تاريخ كل مجتمع في حركة، منذ النزاع بين «الطهرين Puritains»، من جهة الذين أسسوا الطوائف الاجتماعية على الامتثالية والنظام والسلطة، وبين أنصار روجر ويليامز، من جهة ثانية، وآن هوتشن وتوماس هوكر، الذين جسروا

على تحدي استبدادية الطهرين وفضح ربايهم وكذبهم ، وعلى إقامة جمعيات ديمقراطية ما يزال التنوع والتفاوت قانونها الأساسي .

عندما قام واشنطن رئيساً على مصائر الجمهورية ، تلقى من إحدى جامعات جنيف عرضاً بنقل مجلس أساتذتها بكامله ، إلى الولايات المتحدة لتأسيس جامعة وطنية كبرى . وقبل هؤلاء الأساتذة ، فرداً فرداً ، إلا أنه رفض قبول هذه « الهيئة من الأجانب برمتها » . وهو يشرح في رسالة إلى جون أدامز أسباب « رفضه وجودهم كهيئة كاملة متكونة » . فهو إجراء خطر ، إذا ما أتوا كتلة واحدة ، فهم كما كتب يقول : « سيحتفظون باللغة والعادات والمبادئ ، سيئة أم صالحة التي يحملونها معهم . أما العكس ، أي إذا اختلطوا بشعبنا ، فهم ومن سيتحدرون منهم ، سيتمثلون أعرفنا وسننا وقوانيننا ، وبإيجاز ، سرعان ما سيغدون جزءاً من شعبنا » أما إذا قدموا مجموعة واحدة ، فسيعيشون ، بعضهم بين بعض « أجانب » مختلفين اختلافاً كبيراً عن الآخرين .

على أن الـ « ميلتن بوت » ، وهو البوتقة التي ينبغي للمهاجرين من كل الأجناس أن ينصهروا فيها ، لم يسر ، وما للأسف ، كما ينبغي أيضاً ، لينجب هذا المجتمع المتجانس . فتمة بضعة عشرات الملايين من الأفراد الذين لا يطابقون الطراز القائم من قبل ، والذي أتى به المستوطنون الأوائل وتآلف منهم وهم ، البيض ، والآنكلو — ساكسون والبروتستانت ، ومن الذين استطاعوا ، سواء الجرمان و السكانديناف ، أن يتمثلوا به أكثر من سواهم . والإتجاه الديمقراطي ، يسعه في رؤيا مثالية ، أن يدمجهم على قدم مساواة إنسانية . غير أن الإتجاه الرأسمالي في غني عن هذا الحلم الرئوي (الطوباوي) ، وعليه أن يأخذهم ويحتفظ بهم كما هم ، على فقرهم وجهلهم ، لا يكادون يقدرّون على القيام إلا بأوضاع الأعمال بأزهد الأجور . هذا هو السبب الوحيد ، في مفهوم الملاكين والصناعيين ، الذين يبرر قبولهم ، لأنهم ، إذا ما أستغلوا بقسوة وشدة ، ظلوا فقراء ، إذاً مهينين للقيام بأكره الأعمال وقبول أزهد الأجور . لكن لا يلبث أن يظهر ، فجأة ، « اختلافهم » وفرقهم عن الآخرين ، فيبدون خطرين في نظر قطاع من السكان ، قليل جداً ، إنما هام ، ثم يُطردون من البلاد . أما الذين يستغلون هؤلاء « الشاذين » ويخافونهم ، فسيضافرون جهودهم ، ليفرضوا عليهم ، عند أول إشارة استياء ، باسم النظام والسلطة ، قواعد سلوك صارمة .

من البديهي أن يكون الأسود في الصف الأول من الذين يفترقون بهذين الجهر والوضوح عن الطراز القائم من قبل ، فالتباين الذي يناقضه ويعارضه بالنموذج ، مشهود وجلي ، فينبغي القيام بكل

ما من شأنه أن يُقَي هذا الأسود في معزل^(٥١). أما المهاجر الإيرلندي، فهو مهما كان، أبيض، سيقى أجنبياً لأنه فقير وكاثوليكي. لذلك، لم تكن جمعية الكو-كلوكس-كلان، منذ تأسيسها ضد السود فحسب، بل في آن واحد وفي غاية الجلاء، ضد الكاثوليك. وللسبب ذاته أيضاً كان الـ «موللي ماغيزز» الذين قاموا في بنسلفانيا بإضرابات كبيرة وقادوا إضراب عمال مناجم الانتراسيت^(٥٢)، مبعث ذعر شديد، لأنهم خارجيون إجتماعياً ودينياً، وسيُعدم زعمائهم. وأما المهاجرون الطليان، فليس ضدهم ديانتهم، التي هي غير ديانة الأغلبية، فحسب بل معرفتهم اللغة الإنكليزية معرفة سيئة، أيضاً، فساكو وفانزيتي أكبر إثمًا (لأنهما إيطاليان). وهذه كانت حالة السلاف، عندما غدوا طريدة فاخرة لغارات رجال الشرطة الذين أطلقهم ميتشل بالمر... كلهم كانوا من أمريكا العصر، ما هم عليه العرب من أوروبا اليوم: فقراء، يُستخدمون في أعمال وضيعة، لا يجيدون لغة أهل البلاد «أجانب»، ثم من البديهي، مشهورين بـ «عنفهم».

وعلى ذلك، إن هؤلاء المحقوتين (غير المرغوب فيهم)، سيتساهل المجتمع الأمريكي في أمرهم، برغم ذلك، إذا ما التزموا مكانهم صاغرين، داخل نطاق دورهم المحدد الواضح في العمل بأجر زهيد. أما أن يرفع الأسود رأسه، وأما أن يحتج الطلياني أو الروسي على الاستغلال الذي يستعبدهم، فهم، على الفور، سواء على عتبات معاملهم، أو أمام أقواس المحكمة، سيثرون الانتباه إلى الفوارق التي تعارضهم بالتمودج الأبيض، الانكلو-ساكسوني والبروتستانتية. وهي فروق واختلافات، لا في الهيئة والمظهر فحسب، بل في المعتقدات أيضاً. أما إذا كان أحد مثيري القلاقل يطابق التمودج، فهو يملك شيئاً ما مألوفاً، ومُطمئناً. وأما «الموللي ماغيزز» أو ساكو وفانزيتي، فهم مجرمون لسببين، أولاً لأنهم عمال مناضلون أو نقابيون أو فوضويون، وثانياً، لأنهم أجانب غرباء.

هذا الخوف من الاختلاف سيتطور رويداً رويداً ليصبح بكل وضوح سياسياً أو عقائدياً وستلاحق المكارثية أمريكيين بيضاً. لكن الطلاب البيض الثلاثة الذين قُتلوا في أوائل الستينيات في الجنوب، حيث كانوا يدنون أسماء سود على اللوائح الانتخابية، قد كانوا ضحايا لأنهم يهددون النظام العنصري، وفي آن واحد، لأن اثنين منهم يهوديان، وهذا شأن روزنبرغ، فهما مسؤولان لأنهما يدعوان إلى مبادئ تقدمية ثم لأنهما يهوديان.

لم تُؤخذ أغلبية السكان الساحقة بهذه الهستيريا، وهي التي تلقت المهاجرين الجدد بحفاوة..

(٥١) الفصل الثالث.

(٥٢) الفصل الأول.

إنما خلال التاريخ، تجرأت قلة ضئيلة على فضح آثار هذه المستريا. ونتائجها الخبيثة، بينما هناك أقلية تفوقها كثيراً بعددها اشتركت في هذه المستريا. وهكذا كانت ملاحقة «الاختلاف» والفرق تلقى، في فترات الأزمات والتوتر متطوعين لها، يتدفقون نشاطاً.

المتطوعون لتوطيد النظام

الأجنبي، في الحرب العالمية الأولى هو، بصورته المثلى، الألماني أو النمساوي، وشركاؤه: الإيرلندي الذي يتمنى هزيمة إنكلترا، والعامل المتأثر بالسياسة، المعادي حرباً يعتبرها نزاعاً امبريالياً فقط، سواء كان اشتراكياً أو من الوبليس أو فوضوياً.

كان لا بدّ للسلطات المتشكلة شرعياً، كي تقوم بالعمل الذي ألقاه على عاتقها قانون التجسس، من أن يطغى عليها الإرهاق. فقبل تأسيس مكتب الاستعلامات الفدرالي F.B.I، كان سلفه، مكتب المباحث، لا يضم سوى ٤٠٠ عنصر لمراقبة أكثر من مليون من الأعداء المقيمين في الولايات المتحدة. فوجه نداءً إلى السكان يحثهم على مطاردة الجواسيس. وسرعان ما أصبح «حلف الحماية الأمريكي (A.P.L.)»، الذي اتخذ مقره في شيكاغو، يضم ٢٥٠.٠٠٠، منظمين في فصائل تجوب المدن الكبيرة، يراقبون من يعدّونهم من جيرانهم مخالفين، أي مشبوهين... وكان شأنهم في ذلك شأن أسلافهم «الساهرين» الذين كانوا يفرضون إرادتهم قانوناً في مرحلة الزحف نحو الغرب. وكانت فرصة أتيحت لتصفية حسابات متنوعة. وأحقاد قديمة وعداوات، ووضع حلول عملية لها. وقد بلغ تدفق المكتتبين للتطوع حداً اقتضى تعليق قبول الانتساب. واضطرت التجاوزات الوزير ماكادو إلى الإحتجاج بقوة مدكراً بما كان لـ «أبناء الحرية» في أثناء الثورة من مبالغات وإفراط. في شل الموالين لإنكلترا عن العمل. وأحياناً للاستيلاء على أموالهم فقط. وأخيراً كان على الرئيس ولسن ذاته أن يتدخل ويعلن «أن ثمة خطراً كبيراً في أن يقوم المواطنون أنفسهم بتطبيق القانون» (٥٣).

لم يكن في الواقع، ما هو أشد خطراً، من تشجيع الوشاية رسمياً، ولا سيما أن فاعلية الـ A.P.L. تمتلك جذوراً قديمة جداً. وإذا لم تكن «مطاردة الساحرات» من عمل أغلبية من السكان، فكثيراً ما كان لا مسؤولون مستعدين لإطلاقها على ما يبدو لهم أنه يهدد النظام. وقد

(٥٣) دون واتنيد، مكتب الاستعلامات الفدرالي - الناشر مورغان باريس، ص: ٥٦ - ٥٨.

التقى ٢٥٠.٠٠٠ متعصب الذين ضمهم الـ A.P.L، (حلف الحماية الأمريكي) بغيرة رجال الدين الطهريين الذين دعوا القرويين، في القرن السابع عشر، إلى الوشاية بأعمال جيرانهم «الشريرة»، الذين كانت اعترافاتهم، بعد الوشاية، تُنتزع بالعنف، وهذا ما كان يُتيح للقضاة أن يحكموا بلا دليل. وهكذا أُعدم أربعة عشر شخصاً في الكونكتوك والماساشوستس. وخلال موجة ثانية من الاضطهاد (١٦٨٨-١٦٩٣)، اجتاحت إنكلترا الجديدة بأسرها، أُعدم تسعة عشر شخصاً، وحُكم على ثمانية بالإعدام، بينما كان خمسون قيد إكراههم على الاعتراف، ومئة وخمسون في السجن عندما فُرت سورة الاضطهاد^(٥٤).

ينبغي أن لا ننسى هذه الحوادث البعيدة العهد، فهذا الجنون ذاته، دفع جماهير المتظاهرين في الخمسينيات، وهم يطالبون بإعدام الـ روزنبرغ، إلى إشهار لوحات كُتبت عليها «أحرقوهم على الكرسي الكهربائي»، وكما طالبت جماهير أخرى في آخر القرن التاسع عشر بإعدام فوضوي هائمركت، على الرغم من براءتهم.

يربط المؤرخون الأمريكيون، بين هذه المستيريا القاتلة والتيار المسمى بـ «الفطرية» القليل العدد، إنما شديد الفاعلية، الذي أقام نفسه حارساً للنقاء الأبيض الانكلوس-ساكسوني والبروتستانتية. فالحلم بمجتمع متجانس، كان قد أُنعش، في العصر الاستيطاني، الحركة المسماة «توراة الكومنولث» والتي ترى أن الوسيلة المثلى لفرض التقيد ببعض المعايير على المواطنين جميعاً، تكمن في تحالف وثيق العرى بين الكنيسة والدولة، على أن تقتصر المناصب العامة على الطوائف البروتستانتية الكبيرة، واقضاء الكويكرز والكاثوليك عنها. وعاد التيار نفسه إلى الظهور بشكل آخر بعد الثورة، وأدى إلى صدور قانون الأجانب (١٧٩٨)، ثم تبلور في حركة Know Nothings، السرية التي استخدمت المحافل «الفطرية» لإجراء الانتخابات في إنكلترا-الجديدة والمارييلاند، وكتيوكي، ومدت نفوذها إلى الجنوب. وقد بلغ التطرف ببعض المتعصبين، مثل صموئيل فـج مورس، إلى أن يطلبوا في العام ١٨٣٥، بأن لا يُحظر حق الانتخاب على المهاجرين فحسب، بل على سلالته أيضاً، صيانة لسيادة الانكلوس-ساكسون البروتستانت^(٥٥). وتنظيم الـ «نوناثغ» في حزب سياسي يدل اسمه على هويته وهو «الحزب الأصلي (الفطري) الأمريكي»

(٥٤) أمريكا الاستعمارية-بارك وتالماج-الناشر: لاقتر نيويورك ١٩٥٨-ص: ١٣٨٩-٣٩٠.

(٥٥) في السنوات الخمسينيات طلبت الحركة أن تقتصر الأعمال الانتخابية على المواطنين الذين يتمتعون بالجنسية الفرنسية من ثلاثة أجيال.

American Native Party ، الذي أعلن كرهه للأجانب بكل فظاظه ، قائلاً : « لقد بعثوا بالمهاجرين إلينا ليعدوا ثروة تهدم الحرية الجمهورية لصالح حق الملكية الإلهي .. وهم يؤلفون في أمريكا جسماً غريباً بمشاعرهم وأفكارهم المنحازة وبطرقهم وسلوكهم » .

اشتد هذا التيار ولا سيما أن الهجرة الكثيفة قد قلت ضرورتها لأسباب اقتصادية ، كما أن الكونغرس ، تحت ضغط أكثر أعضائه تعصباً قومياً ، مثل هنري كابوت لودج ، وتحت ضغط النقابة المحافظة التي تحمل اسم العمل الأمريكي ، وتريد حماية ما تتمتع به الأرستقراطية العمالية من امتيازات نسبية ، أقر ، لكبح جماح الهجرة في عامي ١٩١٢ و ١٩١٣ قوانين ، اصطدمت أولاً باعتراض الرئيس تافت ، ثم باعتراض الرئيس ولسون . غير أن الكونغرس استطاع عام ١٩١٧ ، عام قانون التجسس ، الحصول على الأغلبية المتألفة من ثلثي أعضائه ، فأتاح له ذلك إصدار القانون ، دونما حاجة إلى توقيع الرئيس . ثم وضع الكونغرس ، في العام ١٩٢١ ، (عام دعوى ساكو وفانزيتي) ، نظام كوتا يحدد عدد المهاجرين الأوروبيين سنوياً بـ ١٥٤٠٠٠ ، فأمريكا ، ملجأ الناس ، تحتمي من هؤلاء الأجانب الذين بنوها ، إنما غدا يتسرب إلى صفوفهم ، منذ أيام توم بين الكثير من عناصر التخريب !

مقاومة الشيوعية

إن جهوداً جديدة ستكون لها جدواها ، في مكافحة التخريب ، ولا سيما أن الكفاح الطويل من أجل احترام القانون ، أضحت طبيعته تتغير شيئاً فشيئاً . ولقد أجتيز شوط طويل منذ عصيان الوسكي في ١٧٩٣ ، الذي اتُخذ فيه انفجار غضب الشعب شكل ثورة فلاحين ، سرعان ما أُخمدت ، فزمن التجمعات العمالية العابرة التي لا تكاد تحصل على بعض مطالب متواضعة حتى تتبدد ، قد مضى . وإن مجتمعاً دعم بنيانه ، وأتاح للممسكين بزمام السلطة وسائل أوسع ، لا يكون فيه لعمل من طراز عمل الـ « موللي ماغيرز » أو الفوضويين أو تنظيم « عمال العالم الصناعيين » أية فاعلية . وهكذا قام إلى جانب « اتحاد العمل الأمريكي » المحافظ تيار ثوري جديد كان له شأن : تيار أعلن انتهاءه للماركسية .

ظل تاريخ الماركسية ، في الولايات المتحدة نذراً يسيراً ، حتى ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، حين كانت الحركة الشيوعية في الولايات المتحدة منقسمة إلى شقين متخاصمين قرراً تلبية لطلب الكومنترن ، محاولة تسوية اختلاف وجهات النظر بينهما . لهذه الغاية عمد ممثلو الكتلتين

عام ١٩٢٢، إلى عقد إجتماع سري يحضره الدفيسور فالتيسكي مبعوث الكومنترن. واتخذت لذلك كل الاحتياطات. وحتى نزول المندوبين من القطارات المختلفة، كانوا يجهلون مكان الإجتماع. ومع ذلك استطاع عنصر خاص في قوى الأمن، هو فرانسيس آ. موررو أن يتسرب إلى صفوف المندوبين، وأنذر المؤتمرون في اللحظة الأخيرة، إنما لم يحل ذلك دون اعتقال الكثير من المندوبين.

كانت الصحافة، منذ نصف القرن، ما فتئت تلوح بالخوف من الشيوعية، كلما اتخذ إضراب ما بعض الاتساع والانتشار^(٥٦). والحزب الشيوعي الأمريكي، الذي مانفتكت عناصر من مكتب الاستعلامات الفدرالي تتسرب إليه بانتظام، والذي زعزعته أزمات داخلية متعددة—(الاستراتيجية العمالية، قضية السود، التحالف الجرمانى السوفييتي، دخول الولايات المتحدة الحرب، حوادث بودابست، «ربيع» براغ، وغير ذلك..). هذا الحزب ما كان له شأن يُذكر في المجتمع الأمريكي.. إلا أن حماة النظام عازمون على ألا يهملوا أي تدبير أو احتياط.

كان للحزب الشيوعي الميزة في أن يركب كل استيهامات (تصورات خادعة) الأعراف «الفطرية»، في الصورة التي تقدمها عنه الصحافة. والماركسية، على نقیض تيار العرف الطهرى الذي يجعل من النجاح المادي علامة للحماية الإلهية، تُعلن إلحادها وتكر نباح رأس المال الأمريكى. إذ «هل يمكن ألا تكون العناية الإلهية قد وطدت أية صلة بين سعادة أمة وفضيلتها». كما تسأل جورج واشنطن في رسالته الوداعية. والشيوعيون لا يقيمون شأناً للعناية الإلهية، وهم ينكرون «سعادة» أمة تعيش فيها جماهير غفيرة في البؤس، برمتها ولا يؤمنون البتة بـ«فضيلة» القائمين الحقيقيين على السلطة. وسيغدو الخوف من الشيوعية، وسيلة جبارة بين أيدي حراس الأمن، لإثارة الأهواء السياسية.

وإذا كانت الشيوعية تجذب انكلو—ساكسونيين حقيقيين من منشأ بروتستانتى، استمالتهم إليها فكرياً، فهي تأخذ عناصرها أيضاً من طبقات المجتمع الدنيا، من أولئك «الغرباء» الذين لا يلائمون الطراز القائم، من السود واليهود والمهاجرين الجدد الذين لم يُتَح لهم الوقت، أو الإمكان، للدوبان في بوتقة «الفطرين»، فهم إذاً غرباء، أجاناب، من وجهين، الأول بسلوكهم، والثاني بالعقيدة التي يؤمنون بها.

وشر ما فيهم أنهم نشطون فعالون. فقد بدا عددهم كبيراً في التظاهرة الكبرى التي نظمها

المحاربون القدماء في العام ١٩٣٢ ، في مدينة واشنطن ليطلبوا بأن يُدفع لهم ٥٠ دولاراً ، على الفور ، جزءاً من معونة قدرها ١٠٠ دولار حصلت الموافقة عليها في العام ١٩٢٣ ، على أن يُؤجل دفعها بضع سنوات . وكان عدد الذين خيموا منهم في العاصمة ، في شهر حزيران ، عشرين ألفاً ، فكلّف الرئيس هوفر الجنرال دوغلاس ماك آرثر ، رئيس هيئة الأركان ، تفريقهم ، الذي تم بهمة وعزيمة . وقد صرح هذا القائد العام العتيد ، في كوريا ، بصدد هؤلاء المحاربين المتجاسرين على المطالبة بحقوقهم قائلاً : « كانت ملاح هذه الجمهرة شريرة .. فقد بدت عليهم معالم الثورة » . وهذا الخوف من الثورة ، تزايد شدةً وحدةً ، ولا سيما أن الأزمة الاقتصادية قد دعمت دعوة التنظيمات الاشتراكية ، وسببت انتماءات جديدة إليها .

نال روزفلت ، في هذا العام ذاته ، ٢٢٫٨ مليون من أصوات الناخبين . وقد أثار الدهشة حصول هوفر ، الذي كان على رأس إفلاس جهاز الحكم ، على ١٥٫٧ مليون صوت ، برغم ذلك ، وهو عدد يدل على مدى الرغبة في مقاومة كل تغيير ، بينا اتجه زهاء مليون صوت إلى الاشتراكيين والشيوعيين ، وهو عدد قليل ، إلا أن هذه القلة الماركسية ، في شعب أخضعت الإفلاسات « بالجملة » وعطالة الملايين عن العمل ، تفاؤله لمحنة قاسية ، تمثل الورم الذي من شأنه أن يهدد الجهاز برمته . وستكون الدريئة التي تستهدفها كل الهجمات ، بعد الفاصل الزمني اللبرالي الذي رافق رئاسة روزفلت .

مهلة للديمقراطية

إن فاعلية « العهد الجديد » ، وتأثير روزفلت لصالح نقابات العمال ، ولبراليته في جميع الميادين .. كانت صفحة جديدة : وقد أسخطت إصلاحاته المالكين ، بينا لقيتها أوساط الشعب ، التي كفت عن الشعور بأنها تُعامل معاملة المنبوذين ، بارتياح وحماسة وكذلك جميع الذين كانوا ، في عهود الرؤساء الجمهوريين : هاردينغ وكولاج وهوفر ، حلفاء الصناعة الكبيرة ، يكظمون غيظهم . فالحرية ليست آنذاك ، كما كانت من قبل ، للمشاريع القادرة وحدها وقبل سواها ، بل للمحرومين أيضاً . والنظام لم يبق وسيلة تُبيح كل شيء لقادة الصناعة . والسلطة كفت عن امتزاجها باستبداد المسكين بزمam القوة الاقتصادية .

والعهد الجديد — الذي طالما شرحناه — قد أنقذ رأس المال بتحديثه ، لكنّ شأنه الأكبر هو أنه أعاد الملايين الأمريكيين إيمانهم بالديمقراطية . ولعل هذه النتيجة ، بسبب تعذر تقديرها بخدر

ودقة ، قد بُخست حقها لصالح منجزات ضخمة الكمية : مثل زيادة الإنتاج الصافي الأمريكي وتناقص البطالة عن العمل وارتفاع مستوى المعيشة . ورغم ذلك ، كان للوثبة الديمقراطية ، أكثر من الوثبة الاقتصادية ، أن تحتل المكان الأول في تقويم سياسة روزفلت وتأثيره .

تحقق إنقاذ رأس المال بضبطه . أما إنقاذ الديمقراطية ، فقد كان يفترض ، ليتحقق ، كبح جماح رأس المال . وفضل العهد الجديد ، هو تبيان ، لصالح الأزمة الاقتصادية ، أن الحد من حريات رأس المال الكبير المتجاوزة الحدود ، هو شرط لا بد منه لتقدم الحريات الديمقراطية . لكن روزفلت لم يجعل الديمقراطية ، أشد مناعةً ، على الدوام ، أمام المحاولات الغوغائية والمصالح الخاصة الكبرى ، إذ بعد انتهاء رئاسته عادت إلى الظهور إلى حيز الوجود ، بأشكال جديدة ، محاولات لإضعاف الرقابة الديمقراطية على الحكم وتحديد الحريات الفردية ، وتدعيم نفوذ رجال الأعمال في الحكم .

هكذا اتسم العهد ، الذي تلا روزفلت ، بانفجار الغوغائية (الديماغوجية) المعروفة باسم المكارثية التي هددت الحريات ، كما اتسم في آن واحد ، بسلسلة من المكاسب والانتصارات حققها أرباب العمل على حساب المواطن العادي ، كالتصويت على القانون «تافت هارتلي» ، ضد النقابات وإعادة الطاقة الذرية إلى القطاع الخاص وكذلك البترول فالانثني عشرة سنة من التقدم ، بين رئاسة روزفلت ونهاية الحرب ، هيأت وأعدت لثلاثين عاماً لرجعية متينة البنين .

ما كان هذا ممكناً قط ، لولا غمرة واسعة من الخوف استغلت مسألة «الأجنبي» واصلة ما انقطع من العرف (الفطري) ، وذلك على صعيدين : أولهما عقائدي ويشمل الخوف من الشيوعية «العقيدة المستوردة التي تقوض أسس المجتمع الأمريكي» . والثاني طبيعي ، ويشمل الخوف الذي لأن الأجنبي ، الذي سرق من أمريكا بوساطة جواسيسه «سر» السلاح النووي ، يستطيع تدمير مدن العالم الجديد ! .

المكارثية

إن ظهور المستيريا ضد الشيوعية التي ستسمى بالمكارثية ، لا يعود أي شيء منه إلى عضو مجلس الشيوخ عن ولاية ويسكونسن ، جوزف مكارثي ، الذي تحمل اسمه ، فكل ما فعله أنه استغلها الاستغلال الأكثر صخباً ودويًا . والحالة الذهنية التي تتسم بها الحقبة المسماة بالمكارثية ، لم يبعثها شخص واحد ، مهما أوتي من البراعة الغوغائية ، ولا حدث واحد ، حتى لو كان له صدى الانتصار

الشيوعي في الصين . إنها ثمرة سلسلة من الأحداث قلبت أوضاع المسرح العالمي ، وثمرة التفسير غير الصحيح لها ، ورغبة جماعات متباينة من الأفراد في الاستفادة منها .

أولاً ، ثمة سلسلة من الأحداث زرعت الاضطرابات والبلبل ، فالولايات المتحدة التي دخلت الحرب العالمية بعد مرور عامين ونصف العام على نشوبها ، انتابها القلق بغتة أمام قوة الاتحاد السوفيتي ، الذي مد نفوذه على نصف أوروبا ، بموافقتها . وكان تفوق الاتحاد السوفيتي العسكري آنذاك واضحاً في القوات التقليدية ، ثم ما لبث أن عوّض ، بسرعة كبيرة ، ما فاتته على صعيد السلاح الذري ، ولم تكد تمضي سنوات أربع على نهاية الحرب حتى انتصرت الشيوعية في الصين ، بينما تركت أوروبا التي أنهكتها الحرب لأمرها الاضطلاع بمسؤولية عالمية كبيرة .

هكذا تدخلت الولايات المتحدة في اليونان وتركيا ، وحملت العبء الأكبر من حرب كوريا وموّلت مجهود فرنسا الحربي في الهند الصينية ، ومع ذلك انتصرت الشيوعية في هانوي عام (١٩٥٤) ، وفي العام التالي شهد مؤتمر باندونغ غليان العالم الثالث وهو في طريقه إلى تصفية الاستعمار .

كانت عشر سنوات بين هيروشيما وباندونغ ، كافية لتجميع العلامات والدلائل على أن العالم قلق وغير مستقر ، اضطرب فيه ميزان القوى ، والولايات المتحدة ظلت أغنى بلدان العالم وأقواها . فكيف ، بل لماذا لا تتمكن من السيطرة على الوضع الدولي ؟ .. ليس هذا من خطأ الأمريكيين ، فأغليبتهم الكبيرة تثق بقادتها السياسيين وبرجال أعمالها ، وقادتها العسكريين ، وبدبلوماسيها ، وبأسلحتها ودولارها . فإذا ما غلبت أو أخفقت هذه القوى متناسقة مجتمعة ، فذلك لأن ثمة مؤامرة وخيانة .

أما المؤامرة ، فهي تلك التي تحيكها « الشيوعية الدولية » . فقد كان من الطبيعي أن يتحدث آنذاك جون فوستر دلاس والحزب الجمهوري عن دحر الشيوعية وردّها إلى داخل الحدود السوفيتية ، ورغم تحذير أكبر الاختصاصيين من علماء أمريكا في الشؤون الصينية ، الذين لما أُنشئوا ، أجابوا مدكرين بأن الخلاف كثيراً ما دُرّ قرئته بين الصديقين ، الكومنترن ، وماوتسي تونغ . برغم ذلك أكد دين راسك أن شأن الصين الشيوعية في موسكو هو شأن منشوريا ، بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٤٥ ، في طوكيو .

هذه النظرية في المؤامرة ، إذا ما أخذت ، من جوانب وجوه مختلفة ، على أعلى المستويات

تؤدي مباشرة إلى فرضية الخيانة التي استغلها من هم في الدرك الأسفل من محترفي السياسة . فمُنذ العام ١٩٤٧ ، أتهم ، في ولاية كاليفورنيا ، مرشح شاب إلى مجلس نوابها منافسه بأنه «وردي» . أي في النتيجة ، أداة في أيدي «الحر» . ولم يكن هناك من سمع بجوزف مكارثي أب المكاثرة «المفترض» الذي ستكون حياته السياسية صاحبة وقصيرة ، على قدر سواء . أما الشاب الكاليفورني المجهول فسيصل إلى القمة ، إلى البيت الأبيض ، وسيثابر على غوغائيته وغشه مدة خمسة وعشرين عاماً . والمعجزة ليست في أنه جَرَّبَ حظه باتباع تلك الأساليب ، بل في أن أغلبية قد تبعته . وهذا بذاته أي ريتشارد نكسون هو الذي بدأ حياته السياسية بالعمل على إدانة الجيرهس ، الخبير في وزارة الخارجية الذي حضر إلى جانب روزفلت مؤتمر يالطا .. وقد تطلب اسقاط نكسون إلى الحضيض ربع قرن من الزمن ، غير أن هذه المدة ذاتها لم تكف لإعادة الجيرهس . و «النكسونية» قد سبقت المكاثرة وعاشت بعدها .

ولنظرية الخيانة أن تفسر أيضاً انتصار الشيوعية في الصين . «فالخونة» هنا أكثر عدداً ، وجوزف مكارثي لا يتوانى ولا يقصر ، بل يتهم أفضل خبراء وزارة الخارجية في شؤون الصين ، وهم خبراء بارزون مرموقون كانوا قد رأوا منذ أمد طويل ، أن ماوتسي تونغ يعمق جذوره بين الفلاحين بينما كان تشانغ كاي شك يفقد شيئاً فشيئاً كل تأييد شعبي . فتنبأ أولئك الخبراء الأمريكيون بسقوط هذا وإخفاقه ، إذاً بإفلاس سياسة أمريكية لم تأل جهداً في دعمه ، لذلك يُتهمون بأنهم تمنوا هذا الإخفاق وهذا الإفلاس وأعدوا لهما ، إذ راحوا يتنبؤون بهما ويشرحونهما . فقد أكد عضو مجلس الشيوخ مكارثي عام ١٩٥٠ . أن أحد أولئك الخبراء جون ستوارت سرفايس ، هو من موظفي وزارة الخارجية السبعة والخمسين الذين يستطيع أن يثبت صلاتهم بالشيوعية . والقادة والصحافة والرأي العام ، مهوون جميعاً لتصديقه . وبرغم ذلك ، وجد آنذاك من يكشف تناقضات جوزف مكارثي الذي يتحدث ، يوماً عن ٢٠٥ عملاء للشيوعية في وزارة الخارجية الأمريكية . ويوماً عن ٨١ عميلاً ، وأخيراً عن ٥٧ (٥٧) . أفلا تكفي هذه التغيرات للبرهان على كذبه وتخطئه في الرواية ؟ ..

لا ، إذ من البدهي أن «الولايات المتحدة خسرت الصين» ،—وكأن الصين ملكها منذ الأزل—وأنها خسرتها بالخيانة ، وهكذا ينوء جون ستوارت تحت وطأة التحقيقات ويُحال إلى القضاء . إنما لا يكفي اتهامه «بخسارة الصين» ، إذ فليتهم ، في آن واحد ، بالشذوذ الجنسي وبأبوة لا شرعية : هذا كذب ، لكن من المعروف أن اللوطيين هم من فصيلة الخونة ، ومادام له ابن غير

(٥٧) أفضل كتاب في الموضوع : مكارثي ، لجاك اندرسون ورونالد ماي ، الناشر بيكون بريس بوسطن ١٩٥٢ .

شرعي، فهو إذاً لا سبيل له إلى أن يكون من «المواطنين الفضلاء» الذين كان جون كاهون يصفهم بـ «الوطنيين الجيدين». و«خيانة» جون ستیوارت سرفايس تطابق المخطط الطهري، والنظام الخُلقي الذي يبتغي توطيده، وهكذا أيضاً، يُطرد جون ستیوارت من وزارة الخارجية، يطرده الديمقراطي دين أتنسون. غير أن المحكمة العليا تقرر عام ١٩٥٧، أن هذا الفصل عن العمل غير قانوني، وتقضي بإعادته إلى عمله، إلا أنه يُنقل إلى منصب صغير في ليفربول، حيث لا جدوى من معلوماته عن الصين.. ويستقيل ستیوارت عام ١٩٦٢ مشتمراً متألماً.

عندما أعاد دوايت أيزنهاور في العام ١٩٥٢، الجمهوريين إلى الحكم (بفوزه)، انبرى جون فوستر دلاس، أشد فاعلية وأسراً من دين أتنسون، فقد أقدم عام ١٩٥٣ على طرد خبير آخر في الشؤون الصينية هو جون كارتر فانسانت. والسبب «ضعف الرأي». فلماذا إذاً دعاه وزير الخارجية، بعد إتحاذه هذا الإجراء الجائر إلى منزله ليشرب معه كأساً، وليشرح له بعض الشؤون الصينية؟ إنه عصر طغى فيه الجنون ولا شيء أصعب من ادراك الجنون الجماعي.. فقي العام ذاته أنهى دلاس خدمة جون باتو ديفيس الذي بدا له ضعيف النفس مفتقراً إلى سداد الرأي والمحافظة على السر.. لكن برقيات سرفايس وديفيس الدبلوماسية التي تُعد نماذج في حسن الفهم والادراك هي اليوم مصادر للباحثين الأكفاء في تاريخ الصين المعاصرة، لا غنى لهم عنها، غير أن دلاس يخالفهم هذا الرأي، وهو الذي كان يأمل، مناقضاً كل حقيقة ومظاهر حقيقة، نجاح سياسته اللاواقعية، التي تنبأ له بإخفاقها الخبراء في الشؤون الصينية «الخالون» من كل سداد رأي.

لقد أدى سرفايس وفانسانت وديفيس، وكثير غيرهما، مثل ادموند كلب، خدمات جلّى في الصين. لكن هذا، خلال وجوده في نيويورك، أمضى دقائق معدودة، من أوقات فراغه الوافرة، في مكاتب المجلة اليسارية: نيو ماسز، (الجماهير الجديدة)، وبعد مرور عشرين عاماً، غدت هذه الواقعة البسيطة البرهان على «خيانته» ومبرراً فصله من وزارة الخارجية^(٥٨).

شر ما في الأمر، ليس ظلم وزارة الخارجية لرجال خبراء أكفاء خدموها بأمانة وإخلاص، بل الأخطر هو أن يقبل الجهاز الحكومي برمته بفرضية الخيانة، وأن يسلم، على الرغم من رأي خبير بارز مختص في الشؤون الصينية، بمفهوم دين راسك القائل إن الشيوعيين الصينيين كانوا دمي في أيدي السوفييت. وشر ما في ذلك أيضاً أن يصبح دين راسك، من بعد، وزير الخارجية، بينما كانت

(٥٨) لمن يرغب في دراسة تفصيلية للاضطهاد الذي عاناه هؤلاء الخبراء على أيدي المكارئية، هناك كتاب كالمجر Chine Hands واينكنغ ١٩٧٥.

معالم الخلاف بين موسكو ويكين واضحة حتى في أعين غير الخبراء والأشد وطأة، في نهاية المطاف، أن تُقدم مجلة كبيرة، في العام ١٩٧٥، على كتابة ما يلي: «من المسلم به تقليدياً، اليوم بلا شك، أن تشانغ كاي شك وزمرته، هم الذين أضاعوا الصين، إنما في الخمسينيات، لم يكن من السهل اليسير هذا التمييز»^(٥٩) ولكن، لماذا؟ لماذا كان من الصعب، الفائق الصعوبة، معرفة ما إذا كانت الصين قد أضاعتها عصبة فاسدة، أم الخبراء الذين فضحوا هذا الفساد الذي «لا علاج له» في رأيهم؟ السبب هو، بكل بساطة، أن المجلة ذاتها قد سلمت، ربما أكثر من سواها وأسهمت في إقناع غيرها بالتسليم، بأن تكون مناهضة الشيوعية أساساً لسياسة، وأن تكون نظرية المؤامرة والخيانة تفسيراً كافياً لذلك. ولقد كانت المكآثرية، أولاً، الخدال الدقة العقلانية إذ تجتاحها الأهواء، والمكآثرية، بوصفها هذا، لم تمت.

ونظرية الخيانة لا غنى عنها أيضاً، في حالة الضلال ذاته، لتفسير الحكم بالإعدام على ايتل وجوليوس روزنبرغ وتنفيذه، بتهمة تسريبهما «سر» القنبلة الذرية إلى السوفييت.. فهل ينبغي التذكير بأن محاكمتها جرت عام ١٩٥١، في جو من اللامبالاة العامة، لكثرة ما كان «واضحاً» إن الخيانة وحدها هي التي مكنت الاتحاد السوفييتي من استدراك ما فاتته؟.. وبأن تأثراً شديداً لم يظهر إلا بعد المحاكمة وأن الذين طالبوا بتنفيذ الإعدام، في الولايات المتحدة، كانوا أكثر عدداً من الذين التمسوا لهم العفو؟.. وإن الاتهام لم يقدم دليلاً مادياً واحداً ذا شأن؟.. وإن هذا الاتهام لم يستند إلا على شهادة دافيد غرين غلاس الذي استفاد من تساهل المحكمة، لأنه بعث بأخته ويزوجها إلى الكرسي الكهربائي؟.. وأن أيزنهاور لم يتأثر عندئذ، بندائي الرحمة للذين وجههما إليه البابا بيوس الثاني عشر، كما فعل فرانكو، يوم صم أذنيه عن سماع نداء البابا بولس السادس، عام ١٩٧٥، ونفذ حكم الإعدام، في الشبان الخمسة، بعد محاكمة صورية؟..

مهما كانت قاسية شرور المكآثرية—بما حطمت من حياة الناس ومصائرهم—فهي لا تكفي لإظهار قوتها الخبيثة. وأعظم ما سببته من أعمال الفتك والشر، هو في تضليل العقول وإعماء البصائر، في الأهواء الغوغائية الجامحة والمستغلة، في الحق الذي قلبته رأساً على عقب، وفي الذعر الذي نشرته حولها. ومن السهل، اليوم، نزع القناع عن المستريا المكآثرية. إنما لم يكن هذا يسيراً في أوائل الخمسينيات. ومما يبعث الراحة، في كثير من الناس، استنكار ما يُسمى بالمكآثرية، فهي باسمها هذا، تنحصر في حقبة قصيرة من التاريخ الحديث، بينما، لا يزال التعصب الذي تحمل

(٥٩) التايم، ٦ تشرين الأول ١٩٧٥.

سمته ، يمد جذوره في تفكير الطهرين الباعثين إلى المشقة بكل من لا ينجح نهجهم في التفكير ، وفي الفلسفة القصيرة النفس ، فلسفة واضعي قانون التمدد ، العازمين على سحق كل معارضة ، وفي الشراسة المستمرة على «الجمعيات الديمقراطية» ، في عهد واشنطن ، وفي المحاكم — المهالز التي أودت بـ «فوضويي» هايمركت سكوير ثم بساكو وفانزيتي إلى الموت ، وفي لجان القانون والنظام التي ابتدعتها غرف التجارة ، في الحرب العالمية الأولى ، وغير ذلك .

المكآثرية ليست سوى حلقة من سلسلة طويلة . وما هي ، في الماضي القريب إلا عرض من أشد أعراض «النكسونية» فتكاً وقد شقت هذه لها الطريق ، وتكللت بنجاح باهر بعد زوال جوزف مكآرثي . «فالنكسونية» المتربعة على السلطة باسم القانون والنظام ، قد لاحقت المعارضين وسمحت لـ F.B.I. و C.I.A. (مكتب المباحث الفدرالي ، ووكالة المباحث المركزية) أن يتجاوزا الشرعية ، كما شددت الرقابة البوليسية ، ولجأت بذاتها إلى السطو والتجسس .

وهي ، عندما أرادت ، أن توطد النظام والأمن ، بهذه الطرق ، برغم كل عدالة وإنصاف جرّت أمريكا ، بفضيحة وترغت ، إلى أخطر أزمة داخلية عرفت ، منذ حرب الانفصال .

الذين ينتهكون القانون

«النكسونية» وسوابقها التاريخية ، لا تُعرف فقط بالغش والكذب والهوس بالأسرار والخفايا ، وبالرقابة البوليسية والسطو والتجسس على مكاتب الخصوم ، وتطوير أجهزة التنصت الهاتفية والتجسس الإلكتروني على المواطنين . فأساليبها وطرقها ليست سوى نتيجة حالة عقلية وفلسفة سياسية ومفهوم معين للمجتمع والحكم . النكسونية ، هي قبل أي شيء آخر ، الافتتان بالسلطة والنظام ، وهي التعصب ضد كل مقاومة أو معارضة ، والعداء اللدود لكل النظريات «الليبرالية» .

هذه الفلسفة تؤدي إلى استخدام أساليب لا تُقبل في بلد ديمقراطي . وقد أكد وزير العدل الأمريكي ادوارد . هـ . ليفي ، عام ١٩٧٥ ، أن مكتب المباحث الفدرالي ، قد نظم بطاقات (فيش) شخصية لجميع الرؤساء في حياتهم الخاصة ، وفي الأقل ، ابتداءً بالرئيس فرانكلن روزفلت وأعضاء الكونغرس البارزين وحتى ٦٥٠٠٠ مواطن أمريكي . وحسب شهادة الوزير نفسها ، أن لندن جونسون ، كان ، في فترة رئاسته ، يطلع على هذه الملفات ، ولا يتورع عن استخدامها للزجر والتخويف : «فقد كان إذا ما احتدم الجدل التشريعي في الكونغرس ، يستدعي عضواً بارزاً فيه

لحديث قصير ، وقد وضع في زاوية مكتبه ، بشكل واضح ، كومة من ملفات الـ F.B.I . ويقول وزير العدل ، المذكور ، : إن هذه البطاقات تنطوى على أسرار السياسيين الجنسية وعن ميولهم إلى الخمر .. فمن أجل القانون والنظام ، كل الوسائل مباحة .

وكي يتوطد النظام ويستتب الأمن وترجح كفة السلطة ، لا بد من أن تضمن ، قدر الإمكان عدم إفلات المجرمين من العقاب . فالصعوبة الأولى ، أمام العدالة ، هي اكتشافهم . وقد كان الامساك « بنواصي » وترغيت بالجرم المشهود من قبيل الصدفة البحتة ، ثم حاول مستغلوهم أن يحموهم ، وأن يخفوا صلاتهم برؤسائهم ويطمسوا المعالم ، وكان لا بد من مدة سنتين ، لحملات الصحافة وتحقيقات الكونغرس ، كي تتمكن من أن تُحوّل إلى فضيحة سياسية ما أراد البيت الأبيض أن يعطيه صورة واقعة بسيطة وتافهة لا تصل فروعها إلى أعلى المستويات والمراتب .

كذلك لم تُكشف مجزرة ماي-لاي ، في الفيتنام ، وبعد أمد طويل ، إلا بالمعلومات التي استقاها أحد الصحفيين ، فمن هم المسؤولون ؟ لم تبق السلطات قيد التحقيق إلا واحداً ، هو الملازم ويليام كاللي وبرأت بقرار واحد جميع رؤسائه . ولكن لم يكّد يتم توقيفه ، حتى أخرجه نكسون من السجن ، وسمح له بالإقامة في مقر وحدته ولم ينفذ إلا جزءاً من العقوبة ، وفي شروط جيدة ، فقد سمح له أيضاً بالإقامة في منزله . كان حجم الفضيحة الكبير يتطلب مسؤولاً : فأختير أصغرهم وأضعفهم رتبة ثم اتُخذ من الإجراءات ما ينبغي لتخفيف العقوبة التي فُرضت عليه .

مثال آخر : عندما أطلق الحرس الوطني النار في ٤ أيار ١٩٧٠ على طلاب جامعة كنت ستيت ، المتظاهرين إحتجاجاً على غزو كامبوديا ، قُتل خمسة منهم وجُرح تسعة جروحاً خطيرة فمن المسؤول ؟ هل هو حاكم ولاية أوهايو ، الذي استدعى الحرس الوطني .. أم رئيس الجامعة أم قائد الحرس ؟ .. إن وزير العدل جون ميتشل الذي قام بتنظيم حملة نكسون الانتخابية ، المركز اهتمامه على القانون والنظام ، قرر أن ليس هناك مسؤول ، وختم ملف القضية . لكن وزير العدل هذا سقط ضحية وترغيت ، وألقي في السجن . وقرر خلفه في الوزارة ايلليوت رتشارد سن ، أن من الخطر الفائق أن تُترك بلا عقوبة جريمة قتل ارتكبتها قوى الأمن ، وأعاد فتح ملف الدعوى . لكن إحدى المحاكم برأت الحرس الوطني . عام ١٩٧٤ ، مقرر أن المسؤولين هم الطلاب غير أن ذوي الضحايا لم ييأسوا وأقاموا دعوى مدنية مطالبين بالتعويض وفي شهر آب ، من العام ١٩٧٥ ، برأت محكمة أخرى حاكم الولاية ورئيس الجامعة والحرس الوطني . وهكذا عرف هذا الحرس ، عبر الولايات المتحدة كلها أنه يستطيع إطلاق النار على جمهور من الشعب دون أن يقع تحت طائلة العقاب .

وهنا القاضي المحلفين قائلاً: «إنكم تستحقون امتنان كل من في هذه المحكمة وكل سكان هذا البلد» الحر^(٦٠).

إن «السناريو» لحسن طالع الديمقراطية، لا ينتهي دائماً بهذه الصورة. فموجة الإحتجاج الكبرى والأخيرة، على الحرب الفيتنامية أدت إلى اعتقال ١٢٠٠ متظاهر، بلا أي احترام لأصول التوقيف القانونية، وتلقت قوى الأمن على الفور تهاني الرئيس نكسون الحارة. نعم، لكن الحلم الأمريكي لم يمت، فقد أقامت الدعوى على الحكومة منظمة دفاع عن الحريات. استمرت المرافعات ستة أسابيع، وانتهت في كانون الثاني ١٩٧٥، ومثل أمام المحكمة شهوداً، عشرة من أعضاء الكونغرس ومحامون مرموقون، وأساتذة حقوق كبار ومشهورون، وكان قرار المحلفين أن الحكومة مسؤولة، وأن يُمنح المدعون، (وعدددهم ١٢٠٠)، ١٢ مليون دولار أي ١٠٠٠٠ دولار للشخص الواحد. وكانت هيئة المحلفين دقيقة: فانتهاك حرية التعبير والإجتماع يساوي تعويضاً قدره ٧٥٠٠ دولار، لكل شخص منهم، والتوقيف (المخالف للقانون)، من ١٨٠ إلى ١٨٠٠ دولار، والسجن غير المبرر، من ٣٠٠ إلى ١٢٠٠ دولار حسب مدة الاعتقال، و ٥٠٠ دولار لانتهاك البند الثامن من التعديل الدستوري الذي يحمي المواطنين من «عقوبة صرامة وغير مألوفة» وغير ذلك.. ولم يحاكم من الموقوفين إلا ١٢٠٠ سوى ثمانية، وُبرئ الثمانية مع تعويض إضافي قدره ٣٠٠٠ دولار لكل منهم. أما النائب رونالد ديلوم، الذي قوطع وهو يلقي خطابه، في أثناء إلقاء القبض على المتظاهرين، فقد مُنح تعويضاً قدره ٧٥٠٠ دولار لحرمانه من حرية التعبير. فالمعركة من أجل حرية المواطنين وحقوقهم ليست بالمعركة الخاسرة سلفاً. وإن إدانة الحكومة كهذه، أمل لأمريكا، ودرس للبلدان الديمقراطية الأخرى، حيث تنتهك قوى الأمن حقوق التعبير والإجتماع، بل تمنع في انتهاكها وتزيد معاناً، عندما تقوم بتنفيذ أوامر الحكومة.

إن أمريكا نموذج مزدوج، ففي تشرين الثاني عام ١٩٧٠، أتهم ج. ادغار هوفر وكان آنذاك مديراً لـ F.B.I. سبعة مواطنين بالتآمر على إتلاف بطاقات مركز من مراكز التجنيد (في أثناء مظاهرة إحتجاج على حرب الفيتنام) وعلى تفجير منشآت التدفئة المركزية في وزارة الدفاع، واختطاف هنري كيسنجر. وهذا النموذج الذي يقدمه هوفر بشخصه، ليس بالمثال الذي لا غنى عنه لرؤساء الشرطة في بلاد أخرى، وقبالة هوفر ينتصب، رامزي كلارك وزير العدل السابق، مدافعاً عن الحق، واضعاً سمعته وكفايته في خدمة قضية تعرضت فيها العدالة لخطر شديد. كذلك سار

(٦٠) انترناسيونال هيرالد تريبون، ٢٩ آب ١٩٧٥.

الأمر، على أفضل، عندما قام وزير للعدل سابق، في فرنسا بالدفاع عن مواطنين سجناء، لأنه حمل على محمل الجدل حقوقهم الدستورية.

إن أساليب حراس النظام على رتبة قاتلة، وقد سمى الاتهام، ضد الأب الموقر بيرغان، شاهداً أساسياً في الدعوى هو سجين سابق اسمه بويد ف. دوغلاس، مشهوراً باستغلال الشرطة له. وهكذا كانت رجعة مئة عام إلى الوراء أي إلى الدعاوي التي أُقيمت على «المولي ماغيز».

ودوغلاس هذا شاهد مشبوه أتى به لنصرة احترام القانون نظام عادل! وهو يذكرنا بأمر كثيرة، منها سابقه دافيد غرينغلاس الذي بعث بالزوجين روزنبرغ إلى الموت، كما يذكرنا بكثير من شهود الإثبات الذي يستفيدون من تساهل المحكمة تجاههم على أن يرهقوا المتهمين بشهاداتهم الكاذبة فيألفها من طريقة لا تُصدق تُتيح للمحاكمة أن تأخذ مجراها حسب القوانين، إلا أنها تُلقِي بذور الشك في عدالة الحكم. وقد أدان البروفسور هارولد س. أوربي هذا الأسلوب بمناسبة محاكمة دافيد غرينغلاس، حين قال: «هذا الإجراء الذي يقوم على شمل مجرمين بالحصانة ثمناً لشهادتهم، هو مفسد جداً، إذ يتهم مجرم مجرم آخر، وهذا يتهم آخر بدوره، وكذا دواليك إلى أن قد يُتهم شخص بريء، وهنا تنفصم السلسلة وتتحطم، وينزل بالبريء الحكم الأشد، وهو أسلوب يشجع المجرمين، ويجري المحاكمة لتوجيه الاتهام إلى أبرياء»^(٦١).

غير أن هذا الإجراء يبقى دستورياً، وحراس النظام يدفعون عنه، واقفين في وجه رجال القانون والحقوق الذين تقول مبادئهم إن إخلاء سبيل ظنين لا نملك أي دليل ضده، خير من إدانة بريء استناداً إلى شهادة يُشك فيها، لأن لصاحبها مصلحة. ولتبرير الحصانة التي تُمنح لشهود الإثبات، كما لتبرير التنصت الهاتفية والتجسس الإلكتروني، يحتاج أبطال النظام بضرورة اللجوء إلى وسائل فعالة ناجعة، للحد من انتشار جرائم الحق العام. غير أن هذه الوسائل والأساليب، لا تكاد تتخذ صفة شرعية، حتى تُستخدم لمآرب سياسية.

إن الإحتجاج على أساليب كهذه، باسم الدفاع عن حقوق المواطنين يبلغ، في الولايات المتحدة أبعاداً غير معروفة في أوروبا المستسلمة بسهولة مفرطة. وقد عبر مدير F.B.I، عن نغمته على الإحتجاجات بقوله: «هؤلاء الناس الذين يشهرون راية حق الحياة الخاصة بالكتمان يبرعمون

(٦١) هارولد أوربي، في المدخل إلى كتاب مالكولم ب. شارب أستاذ الحقوق في جامعة شيكاغو، ماذا فعلت العدالة؟ قضية روزنبرغ—سويل. نيويورك ١٩٥٦.

ويتفتحون في المجالس التشريعية والجامعات ومكاتب محري الصحف»^(٦٢). ويقول أنه «متكدر» للشك الذي يحوم حول دوائر شرطته، ويدين «غوغائية» يتهمونها بانتهاك حرمان الحياة الخاصة، ثم يشهر الحجة القاطعة التي ستطرح دائماً بتضامن المواطنين القلقين الذين يؤثرون أمنهم على حريتهم، قائلاً: «إن أكبر خطر على حرية الأمريكيين هو الجريمة.. الجريمة المتزايدة دائماً.. وإن فرض قيود شديدة على تطبيق القانون، ولا سيما على مجال تخزين المعلومات بالآلات الحاسبة، لن ينقص بلا شك، الإجرامية... فهل ستوضع المعلومات عن حياة أعضاء الكونغرس الجنسية بالناظرات الآلية أيضاً؟..»

إن سلطة الشرطة والوسائط التكنولوجية المخصصة لتوطيد النظام. واستتباب الأمن، ما برحت تتدعم، ومع ذلك لم تحمل دون ازدياد الجرائم. كذلك حقق التجسس السياسي تقدماً مشهوداً بالسهولة التي أتاحها له علم الالكترونيات. لكن الدفاع عن الحريات العامة وفعالية مكافحة الجريمة يتطلبان وسائل أخرى.. وهذا ما يأبى مدير F.B.I الكلام فيه، وهو يسخر من الذين ينظرون «بعين العطف إلى عدد كبير من الجانحين نظرهم إلى أبرياء هم ضحايا المظالم الاجتماعية التي دفعتهم، أو أكرهتهم على ارتكاب أعمال إجرامية». وهذه «الرؤية الرائعة في إنسانيتها» حسب تعبيره هو، لا تستدعي إلا السخرية، وهو يضرب بها عرض الحائط قائلاً: «من الصحيح، بلا شك، أن عدداً كبيراً من الجانحين قد نشؤوا في حرمان واجحفاف إجتماعي شديدين، وثمة آلاف آخرون، عانوا، مثل كل منهم، صروف الدهر ذاتها وأرزاءه، ولم يقعوا تحت إغراء الجريمة»^(٦٣).

فالمجتمع لا يتساوى إذاً في الجريمة، ولا جدوى من محاولة تقويم اعوجاجه. فلماذا يكون معدل جرائم السود أكثر من البيض؟ إذا لم يكن ذلك بسبب شروط حياتهم، فينبغي إذاً تفسيره بنظرية عنصرية في الجريمة، ويجيب المدير، مدير F.B.I، لا، لأن هناك الكثير من السود الذين لا ينتهكون القانون.. ثم يطلب من المحاكم إنزال عقوبات أشد. ومع ذلك، عندما قام، في ١٩ أيلول من العام ١٩٧١، أكبر عصيان دموي، وهذا في سجن اتিকা، في ولاية نيويورك، كان ٦٥٪ من المعتقلين من السود والبرتوريكيين (سكان بورتوريكا). وخلال أربعة أيام من هذا التمرد، هدد (١٢٨١) متمرداً بقتل ٣٨ حارساً أخذوهم رهائن، إن لم تتحسن شروط اعتقالهم في السجن.

(٦٢) كلارنس م. كيللي، مدير المباحث الفدرالي، من خطاب له في كنساس سيتي، ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٥.

(٦٣) كلارنس م. كيللي. انترناسيونال هيرالد تريبون ٢ أيلول ١٩٧٥.

وفي اليوم الخامس، اقتحمت قوى الأمن السجن، اقتحاماً كانت حصيلته ٤٣ قتيلاً (١١ حارساً) ومئة جريح. كان لا بد من هذا السيل من الدماء، كي يُستجاب لمطالب المعتقلين ومن الضحايا الثلاث والأربعين، كان ٤٢ على يد القوات المهاجمة. أما السجناء فلم يقتلوا أحداً. الرهائن.

كان تفادي المجزرة ممكناً، أو بالأحرى، كان هناك رجل يستطيع السبيل إلى تجنبها هو نلسن روكفلر، حاكم ولاية نيويورك آنذاك، ونائب رئيس الولايات المتحدة اليوم، فقد رُجي أن يأتي إلى السجن، في أول التمرد، فأبى قائلاً، إذا أتى الحاكم إلى السجن، فسيطلب المتمرّدون، في مرة ثانية زيارة رئيس الولايات المتحدة لهم.. فروكفلر يرى، في الواقع، أن «ترتيب الأمور ينبغي أن يُصا وليس من واجب ذي السلطان أن ينقاد لطرفة عين أو إيماءة بنان، ممن لا سلطة له. وإذا كان ينبغي التضحية بأرواح بشرية على مذبح نظام الأشياء في بعض الأحيان، فهل هناك حل؟ ثمة حل أوحده إنما لا سبيل إلى تصوره، وهو التضحية بنظام الأشياء من أجل الحياة»^(٦٤).

سيُصان نظام الأشياء، إذًا، مهما كلف الثمن، حتى لو غدت السجنون أفضل «مدرس للجريمة». ففي الماضي، هدفت بعض البرامج إلى إعادة الاعتبار للسجناء، أما اليوم، فالتعليمات هي عدم الاستمرار في هذا السبيل، بل على نقيض ذلك، تشديد الوجه الجزائي من السجن^(٦٥) على أن هؤلاء السجناء يستردون حريتهم، عند انتهاء مدة العقوبة. إنما في أي حالة عقلية ينظرون إلى المجتمع؟ بانتظار الجواب، إن وسيلة توطيد النظام هي القمع.

فأي نظام هذا؟.. إذ بينما تقرر السلطات الدفاع عنه بعزم ونشاط، تكتشف، في آد واحد، أنها ضلّت السبيل، ومع ذلك لا تستخلص العبر التي تفرض نفسها. فمكتب الاستعلامات الفدرالي F.B.I يقرر أن «جنوح البيض»، والغش والاحتيال والاختلاس، وغير ذلك... تكلف المجتمع أربعة أضعاف ما يكلفه «جنوح السود» من لصووية وسطو. «فهناك فرق بين المجرم الأبيض والمجرم الأسود»، كما صرح وزير العدل في العام ١٩٧٤، فالأسود يستطيع سرقة ١٠٠ دولار من ضحيته، والأبيض يستطيع أن يحيك خيوط مؤامرة من شأنها سرقة ملايين الدولارات من آلاف المواطنين^(٦٦). ثم يصف وزير العدل هذا «الجنوح الأبيض» بتفاصيله، قائلاً

(٦٤) توم ويكر، A Time to Die — نيويورك ١٩٧٥.

(٦٥) يو. اس. نيوز اند ورلد ريبورت، ١٦ كانون الأول ١٩٧٤.

(٦٦) المصدر نفسه، ١٦ كانون الأول ١٩٧٤.

إن الجانحين البيض ينبغي أن يصبحوا في السجن . لكن، نادراً ما يمضي هؤلاء إلى السجن، فهو، بالأحرى، مخصص للجانحين (العاديين) الذين لا ينتمون إلى طبقات المجتمع الرفيعة .

أُلقي القبض، في عام ١٩٧٣، في جورجيا، على مدير مصرف بتهمة اختلاس ٤٦٠٠.٠٠٠ دولار والعقوبة المنصوص عليها، لهذه الجريمة هي السجن ٣٠٠ عام (وهذا، بلا شك، غير معقول)، وبغرامة قدرها ٣٠٠.٠٠٠ دولار (وهذا قليل): لذلك لم يُحكم على مدير المصرف إلا بالسجن مدة عشر سنوات. وفي اليوم ذاته، حكمت بالسجن مدة ستة عشر عاماً، على ثلاثة فتيان سرقوا ١٤٠٠٠ دولار من مصرف أيضاً. وهكذا، تختلف العدالة باختلاف الأشخاص. والشركات الكبرى التي ثبتت مسؤوليتها عن تخصيص ملايين الدولارات لإفساد الضمائر، في داخل الولايات المتحدة وخارجها، لا تصل إليها يد. ونائب الرئيس نلسون روكفلر، الذي ثبتت عليه جريمة تهريب مئات ملايين الدولارات من الضريبة، لا تطاله يد القانون أيضاً. كذلك أنقذ الرئيس فورد رتشارد نكسون من كل ملاحقة قضائية. ومديرا C.I.A و F.B.I اللذان ثبت عليهما اقتراف أعمال غير قانونية، لم تصل إليهما يد القانون.. والكثير غيرهم كذلك.

النظام الذي يريدون اللود عنه، باسم شعار القانون والنظام، هو فوضى مريضة، لا سبيل إلى القضاء عليها إلا بالعودة إلى مبادئ الديمقراطية. وهذه الفوضى هي حصيلة المظالم الاجتماعية، وحصاد امتيازات غير مبررة، مُحافظ عليها شرعياً. والتواطؤ بين بعض المصالح الخاصة والسلطة، والضغط التي تُمارس باسم السلطة والتي لا طاقة لأحد بتحملها، والنيل من حقوق المواطنين، ومظاهر عدالة ومحاكمات صورية تتقيد بالشكل وتتحدى العدالة.. وغير ذلك. ومنذ قرنين تنهال القرارات المتخذة لدعم هذه «السلطة القسرية»، التي كان يبررها جورج واشنطن قائلاً ومفسراً: لماذا «لا ينبغي المبالغة في حسن الظن بالطبيعة البشرية». لأن «أكثر طبقات المواطنين عدداً». كما كان يقول هاملتون، تحركها «مشاعر ضارة بالنظام الاجتماعي».

هذه الطبقة «الأكثر عدداً»، ليست هي التي بادرت إلى الاختلال والفوضى، بل هي التي تعانيها بصبر عجيب. ونلسون يعلم علم اليقين أن «أصحاب الحول» لم ينقادوا قط انقياداً أعمى لمن لا حول لهم ولا قوة. وهؤلاء الأقوياء أنفسهم لم يكونوا عاجزين عن أن يعيشوا الحلم الأمريكي فحسب، بل عن أن يحلموا به أيضاً، مع كل ما وجه إليهم من تحذير وتنبية. وقد خاطبهم، منذ خمسين عاماً، لويس برانديس، من قضاة المحكمة العليا قائلاً:

« عندما تنتهك الحكومة القانون ، تسبب الاستهانة بالقانون ، وتدعو كل إنسان إلى أن يصبح هو قانون نفسه ، وتبعث هي الفوضى » .

أنتهك القانون جهاراً .. انتهكه حكام لا يقيمون وزناً لقواعد الديمقراطية .. انتهكوا الحرف منه وانتهكوا الروح أكثر ، .. وكان ذلك دائماً باسم نظام ، جعل هؤلاء الحكام من أنفسهم ، وحدهم ، القضاة فيه . وينطبق هذا ، في الأخص ، على ما يمت بالصلة إلى حقوق الأقليات العنصرية « الناس جميعاً يولدون سواسية » . وهذا ما كتبه توماس جيفرسون في إعلان الاستقلال . كان يؤمن بما كتب .. الهنود ، والسود ، والبوليتوريكانيون ، و « الشيكانو » وآخرون سواهم مقتنعون أيضاً بذلك ، فهم ، أكثر من سواهم ، أحسوا ، على كواهلهم ، بوطأة منطق : « النظام » ، مهما كان الثمن ، المنطق غير الإنساني .

الفصل الثالث

العنصرية ضد المساواة

« ليس في رأيي، وما كان من رأيي قط، الوصول، بأي صورة من الصور إلى المساواة الاجتماعية والسياسية بين العرقين الأبيض والأسود ».

ابرهام لنكولن

أُغتيل في ١٤ نيسان ١٨٦٥

« كلا، لست أمريكياً. أنا واحد من ٢٢ مليوناً من السود هم ضحايا «الأمركنة» Americanisme. واحد من ٢٢ مليوناً من السود هم ضحايا الديمقراطية التي ليست سوى رياء مقنع. أنا أنظر إلى أمريكا بعيني الضحية. وأنا لا أرى أي حلم أمريكي. أنا أرى كابوساً أمريكياً ».

مالكولم إكس

أُغتيل في ٢١ شباط ١٩٦٥.

المعاملة التي يخص بها مجتمع من المجتمعات الأقليات العنصرية فيه هي دائماً أوضح دليل على حيوية مؤسساته الديمقراطية. وثمة عقبتان أساسيتان تعترضان جهود هذه المؤسسات هما: صلاية الجهاز الاقتصادي ومحبة النظام.

مع ذلك لم يُحدد شيء سلفاً. فقانون الربح لا يقتضي، في الواقع، ضرورة معاملة بعض الجماعات العنصرية بأقصى مما يُعامل غيرها. فالقدرة الاقتصادية تستطيع، بلا شك، أن تعتبرها مستودعات يد عاملة رخيصة الأجر، ودورها عندئذ هو أن تستغل هذه المستودعات البشرية استغلالاً لا رافة فيه، لكن القدرة الاقتصادية تستطيع أن ترى في الأقليات العنصرية، مستهلكين من شأنهم، إذا ما ارتفعت قدرتهم الشرائية إلى حد كاف، أن يُنشّطوا الإنتاج ويحفزوه، وأن يسهموا بإزدهار الوضع الاقتصادي، والاختيار بين الموقفين المذكورين لا يلقي ضوءاً كاشفاً على تفكير الذين يمسون بدفة القدرة الاقتصادية، بل في الأخص، على استعداد السلطة السياسية أيضاً، لأن تفرض عليهم احترام مبادئ تلهم الديمقراطية.

كذلك، لا تؤدي محبة النظام إلى تعبئة قوى الأمن لتحول دون ممارسة الأقليات العنصرية حقوقها ممارسة تامة، كما تستطيع محبة النظام إثارة الخوف من أن تُلقي سياسة القمع بذور التمرد والفتنة التي قد تهدد النظام القائم. وهنا أيضاً، يكون الاختيار بين الموقفين الميزان الأفضل لحيوية المجتمع الديمقراطي.

ذلك لأن الديمقراطية ليس لها الخيار، إذ لا بد لها، هي، من استخدام كل ما تستطيع إليه

سبيلاً من الوسائل، لُتِحت للمجتمعات العنصرية المختلفة ممارسة الحقوق المعترف بها مبدئياً ممارسة فعلية. والديمقراطية لا يسعها إلا التمرد على التمييز العنصري، في جميع أشكاله، وفيما يلبسه لكل حالة من لبوس.. وتسلسل الأفضليات الذي يتبناه مجتمع ما، يتبدى جلياً في مدى التمييز العنصري الذي يُسمح به.. فهل تكون الأفضلية والأولية فيه للتقدم الرأسمالي،.. أو للديمقراطية حقيقية حية،؟... هل يأتي النظام أولاً، مهما كان ثمنه، أم أن الأفضلية للحريات؟.

والعنصرية، وإن اختلفت أشكالها بين بلد وآخر، إلا أنها داء مشترك بين الأمم جميعاً حتى من كان منها على مستوى عال من التصنيع والديمقراطية، وإن ما تتخذه العنصرية من حدة وتفاقم في الولايات المتحدة لا يخفي المآسي التي تحدثها في بلدان أخرى من الغرب، فبينما كان الكثير من الفرنسيين يبدون اشمزازهم من حوادث تلل روك، كانوا يغضون الطرف عن المظالم المترتبة في الجزائر.

في أرض أحتلت، وأغتصبت من الهنود،.. ومجتمع كان نظام الرق ما يزال سائداً فيه حتى أكثر قليلاً من قرن مضى، وحيث كانت أشكال التمييز العنصري الأساسية تُعد شرعية منذ عقدين من الزمن، وحيث تدفقت موجات المهاجرين من قارات الأرض قاطبة،.. كان للعنصرية أن تبلور أشد الأهواء حدة، مع أنها تناقض، بطبيعتها، الحلم الأمريكي في جوهره ذاته، كما يعطي استمرارها، الهوة الفاصلة بين الحلم والحقيقة، مداها، ويوحى بقابلية تبدد الحلم أمام مصالح الأفراد الذين نادراً ما يكونون من الحلمين. ولقد تحملت الديمقراطية الأمريكية العبودية حتى عام ١٨٦٣، والتمييز العنصري القانوني حتى عام ١٩٥٤، والتمييز العنصري الفعلي حتى أيامنا، وعندما حط شاتوبريان رحاله في أمريكا غداة استقلالها، لحظ هذا التناقض، على الرغم من أنه لم يستخلص نتائج السيرة وقال: «أعطيت منديلي الحريري للأفريقية الصغيرة، فقد كانت أمة تلك الصغيرة التي استقبلتني على أرض الحرية»^(١).

لإنها ملاحظة مؤثرة بقدر ما هي مثيرة للسخرية... ومع ذلك، ما أندر الأمريكيين الذين جرؤوا على مواجهة المشكلة ومجابهتها، عندما كان توقع تطورها أمراً حيوياً، فخلال قرن، ثمة أغلبية قبلت، الأمر الواقع ببساطة، بينما كانت روح الديمقراطية تتطلب مطابقة الوضع الاجتماعي

(١) مذكرات ما وراء القبر الناشر لاهلياد، الجزء الأول—ص: ٢١٧.

لتطلّبات الحق، ومادام المجتمع الأمريكي لم يبدل هذا الجهد في الوقت المناسب وبعزيمة كافية، فهو الآن فريسة أزمة عنصرية من شأنها، في كل برهة، أن تزعزع مرة أخرى.

عنّف في بوسطن

هدوء ظاهري يبعث، لوقت ما شعوراً بالأمن والاطمئنان خادعاً، فالزمن الذي كان فيه الرئيس أيزنهاور يوجه المظليين إلى ليتل روك، عام ١٩٥٧، ليدخلوا ستة طلاب سود في مدرسة كانت حتى آنذاك مخصصة للبيض، .. هذا الزمن كان قد مضى وولى، كما يبدو. وقد نسي عدد كبير من الناس، الفتن الدامية في الستينيات، (٣٤ قتيلاً في واتس، ١٩٦٥) كما يُنسى الكابوس المزعج، فقد زالت آثار المباني المحترقة والمنهوبة، على قاب قوس وأدى من البيت الأبيض ... لكن النار كانت كامنة تحت الرماد ..

ففي شهر تشرين الأول ١٩٧٤، مضى أسود، في العام الثالث والثلاثين من عمره، في سيارة، ليوافي زوجته عند خروجها من العمل. وبغته، أحرق به جمهور من البيض حطموها. زجاج السيارة وانتزعوا الأسود من مقوده. وانهالوا عليه بضرب عنيف .. استطاع الفرار، إلا أنه فوجئ ببيض آخرين كادوا يقضون عليه، لكن الشرطة تدخلت في اللحظة الأخيرة لإنقاذ حياته. هذا المشهد لم يجر في مدينة صغيرة من الجنوب، إنما في بوسطن، قلب إنكلترا الجديدة، وعاصمة «الدرالية».

كان عضو مجلس الشيوخ ادوار كندي، قبل ذلك بمدة أسبوعين، في المدينة ذاتها، قد حاول مجابهة جمعية من أعداء الاندماج العنصري، في أثناء إجتماعهم، فاستقبلوه بقذفه بأقراص البندورة وبالبيض الفاسد، وقد كتبوا على الجدران شعار «افتكوا بالزنج» . كما أن عضو مجلس الشيوخ سام أرفين وهو ديمقراطي من كارولينا الشمالية، ترأس لجنة التحقيق في فضيحة ووتر غيت، قد لاحظ بشعور مرير من الأسف، أن سكان مدينة بوسطن الذين أدانوا منذ عشر سنوات، تصلب سكان الجنوب «يكتشفون اليوم، أن رغبتهم في الاندماج ليست بأشد من رغبة سكان ليتل روك» .

هذا التقارب بين مدينة من الشمال وأخرى من الجنوب، لا شيء مصطنع فيه . وكان المجلس التشريعي في ولاية الماساشوستس قد وافق، في العام ١٩٦٥ عند اغتيال قسيس أسود في الالباما،

هكذا تخوّل « شرعية » الأمن الدولي ، في نظر كيسنجر استخدام وسائل تدمير لم تعرفها المرحلة المسماة بكل غرابة « الحرب الباردة » . ولا يبدو ما في هذا الوضع من تناقض غريب واضح ، إلا إذا أخذنا عبارتي « الحرب الباردة » و « الانفراج » بمعناها الحرفي . فنحن ، في الواقع ، بصدد معان تخلو من كل جدوى ، عند التحليل ، ولا مبرر لوجودهما إلا لأغراض الدعاوة ، كوسيلة لتدعيم المعسكرين وللإقناع بتقبل أعباء التسليح بعد الحرب العالمية الثانية .

هاتان المرحلتان المتميزتان تمييزاً اصطناعياً يتسمان معاً بملامح ثابتة هي : جمود الولايات المتحدة أمام دخول الدبابات السوفييتية بواشنطن عام ١٩٥٦ (حرب باردة) وبراغ عام ١٩٦٨ (انفراج) ، وجمود الاتحاد السوفييتي حيال التدخل الأمريكي في إيران (١٩٥٣) وغواتيمالا (١٩٥٤) ولبنان حيث نزل ١٠.٠٠٠ جندي من الأسطول الأمريكي (١٩٥٨) ، وكل ذلك في مرحلة « الحرب الباردة » ، وكذلك أمام الضربات المماثلة التي جرت في أمكنة أخرى وفي مرحلة « الانفراج » .

أما البلدان الصغيرة التي جرت على أرضها تلك التدخلات الخارجية أو حدثت تلك التغيرات في أشكال الحكم ، فلا شيء عندها يميز بين « حرب باردة » و « انفراج » ، وهذا شأن الدولتين العظميين اللتين اتبعتا كلتاهما ، في المرحلتين ، هدفاً هاماً وأساسياً هو المحافظة على مناطق نفوذها الخاصة أو تدعيمه . تتابع السيناريو ذاته ، عندما استطاع كيسنجر ، وهو يستغل الخلاف السوفييتي الصيني ، الإقناع بقبول تعريفه (أو تحديده) للتوازن الدولي (١٩٧١) . ومنذ هذا الوقت حلت لعبة مثلثة الزوايا محل اللعبة المزدوجة المؤلفة من اثنين ، التي كانت تلعبها ، من قبل ، موسكو وواشنطن من جهة ، وموسكو وبكين من الجهة الثانية ، عندما رفضت واشنطن اللعب مع بكين . وسواء تعلق الأمر ب « الحرب الباردة » أو « الانفراج » أو « بالنظام الدولي الجديد » ، ففي الفرضيات الثلاث تأبى الدولتان العظميان الدخول في نزاع مباشر ولا تتجابهان إلا بوساطة بلدان صغيرة . لكن الفرصة الثالثة التي تصورها كيسنجر والتي ظهرت إلى الوجود في رحلته الأولى إلى بكين ، تُحدث تغييراً كبيراً في معطيات المسألة ، فهي إذ تدخل الصين في نظام التوازن ، ترى ليونيد برجينيف يستقبل رتشارد نكسون في موسكو بينما تسقط الصواريخ السوفييتية طائرات أمريكية في الفيتنام ، ونرى السوفييت والولايات المتحدة يزودون بأقوى أنواع العتاد العسكري أصدقاءهم في الشرق الأدنى .

والنظام الدولي لا يستقر إلا من أجل الكبار ، لأنهم وحدهم القادرون على المحافظة على توازنه أو الإخلال به ، والقادرون إذاً على إضفاء الشرعية عليه ، حسب تعبير كيسنجر . وفي هذا السياق

البيض المنتخبين، إلى التخلي عن ٦٥ مليون دولار من الولاية ومن الحكومة الفيدرالية، كيلا تطبق الاندماج العنصري، وهكذا برهنت على أنها غير مستعدة لتنفيذ قرار القاضي المذكور.

وبين السود و«ليبرالي السيارت» البيض الأثرياء، تقوم أكثر طبقات السكان عدداً، ومعظمها من الأمريكيين من أصل إيرلندي ويطياني، أي غير البيض الانكلو—ساكسون البروتستانت. وهم بيض حقاً إنما في حالة متواضعة، شأنهم شأن السود، لا أمل لهم بالوصول إلى أحياء الأثرياء كحي «ويلسلي» مثلاً. ولكن هذا الجزء (الأوسط) من السكان ذوي عزيمة صادقة على الاحتفاظ بمكاسبهم المتواضعة التي تجعلهم فوق الجمهور الأسود القابع في أحيائه المغلقة، وتميزهم عنه تميزاً واضحاً. هذا الوضع لا تختص به بوسطن وحدها. فهناك مدينة «نيوارك» في ولاية نيو جيرسي التي يقطنها عدد كبير من السود ومن الأمريكيين الطليانيي الأصل، بينما لا يؤلف البيض الانكلو ساكسون البروتستانت سوى أقلية فيها: وهناك مدينة «ديترويت» التي يتألف ثلثا سكانها من السود والأمريكيين البولونيي الأصل، أي من غير البيض الانكلو—ساكسون، البروتستانت. أما الأقليات الإيرلندية والبولونية والإيطالية الأصل وغيرها، والتي سماها علماء الاجتماع الأمريكيون، بكل شناعة، الفئات العنصرية البيضاء، فمكانها بين طرقي الكماشة المتألفة من البروليتاريا السوداء والأرستقراطية، وأغلبيتها من البيض الانكلو ساكسون البروتستانت، وهذه الفئات تناضل نضال اليائس للمحافظة على كيانها الوضيع مهما كلفها ذلك، أكثر مما تناضل من أجل الارتقاء في السلم الاجتماعي. وقد تبين ميكائيل نوفاك من مؤسسة روكفلر، أن عدداً كبيراً من هؤلاء «لم يمتز بهم الحلم الأمريكي بعيداً» ثم يضيف قائلاً: «إن المدارس في الأحياء التي تعيش فيها هذه الأقليات قد تكون في رداءة مدارس أحياء السود، كما دل على ذلك تحقيق جرى في فيلادلفيا» ويضيف أيضاً: أن «٤٠٪ من سكان مدينة بوفالو من أصل بولوني، بينما لا تضم كلية الحقوق في جامعتها سوى ٢٣ طالباً من أصل بولوني من مجموع ٧٠٠ طالب. كما أن المصارف في هذه المدينة، لا يشغل أكثر من وظيفة معاون مدير فيها، أي أمريكي بولوني الأصل. وكذلك هي النسبة في مدينة كليفلاند»^(٣).

إن المثلث: سود، بيض أثرياء، بيض عاديون، يزيده تعقيداً ما في مدينة بوسطن من انقسامات داخلية وفوارق في المجموعة الأكثر عدداً. وقد التزمت الشرطة التي يتألف أفرادها من هذه الفئات، قرار القاضي آرثر غاريتي احتراماً للقانون. يُضاف إلى ذلك أن هذه الطبقة الوسطى، سواء

(٣) مقابلة في صحيفة يو. اس. نيوز اند ورلد ريبورت، ١٤ تشرين الأول ١٩٧٤.

كانت من أصل إيرلندي أو إيطالي، هي من الكاثوليك، وقد وقفت الكنيسة الكاثوليكية إلى جانب الاندماج العنصري: وهكذا كان أيضاً «كيفن. ه. وايت» الذي انتخبته هذه الطبقة ذاتها (الوسطى) محافظاً للمدينة. فالأقليات البيضاء تزداد عزماً وتصميماً بقدر ما تشعر بانفرادها وعزلتها. واحتمال فوز أفكارها لا يمكن أن يصدر إلا عنها.

اعتصم ٣٠ ألف تلميذ في بيوتهم في ١٢ أيلول ١٩٧٤، وهو اليوم الأول من العام الدراسي الذي دخل فيه برنامج الاندماج حيز التطبيق، جرح ١٣ شخصاً، منهم ثمانية سود، بالحجارة التي قذفها السكان على السيارات التي تنقل البنين والبنات من حي لآخر لتحقيق الاختلاط في المدارس. وارتفع العدد في آخر تشرين الأول إلى أكثر من ١٠٠ جريح، و١٦٠ موقوفاً، بينما كانت تجول في المدينة، بالإضافة إلى رجال الشرطة المحلية، دوريات تتألف من ٤٥٠ / من الحرس الوطني و/٥٠٠ / من شرطة الولاية، المدربين على مكافحة الإضطرابات. والأكثر من ذلك أن عدة وحدات من الفرقة ٨٢ / المحمولة جواً اتخذت مراكزها في مدينة فورت براغ في كارولينا الشمالية لتكون على أهبة الاستعداد للتدخل.

جيرالد فورد ضد القضاء

تأزم الموقف في ٩ تشرين الأول، عندما أعلن الرئيس جيرالد فورد «أسفه حيال العنف» الذي كان مسرحاً له مدينة بوسطن وشاهده الأمريكيون جميعاً على شاشات التلفزيون. وأضاف معقلاً: «أن قرار المحكمة لم يكن، في رأيي الحل الأفضل لنوع التعليم في بوسطن. وقد كنت دائماً ضد النقل الاجباري بالسيارات لتحقيق توازن عنصري،.. إذأ أنا، بكل احترام أخالف قرار القاضي».

تعليق مُذهل في بلد، يُحمل فيه الفصل بين السلطات،—وهو أساس ديمقراطية سليمة—على محمل الجد أكثر من فرنسا. فعندما أبدى الرئيس فورد رأياً جهاراً في أمر يتخذ هذه الحدة، عمدت محاكم متعددة من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي، إلى إصدار أوامرها بنقل الطلاب في السيارات من حي إلى آخر، لتتفادى أن يؤدي التمييز العنصري في السكن إلى التمييز العنصري في التعليم، على الفور. والتمييز العنصري في التعليم هو ضد الدستور منذ القرار الشهير الذي اتخذته المحكمة العليا في العام ١٩٥٤، إلا أنه يبقى مرتبطاً بوجود أحياء خاصة بالسود، ارتباطاً مبهماً. فالرئيس المسؤول عن تطبيق الدستور، يخون الأمانة الملقاة على عاتقه، عندما ينتقد

الحكام المكلفة تفسير الدستور . وهو كى يفرض احترام القانون ، حسبما يقتضيه الواجب ، لا يستطيع إلا أن يؤيد الحاكم الاتحادية (الفدرالية) التي تقضي بنقل الطلاب عبر خطوط الفصل العنصري أو أن يعتمد إلى المبادرة باتباع سياسة من شأنها القضاء على التمييز العنصري في المسكن .

أثارت هذه المعضلة الكثيرة التعقيد أهواء حادة ، ففي الأوساط الشعبية ، بعث الاندماج على الفور ، إما شبح التزاوج بين العناصر المختلفة ، وإما فكرة اغتصاب السود للطالبات البيض . وهكذا اكتشف سكان الشمال أنهم يستسلمون للارتكاسات ذاتها التي كانوا يدينونها في الجنوبيين خمسة عشر عاماً خلت . أما محافظ بوسطن والزعماء السود في واشنطن ، فقد إحتجوا على تصريح الرئيس الأمريكي ، حتى أن أحدهم سأله قائلاً : « ما هو الأهم ؟ ، هل هو عداؤك للنقل بالسيارات ؟ أم واجبك رئيساً ، يدعم القانون ، وبأن تكون قدوة ، تشجع سائر أفراد الأمة على التقيد بالقانون ؟ » وتحدث انتوني لويس ، بهذا الصدد ، في جريدة نيويورك تايمز ، عن « إفلاس الأخلاق » ، مذكراً ، من جهة أن حاكم ولاية الماساشوستس المنتخب قد وضع « خطة تُضفي القانونية على التمييز العنصري إلى الأبد » . وأن وزير العدل ، من جهة أخرى ، في رئاسة جيرالد فورد « لم يأمر بأي ملاحقة بحق أي كان لانتهاكه القانون » . ثم يتساءل بألم مرير « هل ابتعدنا هذا البعد الشاسع عن مثلنا الأعلى في العدالة بين العنصريات ، حتى غدا رجال سياستنا لا يستخدمون ، لا القانون ولا القوة لدعم القرارات القضائية ؟ » (٤) .

أعطت الجواب عن هذا السؤال المحكمة العليا ، بعد بضعة أسابيع ، بخمسة أصوات من أعضائها مقابل أربعة . فقد أدانت ، وهي أعلى سلطة قضائية في أمريكا ، خطة مضادة للتمييز العنصري تستهدف دمج التسجيل المدرسي في مدينة ديترويت (معظم تلاميذها من السود) بثلاث مقاطعات أخرى مجاورة (كل تلاميذ مدارسها من البيض تقريباً) . وكانت أغلبية المحكمة العليا ، عند صدور قرارها بالإدانة ، تضم ، القضاة الأربعة الذين عينهم نكسون مع الخامس الذي عينه أيزنهاور ، وقد وقف الخمسة صفاً وحداً في وجه الأربعة الليبراليين الآخرين ، الذين كانت الأكتية في صفهم منذ عهد قريب ، وحددت منذ العام ١٩٥٤ القواعد الدستورية للاندماج العنصري .

إن مثل مدينة ديترويت (٧٠ ٪ من طلابها من السود) يختلف اختلافاً شديداً عن وضع مدينة بوسطن (٣٨ ٪ من طلابها من السود) ، إذ بينما يمكن تحقيق الاختلاط في بوسطن ، بنقل

(٤) انترناسيونال هيرالد تريبيون ، ١٧ كانون الأول ١٩٧٤ .

التلاميذ من حي إلى آخر في داخل المدينة، تبقى الأغلبية في مدارس ديترويت من السود، إذا ما ظلت عملية الدمج داخل الحدود الادارية في المدينة الصناعية الكبرى. ومن هنا كان القرار، قرار القاضي الاتحادي (الفدرالي)، بدمج طلاب المدينة، بطلاب المقاطعات المجاورة الثلاث ذات الأغلبية البيضاء. وإدانة هذا البرنامج تلتقي بمخالفة الرئيس فورد لنقل الطلاب داخل مدينة بوسطن من حي إلى آخر: وهي تعني في الواقع حتمية مواجهة التمييز في السكن بالتمييز في التعليم، برغم ما في هذا من مخالفة للدستور. وفي هذه الرؤية، يُحكم على أحياء السود الكبرى في المدن الأساسية بالبقاء كما هي إلى الأبد، بمبانيها المدرسية ومستوى التعليم السيئ فيها، لقلة مواردها المالية. وما خلا بعض استثناءات فردية، تبقى جماهير السكان السود محرومة من التعليم الجيد الذي يُتيح لها مغادرة أحيائها القذرة، بوصولها إلى امتحان أعمال أكثر أجراً ودخلاً. وقرار المحكمة العليا المذكورة بصدد مدينة ديترويت، يوطد بذاته التمييز العنصري إلى الأبد ويقم التفات العنصري في كل وجوه الحياة الاجتماعية وجوانبها.

لجأت مدن أخرى إلى خطط شبيهة بخطة ديترويت التي رفضتها المحكمة العليا. وهكذا سُدت السبل وتجمد الوضع، لأن قرار المحكمة العليا يُعد اجتهاداً ومرجعاً لا سبيل إلى مخالفته حقوقياً. وكان التنظيم المدرسي في مدينة ديترويت (— ٢٩٠٠٠٠ طالب، وميزانية قدرها ٣٠٠ مليون دولاراً)، في عجز مالي، فقاعات الدراسة مكتظة بالتلاميذ، ونسبة المدرسين إلى الطلاب دون المعدل العام ٥—٦٪ من طلاب المرحلة الاعدادية، يصلون إلى نتائج مدرسية مُرضية. وهذه الحالة المستمرة في التدهور، قائمة في أحياء السود جميعها. وقد اعتبر تورغود مارشال^(٥) الأسود والأبيض بين قضاة المحكمة العليا التسعة، إن قرار زملائه هو «خطوة جبارة إلى الوراء» وأضاف قائلاً: «حتى أمد قريب، قد يبدو أن الحل الأسهل هو أن يُسمح بتقسيم مناطق المدن الكبرى إلى قسمين (في كل منطقة أو مدينة)، هما القسم الأسود والقسم الأبيض— لكنه سبيل، أنا أتنبأ بأن شعبنا سيندم عليه.»

إن معظم المدن الأمريكية الكبرى، تهجرها الأسر الغنية سعياً وراء الترف في الضواحي الفخمة الأنيقة، بينما يتراكم السكان الفقراء (بيضاً أو سوداً) المكلفون بضرائب طفيفة، المحتاجون

(٥) هو محام سابق للجمعية الوطنية لتقدم الشعب الملون، رافع عام ١٩٥٤ في قضية الاندماج الاجتماعي، أمام المحكمة العليا، وريث الدعوى، عندما برهن على أن التمييز العنصري هو سبب التفاوت واللامساواة، إذا فهو ضد الدستور.

إلى الخدمات الاجتماعية، في الأحياء الشاغرة على هذه الشاكلة، .. وهكذا تسجل معظم هذه المدن الكبرى عجزاً في ميزانياتها يضطرها إلى إجراءات وتدابير جذرية في الاقتصاد، تكون ضحاياها الأساسية أفقر طبقات الشعب. ففي مدينة ديترويت، حيث واحد من خمسة عمال، في عطالة، سرح ٤٠٠٠ مستخدم في الدوائر البلدية وتقلصت دوائر ومصالح عامة مختلفة^(١). وملاحظات كورنيليوس غوليتلي، رئيس المكتب المدرسي في المدينة، وهو من السود، تنطبق على معظم مراكز التجمع السكاني الكبيرة:

« ليس في مدينة ديترويت عدد كاف من الأسر ذوات الدخل الوسطي ولا معنى للدمج إلا إذا كان هناك عدد كاف من الناس الذين ينبغي دمجهم. فقرار المحكمة العليا يسجل خطوة إلى الوراء ويحرم سكان المدينة وأبناء الوطن مما كان بالإمكان، أن يحقق في جوهره، اختصار مدة الدمج. وقرار المحكمة العليا يعني أننا لن نستخدم المدارس وسيلة لتوحيد المجتمع. ».

عندما يزيد الدواء الداء تفاقمًا

لئن أبدى الرأي العام الليبرالي سخطه، واستنكاره لموقف الرئيس جيرالد فورد ضد قرار قضائي، فليس أكيداً أن يكون نقل الطلاب البيض والسود عبر الحدود العنصرية بين الأحياء وسيلة فعالة لتحقيق اندماج حقيقي. وذلك لسببين: أولهما رد فعل البيض، في الشمال والجنوب على السواء، وثانيهما للعبوة التي استقاها بعض الزعماء السود من رد الفعل هذا.

أسس سكان بوسطن البيض المعادون لنقل أولادهم نحو مدارس أحياء السود جمعية سموها «لنسترد حقوقنا المسلوقة» (R.O.A.R.)، (Restoe Our Alienated Rights) وهي بتحويلها إلى

(٦) أُجري تحقيق إحصائي عام ١٩٧٥، في ٦٧ مدينة، كانت نتيجة أن ٤٣ منها في عجز مالي، ودل على أن المسألة خطيرة جداً في المدن التي يرتفع فيها معدل العطالة عن العمل أي المدن التي يكثر فيها السكان السود. فقد خفضت مدينة كليفلاند، عام ١٩٧٠ عدد مستخدميها في دوائر البلدية، من ١٣٠٠٠، إلى ١٠٨٠٠. وسرحت مدينة بلتيمور ٢٥٠٠ وهدج بورت ١٥٪، وبوسطن ١٠٪ أي (١٥٠٠ مستخدماً)، وخفضت المعونات المالية للمشافي ٢٠٪. ومن ١٩٧١، زادت شيكاغو ١١٣ مليوناً دولاراً على ضرائب التبغ والفنادق والحدائق وغيرها. وخفضت سان فرانسيسكو ميزانيتها المدرسية تخفيضاً حاداً عام ١٩٧٦. وخططت مدينة نيويورك لإلغاء عمل ٣٠٠ مستخدم في مدارسها. وأُنزلت باركلي عدد كتب مكتبة المدينة ٣٦٠٠٠ ألفاً إلى ١٩٠٠٠. وسرحت نيويورك ١٩٠٠٠ مستخدماً من دوائر بلديتها، عام ١٩٧٥.

كلمة واحدة تعني زئير^(٧). قامت هذه الجمعية بدعوة مندوبين قدموا من ثماني ولايات وقرروا تأسيس منظمة R.O.A.R.، على مستوى الوطن وهم على يقين من اجتذاب أعضاء من أدنى البلاد إلى أقصاها، سيكونون— وإن قل عددهم فعالين ونشيطين وقادرين كل القدرة على إثارة أهواء الطبقة الوسطى البيضاء..

غير أن أنصار التعليم المختلط، من جانب آخر، مضطرون إلى أن يروا نقل الأولاد إلى مدارس هي غالباً بعيدة، مشروعاً يكرهه الشعب. فقي جاكسون (ولاية المسيسيبي)، كانت المدارس، قبل اتباع هذه الطريقة، تضم ٤٠٪ بالمئة من السود. فأدى الانتقال الاجباري من مدرسة إلى أخرى، إلى لجوء زهاء نصف التلاميذ البيض إلى مدارس خاصة، حتى بلغ معدل التلاميذ السود في المدارس الرسمية في المدينة ٧٠٪. وهكذا، زاد النقل، المعد لمكافحة التمييز العنصري، حدة هذا التمييز. لذلك قبل الزعماء السود في جاكسون، من أنصار الدمج، برنامج يتحول مدارس اعدادية أن لا تقبل تلامذتها إلا من الأحياء المجاورة وعلى كتب منها.

وفي حزيران عام ١٩٧٥، رفض قاض يُعد من الليبراليين، نقض حكم سابق يحول مدينة مونتغمري (الاباما)، الامتناع عن نقل الطلاب من حي إلى آخر، مع أن تلامذة مدارس هذه المدينة أكثر من ٩٠٪ منهم من السود، وذلك لأن النقل بالسيارات حمل أسراً من البيض إما على السكن في مناطق مدرسية لم تُطرح فيها مسألة النقل، وإما تسجيل أبنائها بأجور باهظة، في معاهد خاصة. لقد خشيت محكمة الاستئناف أن يؤدي حكم صارم إلى تشجيع هذين الشكلين من الهجرة.

أما حادث أتلانتا (في ولاية جورجيا)، فيدل على العمق الذي ضربت جذورها فيه الميول العنصرية. فقد كان ٣٥٪ من تلامذة مدارس هذه المدينة الحكومية، قبل مشروع الدمج، من السود. وفي مدة خمسة عشر عاماً، أدت هجرة البيض من أحيائهم، إلى ارتفاع هذا المعدل إلى ٦٥٪، بينما لا يبلغ السود أكثر من ٥٥٪ من مجموع سكان المدينة. هكذا أدى الدواء إلى تفاقم الدواء. وحيال هذه النتيجة المفجعة، تخلى الزعماء السود عام ١٩٧٣ عن تبادل الطلاب بين حي وآخر (وتعويضاً عن ذلك طلبوا أن تكون ادارة المدارس وهيئة المدرسين مندجتين وموحدتين وتحقق مطالبهم) لكن لم يؤد هذا أيضاً إلى التحسين المتوقع، بل على النقيض، ارتفعت نسبة السود في

(٧) تجاهت أيضاً في مدينة ليتل روك عام ١٩٥٩ منظمتان اتخذتا شعارات تعبر عن ميول كل منها.

المدارس الرسمية من ٦٥٪ إلى ٨٦٪، وذلك لأن ١٠٠٠٠ طالب أبيض من مجموع ٢٠٠٠٠ أبيض في سن الدراسة، مسجلون في مدارس خاصة تمارس تمييزاً عنصرياً صارماً. وهكذا يدل مثلاً مدينة اتلانتا إذاً على أن التخلي عن مشروع نقل الطلاب من حي إلى آخر، لا يحصر هجرة البيض من حي إلى آخر ولا يحول دونها، ثم لا يستدعي عودتهم بعد ذلك.

وهكذا، جرى البحث عن تسويات أخرى، كالتسوية التي تم الوصول إليها في العام ١٩٧٥ في مدينة شارلوت (ولاية كارولينا الشمالية)، حيث أدى قرار «الاندماج بالنقل» إلى تطور المدارس الخاصة تطوراً سريعاً، بينما كان السكان البيض يغادرون حي هيلدن فاللي، الذي كان أبناؤه يتجهون كل يوم إلى مدرسة سوداء تقع في الطرف الآخر من المدينة. وفي أن واحد، بدأ السود يذهبون للإقامة في الحي المذكور حيث غدا عدد كبير من المساكن خالياً، مما أدى إلى انخفاض أسعارها. وكان طبعياً أن يكون تدفق السود هذا حافزاً على هجرة البيض، وأن تؤدي هذه الحركة المزدوجة إلى اختلال توازن السود—البيض في المدارس، فكانت المحكمة تسعى سعي اليائس إلى نقل طلاب من أحياء أخرى لتقيم نسبة عددية مرضية. ولما آل ذلك إلى الإخفاق قبلت المحكمة، إنما على مضض، أن يمضي أبناء حي فاللي إلى أقرب مدرسة من حيهم. وكان من شأن هذا الإجراء أن يؤدي إلى استقرار عدد سكان الحي الذين ظلوا من السود بنسبة ٨٠٪.

العبارة واضحة، فالتعليم الذي يتلقاه الصغار السود دون مستوى تعليم أبنائهم البيض، وهذا التفاوت يجعل أمام السود عقبة كأداء ستلاحقهم مدى الحياة. وطالما سيظل هذا الظلم قائماً، فلن يتحقق الوعد بالمساواة المدون في الحلم الأمريكي. فمنذ أن أُدين التمييز في التعليم الرسمي، في العام ١٩٥٤، تحقق بعض التقدم، إنما خلال عقدين من الزمن، وجدت قطاعات السكان الأكثر تشبهاً بالتمييز العنصري، سواء في الشمال أم في الجنوب، الرد بالطريقة القائمة إما على اللجوء إلى المدارس الخاصة، وإما إلى تغيير حي السكن. والحلان هذان باهظا الكلف، ولا يستطيع سبيلاً إليهما إلا الأسر الغنية. وهنا أيضاً يفقد المبدأ الديمقراطي تأثيره. ولعل الاختلاط في المدارس باستهدافه طلاباً صغاراً، ألين عريكة من البالغين، كان السبيل إلى النزاعات العنصرية والتمهيد لمجتمع يقوم على صلات منسجمة بين الفئات العنصرية المختلفة. غير أن قانون الدمج، شأنه شأن الكثير من القوانين، يمكن الالتفاف عليه، وهو في الواقع قد أُلْغِيَ عليه. فالاختلاط في المدارس يصطدم بالمسكن الذي هو انعكاس التمييز الاقتصادي. وهو تمييز ضحيته السود.

التفاوت الاقتصادي

إذا ما سلّمت الولايات المتحدة بأن المسألة العنصرية هي ، في آن واحد ، أعظم تحد لمبادئها الديمقراطية وأخطر سبب لانفجار إجتماعي يهددها ، وعزمت على حلها ، فينبغي لها أن تفتش عن حل آخر ، وهو حل لا سبيل لوجوده إلا بكفاح تخوضه على كل الجبهات ، في التعليم والمساكن والدخل . فأحياء السود في المدن الكبيرة لم تتطور قط إلى الأفضل ، منذ إتخاذ الأحكام والقرارات القضائية والتشريعية ، خلال السنوات العشرين الأخيرة . كما أن تباين الدخل لم يتطور إلا قليلاً جداً ، إن لم نبالغ في التفاؤل . (انظر الجدول) .

الدخل الوسطي للأسر السود والبيض
(بالدولار عام ١٩٧٣ ، مع حساب التضخم)

| ١٩٧٣ | ١٩٦٦ | ١٩٦٥ | |
|-------|-------|-------|----------------------------|
| ٧٢٦٩ | ٧٢٨٠ | ٥٥١٠ | سود |
| ١٢٥٩٥ | ١١٨٦٩ | ١٠٢١٠ | بيض |
| %٥٨ | %٦١ | %٥٤ | سود (نسبة دخلهم إلى البيض) |

مصدر الإحصاء : مصلحتا العمل والتجارة ، (١٩٧٤) .

ولما كان معدل البطالة عند السود أعلى بكثير من معدلها عند البيض ، فقد أدى الركود الاقتصادي إلى ازدياد الفارق ، في عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ ، حتى أن دخل الأسر السود الوسطي ، إذا قورن بدخل الأسر البيض بدا أكثر انخفاضاً مما كان يُتوقع له عام ١٩٧٣ ، وحسب أرقامه . ثم ينبغي النظر إلى أن عدد أفراد الأسرة السوداء أكبر من البيضاء . فإذا كان دخل الأسرة السوداء ، في العام ١٩٧٣ ، يعادل ٥٨٪ من دخل الأسرة البيضاء الوسطي ، فالمعدل يزداد انخفاضاً أيضاً ، إذا ما قارنا الدخلين الوسطيين ، لكلا الأسرتين ، حسب الفرد (الدخل الفردي) . ومن العام ١٩٤٠ إلى ١٩٥٩ ، ارتفع دخل الفرد (الأسود) من ٣٠٪ إلى ٥٨٪ من دخل الأبيض . وما

لا شك فيه أن مستوى معيشة السود قد ارتفع خلال هذه الحقبة. إلا أنهم لم يتوصلوا إلى استدراك ما فاتهم من تقصيرهم عن الأغلبية البيضاء.

هذا التباين في الدخول يفرض ويحث التمييز في السكن، الذي ينجم، عنه، بدوره، التمييز المدرسي. وقد تتحطم هذه الدائرة الجهنمية، نظرياً، بخطة شاقة تتوخى، في أول الأمر، التقريب بين شروط المعيشة، الاجتماعية والاقتصادية عند الفئات العنصرية المختلفة، غير أن سياسة كهذه تتطلب، كما دلت برامج «مكافحة الفقر» (الرئيس كندي) و«المجتمع الكبير»، (الرئيس جونسون)، ميزانيات ضخمة يتردد الكونغرس في الموافقة عليها، بالإضافة إلى أن فاعليتها محدودة.

إن إصلاحاً جذرياً، يستهدف بُنى التعليم، يمكن أن يؤدي إلى وضع الطلاب السود والبيض على قدم المساواة، على أن يفترض ارتباط الإدارة المدرسية، لا بالسلطات المحلية، بل بوزارة تربية وطنية حقيقية، لا وجود لها الآن في الولايات المتحدة. فإن بلدًا تُعد فيه اللامركزية المدرسية أساساً من أسس الديمقراطية (برغم خضوع عدد كبير من المدارس لتأثير المؤسسات المحلية المتزايدة) لا سبيل إلى إنشاء وزارة كهذه فيه، ولم تنشأ. وكل تدخل تُقدم عليه السلطة المركزية، في هذا الصعيد، يبدو محاولة لتجنيد الشبان وتعبئتهم. أما أسلوب المعونات، الذي اعتمدته الحكومة الاتحادية (الفدرالية) وسيلة لتحطيم الحواجز العنصرية في التعليم، فقد اعترضته عقبات، تُقَدِّم ذكرها، فكل محاولة لتصعيد المركزية، وترسيخها في الإدارة، ستخالف الدستور وتُثير معارضة عنيفة.

إن مساواة افتراضية في الدخول، ثم مساواة دونها احتمالاً في التعليم، لن يضعا حداً للتمييز في السكن. وإن بعض الطرق التي كانت مألوفة وجد شائعة، حتى عهد قريب، قد أصبحت غير قانونية، وفي الأنحص، تسجيل بنود تمييز عنصري في مشاريع فرز الأراضي وتقسيمها، للبيع، وفي عقود البيع والإيجار. غير أن بنوداً كهذه، لا غنى عنها، لاستمرار التمييز وبقائه في الوقائع اليومية، كالحق في حرية اختيار مكان الإقامة الذي لا سبيل إلى إلغائه تعسفي له، فالبيض يمارسونه ليتجنبوا جوار السود.

غير أن تقدماً كبيراً قد تحقق بتحظير كل أشكال التفريق والتمييز العنصريين، القانونية (الرسمية). وكان ثمنه معارك قاسية أمام المحاكم والكونغرس، تدعمها في الشارع مظاهرات مدوية صاخبة. وقد أدى هذا التحظير، في كل مكان تقريباً، إلى التماس بين السود والبيض — الذين

كانوا، يفضلون قبل ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً—وهي نتيجة لا يُستهان بها. إلا أن نتائجه النفسية أدت إلى اشتداد الأزمة. فقد حل محل استسلام السود تصميم ثابت، إن لم يكن على الدمج فعلى تحقيق المساواة العنصرية الأكيدة. أما لبرالية البيض الشماليين الذين يستنكرون تعصب الجنوبيين العنصري، فقد اجتازت محنة شاقة يوم اكتشفوا، كما جرى في بوسطن، أن المسألة مطروحة عليها أيضاً. والعنصرية، الآن، ليست أكثر ولا أقل حدة، إنما ازداد الشعور بها ووعيتها في أوساط السود والبيض.

الحكومة لا تطبق القانون

إن بلداً ينقسم انقسام الولايات المتحدة لا مفر له البتة من إضطرابات عنيفة، من شأنها أن توزع كل مؤسساته. لكن لا يزال هناك بعض الأمريكيين، بلغوا من صفاء الذهن ما أتاح لهم تقدير مدى الخطر، فهم من خلفاء دعاة العتق (تحرير العبيد) وأنصاره الذين ما فتئوا يطالبون بإلغاء الرق حتى حرب الانفصال. فهل يكونون أكثر توفيقاً من أسلافهم في النجاح بتجنب أزمة خطيرة؟ وهم على قلتهم، لم تثبط عزيمتهم في مكافحة العنصرية. وفي كانون الثاني من العام ١٩٧٥. اتهمت لجنة الحقوق المدنية ثلاث دوائر اتحادية هامة بعدم تقيدها بقوانين مكافحة العنصرية وهي:

- مصلحة الدخل الوطني التي لم تستخدم صلاحيتها الكاملة بسحب امتياز الاعفاء من الضرائب، من المدارس الخاصة التي أسست، في الأخص، لإحباط مكافحة التمييز العنصري في التعليم.
- مكتب الحقوق المدنية المتأسس في وزارة الصحة والتربية والرفاهة، الذي لم يُصدر توجيهات واضحة بالامتناع عن التمييز العنصري في المناطق السكنية الكبرى، أو في توظيف المعلمين والأساتذة. فهذا التقصير يُتيح للمدارس التي تمارس التمييز العنصري، أن تنال معونات مالية اتحادية (فدرالية) لا يسمح بها القانون.
- إدارة المحاربين القدماء، التي لم تستخدم إمكاناتها استخداماً دقيقاً وصحيحاً، في مكافحة التمييز العنصري في المدارس المهنية التي تمدها هي بالمعونات المالية.

هكذا، وكما أبدت اللجنة المذكورة ملاحظتها، هناك مؤسسات تربوية كثيرة، أصبحت لا تتحمل على محمل الجد، تصميم الحكومة على فرض احترام قوانين مكافحة التمييز العنصري.

والأخطر من ذلك شأنًا، أن إدارة المحاسبة العامة، بعد مرور خمسة أشهر على الاتهامات التي وجهتها لجنة الحقوق المدنية، أي في شهر أيار من العام ١٩٧٥، وجهت اللوم إلى الحكومة الاتحادية، لعدم تطبيقها التعليمات الصادرة عنها ذاتها، ولا سيما برفض إبرام أي عقد حكومي مع المشاريع والمؤسسات الصناعية التي تمارس التمييز العنصري في استخدام عناصرها أو في أجورهم: فخلال عشر سنوات، لم يتفق إلا للمؤسسة واحدة أن يُرفض تعاقد الدولة معها لهذا السبب، برغم انتشار التمييز العنصري في ميدان الصناعة. وقد خصت إدارة المحاسبة العامة بلومها وزارة الدفاع، التي تعقد مع قطاع الصناعة الخاص أكبر صفقاتها.

هذه الوقائع المحدودة تلتقي في تفسير القلق الذي يساور جهازاً من أجهزة الحكومة الاتحادية، هو لجنة الحقوق المدنية، عندما تقدر أن البلد وقد بلغ مرحلة خطيرة، في عدم مكافحة التمييز العنصري، لذلك ترى أن لا بد من القيام بعمل خارق ليعين بجلاء أن الأمة رفضت رفضاً نهائياً عقيدة «الفصل مع المساواة»^(٨) الوهمية والمناقضة للدستور التي يقوم عليها التمييز العنصري منذ عام ١٨٩٦.

«عمل خارق» كهذا، لا سبيل إلى ادراكه، إلا عندما يقبل جزء كبير من السكان بدراسة المسألة العنصرية ومواجهتها مباشرة، في جوانبها ومظاهرها المتعددة. وتاريخياً، لم يبد هذه الشجاعة سوى أفراد معدودين، تلاشت نداءاتهم في اللامبالاة العامة، أو اصطدمت بمقاومة أنصار الأمر الواقع، مع أن الأزمات الدورية الدامية أيدت وأثبتت قيمة تحذيراتهم. غير أن هذه الأزمات، شأنها شأن فتن السنوات الستينيات، لم تؤد إلى ردود فعل إيجابية فحسب، بل قدمت براهين إلى المتحمسين للقانون والنظام، المتأهبين دائماً للتضحية بالشرعية على مذهب النظام وتوطيده، والمستعدين دائماً لتدعيم القمع.

إن الولايات المتحدة، بوصفها هيئة إجتماعية، لم تجرؤ على مجابهة معضلتها العنصرية خلال قرنين من الزمن، ولا حتى في أثناء حرب الانفصال. بينما ينبغي للأمريكيين، وهم يحتفلون بذكرى المئة الثانية لاستقلالهم، الاعتراف بحقيقة، لا طاقة على تحملها، وهي أن شعباً بأسره، عندما كان يحمل السلاح لينتزع حريته، اختار أن يحرم منها النساء والرجال الذين يسترقهم بذاته. فكفاحه من

(٨) المقصود: الفصل بين السود والبيض.

أجل الحرية، كان إذاً ملطخاً في نقطة إنطلاقه، وحاملاً في ذاته، الجرثومة التي ما فتئت تتمخض حتى ولدت بعد مئتي عام، حالة تهدد بخطر جسيم.

التسوية الأولى

كان توماس جيفرسون، وهو يضع إعلان الاستقلال، مقتنعاً أن نصاً يوضح المبادئ التي من أجلها سيقا تل الناس ويموتون، ستكون نتائج أي تناقض فيه، في النهاية، مثقلة بالعواقب الوخيمة، ومادامت الفقرة الأولى من الإعلان، تؤكد أن «جميع الناس يولدون متساوين» وأنهم «يتمتعون بحقوق مقدسة منها الحرية»، فهو يرى أن من المحال ألا تُذكر بوضوح المسألة التي تطرحها العبودية.

فهل يكون العبيد بشراً؟ أن ملفات المستعمرات القضائية تبدي في هذه النقطة بعض الالتباس والغموض «فبرغم خضوع العبيد لعقوبات لا يفرضها مالك أرض، حتى على حصان هارب مثلاً، هناك، مع ذلك، بعض القضاة الذين ينكرون النظرية القائلة بأن السود ليسوا أكثر من حيوانات داجنة»^(٩).

أما جيفرسون فلا يخامر الريب في هذا الموضوع وقد سبق له أن اقترح على مجلس فرجينيا نصاً يقول بأن أبناء العبيد يولدون أحراراً وأنهم سيتعلمون على حساب المستعمرة. ولما غلب على أمره استطاع مع ذلك الحصول على الموافقة بمنع الاتيان بعبيد جدد إلى ولاية فرجينيا. وهكذا ادخل جيفرسون، وهو يدون إعلان الاستقلال، منسجماً كل الانسجام مع معتقداته السياسية، الفقرة التالية:

«إن ملك إنكلترا قام بحرب غاشمة على الطبيعة الإنسانية ذاتها، منتهكاً أقدم حقوقها في الحياة والحرية باضطهاده أبناء شعب بعيد عنه لم يسيء إليه قط، فارضاً عليهم السجن والعبودية في النصف الآخر من الكرة الأرضية، إن لم يفرض عليهم موتاً بائساً في المراكب التي كانت تقلهم إليها. إن حرب القرصنة هذه، التي تفجّل منها الدول غير المؤمنة قد شنها ملك بريطانيا العظمى المسيحي، وهو، إذ عزم على إبقاء سوق للنخاسة يُشري فيها الناس ويُبَاعون، فقد دنس حقه في الاعتراض ليقضي على كل محاولة تشريعية تُحظّر هذه النخاسة المزدولة أو تضع لها حدوداً. وكيلا

(٩) العالم الذي صنعه العبيد للكاتب أوجين د. جينوفس باتيول الناشر نيويورك ١٩٧٤.

ينقص مجموعة الولايات هذه أي شيء بارز، عمد الآن إلى تحريض هذا الشعب ذاته على حمل السلاح ضدنا، وعلى استرداد الحرية التي حرّمه منها، قاتلاً الشعب الذي فرضه عليه، ومسدداً هكذا ديون جرائم اقترفها قديماً—بانتهاكه حريات شعب—بجرائم يدفعه إلى ارتكابها ضد حياة شعب آخر».

لقد رأى جيفرسون أن من الخدق أن يُلقى على إنكلترا المسؤولية الكاملة عن العبودية. ونصه المذكور يدين النخاسين الذين يمضون إلى افريقية باحثين عن أناس ينقلونهم إلى أمريكا. إلا أنه لا يلوم بوضوح من يشرونهم فيها ويستغلون عملهم. وهو يأخذ على إنكلترا تحريضها العبيد على التمرد. ومع ذلك، يصطدم هذا النص باعتراضات ولايتي جيورجيا وكارولينا الجنوبية اللتين تمكنتا من إلغائه، برغم ما في صيغته من نعمة وتلطف. هكذا، إن من كانت له الغلبة آنذاك، أي قبل مولد دولة جديدة مستقلة، هو نمط من إدعاء مصلحة الدولة. فبحجة فاعلية الكفاح ضد إنكلترا وسعيًا وراء مساهمة المستوطنات الأمريكية كلها، حُرّم العبيد من الحرية التي يجري القتال باسمها وشؤه مبدأ من المبادئ التي تلهم الكفاح وضحي به.

أما مصلحة الدولة، المصلحة المزعومة، فستُغتنم، وهي ترتدي دائماً صفائح الواقع، فرصاً أخرى لتدع الزمن يأتي على المسألة. وما موقف جورج واشنطن إلا صورة مجسدة سابقة، سار كثيرون من بعد على غرارها، فهو، وإن كان أقرب إلى رفض العبودية، إلا أنه ليس من الحذر أو الحكمة مكافحتها، في رأيه. وبعد قرن من الزمن، عرض أحد كتّاب سيرة حياته وسأوسه الكاذبة كما يلي:

كان يرى أن العبودية تعني تطور نظامين، في الولايات المتحدة، يبلغ التناقض الجذري بينهما، لإجتماعياً واقتصادياً، ما لا بد لهما معه من أن يؤديا إلى الصراع من أجل السيطرة السياسية التي يخشى واشنطن من أن تجعل الاتحاد في خطر. وهو، لهذا السبب، لا يرغب في أن تُعرض مسألة العبودية في مداولات المؤتمر (الكونغرس) الأول ومناقشاته، لأنه يقدر طاقتها المفجرة، ولا يعتقد أن الاتحاد أو الحكومة قادران على مقاومة الأزمة التي ستنتج عن ذلك. أما الخطة التي كان يؤيدها. فهي تتضمن رقابة على استيراد العبيد أولاً، يتبعها عتق تدريجي مع تعويضات مرضية للملاكين، وتعليم يلائم أوضاع العبيد. وعندما وافته المنية، قام بكل ما في وسعه لإقناع مواطنيه بوجهات نظره: فقد أمر بعق عبيده عند موت زوجته^(١٠).

(١٠) هنري كابوت لودج—جورج واشنطن—بوسطن ١٨٩٩ ص: ١٠٧—١٠٨.

حجيج خادعة صدقها الكثير من الأمريكيين : فالملك جورج واشنطن يعقد العزم على تحرير عبيده ، إنما بعد وفاة زوجته . لكن الرئيس جورج واشنطن سيرعى مؤسسة الرق ويضمنها بسلطانه ، فهو بهذا الفصل ، بين ما يخصه شخصياً ، وبين منصبه الرئاسي ، يبرر سلفاً ، كل من سيظنون أنهم في حل من مقاومة العبودية ، ولا سيما في الشمال ، لأنهم لا يعيشون شخصياً من النخاسة . ومن الصعب تصور الشخص ذاته (واشنطن) يعلن أنه يشجب «عصيان الوسكي» شخصياً ، ولا يستخدم سلطاته الرئاسية لسحقه .

ثم أن جورج واشنطن ، المتأخر كثيراً في هذا الميدان عن جيفرسون ، يود لو يتم تحرير العبيد تدريجياً . وقد استعملت خلال أكثر من قرن صيغته هذه ، أو تعبيره هذا الذي لا سبيل أبداً إلى توضيح معناه المحسوس : فإما أن يكون امرؤ ما عبداً أو لا يكون . وأنصار هذه النظرية (التدريجية) سيستمرون دائماً في رأيهم أن العبيد ماداموا غير مهيين لاستعمال حريتهم استعمالاً صالحاً ، فاعتاقهم سيكون سابقاً لأوانه .

وشأن خصوم الرق آنذاك هو أن شأن أنصار المساواة التامة ، اليوم ، بين السود والبيض ، فقد برهنوا في تلك الحقبة على أقصى النشاط والفاعلية ، ولا سيما الكويكرز ومعهم مجموعات أخرى من دعاة إلغاء الرق الذين نظموا فرار بعض العبيد ليستقبلوهم في الشمال ، إلا أن أعمالهم هذه لم تتعد النطاق الفردي ولم تمس نظام الاسترقاق ، ومع ذلك فقد استنكرها جورج واشنطن ، كما تدل الرسالة التالية التي كتبها في ١٢ نيسان ١٧٨٦ :

«أكتب إليك تلبية لرجاء السيد دليبي ، وهو من ألكسندرية . فقد أ استدعى إلى فلادلفيا لدعوى يراها جد مزعجة ، بشأن أحد عبيده ، حاولت جمعية من جمعيات الكويكرز اعتاقه . وأستطيع القول : ليس في العالم بأسره من هو أشد رغبة مني في إلغاء الاسترقاق ، إنما ، ينبغي أن تكون الوسيلة الوحيدة إلى ذلك ، الفعالة والصالحة ، هي السلطة التشريعية ، وإذا لم يكن هذا منوطاً إلا بي ، فهي لن تقصر في ذلك . لكن عندما يغرون عبيداً يشعرون بأنهم مسرورون وسعداء عند سادتهم ، وعندما يفاجأ مالكوهم بفرارهم وعندما تؤدي حملات كهذه إلى الاستياء من جهة ، ومن جهة ثانية إلى الحقد ، وعندما تستهدف رجلاً لا قبل له بمقاومة جمعية الكويكرز ، فيفقد ملكيته لعجزه عن الذود عنها ، ... عندئذ أقول أن اعتناق العبيد من الظلم لا من الإنسانية ، لأن ما يؤدي إليه من ضرر وآلام هو أكثر مما يعالجه ويشفيه منها»^(١١) .

(١١) واشنطن — مؤلفات الجزء التاسع ص : ١٥٩ .

هكذا لا يرى واشنطن أن الدخول في جدل تشريعي موضوعه العبودية هو من المحال فحسب، بل أنه يدين أيضاً باسم، الملكية الخاصة، الدعوة إلى إلغاء الاسترقاق. وهو في الواقع يتمنى ما هو من المحال، عندما يتمنى أن تلجأ الولايات التي يسري فيها نظام الرق إلى إقرار تحرير العبيد، بقبولها ورضاها، كما يتمنى بعضهم اليوم أن تعتنق القطاعات العنصرية في المجتمع سياسة مساواة تامة، متخيلة عن المكاسب التي تجنيها من حالة السود الدنيا. تلك هي العقلية التي سببت إرجاء حل مسألة الرق حتى اليوم الذي كان لا بد فيه من إتخاذ قرارات حاسمة.

حق الملكية

لم تن مع ذلك عزيمة دعاة الإلغاء برغم ما عانوه واعترضهم من عداء. ففي العام ١٧٨٩ وزع الكويكرز بياناً (مذكرة) ضد الرق وأرسلوا نسخاً منها إلى أعضاء الكونغرس. فلفت أحدهم نظر جورج واشنطن في رسالة إليه أن سلوكاً كهذا، من شأنه أن يهدد الوحدة الوطنية. هنا يكمن الدجل، فالولايات التي يسري فيها نظام العبودية، إذا ما انسحبت من الاتحاد، فالذنب يقع على دعاة الإلغاء وإن كانوا أقلية.

ويجب واشنطن مراسله في العام ١٧٩٠ قائلاً: أن مذكرة الكويكرز—وهي بلا شك—قد أتت في غير مكانها—لم تلبث أن دُفنت كيلا تنبعث قبل عام ١٨٠٨^(١٢). وأول فقرة في المذكرة أي «جميع الناس يولدون أحراراً». مأخوذة بنصها الحرفي من الدستور الأمريكي الذي يُحتم على الرئيس فرض احترامه. ورفض الكونغرس وثيقة الكويكرز مقدراً أن لا صلاحية له في التدخل، لا في مسألة تحرير العبيد، ولا في أساليب معاملتهم، وأرجىء النظر فيها زهاء عشرين عاماً.

إن الكونغرس في الواقع برفضه مذكرة الكويكرز، يعترف بكل وضوح أن مشكلة خطيرة تُطرح، لأنه بنفاقه هذا، يدع للولايات، التي يسري فيها نظام الرق، الاهتمام «بمراعاة العدالة والسياسة بما تتخذه من تسويات حكيمة». وهي براعة زائفة من الكونغرس، كما ستدل الوقائع لأنه، بمناورته المماثلة، قد حظر استيراد العبيد، إنما ابتداء من العام ١٨٠٨ وهو تاريخ كفي ينم على الرغبة في المواربة والتهرب من الصعوبات. وهكذا، عمد المجلس التشريعي في كارولينا الجنوبية إلى التصويت على قانون ولاية يوقف تنفيذ القانون الاتحادي المذكور قبل أن يدخل حيز التطبيق.

(١٢) واشنطن مؤلفات الجزء العاشر ص: ٨٥.

حيال هذا التحدي الذي واجه به الملاكون السلطة المركزية، قدم واشنطن الدليل على اعتدال يناقض بشدة صلابته في مواجهة الإضطرابات التي تقوم بها طبقات الشعب. فقد كتب في ١٧ آذار ١٧٩٢ إلى حكومة ولاية كارولينا الجنوبية، يقول: «على أن أعبر عن أسفي لقرار مجلسكم التشريعي في مسألة استيراد العبيد. وكنت آمل، إذا ما أثبتت هذه المسألة في أية ولاية من الولايات المعنية، أن تؤدي اعتبارات سياسية عليا مدعومة بنتائج الرق المريعة التي نشاهدها، إلى تحريم مطلق»^(١٣). هذه الأماني، ثدهشنا حين تصدر عن رجل يغار على سلطته ويحلم بسلطة مركزية جد شديدة وهنا يسجل واشنطن سابقة، لأنه، كما يكفي بإبداء أسفه لموقف مستقل عن السلطة الاتحادية تقفه ولاية كارولينا الجنوبية، كذلك سنرى الولايات الأمريكية الشمالية بعد إلغاء الرق وخلال زهاء ربع قرن تكتفي بإبداء أسفها لموافقة الولايات الجنوبية على قوانين تناقض الدستور وتحرم السود من حقوق المواطنين، دون إقدامها على أية مبادرة عملية.

إن رئيس الولايات المتحدة في الواقع، لا يقف عند تقبل نظام الرق. فعندما أوفد جون جاي إلى لندن للمفاوضة على عقد المعاهدة التي وقعت في العام ١٧٩٤، تلقى تعليمات تقضي بأن يطلب من الإنكليز تعويضاً عما أقدم عليه ثلاثون ألف عبد عندما اغتتموا الفرصة في أثناء حرب الاستقلال ليهربوا أو ينضموا إلى الإنكليز. وهكذا يتقدم حق الملكية على حق الحرية في نظر واشنطن، وكان جيفرسون آنذاك قد ترك الحكم. أما جون جاي فقد اصطدم في أثناء المفاوضات بصلاية اللورد غرنفيل الذي لم يسؤه أن يلحق المستعمرات القديمة درساً. فقد أصرت لندن على أن العبيد الذين احتموا بالعلم البريطاني قد أصبحوا أحراراً بحكم الأمر الواقع. وهكذا تفقد في آن واحد حقوق الملكية، التي كان يمارسها الملاكون هؤلاء على العبيد، كل شرعيتها. وعبثاً حاول جون جاي تقديم الحجج والرد إلا أنه استسلم أخيراً أمام هذا المنطق.

واقعية قصيرة النظر

بينما كانت الحكومة الاتحادية (الفيدرالية) تقدم الدليل على مسايرتها، تشاء الأسطورة أن ينتظر الرأي العام، وقد ترك جهله، نشر قصة السيدة هاريت بيكرستو «كوخ العم توم» ليكشف أهوال الاسترقاق ومآسيه، وذلك على الرغم من أن السود ما توانوا قط ولا أهملوا شيئاً في سبيل إثارة الانتباه إلى مصيرهم غير الإنساني، فقد قاموا قبل حرب الاستقلال بأربعين حركة تمرد أو عصيان،

(١٣) واشنطن مؤلفات—الجزء العاشر—ص: ٣٢٥.

في الأقل، قُمت جميعها بقسوة، كما أن السلطات كانت تعتمد إلى نشر أنباء هذا القمع الدامي على نطاق واسع لتردع الحركات المشابهة المحتملة. وهكذا كان يتحمل العبيد في أجسامهم المعذبة كل الوحشية بينما لم يكن البيض مجهلون شيئاً من ذلك وكانت تلك الهمجية تُثير حمية القلة من دعاة إلغاء العبودية لأنها جد معروفة.

كانت ولاية فرجينيا في العام ١٦٤٩ لا تضم أكثر من ثلاثمائة عبد. وفي العام ١٦٧٠ ارتفع هذا العدد إلى ٢٠٠٠ أي ٥٪ من مجموع سكان الولاية، كانوا يُستخدمون جميعاً في زراعة التبغ. وفي العام ١٧١٥ أدى دخول الرز وصباغ النيل إلى ارتفاع عدد العبيد، فبلغت ٤٦٠٠٠ في فرجينيا وكارولينا وماريلاند من مجموع ١٢٣٠٠٠ هم سكان الولايات الثلاث، وازدادت عندئذ الحركات الثورية. ففي ٨ نيسان ١٧١٢، أقدم بعض العبيد في مدينة نيويورك على إحراق أحد البيوت وبعد تسليحهم ببعض البنادق والخنجر والعصي قتلوا عشرة من البيض، وتدخل الجيش وأقدم ستة عبيد على الانتحار وأعدم من العبيد واحد وعشرون شنقاً، أو حرقاً وهم أحياء، أو ماتوا من جراء الضرب والتعذيب.

هناك حركة تمرد أخرى أبعد صدًى، من المحال جهلها أو تجاهلها، وقعت عام ١٧٣٩. عندما عزم بعض العبيد قرب مدينة شارلستون في ولاية كارولينا الجنوبية على الفرار إلى فلوريدا الإسبانية حيث وعدوا بالحرية، فقتلوا اثنين من الحرس وتسليحوا سلاحاً بسيطاً وقاموا بعرض يتقدمه حملة الأعلام والطبول، بينما راح سود آخرون ينضمون إليهم شيئاً فشيئاً وهم يحرقون في طريقهم ما يمرون به. وقد قتلوا ٣١ من البيض. بينما قُتل منهم ٣٤ وأسر ٤٠.

ولم يمض أكثر من شهور على ذلك حتى بدأ عبيد آخرون ينفذون خطة فرار في المدينة ذاتها كأنهم يريدون أن يبرهنوا على أن القمع لا يؤدي إلى أي حل، وأكتشف أمرهم فأعتقل مئة وخمسون، وشُنق خمسون، في كل يوم عشرة، وكأن الأمر لا يحتمل التفتير والتردد، أو كي تكون العبرة بهم أبقي أثراً وزمناً. وبرغم ذلك حصلت انتفاضات أخرى.

شدد أنصار الإلغاء حملاتهم، غير أن أغلبية السكان الواسعة ظلت غير مبالية بهذه الشحنة المفجرة التي لم تتجرأ حكومات الجمهورية الأوائل على لمسها، خوفاً من الإطاحة بالاتحاد، كأنما يسمعها الأمل أنه لن يتفجر أبداً.

وعندما كانت الولايات المتحدة تخطو خطواتها الأولى بعد تحررها، قبل الآباء المؤسسون، بغية

توزيع المقاعد التمثيلية على نسبة السكان ، أن يحسب حساب ثلاثة أخماس العبيد ، فياله من حساب عجيب يساوي بموجبه خمسة سود ثلاثة مواطنين . وهو حل ينم على أنهم لا يريدون حسماً جذرياً ، بل تحقيق توازن في القوى بين الشمال والولايات التي تضم العبيد . إنها تسوية مع الجنوب ، وتسوية على حساب المبادئ ، فالآباء المؤسسون لما يكونوا قد عرفوا أن الحلم الأمريكي قد غدا كامداً مكفهرًا .

ألغي نظام العبودية ، بعد ثلاثين عاماً ، في الشمال ، حيث لم يكن له وجود فعلي ، بينما كان المستوطنون يندفعون نحو الغرب . وكان قد تم تنازل جديد أدى إلى التضحية بمبدأ من مبادئ الديمقراطية أساسي ، قرباناً للوحدة الوطنية . «إنها تسوية ولاية الميسوري» التي قضت بقبول انضمام هذه الولاية التي يسري فيها نظام العبودية إلى الاتحاد ، على أن تصبح «مين Maine» وهي جزء من ولاية الماساشوسيتس ولاية حرة—وهذا توازن مصطنع—أي أن ترفض الولاية الجديدة الرق على أرضها .. هكذا كانت الغلبة ، مرة أخرى ، لتوازن القوى على حق مقدس . احتج جيفرسون وقد أسخطه ذلك قائلاً : «لقد قسموا البلاد قسمين أو نصفين ، نصف «عبودي» والنصف الثاني غير عبودي ، وضربوا عرض الحائط بكل ما قاتلنا من أجله في ثورتنا .»

هنا تكمن جذور المشكلة ، إذ من تنازل إلى تنازل ، منذ إلغاء الفقرة الخاصة بالعبودية من بيان إعلان الاستقلال ، كانت التضحية بمثل الثورة الأعلى ذاته ، في سبيل مصالح اكتشفوا بعد لأي ، أنها مصالح وهمية وعابرة . وحجة واحدة تبرز لتبرير التسوية هي أن الحؤول دون تمزيق الاتحاد يقتضي أن يكونوا «واقعيين» وألا يطلبوا من الجنوب ما لا قبل له به . وقد يكون هذا التفكير «واقعيًا» لو كان الاستمرار في استرقاق العبيد ممكناً إلى الأبد ، أي ما داموا سوى قطع من الماشية لا قدرة لهم على التمرد ، وهذه «الواقعية» في الحقيقة ، تقوم على رؤية للتاريخ ثابتة ومستكنة ، إلا أنها ، بلا شك ، لا قبل لها بإيقاف تطور المجتمعات ، وهي بهذا تمهد السبيل لأكبر المآسي . أما الذين ييغون أن يصونوا «مثل» الثورة ، فليسوا ، كما يهتمهم أعداؤهم ، «مثاليين» لا يفقهون شيئاً من حكم الشعوب ، بل هم ، على نقيض ذلك يقفون بالمرصاد وبواقعية ، مصيحين السمع لنبضات التاريخ ، وهم قادرون على ادراكها ، ولا سيما أنهم لم يخونوا ، بصفقة ، المثل الأعلى لثورتهم .

وخلال عشرات السنين ، سنرى أن أشد الأحداث تغايراً ، ستثير قضية الرق والخلاف فيها ، بينما تأتى الأغلبية الأمريكية مواجهتها بلا موارد ، وبذهن لا يتعبه الابتكار ، سترواغ هذه الأكتية في

اكتشاف المخارج التي تنبئ قبل مدة قرن ونصف القرن ، بالسهولة التي تعالج وتتدبر بها أمريكا اليوم جوانب التمييز العنصري ووجوه المختلفة .

هكذا سيتوصل الشمال والجنوب في العام ١٨٣٣ إلى تسوية على التعرفة الجمركية ، قد كان نزاع المصالح عليها نزاعاً مشهوداً ، فالصناعة التي تطورت في الشمال منذ أن قدم هاملتون تقريره عن أن السلع المصنوعة تحتاج إلى الحماية من التنافس الأجنبي برفع الرسوم الجمركية ، وإلى مساعدات حكومية لبناء الخطوط الحديدية وشق الطرق التي لا بد منها لتوسيعها . وهي بحاجة أيضاً إلى أراض جديدة في الغرب تفتح أبوابها للاستيطان . وعلى نقيض ذلك الجنوب الزراعي ، فهو يعادي الحمائيات الجمركية لأنها تزيد في ارتفاع أسعار كل ما يستورده ، وهو ضد المساعدات التي تزيد وطأة الضرائب عليه . وهو يناهض أيضاً استيطان أراض جديدة في الغرب — إن لم يُسمح فيها باستخدام العبيد — . وهكذا لم تؤدِ تسوية عام ١٨٣٣ على الرسوم الجمركية إلا إلى تأجيل النزاع الدامي الذي تكشف هذه التسوية القناع عن أحد أسبابه الأساسية قبل أوانه بمدة ٣٠ عاماً . وقد استطاع الشعب أن يقدر ، في الأقل ، النتائج السياسية التي يجبر البلاد إليها وجود قطاع اقتصادي قائم على نظام الرق وذلك خلال الخلاف على الرسوم الجمركية ، وبرغم لامبالاته . على أن الأغلبية مازالت مغمضة الأعين عن كل ذلك . وعندما ما قَدَّم « دافيد ويلموت » في العام ١٨٤٦ اقتراحاً بتحضير الرق في التمسكس والمناطق الأخرى التي ستنتزع من المكسيك ، رفض الكونغرس الاقتراح ، داعماً بذلك العبودية في الجنوب وانتهت الحرب باستيلاء الولايات المتحدة على زهاء نصف أرض المكسيك ووضع (هنري كلاي) تسوية جديدة يقبل بموجبها انضمام كاليفورنيا إلى الاتحاد بوصفها ولاية لا يسري فيها نظام الرق ، على أن يرجأ إلى وقت آخر تخيير المناطق الأخرى التي ضُمت إلى الولايات المتحدة .

حركات تمرد العبيد

بينما كانت نتائج لعبة التوازن الجغرافي هذه ، تتجنب المسألة الأساسية ، بغية تحقيق التوازن الدقيق بين الشمال والجنوب ، كان العبيد يذكرون الملأ بأنهم هم المعنيون قبل سواهم بالمصير غير المحتمل الذي يؤولون إليه .

ففي العام ١٨٢٢ ، أي لسنتين خلطنا على « تسوية ولاية الميسوري » ، قام أسود حر ، هو

دينبارك فيزي، بتنظيم تسعة آلاف عبد، للقيام بتمرد كبير في ولاية كارولينا الجنوبية. غير أن خيانة أحد الخدم أدت إلى اعتقاله مع ١٣١ من رفاقه، فأعدم ٣٥ منهم، وأبعد عدد آخر.

في العام ١٨٣١، اندلعت ثورة «نات تارنر» المشهورة، عندما عمد هذا الرجل إلى قيادة عدد من العبيد سلاحهم المناجل والفؤوس، على مسافة مئة كيلو متراً من رتشموند، في ولاية فرجينيا، ونشبت معركة قُتل فيها ٥٧ من البيض و٧٣ من السود. وقد هال البيض أن يستطيع السود سبيلاً إلى إنزال هذه الخسائر الفادحة بهم بأسلحة بدائية بسيطة. وقد زاد في قلقهم وحقنهم تمكن نات تارنر من الإفلات من أيديهم، إلا أنه أُسر بعد ستة أسابيع وأعدم مع سبعة عشر من رفاقه.

أثار هذا التمرد هيجاناً شديداً—وتكررت الظاهرة ذاتها في أحيان كثيرة عند حدوث صدمات نفسية سببتها أحداث السياسة الداخلية أو الدولية. إلا أن هذا الهيجان لم يكن كافياً لقيام عمل يتصدى لأعماق المسألة. ولم يتعد الأمر—كما لوحظ—اتخاذ بعض تدابير محدودة لتخفيف قسوة المصير الذي يعانيه السود. وهكذا أصدرت ولاية كارولينا الجنوبية قانوناً خاصاً يحدد عملهم اليومي بخمس عشرة ساعة في الصيف وأربع عشرة ساعة في الشتاء، كذلك صوتت ولاية «لويزيانا» على قانون يحدد أوقات طعامهم، كما وضعت ولاية جورجيا عقوبات على من يسيء معاملة العبيد، إلا أن قانون العقوبات ذاته ينص على أن الإقدام على تعليم عبد القراءة والكتابة، هو جريمة في نظر القانون.

هكذا كانت الأحداث الهامة التي تمت بصلة إلى الرق معروفة على نطاق واسع. فقد قام الزعماء السود ودعاة إلغاء العبودية من البيض بما هو من المحال لتحذير السواد الأعظم من جماهير السكان وانتشالهم من جمودهم. إنما عبثاً كان ذلك.

وقد برهن الزعماء السود على كثير من الاعتدال فهم لم يدعوا إلى الثورة أو التمرد بل إلى تحسين في مصير العبيد يتحقق شيئاً فشيئاً في حدود التقيد بالشرعية. فقد كانوا يعرفون حق المعرفة أن عملاً جذرياً قد يحرمهم من الاستماع إلى دعوتهم لا لشيء سوى أنهم من السود. لذلك هم يناضلون على الصعيد الذي يبدو لهم أصعب الأصعدة وهو احترام الدستور، وكان أكثرهم شهرة فريدريك دوغلاس (١٨١٧—١٨٩٥) وهو عبد فر من ولاية المارييلاند ليلتجئ إلى الشمال حيث أسس في العام ١٨٤٧ صحيفة «نورث ستار» (نجم الشمال) وبما كتبه فيها: «إنكم ترجمون الملوك الطغاة في روسيا والنمسا وتباهون في آن واحد بدساتيركم الديمقراطية، إلا أنكم ترضون بألا تكونوا

سوى أداة في أيدي طغاة فيرجينيا وكارولينا ودعاتهم المتعصبين». غير أن أمريكا كانت آنذاك في أوج حمى توسعها الرأسمالي، «لا تُقيم وزناً لاحترام الدستور سواء كان لصالح العبيد السود أو العمال البيض الذين تستغلهم جميعاً دون رادع»^(١٤)، ولم تؤثر نداءات فريدريك دوغلاس، الكاتب والخطيب الفذ، إلا بمن كانوا مقتنعين بالدعوة من قبل.

كان ثمة سبيل إلى عمل مباشر أكثر. هذا الدور، اضطلعت به هاريت توبمان، الأمة التي فرت من الجنوب ووقفت نفسها على أعمال الهرب الفردية، ومن هذا القبيل ذهابها إلى الجنوب لتنظيم فرار ذويها والمجيء بهم إلى كندا. وهي وجه بارز في «الخط الحديدي السري» الذي كان يوجه العبدان الآبقين ويقودهم إلى ملجأ يأويهم^(١٥)، فجلبت بذلك حقداً عنيفاً عليها، وأعلن دعاة الرق عام ١٨٥٦، عن مكافأة قدرها ٢٥٠٠٠ لم يدهم عليها. وليس ثمة تقدير أجمل من هذا تحاط به، فمن العبد الرقيق في السوق كان نحو ١٥٠٠ دولار.

أما البيض من دعاة إلغاء الرق، فقد كانوا أكثر إقداماً لأنهم يتمتعون «بالمواطنة التامة» وأكثرهم من الكويكرز والزعماء الدينيين والمثقفين، وقد أبدوا، على ضالة عددهم، شجاعة فائقة. كانت ولايات الجنوب في العام ١٨٣٠ تضم من جمعيات مقاومة الرق أضعاف ما ضمت ولايتا إنكلترا الجديدة ونيويورك معاً. ولم يكن المعقل العنصري الذي كانوا يهاجمونه من الداخل يهادنهم، فقد أصدرت ولاية اللوزيانا قانوناً يقضي بعقوبة السجن والإعدام على كل من يطبع نشرة ما أو بياناً أو منشوراً يناهض العبودية، كما كانت مصلحة البريد ودوائره تصدر كل ما سمته بالبريد «المخرب». وقد عبّر اقتصادي من الجنوب هو جورج فيتزهاوغ بأمانة، عن رد الفعل العام عندما جزم بأن الدعوة إلى إلغاء الرق هي «استسلام للاشتراكية والشيوعية ورفض الملكية الخاصة والكنيسة والقانون»، والقبول بالتزاوج الحر (بلا زواج مدني أو ديني) وبالأرض المشاع، والنساء المتحررات (من قيود الجنس) والأولاد الأحرار (من زواج غير شرعي) وكل ذلك بلا نظام، وهذا منتهى الشر..

إزدهار مهدد

استمر عدد العبيد في الازدياد، خلال ذلك، من جراء استيرادهم ومن تربيتهم «تربية مواشي» حقيقية وهذا ما يبينه الجدول:

(١٤) الفصل الأول.

(١٥) يُقدر أن عدد الهاربين بين: ٤٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠، من مجموع أربعة ملايين عبد.

| ١٨٥٠ | | ١٨٤٠ | | |
|---------|----------|---------|----------|-----------------|
| عبيد | أحرار | عبيد | أحرار | |
| ٢٢٥ | ١٣٤٣٤٥٥٩ | ١١٠٢ | ٩٦٥٤٨٦٥ | ولايات حرة |
| ٣٢٠٠٣٨٠ | ٦٤١٢١٥١ | ٢٤٨١٥٣٢ | ٧٢٩٠٧١٩ | ولايات عبيد |
| ٣٧١٣ | ١٤٠٢٧١ | ٤٧٢١ | ١١٧٧٦٩ | محافظات وأقاليم |
| ٣٢٠٤٣١٨ | ١٩٩٨٦٩٨١ | ٢٤٨٧٣٥٥ | ١٧٠٦٣٣٥٣ | المجموع |

يتضح هكذا أن عدد السكان الأحرار في الولايات التي يسري فيها نظام العبودية قد نقص في مدة عشر سنوات، أكثر من ٨٧٨٠٠٠، بينما ارتفع عدد العبيد وازداد أكثر من ٧١٨٠٠٠ عبد. ولئن تناقص السكان البيض في الجنوب، فذلك لأن فرص الاستخدام المتاحة لهم ظلت محدودة خارج المساحات الزراعية الكبرى، بينما تستوعب الصناعة في الشمال يداً عاملة غفيرة العدد لا تُحسد على مصيرها، وبينما تجذب الأراضي البكر في الجنوب ذوي الإقدام من الشباب. وفي العام ١٨٥٠، كان ٣٥٠٠٠٠ من مجموع ٦٤١٢٠٠٠ من سكان الجنوب يملكون عبيداً، إنما لا يتجاوز ١٧٠٠ منهم عدد المالكين أكثر من مئة عبد. وهؤلاء هم، بلا شك الأقدرين سياسياً ويقومون على نظام لا يخلو من المراتب والمتع لكن قواعده تزداد اهتزازاً يوماً فيوماً: ذلك أن جماهير السكان البيض السائرة إلى الترددي تزداد ارتباطاً أيضاً، وعماماً فعاماً، بعمل العبيد.

أما الملاكون، فلا يبدو عليهم الإحساس بالخطر الكامن في هذا التطور، بل يبدون أكثر اهتماماً بأرقام أخرى تبين إزدهارهم. ففي العام ١٨٦٠، كان ثمن العبد، يختلف حسب قوته البدنية، بين ١٤٠٠ و ٢٠٠٠ دولاراً، وهو سعر مرتفع بعض الشيء، بينما يتردد مبلغ القيام بأوده بين ٤٠ و ٥٠ دولاراً سنوياً. وهو مبلغ زهيد إذا ما قورن بأجر العامل الأبيض الذي هو أجرة بائس أيضاً. ولهذا العبد أولاد لا يساؤون سوى ثمن مأكلهم. غير أن عبداً، ولا سيما الذي يقطف وينقي ما يبلغ معدله ليرة من القطن الخام في اليوم، قد توصل إلى تقديم ٥٠ ليرة يومياً بعد أن اخترع ايلي

وايتني المحلجة ثم ١٠٠٠ ليرة في اليوم بعد تحسين هذه الآلة وتطويرها . وقد كانت الولايات المتحدة ، في عهد واشنطن ، تنتج مليوني ليرة من القطن في العام . وفي العام ١٨٦٠ بلغ هذا الإنتاج ملياري ليرة . وبينما كان القطن في العام ١٨١٠ يمثل بثمانه البالغ ٦٧ مليون دولار ، ٢٢٪ من صادرات أمريكا ، ارتفع في العام ١٨٦٠ إلى ٥٧٪ أي ما يُعادل ٣٣٤ مليون دولار . وكان جنوب الولايات المتحدة آنذاك ينتج سبعة أثمان مجموع إنتاج العالم من القطن .

كانت أمريكا تُحسد على هذا الإزدهار الذي لم يكن الجنوب وحده يستفيد منه . فمن الإيجاز المفرط أن يُقارن الجنوب الزراعي بالشمال الصناعي لتفسير الأزمة القومية التي نشبت في الولايات المتحدة . فالشمال الصناعي يزود من إنتاجه الجنوب بما يحتاجه من تجهيز وآلات ، بينما نرى الإزدهار الناجم عن تقدم زراعة القطن واتساعها ينمّي الصادرات التي تمد وزارة المالية بواردات جبركية ضخمة ، برسومها الباهظة . وهذا التفسير المبسط الذي يجعل ، أو يريد أن يجعل ، من حرب الاستقلال معركة بين أنصار الرق وخصومه ، معركة يبدو فيها هؤلاء الخصوم شهداء الحرية ، يظهر رد فعل عليه ، في تفسير آخر مثله تبسيطاً ، زاعماً أنه تفسير ماركسي ، ويريد أن يرى في هذه الحرب نزاعاً بين مصالح اقتصادية . أما الحقيقة الواقعة فهي ، لحسن الطالع ، أكثر تعقيداً من ذلك .

صورة عدو الرق

إن تطور المأساة (حتى النضوج) ، هذه المأساة التي ستمزق الولايات المتحدة ، قد توضحه حياة رجل عاش خضم المعركة الكلامية لأن عمله يطلعننا ، في آن واحد ، على استقامة دعاة إلغاء الرق وسداد آرائهم ، وعلى تعنت خصومهم وعنادهم .

هذا الرجل هو ويليام غاريسون (١٨٠٥ — ١٨٧٩) ، كان في سنه الواحد والعشرين عندما بدأ يصدر جريدته : « الصحافة الحرة » وذلك لأربع سنوات خلت على تمرد دينارك فيزيي ، وقبل عصيان نات كورنر بخمس سنوات . ولم يكن في الولايات المتحدة آنذاك سوى صحيفة واحدة تحارب الرق وتحمل اسماً غريباً هو « عفريت التحرر الشامل » . وكان مديرها بنيامين لاندي يدعو إلى إلغاء الرق تدريجياً على أن تُدفع تعويضات للمالكين العبيد . غير أن ويليام غاريسون أدرك أن نظرية (التدرج) ليست بعد كل حساب سوى وسيلة لإرجاء كل حل ، وإلى زمن غير محدد ، فراح

يطالب «بتحرير آني وبلا شروط» رافضاً دفع التعويض لأنه يعني: «أن ندفع للص مالاً كي يعيد ما سرقه... لا... فلنكف عن الكلام على شراء حرية العبيد، فالعدالة تقضي تحريرهم».

هذا هو الرجل، مستقيم بلا غموض، يتحدث بلغة العدالة لا بلغة براعة مزعومة لا تسوي شيئاً في نهاية المطاف، رجل أحلام كما يقول الذين يرغب في أن يقض مضاجعهم. بلى، رجل أحلام... لكن الغلبة ستكون له.

علم غاريسون يوماً أن فرانسيس تود، وهو أبيض من نيويورك، قد نقل من بالتيمور إلى أورليانز الجديدة، خمسة وسبعين عبداً قدمهم أحد مراكز تربيتهم. ومن المعروف، أن القائمين على تربية العبيد كانوا يبيعون كل عام نحو ٩٠٠٠٠ عبد إلى زبائنهم من المزارعين. وكانت ولاية فرجينيا وحدها، تربي وتصدر إلى الولايات الأخرى ٤٠٠٠٠ عبد سنوياً بأرباح تبلغ عدة ملايين الدولارات. وهذا العمل الذي يخالف الدستور والحلم الأمريكي، غدا من العادات المقبولة عامة. لكن غاريسون وصف في جريدته أولئك «المرين» «باللصوص والقتلة» مؤكداً وجوب الحكم عليهم بالسجن المؤبد، ومهما كانت الصحافة حرة، فأقوال كهذه مسبة وإهانة. وهكذا أحيل غاريسون إلى القضاء وحُكم عليه بغرامة باهظة لا قبل له بدفعها، ف قضى سبعة أسابيع في السجن، إلى أن رجلاً إنسانياً من نيويورك اشترى حريته وأخرجه من سجنه.

غادر غاريسون، بالتيمور إلى بوسطن حيث ظن أنه سيُستقبل بأحسن مما أُستقبل به. وكان ينوي إلقاء ثلاث محاضرات أعدها في زنزانه، وإذا كان من «المعمدانيين» الأتقياء وترفد عمله ونشاطه معتقده الدينية، فقد أمل أن يلقي محاضراته في الكنائس، لأن رجال الدين، في رأيه، يتصفون بشيء من الشجاعة. غير أن أماكن العبادة أغلقت في وجهه وأسرع ملحدون إلى نصرته مسهمين في عمل ضيق النطاق، فقلة هم الناس المستعدون للنظر إلى المشكلة وجهاً لوجه.

أصدر غاريسون في كانون الثاني ١٨٣١، صحيفة «الحرر» التي استمر نشرها حتى تحرير العبيد، ولم يرتفع عدد المشتركين فيها (٥٠٠) إلا إلى ٣٠٠٠ مشترك. وهي أرقام متواضعة تكشف القناع عن الحالة العقلية السائدة آنذاك. بيد أن غاريسون لم ييأس، بل أحس أن ثمة ما يحفزه ويشحذ عزيمته عندما علم أن ولاية فرجينيا أكدت أن ناث تورنر عمده، قبل إعلان حركة تمرده، إلى

تلاوة مقتطفات من جريدة المحرر على العبيد، وأكثر من ذلك أن لجنة من المواطنين الأحرار (لا العبيد) في كولومبيا وكارولينا الجنوبية، أعلنت عن مكافأة قدرها ١٥٠٠ دولار لم يلقي القبض على من يقرأ جريدة «المحرر». وهذا ما يدل على أنها أخطر شأناً — في نظرهم — مما ينم عليه عدد نسخها الموزعة. وكان كل أسود يُفاجأ وهو يقرأها، في جورجيتاون القريبة من واشنطن، يُعاقب بغرامة قدرها ٢٥ دولاراً وبالسجن ثلاثين يوماً. وفي تشرين الثاني ١٨٣١، وبعد مرور أحد عشر شهراً على صدور «المحرر» أعلن مجلس ولاية جورجيا التشريعي عن مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لكل من يُتيح «توقيف وليام غاريسون واتهامه وإدانته». وهو دون المبلغ الذي وعد به أنصار الرق، من أجل اعتقال هاربيت نومان بخمسة أمثال، وهي الأمة الابقية التي قامت بتنظيم أعمال الهرب الفردية ... ولم يكن في كل ذلك ما يكفي. ففي العام ١٨٣٥، قام أفراد من أسر بوسطن الغنية باعتقال غاريسون وتكبيله والتشهير به مقيداً في شوارع المدينة، تلذعه سخرية الجمهور واستهزائه. وعمدوا إلى إقامة مشنقة أمام مسكنه، انذاراً له وتحذيراً.

هكذا يبدو موقف السكان في «إنكلترا الجديدة» من خلال تلك الحوادث، والحالة لا تختلف عن ذلك في وسط الشمال، ففي العام ١٨٣٧ حطم الجمهور في مدينة ألتون «ولاية ايلينوي» مرتين، مطبعة راعي كنيسة بروتستانت كالفاني، اسمه ايلجاء لوفجوي، لأنه تجرأ على الاحتجاج في صحيفته الصغيرة على إعدام أسود من سان لويس في الميسوري، بلا محاكمة، وهي الولاية التي أدخلتها «تسوية» عام ١٨٢٠ في الاتحاد ونحوّلها تطبيق نظام الرقيق. وأعاد الجمهور الكرة مرة ثالثة، بقتله لوفجوي المذكور وبالقاء مطبعته في الميسيسيبي. ولم تكن الحالة أفضل في نيويورك حيث قام بهجوم على المناضلين من أعداء الرق بعض الرعا بقيادة (الكابتن) ريندرز بعدما قبضوا أموالاً من بعض سكان الجنوب وحرصهم الصحافي الشهير جيمس غوردون.

الحق والعادات

كان ما لا يُطاق في عمل دعاة إلغاء الرق ومطالبهم بتحرير السود الفوري، بلا تعويضات مالية، أنه أدخل بترف «أصحاب الرأي»، فكل الأمور تسير السير الحسن، مادام مبدأ العبودية ذاته لم يُطرح طرْحاً جدياً ولم يعد النظر فيه. ويقدر ما يصعب عليهم تبرير مبدأ العبودية في النقاش، يستسلمون إلى إغراء أنفسهم بالاحتواء وراء «البلاغة» التي ارتضاها جورج واشنطن ذاته، فهم إذن لا يؤيدون وجود الرق ويعترفون بطبيعته التي لا سبيل إلى تحملها، وينوهون بأن وجوده الذي حرم

السود الحرية مدة طويلة قد جعل هؤلاء السود غير قادرين على ممارسة حريتهم ممارسة صحيحة وسليمة ، لذلك لا سبيل إلى تحريرهم إلا شيئاً فشيئاً . تلك هي براعة « التدرجيين » التي لها الفضل في المحافظة على الوضع الراهن وفي تبديد الشكوك والأوهام .

هذا المنطق الماكر الذي يحاول التوفيق بين سياسة ومبادئ تدينها ، ما فتئ وليام غاريسون يفضحه . فقد رأى من أول أمره ، موطن الضعف فيه . وهاهو يقول : « ألم تبرهن تجربة قرنين من الزمن على أن « التدرجية » في النظرية تعني الديمومة في التطبيق ؟ .. » وهل في تاريخ العالم سابقة واحدة ، علّم فيها السادة عبيدهم ممارسة الحرية ؟ .

ومادام جدل لا حصر له قد قام منذ إعلان الاستقلال ، على قبول انضمام أراض جديدة ، وعلى النخاسة والرسوم الجمركية ، وانتهى دائماً بتسويات « تتهرب من أساس المشكلة » ، فقد حق لغاريسون في العام ١٨٤٢ أن يشبه الدستور ، الذي سمح بهذا الجدل الفارغ ، بوثيقة حقيقية هي مع العبودية ، ويخلف مع الموت واتفاق مع الجحيم .

ثم مادام الأمر كذلك ، فكل نقد يوجه إلى العبودية يغدو نقداً للدستور الذي حين يراوغ في إدانة الرق ، إنما يتقبله في الواقع ، برغم انتهاكه المبادئ الأساسية التي يقول هذا الدستور أنها مبادئه . هذا هو التفاوت بين مثل الثورة والواقع التاريخي ، وذلك هو الرياء الذي تطمئن الأغلبية إليه بينما يراه دعاة إلغاء الرق أمراً لا يُطاق . وهذا التناقض لا يقتصر على إبقاء نظام الرق أو إلغائه فحسب : بل إنه يعيد النظر في أمنية الالتهاء المؤسسين ، الذين كانوا يطمحون بقيام مجتمع ينظمه الحق . وهو يمس أيضاً المواطن الحساس من مبرر وجود المجتمع الأمريكي وبنائه ونمط حياته .

فهل يدين الحق هذه العادات والأخلاق ؟ أم أن القانون ستمليه التجربة الاجتماعية وحدها ؟ هذا هو الخلاف الحقيقي . فما يراه دعاة الإلغاء هو أن المجتمع عندما يتخلى عن إخضاع العادات والنظم لما يقضي به الحق ، ويتردى هذا الحق ويُضلل ، ويفقد من جراء ذلك مهمته في إحقاق العدالة التي تمسك بها ، وتغدو هذه لعبة في يد التقاليد والقوى الاجتماعية فهذا يعينه رجعة إلى الهمجية . وهم يرون إذاً أن التزام التجربة الاجتماعية بنصوص الدستور القائل إن الناس جميعاً سواسية وأحرار ، هو أمر حيائي . فعلى الدستور ، إذ يضرب عرض الحائط بكل تفاسير علماء الاجتماع التي تشوّهه ، أن يسترد مهمته الأساسية (المعيارية) كاملة : لذلك ينبغي إلغاء العبودية .

غير أن التفاعل بين القانون والعادات ، وبين الالتهاس و« التسويات » التي ارتضيت منذ

الاستقلال ، سيعود إلى الظهور بعد إلغاء الرق . وحتى لو عكست أطراف القضية ، فستبقى هذه متماثلة : أي هل تكون الأولوية للحق أم للممارسة الإجتماعية ؟ .. وهكذا بعد تحرر العبيد سيتمكن التمييز العنصري ، وقد ازداد انتشاراً دون أن يستطيع الاستناد إلى أبسط نص قانوني ، من الفوز في إخضاع الحق للعادات والأعراف ، ثم ستعكس المحكمة العليا الرأي العام الأمريكي وتمنح التمييز العنصري ضمانتها القانونية باتخاذها قراراً يقضي ببقاء السود والبيض « منعزلين ، لكن متساويين » .

هكذا غدت الممارسة الإجتماعية قاعدة معيارية ، والحق الذي تفرضه يناقض الحق الطبيعي الذي استلهمه الأجداد المؤسسون ، ويمد الدستور برفد غريب عن روحه . ومع ذلك تقبلته المؤسسات التشريعية والقضائية مدة خمسين عاماً ، أي حتى يوم تحققت المحكمة العليا ، أيضاً ، في العام ١٩٥٤ ، وأيقنت أن السود والبيض لن يكونوا « متساويين » ماداموا « منفصلين » ، فحرمت التمييز العنصري في التعليم الرسمي .

وأخيراً استرد القانون رسالته الحقوقية ، بفضل تطور بطيء في الرأي العام « الأبيض » وبفضل نضال السود وكشف القناع عن التناقض بين مبادئ (انفصال ومساواة) ، وكان قد نُحِلَ لبعضهم أنهم قادرون على التوفيق بينهما . غير أن هذا القانون الذي أيدته قسم من السكان ، اصطدم بتعصب الآراء وبالممارسة الإجتماعية في أوساط لها شأنها ، في الشمال والجنوب .

اتخذ النضال في وجه أشكال التمييز العنصري كلها ، في القرن العشرين ، تقوده قلة من الأمريكيين ما اتخذ الكفاح ضد الرق من انعطاف . فقد تبدل الهدف ، وإن ظل الكفاح واحد . فما هو الدور الذي ينبغي للمجتمع أن يعطيه للحق ؟ . وفي كلتا الحالتين ، كان ثمة أغلبية ، موالية لأعراف رسخت ، تسعى لمرواغة هذا الحق ، بينما نجد قلة بيضاء وسوداء تجهد لإنقاذ الحلم الأمريكي بإعطاء الحق مكانه الرفيع ومرتبته الفائقة . أما من وجهة نظر إجتماعية ، فقد ظل التمييز العنصري واقعاً له حجمه الكبير الذي يعبر عن عقلية معينة ويكرسها ويسبغ عليها قيمة المثل والقُدوة . وفي هذه المرحلة ، التي تتفوق فيها الممارسة على الحق ، أن يكون المرء ضد التمييز العنصري ، مثلما كان لقرن خلا ضد الرق ، فهذا يعني أنه لأمريكي . وفي الحالين كليهما ، ثمة أمر يتخطى العنصرية ، وهو أن تحمل وجود الرق أو التمييز العنصري يعني التضحية بمثل الثورة الأعلى ، ويعني التخلي عن مبرر وجود مجتمع وربط الحق بنظرات وآراء غريبة عنه .

تطور بطيء

وعى أعداء الرق (ودعاة إلغائه) كل ذلك، وعياً تاماً، وهذا ما جعل كفاحهم الشاق مثلاً يُحتذى ففي العام ١٨٣٢، أي بعد مرور عام على تأسيس جريدة «المحرر»، دعا وليام غاريسون إلى عقد إجتماع في بوسطن غرضه تأليف جمعية لمناوأة العبودية، فلم يلب دعوته سوى خمسة عشر شخصاً ورفضها ثلاثة محامين، في أول الأمر وكانوا قد تشرّبوا «بالنظرية التدرّجية» السائدة آنذاك، فهم لا يتقبلون فكرة تحرير فوري أو «عاجل». لكن مثل الثورة، والذين تنكروا له وأهملوه كثيرون، لم يمت برغم ذلك، إذ ما لبث أن تأسست «جمعية إنكلترا الجديدة المعادية الرق» وقد بلغ نشاطها وفعاليتها، وهي تجابه شر الصعوبات وأشدّها، ما جعلها تضم في بضع سنوات، ألفي فرع لها، ينضوي تحت لوائها مئتان وخمسون ألف عضو. وهذا قليل في بلد كان عدد سكانه آنذاك عشرين مليوناً من البيض، وعدد العبيد فيه أربعة ملايين، إلا أنه كثير في مجتمع، أعلى السلطات فيه وأصحاب السلطات يبررون العبودية جهراً أو سراً. وبلغت في العام ١٨٣٧ شدة فاعلية دعاة إلغائها ونشاطهم ما أكره الرئيس السابق جون ك. ادامز أن يلاحظ وهو يرد على سؤال محرر كان يؤثر تلافيه، قائلاً «في دائرتي الانتخابية وفي ولايتي، يتشنج الرأي العام، بين أنصار الرق ودعاة إلغائه، وكلما خطوت خطوة مشيت على حافة الهاوية».

وفي الواقع، استطاع دعاة الإلغاء بنضالهم أن يجعلوا من الرق مدار جدل كبير، وقد أسسوا في العام ١٨٤٤، «حزب الحرية» برغم معارضة وليام غاريسون الذي خشي ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر. كانت المبادرة مؤسفة، إذ أن الحزب المذكور لم ينل من مجموع مليوني صوت ونصف المليون اشتركت في انتخابات الرئاسة، سوى ٦٥٠٠٠ صوت، أي ما يكفي فقط للدلالة على ندرّة النابحين الذين يرون في العبودية مشكلة كبرى، وما يكفي أيضاً لتكوين أشد المرشحين محافظة، الديمقراطي جيمس ك. بولك، من النصر. وبعد مرور ثماني سنوات، وبعد مضي شهرين على نشر كتاب «كوخ العم توم» الذي كان له صدى شعبي كبير، تمكن الديمقراطيون، في انتخابات عام ١٨٥٢، مع برنامجهم الانتخابي المؤيد للعبودية، من الفوز في جميع الولايات ما خلا أربع منها. ولم يبق بعد ذلك حزب ضد العبودية، ودعاة إلغائها ما زالوا بعيدين عن ربح المعركة.

كان ثمة مبرر للتشاؤم ولا سيما أن أشد طبقات السكان البيض فقراً، ما كانت تشعر البتة بتضامنها مع العبيد الذين هم أفقر الفقراء. وعلى سبيل المثال، كان المهاجرون الأيرلنديون يمحشون منافسة السود، في سوق العمل، برغم ضآلة عدد هؤلاء السود القادمين إلى الشمال هرباً من

عبودية الجنوب . وقد استنكرت صحيفة « الأحرار » التي كان يصدرها الالنديون الكاثوليك ، في نيويورك ، وشجبت ، برغم اسمها ، الدعوة إلى إلغاء الرق واصفة إياها بالدعوة « المستوردة من إنكلترا » عدوهم اللدود كذلك وجهت النقابات التي كانت لا تزال ضعيفة في نيويورك في تلك الحقبة ، اللوم إلى دعاة الإلغاء ، أخذة عليهم أنهم يحققون مآرب رجال الأعمال بإثارتهم سبباً للانقسام في أقوى الأحزاب إحساساً بالمطالب الشعبية . وعلى ذلك ، ومادامت الأجور في الجنوب دونها في الشمال بـ ٢٥ إلى ٥٠ ٪ ، فقد توصل العمال رويداً رويداً إلى أن يدركوا أن توسعاً قد يحققه نظام الرق من شأنه أن يزيد الضغط الذي يحدثه وصول المهاجرين المستمر على أجورهم . تحقق هذا الوعي وئيداً ، وكان لابد من انتظار عام ١٨٤٥ ، لتقوم في نيويورك مظاهرة تضم خمسة وعشرين ألف عامل ، وتدين العبودية . وشقت فكرة من الأفكار طريقتها إلى الأذهان وهي أن الإجارة ، في حالتها القائمة آنذاك ، شكل من أشكال العبودية . ومن هنا انبثق الشعار « لتسقط العبودية التقليدية وعبودية التآجير معاً » ، وفي ١٨٤٦ ، اتخذ مؤتمر اتحاد رجال الأعمال القرار التالي : « ينبغي أن يُقتلع الرق في الولايات المتحدة من جذوره ، قبل أن يُتاح السبيل إلى إنجاز التحسينات التي تسعى إليها الطبقات العاملة » .

حصل رد فعل شعبي آخر ومختلف بطبيعته عن السابق ، حل قضية الجنوب ، وذلك عندما فتحت أقاليم الكنساس والبراسكا أبوابها لنظام الرق ، فهب مهاجرون ومن هم من أصل ألماني خاصة ومن الراغبين في التوطن في الغرب ، إلى انتقاد هذا الإجراء بعنف ، إذ من شأنه ، كما قالوا أن « يُوَفِّرُ » وطنهم العتيذ . غير أن هذه العنصرية لم تكن لصالح الرق حكماً ، فالخوف من « التلوث » بالسود يحملهم على التمتني ، مقابل ذلك ، بالألا يمتد هذا التلوث جغرافياً ... وفي هذه الرؤية سيقدم ألع محامي العبودية على خطأ يحدد بداية أزمة لا مثيل لها ، ونهاية عصر بكامله .

خط الحديد ، والأسود والتمساح

تكرر ما سبق ، وكان قبول أقاليم جديدة في الاتحاد ، مرة أخرى ، سبباً في الشقاق ، فمنذ العام ١٨٢٠ ، نصت « تسوية الميسوري » ، التي أدخلت هذه الولاية في الاتحاد ومقابل قبولها فيه ، والموافقة على احتفاظها بالرق ، على أن يُحرّم نظام الرق في شمال الخط ٣٦°٣٠ . وكان عضو مجلس الشيوخ ستيفن أ. دوغلاس ، من ولاية ايلينوي ، يهتم شخصياً ببناء خط حديدي يمر عبر نبراسكا ، شمال الخط الشهير . فإذا لم تعجل نبراسكا في الحصول على كيان ولاية ، فالخط الحديدي

سيتم غل على مسافة أكبر في الجنوب ، كي يبقى داخل أرض الاتحاد ذاتها . ولدمج نبراسكا في الاتحاد بصفتها ولاية وإنقاذ خطها الحديدي بهذه الطريقة ، كان السناتور دوغلاس محتاجاً إلى دعم بعض أعضاء مجلس الشيوخ الجنوبيين المعادين لتحريم العبودية في شمال الخط ٣٦٠٣٠ . وعقد الاتفاق على عجل وهو تحديد ممر خط حديدي في مقابل « امتداد » العبودية .

هكذا غدت مهمة السناتور دوغلاس مبسطة بفضل « تسوية عام ١٨٥٠ » ، آخر تسوية تم الاتفاق عليها . وقد طبقت على المكسيك — الجديدة وعلى اليوتاه وتركزت لسكان الولايتين ، باسم سيادتهم ، سيادة الشعب ، حق الاختيار في أن يكونوا من مؤيدي العبودية أو رافضها . ولم يكن الاقتراع ليدع مجالاً للشك ، فورا ، هذا الرجوع الظاهر إلى الديمقراطية ، قدم الشمال تنازلاً جديداً للرق . وقد أصاب سكان الجنوب إذ رأوا في هذه البادرة علامة ضعف تحثهم على السعي وراء مزيد من الكسب . واستناداً إلى هذه السابقة ، أدخل السناتور دوغلاس في مشروع قانون بنوداً تحول النيراسكا إبداء رأيها ، كما فعل سكان المكسيك الجديدة واليوتاه ، في مسألة الرق ، غير أن الفارق بين الحالتين كان كبيراً ، لأن الولايتين تقعان إلى جنوب الخط ٣٦٠٣٠ بينما النيراسكا في الشمال ، حيث حُرِّم نظام الرق بموجب « تسوية الميسوري » . وهكذا ينتهك اتفاق الميسوري إذا ما أقر الكونغرس مشروع دوغلاس .

غير أن الجنوبيين لم يكتفوا بذلك ، إذ أفهم السناتور ارشبالد دكسون (ولاية كنتوكي) زميله دوغلاس إن عليه السعي إلى إلغاء تسوية « الميسوري » عاجلاً ليتجرأ الملاكون على المغامرة بإقامة عبيدهم في ولاية النيراسكا . وهكذا تحول مشروع القانون المذكور إلى هذا الاتجاه ، وقُسم الإقليم في آن واحد إلى ولايتين ، الكنساس والنيراسكا . وكان التصويت على مشروع القانون بصيغته هذه ، في العام ١٨٥٤ ، ملغياً تحريم الرق في شمال الخط الذي أُختير عند الاتفاق على « تسوية الميسوري » .

وهكذا ، عندما امتد تطبيق التسوية إلى الشمال وشمله ، وعندما جعلوا من العبودية مسألة تُناط بسيادة كل من الولايات على حدة ، لا بالسيادة الاتحادية (الفدرالية) ، بقيام ولايتي الكنساس والنيراسكا ، أتاح هذا القانون للعبودية سبيل امتدادها وشمولها أرض الوطن كله ، وانحنت السلطة (الفدرالية) الاتحادية لسلطان الولايات ، ولم يتم ذلك بمبادرة الجنوبيين فحسب ، بل بمبادرة عضو مجلس شيوخ هو من الشمال الأوسط . ولم يتم ذلك أيضاً لأسباب سياسية ، ولا نظراً إلى مبادئ ، بل لمصالح اقتصادية ، هي تحديد ممر خط حديدي ، وهكذا وجدت سابقة خطيرة بعد تحرر العبيد . وهكذا ستستمر ولايات الجنوب تاريخياً في التذرع بمبدأ « سيادتها الشعبية » لتصوت خلافاً

للدستور ، على قوانين تمييز عنصري سيبقى مفعولها سارياً مئة عام . ولم تكف ولايات الجنوب هذه عن مناهضة السيادة الاتحادية (الفدرالية) استناداً إلى حقوق الولايات ، ولن يكون لحقوق الإنسان ، بعد ذلك ، تعريف واحد في الشمال والجنوب .

إن السناتور دوغلاس الذي لا يضيق ذرعاً برادع من خلق أو ضمير ، وهو مهندس هذه « الثورة الحقيقية » الكبيرة ، ينسج نسيج الموهوب البارع على منوال « السيادة الشعبية » في كل ولاية ، ليخفي وراء حجج ديمقراطية مزعومة ، انتهاك مبدأ أساسي ، حين يجعل من الانتخاب العام أداة يكافح بها المساواة الديمقراطية بين السود والبيض .

ومشاعر دوغلاس الحقيقية تفتقر إلى الدقة ، فهو الذي قال أن السكان سيقفون إلى جانب العبودية أو ضدها حسبما تكون هذه العبودية مريحة اقتصادياً أو غير مريحة ، بسبب المناخ وطبيعة الأرض ونمط الزراعة . ثم يضيف قوله : « كل ذلك يعود إلى الدولار والقرش » وهو الذي يعلن أيضاً بكل قحة ، وأمام ضحكات سامعيه العالية ، قائلاً : « لو كان لي أن أختار بين الأسود والأبيض ، لآثرت الأبيض دائماً وبين الأسود والتمساح ، لفضلت الأسود » .

ما كان لهذا الجدل أن يُحسم بالخطب وبالاقتراع والتصويت في الكونغرس . فالعمل يجري على الأرض ، وسرعان ما غدا عنيفاً . والمستوطنون المقيمون في الكنساس والنيبراسكا ، يفضل معظمهم تجنب جوار السود ، وبينهم دعاة إلغاء صادقو النية . وفي العام ١٨٥٥ ، لم يكن عدد سكان الكنساس يتجاوز ٨٥٠٠ ، وعدد العبيد منهم ٢٤٢ ، بينما كانت ولاية الميسوري المجاورة تملك ٥٠٠٠٠ عبد . وعندما كان على الكنساس أن تنتخب ممثلها في الكونغرس ، اجتاز المقات من سكان الميسوري الحدود وحشوا صناديق الاقتراع حشواً ، ومكنوا أحد أنصار نظام الرق من الفوز .

تكرر ذلك بعد مرور بضعة أشهر ، عند انتخاب مجلس الكنساس التشريعي حينما ظهر أن ٤٩٠٨ من ٦٣١٠ بطاقة اقتراع ، كانت مزورة ، فممارسة الرق لم تكن تكثر بأبسط قواعد الديمقراطية . أما المجلس التشريعي المعين بتلك الطرق ، فقد فرض على الكنساس قانون ولاية الميسوري ، المدني والجنائي ، إذ هكذا كانت لعبة سيادة الشعب ، وأضاف إليه أيضاً فقرات خاصة بلغت كل الصرامة والشدة ، ومنها ، أن كل من ينكر حق امتلاك الرقيق أو يعترض عليه يُعد ، في نظر القانون ، عاصياً وكل من يعين عبداً على الفرار يعاقب بالإعدام .

وبينما كانت سلطة لا شرعية تفرض على الكنساس « شرعيتها » العبودية ، قرر دعاة الإلغاء أن

ينتظموا على أسس وقواعد أخرى واستطاعوا، وهم يصلحون الأرض بما أمكنهم من السرعة، أن يضعوا دستورهم الخاص ويقيموا، في تلك الولاية الجديدة، حكومتهم الخاصة، فكان النزاع، بعد ذلك محتوماً لا مفر منه، ... نزاع سيتمخض ويلد للبلاد بطلاً فذاً.

« غسل الجريمة بالدم »

كان لأنصار الرق في منطقة الميسوري—الكنساس قوة مسلحة تسعى لفرض قوانين أصحابها، كما كان لهم زعيم، هو دافيد اتشيسون، عضو مجلس الشيوخ. أما خصومهم، فكانوا دونهم قوة وتنظيماً، ومن مستوطني الكنساس خمسة أولاد لجون براون (١٨٠٠ — ١٨٥٩) عدو الاسترقاق. وفي شهر أيار من ١٨٥٦، كان جون براون قد عزم على الدفاع عن قرية اسمها لورانس هاجمها لصوص الحدود (Border Ruffians) يرافقه خمسة متطوعين لهذا العمل. إلا أنه وصل بعد فوات الأوان إلى القرية التي اجتاحتها المهاجمون، فعمد، ليثأر منهم إلى توجيه جيشه الصغير إلى قرية يسري فيها نظام الرق وسكانها من أنصاره، تقع على نهر بوتواتومي، حيث قتل خمسة من البيض، ورد للصوص، وكان أن نشبت حرب عصابات حقيقية في الكنساس وامتدت.

عقلت الدهشة ألسنة الكثيرين، ففي الماضي، ترمد أرقاء وثأروا، أما الآن فشمة بيض أبوا أن يحتكر خصومهم العنف، فلهجوا إلى السلاح ليكافحوا الرق. كما أن إحساساً آخر رافق هذا الدهول هو ازدياد شعبية جون براون وتجاوزها حدود الكنساس، فلقد كانت كل غارة من غاراته تجعل منه شخصية اسطورية.

لكن سرعان ما اتضح أن أسلوب النضال هذا ليس كافياً، وأن على جون براون أن يقوم بتوجيه ضربة كبيرة، إذا ما أراد سبيلاً إلى وسائل اشتداد القتال واحتدامه. فقام، في تشرين الأول من العام ١٨٥٩، يرافقه ستة عشر من البيض وخمسة من السود بالهجوم على هاريز فيري، في ولاية فرجينيا. وفي الدهول الخيم على الناس استطاع الاستيلاء على المدينة، وفي الأخص على دار صناعة أسلحتها وأخذ رهائن من السكان. غير أن السود، خلافاً لما توقعه جون براون، لم يهبوا إلى الثورة ليفوزوا بحريتهم. واقرنت هذه الحنية بخيبة أخرى، وهي أن الحكومة المركزية (الفدرالية)، التي لم تقم بأي رد فعل على لصوص الحدود، عزمت على استرداد دار صناعة الأسلحة لأنها من الأملاك الفدرالية (الاتحادية).

قام الحرس الوطني في ولاية فرجينيا والقوات الفدرالية بهجوم معاكس ، يقودهم الكولونيل روبرت إي. بي. وكان هذا الجيش الصغير من الممتننين قادراً على استغلال الأخطاء التعبوية الصادرة عن حفنة من الهواة ، مهما كان عنادهم وتصميمهم ، وهكذا أُسر جون براون ورفاقه ، وقُتل عشرة آخرون وتمكنت قلة من الهرب . وقد صدر عن جون براون كلام نبوءة ، لم يقتنع بما ينم عليه من المآسي سوى القليل من الناس . فقد قال : « إن جرائم هذا البلد الآثم ، لا يمكن أن تُغسل إلا بالدم » . وقد اقترح عليه رفاقه تدبير هروبه ، فأبى وحوكم وحُكم عليه بالإعدام شنقاً وتُنفذ فيه الحكم . وقال فيه رالف والدو ايمرسون : « هذا القديس سيجعل للمشنقة مجدداً كمجد الصليب » .

ولج جون براون عالم الأساطير بعد شنقه . غير أن معاصريه لم يأخذوا بالنظرات والأفكار التي دافع عنها حتى حبل المشنقة ، بل على النقيض ، عمدت السلطة القضائية بدورها إلى إضفاء ضمانتها على التمييز العنصري ، بعد مرور ثلاث سنوات على صدور قانون الكنساس ، النبراسكا ، الذي مهدت به السلطة التشريعية سبيل امتداد الرق إلى أرض الوطن الأمريكي كلها .

الأسود ليس مواطناً

كان على المحكمة العليا أن تنظر في دعوى دريد سكوت ، العبد الذي ساقه سيده إلى أرض حرة ، ثم أراد أن يعيده إلى ولاية الميسوري ، فقررت العام ١٨٥٧ أن السود لا يحق لهم الطموح إلى صفة المواطن . ثم « أوضح » رئيس المحكمة العليا أن الزواج ، عند وضع الدستور والموافقة عليه ، كانوا يُعدون كائنات من مرتبة دنيا تنحدر إلى مستوى ليس لهم فيه أي حق يلزم الأبيض باحترامه ، ثم أضاف أن السود ليسوا معنيين بإعلان الاستقلال الذي أقر مبدأ المساواة بين الناس جميعاً ، وهو تأويل صحيح ، تاريخياً ، لأن الفقرة التي اختص فيه ذكر الرق ، قد أُنزعت من النص الذي أعده جيفرسون . وفي الواقع ، لحظ رئيس المحكمة العليا أن الأسود لم يُذكر له أي وضع في الدستور . والمهارات الكاذبة ، التي أتاحت ، عند وضع الدستور ، التهرب من القضية خشية ازعاج ولايات الجنوب ، تحوّل اليوم أعلى محكمة قضائية توطيد النظريات الموالية للعبودية . فالعبد دريد سكوت ليس إذاً مواطناً في أي ولاية من الاتحاد أي ليس مواطناً من مواطني الولايات المتحدة ، وليس له في الواقع أي حق في اللجوء إلى محكمة فدرالية .

إن القاضي روبرت ب. تيني ، رئيس المحكمة العليا ، يذكر متلطفاً أن على المحكمة العليا التقيد بأحكام الدستور تقيداً دقيقاً ، فهو الذي يضمن للمواطنين حقوقهم في الملكية ، والعبيد هم أموال

مملكة، والسلطة التشريعية لا تستطيع إذاً تحظر الرق في أي منطقة ولا ولاية من الولايات المتحدة، وإلا كان ذلك انتهاكاً لحزمة الدستور فـ «تسوية الميسوري» إذاً، لاغية ولا مفعول شرعي لها، وهكذا يثبت قرار المحكمة العليا أن تراب الوطن كله مهدد أمام الاسترقاق.

وقانون الكنسساس—والنيبراسكا، وقرار الحكم على دريد سكوت، إذ يمنحان ممارسة الرق حق الاستيطان، لا يتخذان موقفاً في التاريخ شاذاً، ومضمونهما ما فتئ يلازم الخارج والأعداء الواهية التي تزرع تطور المجتمع الأمريكي وتعيقه. فابتداءً من شطب الفقرة من إعلان الاستقلال التي يدين فيها جيفرسون العبودية، وخلال ثمانين عاماً، ورويداً ورويداً، ومن التسويات والمصالحات إلى عمليات الإفساد والتلوّث، ما فتئ نوع من التنضيج المتدّيع عرض على الملأ، بتعايير كاملة الوضوح، نظرية عبودية رأّت أغلبية أن من الحذر أو الحذر أن تغمض عيونها عنها. وهذا التطور الذي لا يُقهر يتبدى في جلاء يثير النفور إلى حد جعل القلة الداعية إلى إلغاء الرق مدينة له بأنصار جدد زادوا في وزنها السياسي. إلا أن أغلبية واسعة، في الشمال والجنوب على السواء، ما انفكت تجهل أو تتجاهل المشكلة وهمومها وتعالجها بالروغان والزيفان.

استمرت، مع، ذلك، المفاهيم السائدة في ترسخها. ووافق الكونغرس على قانون أقسى وأشد وطأة على العبيد الآبقين وعلى من يمد لهم يد العون. (قانون العبد الهارب: Fugitive Slave Law). وكانت الرّيح مواتية للعبوديين وقد ازداد الوضع الاجتماعي توتراً، وحدثت فتن هنا وهناك وكذلك أعمال تمرد. وتناثرت وحدة العمل التي صنعها الرئيس أندرو جاكسون، بين العمال والفلاحين، كالريش في مهب الريح والسبب الجوهري أن الجنوب، بممارس العبودية كان يسيطر عليها. وأعاد تكوينها فرانكلين روزفلت في زمن «العهد الجديد»، إلا أنها تفتتت لأنها ستخذل شأناً خطيراً في الجنوب، معقل التمييز العنصري.

«في أوائل العام ١٨٥٤، قامت مجموعة من الأحرار أو الديمقراطيين والـ: Free-Soilers»^(١٦) بعقد إجتماع لتأسيس حزب جديد يناهض اتساع نظام الرق، إذا ما سرى مفعول قانون الكنسساس النيبراسكا، وبعد ثلاثة أشهر اجتمع أعضاء الكونغرس المناوئون للعبودية لإلتخاذ القرار ذاته. وفي ٦ تموز اجتمعوا في جاكسون، من ولاية الميتشيغان، واختاروا لحزبهم اسم «الجمهوري» تخليداً للذكرى التنظيم الذي كان يقوده جيفرسون، ورشحوا لانتخابات عام ١٨٥٦

(١٦) أنصار «الأرض الحرة»، ومن خصوم الرق.

الرئاسية تشارلس فريمونت الذي زودهم اسمه بشعار جميل هو «أرض حرة، زراعة حرة، فريمونت» ولكنه لم يحصل إلا على عدد صغير من الأصوات.

كان هناك رجل لم ينضم إلى الحزب المذكور، وقد أقدم على التصدي لأعمق مشكلة من مشاكل المجتمع الأمريكي وأكبرها شأنًا. وكان هذا الرجل يؤثر البقاء في مواقع الأحرار التقليدية، في الوقوف على الحياد، على أنه هو الذي وقع بعد تسع سنوات إعلان التحرير الذي يُعيد للرق حريتهم. إنه ابراهام لنكولن، وقد كان، كالكثيرين من مواطنيه، لا يتخذ موقفاً صريحاً من الرق ولا معتقداً راسخاً به، وهو الذي سيقوم بدور حاسم، قياماً متأرجحاً بين القوى المتفاوتة والالتزامات التي تجذبه، إذ تشده، من جهة، مبادئ مبهمّة ما سُر غورها قط سراً جدياً، ومن جهة ثانية، ذاك النوع من الاعتياد على ممارسة العبودية التاريخية الطويلة، التي كان أقرب إلى النفور منها.

إن مواقف ابراهام لنكولن المترددة التي قد تترك انطباعات عن فقد التوازن، جديرة بالفحص والتحقيق، وذلك لأنها تسلم مرحلة حاسمة (حرب الانفصال وإلغاء الرق)، من جهة، ومن جهة أخرى، لأن ابراهام لنكولن أورث الأجيال هذا التردد، فهي من بعده وحتى القرن العشرين مازالت تتخذ موقفاً متردداً من التمييز العنصري الذي هو بدوره أرث مسموم، من عهد العبودية.

غموض لنكولن وازدواجيته

كتب ابراهام لنكولن (١٨٠٩ — ١٨٦٥) عام ١٨٦٠، بينما كان يعد لانتخابه لرئاسة الولايات المتحدة، قصة حياته التي يذكر فيها نصاً كان قد وقع في مطلع حياته السياسية، عندما كان في السن الثانية والعشرين. وهو نص يحتج فيه على القرارات التي اتخذها الكونغرس في إدانة الدعوة إلى إلغاء الرق ويصرح فيه ابراهام لنكولن بأن نظام الرق يقوم في آن واحد على ظلم وعلى سياسة ضالة، إلا أنه يرى أن الدعوة إلى إلغائه من شأنها أن تؤدي إلى تفاقم هذا الشر، ثم يضيف أن الدستور لا يخوّل الكونغرس حق النظر في الرق المطبق في بعض الولايات، ولا يحق له أن يحرمه إلا في ولاية كولومبيا، حيث العاصمة، وحيث تخضع الإدارة للكونغرس. وهكذا يواجه ابراهام لنكولن إلى العبودية إدانة خلقية مجردة، مؤكداً احترامه لحق الولايات الجنوبية الدستوري بممارستها. ثم كتب عام ١٨٦٠ يقول إن هذا النص الذي انقضى عليه ثلاثة وعشرون عاماً يحدد بإيجاز موقفه من مسألة «الرق». وهكذا أيضاً يرى لنكولن، غداة حرب الانفصال أن العبودية مُدانة خلقياً، لكن الدستور لا يخوّل الكونغرس إلغائها.

العام الذي وقع فيه لنكولن هذا النص (١٨٣٧)، شهد جمهوراً هائلاً في ولاية ايلينوي (ولاية لنكولن)، يقدم على قتل الكاهن ايلجاه ب لوفجوي، لأنه شجب شئق أسود من ولاية الميسوري، وعندما خاطب لنكولن طلاب المدارس الثانوية في سبرينغفيلد (عاصمة ولاية ايلينوي وعدد سكانها ٢٥٠٠)، اكتفى بالإحتجاج على أعمال العنف الشعبية، وعلى ما سماه «بقانون الغوغاء». وقال: «حيال كل مسألة تُطرح كمسألة الدعوة إلى إلغاء العبودية، مثلاً، ثمة موقفان لا بد من أن يكون أحدهما صحيحاً، وهما: إما أن تكون القضية عادلة بذاتها، فهي جديرة إذن بدعم القانون والمواطنين الصالحين جميعاً، وإما أن تكون غير عادلة فينبغي إذن أن تمنعها قوانين شرعية. أما «قانون الرعاع» فلا ضرورة لتدخله، ولا مبرر له أو عذر». إن شجب لنكولن للعنف الشعبي، هذا الشجب الحاذق، يُتيح له تجنب قول كلمته في مقتل القس.

على أن لنكولن ليس جامد الحس في مسألة الرق، وهو عندما قدم واشنطن للمرة الأولى (وعدد سكانها آنذاك ٤٠٠٠٠ بينهم ٨٠٠٠ زنجي حر و ٢٠٠٠ من العبيد)، ليحتل مقعده في الكونغرس بدا متأثراً بالمشهد الذي رآه عن كتب من الكابول: فقد شاهد، كما قال، «أنواعاً من حظائر الرقيق تُجمع فيها قطعان من الزنوج، تجمع قطعان الخيل بعينه».

وقف لنكولن عام ١٨٥٤، بمناسبة معرض الولاية في سبرينغفيلد، من قانون الكنساس—النيبراسكا موقفاً صريحاً للعداء إذ قال: «إنني أكرهه لما في العبودية ذاتها من ظلم شنيع، أكرهه لأنه يحرم مثلنا الجمهوري من التأثير الصحيح الذي ينبغي أن يحدثه في العالم، ... ولأنه يُتيح لأعداء المؤسسات الحرة أن ينتهونا بحق، بالمنافقين، ... ولأنه يدفع أصدقاء الحرية الحقيقيين إلى الشك في إخلاصنا، ولا سيما لأنه يحمل الكثير منا والصالحين حقاً، على الدخول في حرب صريحة على مبادئ حرية المواطن الأساسية، فينتقدون إعلان الاستقلال ويؤكدون أن لا وجود لمبدأ عمل صحيح إلا مبدأ المصلحة الأنانية الشخصية».

هذا الموقف يبدو أكثر وضوحاً مما هو في الحقيقة، ففي الواقع، إن ما يدخل في الموضوع مع قانون الكنساس—النيبراسكا، هو ما يشجبه لنكولن ويدينه بقوة وثبات، ليس هو مبدأ العبودية ذاته، بل اتساعها وامتدادها إلى شمال الخط ٣٦°٣٠'، وهو يوضح قائلاً إن سكان الجنوب، وهم الآن كما سنكون عليه نحن في حالتهم، ثم يضيف: «أظن أنني لا أبتغي إبقاء أحد في حالة الرق، إلا أن المشكل لا يبلغ من الوضوح ما يدفعني إلى إدانة صانعيه.. ويبدو لي أن اتباع طريقة في

التحرير تدريجية أمر ممكن، لكنني لن أبادر إلى الحكم على أخوتنا الجنوبيين لتأخيرهم في هذا المضمار. »

هكذا يحترس لنكون من انتقاد سكان الجنوب، ويحاول أن يقترح صيغة « التحرير التدريجي » فهل يكون منخدعاً بأقواله ذاتها؟ وهو يلح، تعويضاً عن ذلك على التوازن النيابي الذي ينبغي المحافظة عليه بين الجنوب والشمال، إذ من أجل تحديد عدد الممثلين في الكونغرس، بنسبة عدد سكان كل ولاية، فالمفترض أن خمسة عبيد يعادلون ثلاثة بيض، وهكذا يكون امتداد العبودية الذي أقره قانون الكنساس-النبراسكا على حساب سكان الشمال البيض.

ثم يقف لنكون متردداً عندما يقول أن هذا الامتداد يتحقق بمقتضى سيادة الشعب في كل ولاية على حدة، وهي عقيدة « صحيحة كل الصحة وخالدة »، لكنه يخالف تطبيقها في هذا الحالة بعينها. إذ كما يقول أيضاً، هي أن نعرف ما إذا كان الأسود كائناً بشرياً أم لا: « فإذا لم يكن بشراً، فيستطيع إذاً من هو بشر أن يعامله كما يروق له، بمقتضى السيادة الشعبية، أما إذا كان الأسود من البشر، أفلا يكون الخؤول بينه وبين حكم نفسه، تهديماً للسيادة الشعبية؟ .. وعندما يحكم الأبيض نفسه، فهنا تتحقق السيادة الشعبية أما عندما يحكم إنسان آخر، فهذا ليس من السيادة الشعبية، ... إنه الاستبداد »

هل يكون الأسود بشراً، وفي مستوى بشرية الأبيض ذاتها؟ .. إن لنكون يقتصر على الإجماع بطرح هذا السؤال ثم يحض الأمريكيين نصيحة تبدو له مُفحمة حين يقول: « تضامنوا ومن كان على حق، تضامنوا وإياه مادام على صواب، وانفصلوا عنه إذا ما حاد عن الصواب. » حكمة قد تبدو جد غامضة، إلا أنها تُلقي ضوءاً عجباً في فكر لنكون السياسي، عندما يدعمها بالمثل التالي:

« تضامنوا ودعاة الرق لتوطيد « تسوية الميسوري » وانتصبوا في وجوههم إذا ما حاولوا نقض قانون العبيد الآبقين. في هذه الحال ستكونون إلى جانب سكان الجنوب الذين يودون فصم الاتحاد؟ وعندئذ ستكونون أيضاً على صواب. وفي الحالتين أنتم على صواب، وفي كليهما أنتم تتخذون موقفاً وسطاً، وتحافظون على توازن السفينة. وفي كليهما ستكونون قوميين في الأقل .. أما العدول عن موقف كهذا بذريعة أنكم ستكونون من هذه الجماعة أو تلك. فهو يعني أنكم دون « الويفي »

هكذا لنكون بالحق الطبيعي الذي طالب به الآباء المؤسسون من أجل قرار قضائي؟ لا... وهذه المناسبة سيعمد لنكون إلى رسم حدود الأخلاق التي يقرر باسمها المحافظة على وجود الرق في الجنوب ويرفض من الأساس امتداده إلى الشمال.

وبينما كان الجمهوريون يجدون في السعي إلى حمل المحكمة العليا على إعادة النظر في موقفها من دعوى دريد سكوت (وكيف يستطيعون سبيلاً إلى ذلك حيال الفصل بين السلطات الثلاث؟)، كان لنكون (يجهد في الدفاع عن تفسيره هاتين الوثيقتين الأزواجيتين، وثيقتي إعلان الاستقلال والدستور. وهو يقول هنا: ان الآباء المؤسسين لم يسمعوا شيئاً عن تأكيد هو «بدهياً ضد الحقيقة» في الزعم أن الناس جميعاً، بيضاً وسوداً، سواسية في كل الأحوال. ويمضي في شرحه قائلاً: «كان الأجداد المؤسسون ييغون أن يقيموا مجتمع حر قاعدة يألفها ويحلها أعضاؤه جميعاً، قاعدة تظل الأبصار شاخصة إليها ويستمر العمل من أجلها، ويستمر الاقتراب منها برغم عدم بلوغها كاملة، وهكذا يمتد ويتعمق تأثيرها باستمرار وتزداد سعادة الحياة وقيمتها في نظرنا نحن البشر من جميع الألوان وفي كل مكان.»

هكذا لم يكن مبدأ المساواة يطبق برمته على السود في نظر لنكون، إلا أنه لم يُمنع عنهم منعاً باتاً، بل سيمتد إليهم ويصل رويداً رويداً. إنها نظرية التدرج دائماً. أي عندما يصبح السود قادرين على مساواة البيض وجديرين بها، يستطيع البيض منحهم الحرية.. هكذا يلتقي لنكون فكر جون كاهون، كما سيدل على ذلك ويزيده وضوحاً عمله اللاحق.

أما عضو مجلس الشيوخ (السناتور دوغلاس الصانع اللامع لقانون الكنساس-النيبراسكا) فهو يحذر، على ذلك، من أفكار الجمهوريين مهما بلغت من الاعتدال، وهو الذي أبرز إلى حيز الوجود الرعب الثنائي الذي لا يزال يشهره سلاحاً حتى اليوم الناطقون باسم التمييز العنصري، وهو أن أعداءهم إذا ما أرادوا مساواة تامة بين الأجناس والعروق فإن هذه المساواة لا يمكن أن تؤل بهم إلا إلى التزاوج بين الأجناس والعنصريات المختلفة كما يقول دوغلاس أيضاً. لكن ابراهام لنكون يشجب بعنف شديد هذا المنطق المشوه ويثور على هذا التصوير الكاريكاتوري لموقفه: فهو لا يقبل بأمة سوداء زوجة له لأنه يرفض استمرارها في عبوديتها. وهو يجيب قائلاً: «إنها بلا شكل ليست نداءً لي من بعض الوجوه، لكنها تساويني وتسايي الآخرين جميعاً بحقها الطبيعي في أن تأكل الخبز الذي تربحه بعرق جبينها، دون أن تستأذن أحداً بذلك». فليأكل السود إذاً حتى يشبعوا.

هذا التلميح بالالتزامات أو القيود الدستورية يقود لنكولن ويعيده إلى المعتقدات التي عبر عنها في الثامنة والعشرين من عمره، فالدستور، لا يمنح الكونغرس حق إلغاء الرق لأنه تملص من قضية السود (في نظر لنكولن)، مع أنه يؤكد المساواة بين الناس جميعاً. والسود ليسوا بشراً، كغيرهم ويجب أن يوضعوا في مكانة أو مرتبة دنيا. وهكذا عندما تجري معركة إلغاء الرق على أرض سيعتد كعده فلا بد لها من أن تصل، بعد نجاحها، إلى مظالم أخرى وميادين أخرى من النزاع على دونية العرق الأسود المزعومة.

«الحكومة لن تهاجمكم»

لكن كان الزج في المعركة سيئاً من حيث العقيدة، فهو أيضاً كذلك من وجهة نظر انتخابية واحدة وبسيطة. فعندما انعقد «المؤتمر» الجمهوري في العام ١٨٦٠ في شيكاغو (وعدد سكانها آنذاك ١١٠٠٠٠، يقابهم ١٦٠٠٠ عام ١٨٤٧)، لاختيار مرشح الجمهوريين، كان على لنكولن أن يجابه منافساً خطراً هو سيوارد. وكان أصدقاء لنكولن قد طبعوا بطاقات دخول مزورة وزعوها على أنصارهم كي يقصوا المصنفين لسيوارد وأنصاره. وعندما كانت نتيجة الاقتراع ٢٣١٥٠، للنكولن، بينما ينبغي ٢٣٣ للحصول على تأييد الحزب، جرت مساومة انتهت بانتقال ٤ أصوات من ولاية الإلهيو إليه.

في يوم الانتخابات تغلب لنكولن، المرشح الذي أحسن حظه اختياره، بزيادة ٥٠٠٠٠ صوتاً على خصمه الأكبر، عضو مجلس الشيوخ، دوغلاس، غير أن وجود مرشحين آخرين لم يدع له سوى ٤٠٪ من مجموع المقترعين.

| | |
|---------|---------|
| ١٨٦٦٤٥٢ | لنكولن |
| ١٣٧٦٩٥٧ | دوغلاس |
| ٨٤٩٧٨١ | بركنراي |
| ٥٨٨٨٧٩ | بل |

عندما اجتمع الكونغرس في مطلع كانون الأول ١٨٦٠، أي قبل تسلم لنكولن مهامه الرئاسية بعدة أسابيع، أكد الرئيس السابق (بوكانان) الباقي على مودة أصدقائه الجنوبيين، خشيته من إقحامهم على الانفصال، أكد في رسالته السنوية، أنه لا يحق لولاية من الولايات الخروج من الاتحاد. أما إذا ما حدث ذلك، فالحكومة الاتحادية لن تخضعها عنوة. خطاب أروع لأنه يدع

الانفصال بلا عقاب، وليس من الشرف بشيء، لأن رئيساً انتهت ولايته، يحاول فيه إكراه خلفه الذي تم انتخابه رئيساً.

تسارعت الأحداث. وأعلنت ولاية كارولينا الجنوبية الانفصال في ٢٠ كانون الأول قبل تنصيب لنكولن رئيساً (وبعد فوزه)، وسرعان ما تلتها الميسيسيبي، ثم فلوريدا وألباما وجورجيا ولويزيانا. وعندما انفصل تكساس عن الاتحاد، في أول شباط ١٨٦١، اندلع العصيان في ولايات الخليج، واستولى الانفصاليون على القلاع التابعة للحكومة الاتحادية في الجنوب، وكان نصير إلغاء الرق، جون براون، قبل ذلك بسنين، هو الذي اقتحم مع حفنة من رفاقه معمل الذخيرة التابع للحكومة الاتحاد، في هاريزر فيرري، وفي الجنوب أيضاً، وعوقب على ذلك بالشنق... أما اختبار القوة فهو الآن ذو اتساع آخر ومختلف.

قال لنكولن، في خطابه الافتتاحي (٤ آذار ١٨٦١) مؤكداً: «أنا لا أنوي إطلاقاً، وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أن أتدخل (أو أعيد النظر) في وجود الرق في الجنوب، وأعتقد أنني لا أملك أي حق مشروع في الإقدام على ذلك، ولا أي ميل إليه». والأكثر من ذلك أن لنكولن، عندما صوت الكونغرس، قبل تأجيل جلساته، على التعديل ١٣ في الدستور الذي يجعل الجنوب في منأى عن كل تدخل من قبل حكومة الاتحاد ضد وجود الرق، عُدل في البرهة الأخيرة نص خطابه، ليعيد بتأييد هذا التعديل، الذي لم يحصل في النهاية على موافقة الكونغرس. وإذا كانت الضمانة التي يقدمها مشروع التعديل هذا، موجودة في الدستور، فقد قال لنكولن ان ليس له «أي اعتراض على جعلها واضحة صريحة، ونهائية لا رجوع فيها».

بقي أمر قائم هو أن الانفصاليين استولوا على قلاع اتحادية (فدرالية) في الجنوب. وأبدى لنكولن في هذا الأمر حملاً هادئاً وقال: «إن السلطة التي أؤتمنت عليها، ستعمل لتبقي الأملاك والأمكنة التابعة للحكومة كما هي، أملاكها، وأمكنتها، ولتحصيل الرسوم والضرائب... إنما بعد القيام بكل ما هو ضروري لبلوغ هذا الهدف، لن يكون احتلال ولن يكون استخدام القوة ضد الناس أو بينهم أو ضد أي كان...، وبين أيديكم، يا مواطني المستائين، لا يدي أنا، قضية الحرب الأهلية، القضية الأساسية، الحكومة لن تهاجمكم وأنتم تستطيعون تفادي النزاع، إلا إذا كنتم، أنتم أنفسكم، المعتدين».

كان الشمال الصناعي، قبالة الجنوب الزراعي بستة ملايين من البيض وثلاثة ملايين ونصف

من العبيد، يضم ٢٠ مليوناً من الرعايا الأحرار، بينما لا يتجاوز عدد قوات جيشه النظامي ستة عشر ألف مسلح، يقوم معظمهم على حراسة حدود الغرب وحمايتها من الهنود، ووسائل كهذه لا تكفي لتوطيد السلطة الفيدرالية على منشآتها في الجنوب، ولا للبرهان على أن للعصيان ثمنه، وهذا ما كان موضع اهتمام لنكون وشاغله الأكبر، وقد صرح في الخطاب الذي ألقاه في ٤ تموز ١٨٦١ أمام الكونغرس، أن قد آن الأوان «لنبرهن للعالم على أن الذين يستطيعون سبيلاً شريفاً إلى النجاح في الانتخابات قادرون أيضاً على قمع عصيان، وأن صناديق الاقتراع قد حلت بحق وسلام محل الرصاص، وأن صناديق الاقتراع عندما تقول كلمتها باستقامة ووفقاً للدستور، لا سبيل للجوء إلى سبيل فعال سوى هذه الصناديق ذاتها... وهذا هو الدرس الكبير الذي سيلقيه السلم: أن يعلم الناس أن لا قبل لهم بالاستيلاء حرباً على مالم يستطيعوا أخذه في التصويت الانتخابي، أن يعلم الناس جميعاً أن من الجنون البدء بإشعال نار حرب».

إنقاذ المؤسسات الجمهورية القائمة على دستور لا يحظر الاسترقاق في نظر لنكون، ومع ذلك يتمرد عليه سكان الجنوب، وتوطيد الوحدة الوطنية، هذا هو الهدف الواضح الذي يضعه الرئيس نصب عينيه. غير أن مسألة الرق التي يقول أنه لا يستطيع التدخل فيها ولا يريده، هي مطروحة عليه دائماً، والسود يتدفقون إلى المعسكرات العسكرية الشمالية، وقد صدر في ٦ آب ١٨٦١ «قانون المصادرة» الذي يمنح الحرية للعبيد المستخدمين في مساعدة العصيان. ولكن فئات أخرى من العبيد تُثير لنكون صعوبات مخرجة، من جهة، في الولايات المتاخمة للحدود التي يريد لنكون إستالتها إلى قضية الاتحاد، عبيد يغادرون مزارع أصحابها من الموالين للسلطة الفيدرالية، وفي الجنوب، من جهة أخرى، عبيد تخلى عنهم سادتهم الفارون، يهيمون على وجوههم. وفي قلعة مونرو حيث لجأ الكثير من العبيد، كان السادة الملاكون يرهقون الجنرال بنيامين بتلر بمطالبتهم برد العبيد الهاربين، فالقانون الفدرالي الخاص بهربهم يقضي بذلك. غير أن الجنرال بتلر أجابهم بحيلة مأكرة هي أن العبيد، ماداموا يُشرون ويباعون، فهو يعتبرهم بضائع مهربة، تخوّله قوانين الحرب مصادرتها، وراح يستخدم العبيد في التحصينات.

لم تكن الأمور كلها تُتحل بهذه البساطة، فعندما تعهد لنكون بعدم التدخل في مسألة العبودية كان يريد الوفاء بعهده ويأمل من ذلك أن يضمن ولاء ولايات الكينتيوكي والميسوري والماريلاوند والديلاور، التي كانت لا تزال على الحياد، وكان يعرف بلا شك، بأن قراراً بتحرير العبيد ستكون له نتائج ثلاث: إثارة الإضطرابات الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب، ودعم أنصار إلغاء الرق له

دعماً ثابتاً، وتعاطف أحرار (ليبراليي) أوروبا الذين عليه أن يتفادى اعترافهم باتحاد الجنوبيين . تردد لنكولن . لكن خصوم نظام الرق بدؤوا يضيّقون ذرعاً، عندما أخذت سجون واشنطن تعج بالسود الهاربين، الذين أوقفّتهم واعتقلتهم السلطات الشمالية بموجب قانون فرار العبيد، فعمد لنكولن عندئذ إلى تهدّئتهم بمبادرة حولت أنظارهم هي إقامة علاقات دبلوماسية بجمهورية هايتي وليبيريا السوداوين .

مأزق ثلاثي

رأى لنكولن أن الدستور لا يتّوَلَّه إلغاء الرق، فعاد إذاً إلى الأمل الخادع الذي هدهده دائماً وهو بأن تمارس الولايات التي يسري فيها الاسترقاق «سلطتها الشعبية» لتلغيه هي . وهكذا عمد في ٦ آذار ١٨٦٢، إلى توصية الكونغرس بالتصويت على مشروع قانون بتقديم معونة مالية اتحادية (فدرالية) إلى كل ولاية تتخذ تدابير تحرير «تدرّيجي»، تراقفها تعويضات مناسبة على مالكي العبيد وبعد مدة قصيرة، كتب إلى عضو في مجلس الشيوخ، السناتور مك دوغال من ديمقراطيي كاليفورنيا، وإلى هنري ريموند، من نيويورك تايمز، يقول إن مليون دولار، أي ما يساوي تكاليف نصف يوم الحرب، يُتيح شراء عبيد ولاية ديلاور بأسرهم (وهو ثمن بخس) . من الممكن إذاً أن يشري بنفقات الحرب لمدة سبعة وثمانين يوماً، أي بـ ١٧٤ مليوناً من الدولارات عبيد كولومبيا كلهم مع عبيد الولايات المتاخمة الحدود، إنما إضافةً إلى أن ثمن العبد الواحد يصبح هكذا بخساً جداً، ليس هناك من تهمه هذه الحسابات . أما القرار الذي اقترحه لنكولن فقد وافق عليه الكونغرس، إلا أنه لم يحظ بموافقة ممثل واحد من ممثلي ولايات الحدود الديمقراطيّين، لكن لنكولن ثابر على عناده وفي ٩ أيار ١٨٦٢، أعلن الجنرال دافيد هنتر قائد القطاع الجنوبي تحرير عبيد ولاية جيورجيا بأسرهم، وكذلك عبيد ولايتي كارولينا الجنوبية وفلوريدا كلهم أيضاً، غير أن لنكولن، الذي كان يعتمد على المجالس التشريعية في ولايات الجنوب، لإلغاء الرق، أكره الجنرال هنتر على التراجع عن قراره وقال «لن يقدم أي جنرال على عمل كهذا، وأنا مسؤول، إن لم يستشري» .

فأين مكان الفصل والحد بين الفاعلية وبين الحق كما يفسره لنكولن؟ أما الكونغرس فقد وافق مع ذلك على إتخاذ إجراءات يتعدان عن تفسير لنكولن الدستوري ويكونان بذاتهما أسلحة حرب وهما :

من جهة، حظّر الكونغرس على قادة الجيش إعادة العبيد الآبقين إلى المالكين «غير الموالين»

للاتحاد، وهو إجراء يناقض قانون «فرار العبيد»، ومع ذلك، لم يتردد لنكولن، الذي كان ضد كل محاولة من شأنها مخالفة هذا القانون، في التوقيع على النص الجديد، لا لاعتقاده بأنه مقبول شرعاً، بل لأن لنكولن يريد ضرب القوى المتمردة.

ومن جهة ثانية، حظّر الكونغرس الاسترقاق في بعض المناطق، وهو إجراء يخالف الدستور حسب تفسير المحكمة العليا واجتهادها في دعوى دريد سكوت، حيث كان حكمها خاطئاً، في نظر لنكولن، إنما ينبغي، على ذلك، الانصياع له. وكان حزبه قد وعد بدعوة المحكمة العليا إلى إعادة النظر في قرارها هذا، غير أن ما جرى، عندما هدم الكونغرس ما بنته المحكمة، يختلف عن ذلك كل الاختلاف. وهنا وافق لنكولن أيضاً، ليهديء دعاة إلغاء الرق، لأنه يرى أن حماسهم مفرطة وضارة.

هكذا، وحيال قراري الكونغرس المذكورين، قلب لنكولن ظهر المجن لأمر كان يدعي التشبث الشديد بها احتراماً للدستور، فالبراهين القائمة على مبادئ أساسية لم تستطع سبيلاً إلى إقناع لنكولن بأن إعادة عبيد آبقين إلى سادتهم والحكم على شركائهم أمر قبيح، كذلك لم تقنعه اعتبارات أخلاقية بالإحجام عن الدعوة إلى الرضوخ لقرار المحكمة العليا المشين في دعوى دريد سكوت، وهكذا استطاع ميزان القوى ما لم يستطعه ميزان الحق والأخلاق.

ولنكولن في الواقع، إما أنه يحس بقوة أن عليه المضي إلى أبعد مما مضى فيه حتى ذلك الوقت، وإما أن الشك بدأ يساوره في ذلك. ففي شهر أيار ١٨٦٢، وقعت معاهدة إنكليزية أمريكية، قضت بإلغاء النخاسة. لكن في تموز من العام ذاته، كتب مكليان قائد جيوش الشمال، آنذاك إلى لنكولن يستعجله في العدول عن تدمير قوات الجنوب، ويدعوه إلى أن يحترم بدقة تامة حق الملكية الخاصة الذي يشمل امتلاك العبيد، كما أوضح... فالمعسكر الشمالي لم يكن إذاً متلاحماً،

كما كانت، من جهة أخرى، قد انقضت أشهر عدة وولايات الحدود لم تقم بأي إجراء، يُتيح لها الإفادة من المعونة المالية الفدرالية إذا عمدت إلى القيام بتنظيم تحرير تدريجي للعبيد، مع التعويض على مالكيهم. خلال ذلك، كانت الحرب مستمرة، وليس ثمة من يرى النتيجة أو المخرج.

ألفى لنكولن ذاته في مأزق ثلاثي، وقع فيه أخلاقياً وسياسياً وعسكرياً، لأن مواقفه الشخصية التي يستند فيها إلى مبادئ جد ضيقة، متشربة بفكرة دونية العرق الأسود، وتحنه على احترام حق بعض الولايات المزعوم في ممارسة الرق، هي مواقف يزداد شدة انكار دعاة الإلغاء لها واعتراضهم

عليها . وهم وحدهم الذين ينسجم موقفهم ومعتقداتهم . سياسياً ، لأن الآمال التي بناها لنكولن على تحرير تدريجي للعبيد في الولايات المتاخمة الحدود ، انهارت بكل بدهاء وعسكرياً ، لأن جيوش الشمال ، برغم تفوقها الكبير في العدد سيئة القيادة ولا تتمتع بالكفاءة اللازمة .

كان لا بد من حل مع ذلك ، وكان رأي لنكولن دائماً ، هو أن إلغاء الرق منافع للدستور ، إلا أن من شأنه أن يشل نظام الجنوب الاقتصادي ففكر في إمكان تبريره بوصفه إجراءً حريياً . وهكذا في ٢٢ تموز ١٨٦٢ ، وفي أثناء انعقاد مجلس الوزراء ، تلا بياناً يمنح الحرية للعبيد جميعاً في الولايات الانفصالية ، فاصطدم باعتراضات سيوارد ، في الأخص ، الذي أوضح أن الموقف العسكري ليس حسناً في الشمال ، لذلك سيفسر هذا الإجراء ، تفسيراً سيئاً ، ووضع لنكولن الوثيقة في جيبه .

لما لاهه أوراس غريبي في صحيفة « الهيرالد تريبيون » ، على تردده وروغانه ، أجاب لنكولن مبيناً عدائه الشخصي لنظام الرق ورفضه السياسي لإلغائه ، ثم كتب يقول : « إن هدفي الأسمى في هذا الصراع هو إنقاذ الاتحاد وليس إنقاذ الاسترقاق أو إزالته . ولو استطعت إنقاذ الاتحاد دون تحرير عبد واحد لفعلت ... وإذا ما استطعت إنقاذ الاتحاد بتحرير بعض العبيد ، غير مهتم بما بقي منهم ، لفعلت أيضاً ، وإن ما أقوم به بشأن الرق والعرق الملون ، إنما أقوم به لاعتقادي أنه يشد أزرعي في إنقاذ الاتحاد . »

إن كل ما في ذلك واضح : فأولاً : لا مبادئ لا ثمس ، بل الوحدة الوطنية ، وإن قامت على عقيدة واهية . وكان لنكولن يزن هشاشة موقفه إذ أضاف في جوابه ذاته : « ولا أرى أنني سأغير أمنيته التي كثيراً ما عبّرت عنها في أن الناس جميعاً ، وفي كل مكان يستطيعون أن يكونوا أحراراً » . ولكن ، متى ؟ وكيف ؟ ..

بليلة الأذهان

تذكر لنكولن ، بعد الانتصار الذي أحرزه مكليان على الجنوبيين في انتيتام ، التحذير الذي وجهه إليه سيوارد في ٢٢ تموز ، فدعا مجلس الوزراء إلى الانعقاد في ٢١ أيلول ، حيث أشار إلى القرار الذي عرضه عليهم منذ شهرين ثم نشر تنبيهاً يقول فيه ، إن جميع عبيد الولايات المتمردة ، سيعلمن

تحريرهم في مدة مائة يوم أي في مطلع كانون الثاني ١٨٦٣ — وستستخدم قوة الولايات المتحدة العسكرية لتحقيق حريتهم —.

أُجْتِيزت الخطوة أخيراً.. واتخذ لنكولن القرار الذي كان يراه منافياً للدستور وقليل الحكمة، ولم يرجع فيه إلى الكونغرس. هل هو قرار شاق قد يكلفه ثمناً غالياً؟.. في الأسابيع التي تلت إعلان التنبيه إلى تحرير العبيد، فقد الحزب الجمهوري في الانتخابات الدورية خمس ولايات قوية أعطته أصواتها في العام ١٨٦٠، وهي ولايات: نيويورك وبنسلفانيا وإنديانا واللينوي والواهايو. أما المعارضة الديمقراطية، فقد ارتفعت مقاعدها في الكونغرس، من ٤٤ مقعداً، إلى ٧٥ وهكذا تنكر للرئيس جزء كبير من الشمال. وقال لنكولن عندئذ كلمة تمثل بها أدلاي ستيفنسون لما فاز عليه أيزنهاور في انتخابات ١٩٥٢ وهي: إنه «أكبر من أن يبكي، ولكن الأمر أوجع من أن يُضحك»...

نعم، لا سبيل إلى الضحك، ولا سيما أن ضباطاً وزعوا في الجيش الشمالي منشوراً يشجب الوعد بالتحرير ويطالب بتسوية تُتيح استمرار الاسترقاق، وقد فقد هذا الجيش ذاته عشرة آلاف مقاتل في معركة بورنسايد، كما خسر غيرهم أيضاً في معركة فريدريكسبورغ، وعقبت هذه الهزائم حوادث فرار متعددة واستقالات وأعمال تمرد وعصيان.. إن أخصام لنكولن يطالبون بدكتاتور.

ساعت الأمور وانتاب لنكولن مرات عدة التردد أيضاً. وبينما كان ينبغي إعلان التحرير في أول كانون الثاني، عمد لنكولن، في رسالته الموجهة إلى الكونغرس، في كانون الأول، إلى التوصية بتبني تعديل في الدستور ينص على تعويض يُدفع للولايات التي ستلغي الرق قبل عام ١٩٠٠. لكن لا سبيل إلى إتخاذ هذه الإجراءات، لأن تعديلاً دستورياً يتطلب موافقة ثلاثة أرباع الولايات.

وقد زاد في عمق التمزق الذي أحدثه إعلان التحرير في الشمال، أن لنكولن قد جره إلى الحرب، لا من أجل إلغاء العبودية، بل لإنقاذ الاتحاد بعد انفصال الجنوبيين عنه^(١٧). هنا بلغ إضطراب الأذهان ذروته. لنكولن يتردد في تسليم السلاح للسود وائتمانهم عليه، بينما يريد منهم القيام بأعمال تحرير البيض ليسهموا في القتال. ويستقبل سوداً أحراراً في البيت الأبيض — وكانت أول مرة يتخطى فيها ملونون عتبة — ويشرح لهم أن بين الأجناس البشرية فوارق لا سبيل إلى إلزائها، إنما قد تُتيح الحرية، بلا شك، تخفيفها، لا أن تقضي عليه قضاء يبلغ حد المساواة بينهما، ويقترح عليهم

(١٧) وافق الكونغرس على «قانون المصادرة» الثاني القاضي بتحرير العبيد الذين يملكهم كل من يشترك في التمرد.

توطين عبيد معتقن على قرب من برزخ باناما (التي استولى عليها بعد ذلك تيودور روزفلت) (١٨٥٨-١٩١٩)، في منطقة شيركي حيث مناجم الفحم الغنية. وسيعمد كبار الرأسماليين إلى تقديم المبالغ من أجل الاستثمارات الضرورية، غير أن دعاة الإلغاء ثاروا على هذا المشروع الغريب الذي أعجب الجنوبيين اللبراليين... وكان على لنكولن أن يتخلى عنه عندما كشفت عمليات السبر أن عروق الفحم لا تساوي شيئاً وعندما نشب، فوق ذلك، نزاع في المنطقة...

عمد لنكولن عندئذ، وهو في حيرة من أمر هؤلاء السود «الدون»، الذين منحهم الحرية، إلى اختيار مكان آخر لهم هو جزيرة «البقر»، التابعة لهايتي، ووعد رجل اسمه برنارد كوش أن يتكفل أمر خمسة آلاف أسود بخمسين دولاراً للواحد، فيقيم لهم جنة حقيقية بمساكنها وكنائسها ومدارسها ومستشفياتها... ومضى أربعمئة أسود إلى جزيرة البقر، حيث لم يُهَيَأ شيء لهم وحيث كان سكان هايتي في سورة غضبهم، وبينما كان المدعو برنارد كوش قد وضع في جيبه مال الولاية. وفي أيار ١٨٦٤، كان لابد من ترحيل من بقي على قيد الحياة من هؤلاء السود.

أدرك لنكولن، قبل هذا الإخفاق، أن إعادة تصدير زهاء أربعة ملايين أسود ليست بالحل المنشود. فقبل، تحت ضغط قسم من الرأي العام تطويعهم في الجيش. وبدأ تجنيدهم هذا، بعد مضي ثلاثة أشهر على إعلان التحرير، وعندما مر أول فوج يتألف بمجموعه من السود الشماليين، في شوارع مدينة بوسطن، كتب الشاعر الكبير لونغفلو يقول: «مشهد مهيب، فيه شيء من الوحشية والغرابة مشهد كالحلم.. لقد قبل الشمال أخيراً أن يدع الأسود يقاتل من أجل الحرية». وعندما ألقى الجنوب السلاح بعد ذلك، كان عدد السود في الجيش قد بلغ ١٨٦.٠٠٠.

لم يكن الانخراط في الجيش يسير دائماً السير المنتظم، فقانون التجنيد ينص على أن كل من يُدعى إلى الخدمة العسكرية يستطيع التخلص منها، إما بتقديم بديل، أو بدفع ٣٠٠ دولار، فالمساواة قائمة جيداً بين «الحقوق الثابتة» التي ذكرها إعلان الاستقلال، لكن هذه المساواة لا تجهل شروط الثروة. وعبثاً طالب لنكولن الكونغرس بإلغاء بنود التمييز هذه، التي تُتيح أعمالاً من الغش والسرقة، إذ كان بعض المجندين يفرون بعد قبض رواتبهم ثم يعودون مرة ثانية. وعمدت بعض مدن الشمال، ليمكن أنبأؤها من التهرب من الخدمة العسكرية، إلى جمع تبرعات، ثم وجهت إلى مناطق الجنوب المحتلة مطوّعين يسعون إلى تجنيد السود.

أدى هذا النظام إلى فوزى كبيرة، إذ عوضاً عن ٤٦.٠٠٠ مكلف لا يملكون ٣٠٠ دولار

تُتيح لهم البقاء في منازلهم، ساق هذا النظام إلى الجيش ١١٨٠٠٠ بديل. وهكذا لم تكن الرج مواتية، لا لتحرير العبيد ولا «لإنقاذ الاتحاد»، واندلعت فتن في بوسطن وتروي ونيويورك ضد التجنيد. وفي نيويورك، اجتاحت الجموع مكتب تجنيد، وأكره الشرطة على التراجع، وأقدم على النهب، وهاجم السود، وأحرق ميتماً لهم، في أربعة أيام بلغ عدد القتلى ٥٠٠.

وتفاقم الإضطرابات حتى حملت لنكولن على وقف تنفيذ قانون التجنيد. ثم لجأ وزير الحرب إلى القسوة وأوقف ١٣٠٠٠ شخص بتهمة عدم الولاء، معظمهم من الديمقراطيين، كالنائب السابق كليمانت فالانديغام الذي احتج قائلاً: «لقد تركت الحرب من أجل إنقاذ الاتحاد، وبدأت الحرب من أجل الرق» ثم أكد أن هدف لنكولن هو بكل وضوح تحرير العبيد وإحالة البيض إلى العبودية.

هكذا كان الحال: الجنوب يقاوم والشمال منقسم، والحرب يكرهها الشعب، والتمييز العنصري مكشوف وواضح. وفي آب ١٨٦٤، اقتنع لنكولن، إن انتخابه لن يُعاد في الخريف القادم، ففي الشهر ذاته أعلن خصومه الديمقراطيون في مؤتمرهم المُنعقد في شيكاغو، أن مرشحهم هو الجنرال مكللان، الذي عينه لنكولن قائداً لجيوش الشمال.

مساومات وتردد

جرى التنافس في شروط جد سيئة. فلنكولن يعلم أن ثمة وسائل مريبة تُستخدم في تمويل المعركة الانتخابية. وقد فرضت اللجنة التنفيذية في الحزب الجمهوري ٢٥٠ دولاراً على كل وزير في الحكومة، وخصم ٥٪ من رواتب جميع مستخدمي وزارات الحرب والخزانة والبريد. ودون جدعون ويلز، وزير البحرية الشيخ، هذه الملاحظة المرة قائلاً: «المال المجموع بهذه الطرق، يُستخدم إلى حد كبير استخداماً سيئاً، وفي انحراف وفساد وعهر، وعصابة من المغامرين والأشرار تضع في جيوبها قسماً كبيراً من هذا المال المبتز».

أما تشاؤم لنكولن في تكهنه، فقد كذبت نتائج الانتخابات، إذ أُعيد انتخابه بـ ٢٠٣٣٨١٢ من أصوات الشعب، و٢١٢ صوتاً من أصوات (الناخبين الكبار) وقد نال منافسه مكللان الذي كان يرغب في تسوية مع الجنوب وإبقاء الرق، ١٩٧٩٧٠١٩ صوتاً: هكذا كان عميقاً انقسام الشمال أمام الرجل الذي ألغى الرق. وسيبقى عميقاً هذا الانقسام، عندما

سيطلب الأمر ، بعد استتباب السلم ، رأب الصدوع وتلافي الأضرار البشرية والمظالم المتراكمة خلال قرون عدة من العبودية .

كان الكونغرس ، لأربعة أعوام خلت ، قد صوّت على التعديل الثالث عشر (لم يقره الرئيس) الذي يضمن استمرار نظام الرق . وفي ٨ نيسان ١٨٦٤ ، وافق مجلس الشيوخ على تعديل دستوري آخر يحظر الاسترقاق ، ولم يتمكن الكونغرس من تحصيل أغلبية ثلثي أصواته على هذا النص ، فطلب لنكون ، في كانون الأول من العام ذاته ، أن يعيد ممثلو الأمة النظر في المشروع ، وإذ كان يعلم أن الاقتراح سيكون دقيقاً وحرماً ، عمد إلى مساومة المعارضة ليضمن الفوز ، فوعد أحد الممثلين الديمقراطيّين بتعيين أخيه في الإدارة الفدرالية ، وقدم الدعم اللازم للديمقراطي ثاب كان مهتداً بفقد مقعده في الكونغرس ، وضمن للديمقراطي ثالث كان محامي إحدى شركان الخط الحديدي ، تفادي نتائج تشريع تُسيء إلى مصالحه الخاصة . وكانت الأغلبية اللازمة من الثلثين تتألف من ١١٦ صوتاً ، فأنت نتيجة الاقتراح : ١١٩ صوتاً موافقة و ٥٦ غير موافقة و ١٨ امتناع عن التصويت . وهكذا لولا المساومات الثلاث ، لما تمت الموافقة على التعديل . لقد انتصر دعاة إلغاء الرق . وحيث المدفعية الانتصار بمائة طلقة وطلقة . لكن الحكومة لا تستطيع استئصال التمييز العنصري بمنح حظوات تُوزع توزيعاً بارعاً .

في أواخر الشهر هذا ، شهر كانون الثاني ، أقدمت على إلغاء الرق ولايات الاركانساس واللوزيانا والماريلاوند والميسوري . وقد كُلف الرسل الذين أوفدهم لنكون ، لدراسة فرص السلام ، أن يقولوا للانفصاليين ، أن لنكون ما خطر له قط إلغاء الرق ، إنما أكرهه الانفصال على ذلك وهو يعيد القول أنه لا يزال يعتمد على أن تلغيه الولايات الجنوبية بمبادرتها . غير أن هذا الاتصال بالانفصاليين لم يسفر عن نتيجة . وبعد يومين اقترح لنكون على أعضاء الحكومة تخصيص ٤٠٠ مليون دولار (زهاء ١٠٠ دولار للعبد الواحد) أي ١٥ ٪ من سعره في السوق للتعويض على مالكي العبيد ، إذا ماتوقف النزاع المسلح قبل أول نيسان ١٨٦٥ . فلم يوافق الوزراء على المبادرة التي طويت بلا نتيجة .

لو كانت العبودية قائمة على الكسب وحده الذي يجده بعض الناس في أن يسوموا أناساً آخرين كما تُسام الدواب ، لكان من شأن بعض المداولات النيابية والتعويضات الكافية أن تحل المعضلة بلا ريب . لكن لا سبيل إلى تصور ممارسة العبودية دون شعور الابيض بتفوقه ، شعوراً ينمو ، في عينه ، باحتقاره الأسود . ولنكون ذاته يرى أن الأسود لا قبل له ولا ينبغي ، أن يكون

ناخباً، أو أن يشغل وظيفة عامة، لأن بين الأسود والأبيض فارقاً « يحول إلى الأبد دون عيشهما على قدم المساواة الاجتماعية والسياسية ». وهذه القناعة الحاصلة عند التحرر العظيم هي أقوى عند الجنوبيين القائمين في وجهه برغم قلة مالكي العبيد في الجنوب، وهي قلة ما كانت قط لتستطيع الثبات في الحرب أمام قوات الشمال، لولا دعم « البيض الصغار » الذين هم أشد حاجة من الملاكين الأثرياء إلى إقناع أنفسهم بتفوقهم على السود. على الرغم من كونهم لا يجنون من العبودية أي فائدة مباشرة. وأن ٤٥٪ من الناحبين الشماليين الذين صوتوا إلى جانب مكليان، ضد لنكون يفهمونهم كل الفهم. وهم يؤلفون معاً، أغلبية ستتيح للعنصرية، بعد توطد الاتحاد، الاستمرار والبقاء، بعد إلغاء العبودية وابتداع وسائل ووسائط جديدة لإبقاء السود في حالة التبعية والقسر.

الدم والرماد

رفع لنكون عقيرته فجأة في الخطاب الذي افتتح فيه توليه الرئاسة للمرة الثانية (٤ آذار ١٨٦٥)، وقد مضى على الحرب الدائرة خمس سنين، قائلاً: « وإذا ما قدر الله استمرارها إلى أن يتم ابتلاع الثروة كلها، المتراكمة خلال مائتي وخمسين عاماً من العمل غير المكافأ عليه والذي أنجزه الإنسان المستعبد، وإلى أن يُدفع ثمن كل نقطة دم أراقها السوط بنقطة أخرى يسيلها السيف، إذاً علينا أن نردد ما قيل منذ ثلاثة آلاف سنة: عادلة وصحيحة هي أحكام الرب. ».

الخسائر الأمريكية في الحروب الهامة

عدد القتلى

| | |
|--------|---|
| ٤٤٣٥ | حرب الاستقلال (١٧٧٥—١٧٨٣) |
| ٤٩٨٣٣٢ | حرب الانفصال أو الحرب الأهلية (١٨٦١—١٨٦٥) |
| ٢٤٤٦ | الحرب الأسبانية الأمريكية (١٨٩٨) |
| ١١٦٥١٦ | الحرب العالمية الأولى (١٩١٧—١٩١٨) |
| ٤٠٥٣٩٩ | الحرب العالمية الثانية (١٩٤١—١٩٤٥) |
| ٥٤٢٤٦ | حرب كوريا (١٩٥٠—١٩٥٣) |
| ٥٦٢٢٧ | حرب فيتنام (١٩٦١—١٩٧٣) |

والدم يسيل والولايات المتحدة، التي لا يبلغ عدد سكانها سوى العشرين مليوناً في أثناء حرب الانفصال، فقدت في هذا النزاع المسلح من الأرواح أكثر مما فقدته، بعد أن ازداد عدد سكانها سبعة أضعاف، في الحرب العالمية الثانية. وعند نهاية القرن الفائت، كلفها الحصول على الاستقلال، الذي اختارت في أثناء النضال من أجله أن تجهل الفوارق بين السود والبيض، أقل مما كلفتها هذه الحرب الأخوية بمئة مرة والتي أدت، برغم أنفها، كما يبدو، إلى تحرير العبيد.

إن «أحكام الرب» التي يذكرها لنكولن، قد تكون «عادلة صحيحة»: إلا أنها لا تخلو من القسوة التي لا شك في أن رفض مواجهة المعضلة مباشرة والاصرار على الروغان من الإنسان وحقوقه مدة طويلة، قد جعلها أمراً لا مفر منه. كما زاد التعامي والتهرب والتذرع بالحجج الواهية والجدل الفارغ، القانوني والفلسفي: عنف المأساة البشرية وحدة النزاع على المصالح. فهل يستطيع الحق «في الحياة والحرية وفي السعي وراء السعادة»... هذا الحق الذي ذكره إعلان الاستقلال، ثم ما لبث أن استهتر به الشمال والجنوب.. هل يستطيع سبيلاً إلى الانبعاث من ركام الجثث ورماد الحرائق؟..

كانت وحدات الجنرال شرمان، في أتلانتا، وعلى طرق ولاية جورجيا، في شهر تشرين الثاني من العام ١٨٦٤، تتقدم زهاء خمسة وعشرين كيلو متراً، في كل يوم، مخلفة وراءها رقعة أرض ممتدة مجتاحة، تزرعها الرمم والحرايب المسودة. وليس هنالك كومة قش ولا بالة قطن. إنها النار.. وإنه الإرهاب. وإلى السكان المتكئين غيظاً عاجزاً صرح الجنرال شرمان بقوله: «نحن لا نريد زنجوكم ولا خيولكم ولا منازلكم وأراضيكم. ولا شيء مما تملكون، نحن نريد طاعة حقبة لقوانين الولايات المتحدة وسنحصل عليها ولو اقتضانا هذا تدمير كل تقدم حققتموه، فليس لنا في الأمر حيلة»..

تكررت مشاهد التخريب والأسى هذه في كارولينا الجنوبية، بؤرة الانفصال الحقيقية، ثم دخل شرمان كولومبيا في ١٧ شباط ١٨٦٥ وهي جمر ملتهب.

غادر لنكولن عندئذ العاصمة إلى ريشموند من ولاية فرجينيا. وتقدم في أحد شوارعها سائراً على قدميه، ووراءه جمهور غفير من السود قد انحنوا اجلاً، والدهشة لا تزال تعقل ألسنتهم وهم يتبعون المحرر العظيم.. لا صرخة معادية، ولا هتاف.. إنما الدهول فقط. فهل كان الجمع خائفاً؟.. لا إنها الدهشة على الأغلب. كان نمط حياة بكامله ينهار في الدم والرماد.. وخلال تسعين عاماً، ظلت جماهير سكان برمتهم، ما خلا قلة ضئيلة من دعاة الإلغاء، أما تؤيد الاسترقاق

وجوده، أو تقترح مترددة إلغاء التدريجي المزعوم الذي يؤدي، في الواقع إلى ديمومته. وإن استمرار الظلم الذي كان يمتن مبدأ مقدساً، قد زاد في تفاقم تناقضات المجتمع وجعل أكبر نزاع دموي عرفته أمريكا، أمراً لا مناص منه. فهل فكر لنكون في أسباب المأساة العميقة، وفي المراوغات التي بلغت بالمأساة إلى الذروة؟.. لقد جاء الجواب في وصف الشهود العيان الذين قالوا: كان لنكون يسير في شوارع ريشموند يتبعه السود الأوفياء الذين اعتقدوا أنهم أخيراً، أصبحوا أحراراً. وقد بدا التعب في قسمات وجهه الجامد الغامض.

عودة الرقاص

بعد هزيمة الجنوب، أوقف وليام لويد غاريسون إصدار جريدته الداعية إلى إلغاء الرق. أما صحيفة المحرر، التي لم تكد تحتفل بذكرى صدورها الخامسة والثلاثين، فقد قدّرت أن المعركة منتية وكانت في ضلال مبين. فالحرب التي انتهت بتحرير العبيد، قد قامت على قواعد سياسية، فيها من الإبهام ما يحول دون تمكن الجمهور من استخلاص العبرة الحقيقية منها. وإلغاء الرق لا يعني البتة أن يغدو السود أحراراً.

أصدرت ولايات الجنوب «قوانين السود» التي تفرض على السود قواعد صارمة في الحياة: إذ عليهم (بموجبها)، أن يعجلوا في النوم ويستيقظوا عند الفجر وأن يخاطبوا البيض بتوقير، وأن تُحظر عليهم وظائف الاختصاص. وهم، وإن كانوا أحراراً، عليهم أن يبقوا فيما هم عليه، استعداداً وميلاً، كادحين وضعاء يقتصر عملهم على ما هو دنيء وأجبر بخس. وإذا لم يستخدموا فمصيرهم السجن، يسلمون بعد الخروج منه إلى رب عمل خاص يعملون لحسابه حتى دفع الغرامة التي تشري حريرتهم.

يضاف إلى كل ذلك العنف، ففي شهر أيار من العام ١٨٦٦، في مدينة ممفيس (ولاية التينيسي) قُتل ستة وأربعون عبداً، وفي ولاية كنتوكي، بلغ عدد المقتولين شتقاً أكثر من مئة عبد. وبلغت قائمة الضحايا حداً كبيراً.. عندئذٍ أفتتحت مرحلة «إعادة البناء» في الجنوب، وخلّاهَا أشرف عشرون ألف جندي شمالي على الأمن في خمس مقاطعات عسكرية في الولايات الانفصالية (سابقاً)، من أجل فرض احترام الشرعية الدستورية، لكنه كان احتلالاً عسكرياً حقيقياً، ترك في ذاكرة الجنوبيين أثراً من الحقد عميقاً. وفي ظل هذه الحماية حقق السود عام ١٨٦٧ الأغلبية في مجلس ولاية كارولينا الجنوبية التشريعي، إذ بلغ عدد الناخبين السود في العام المذكور ٧٠٣٠٠٠،

يقابلهم من البيض ٦٢٧٠٠٠. لقد أضحى السادة أقلية، وانتخب لعضوية مجلس الشيوخ بعض من كانوا عبيداً، وأخذ منهم نواب وقضاة وعمدت الأغلبية المذكورة إلى التصويت على إلغاء «قوانين السود» التي لم تلبث روحها أن انبعثت بأشكال متباينة.

انهك المشرعون في العاصمة الفدرالية في تدوين المبادئ في نصوص، المبادئ التي تقضي—حسب تعبير الجنرال شرمان—بأن يلزم الجنوب «طاعة دقيقة». نصوص طال انتظارها كثيراً. وهي وإن كانت لا تغير شيئاً من العقلية السائدة، ينبغي، مع ذلك، تبنيها ونشرها، أملاً بأن تستطيع الدولة فرض احترامها. وهكذا نص التعديل الدستوري الرابع عشر على أن الأسود «لن يُحرَم من حياته وحرته وأمواله إلا بعد محاكمة قانونية». كذلك يوضح التعديل الخامس عشر أن حق التصويت أو الانتخاب «لن تمنعه أو تحده حكومة الولايات المتحدة أو حكومة أية ولاية منها، استناداً إلى العرق أو اللون أو حالة العبودية السابقة».

كل ذلك من شأنه أن يوضح ما تضمنه إعلان الاستقلال والدستور «الناس جميعاً يولدون متساوين» كما جاء في وثيقة «عام ١٧٧٦» بيان إعلان الاستقلال. وخلال تسعين عاماً لم يُطبق هذا المبدأ على السود. وكان يكفي، في الأساس، التصويت والموافقة على تعديل واحد يقول إن السود، هم كالبيض تماماً، كائنات بشرية. إنها صيغة جد بسيطة، من شأنها أن تصدم آراء تعصبية راسخة. لذلك أثر المشرعون أن يعددوا الحقوق المقتصرة على البيض آنذاك، والتي ستشمل السود. لكن اليد المسكة بالقلم ليست يد جيفرسون، لذلك إن واضع بيان إعلان الاستقلال إذا استبعد «حق الملكية»، ذكر حقوقاً ثلاثة، لا ثمس، هي الحياة والحرية و«السعي وراء السعادة». والحق الثالث هذا لم يُذكر في نص التعديل الرابع عشر. الذي فضل عليه مفهوم حق الملكية، سمة العصر. ولا يوجد نص يُشير إلى أن للسود حقاً «في السعي وراء السعادة».

ما أن وضع النص المذكور، حتى بدأ القلق يساور الجمهوريين، فما يُثير خشيتهم هو قيام تحالف بين السود والبيض الفقراء، من شأنه أن يُتيح للبلد أغلبية شعبية. وحيال هذا الخطر، تحول حزب لنكولن رويداً رويداً إلى مواقف أشد محافظة. أما الفرصة الحاسمة فقد أتاحها له الانتخابات الرئاسية في العام ١٨٧٧، التي تجابه خلالها الجمهوري روثفورد. ب. هايز، والديمقراطي صموئيل تلدن الذي نال ٣٠٠٠٠٠ صوت أكثر من منافسه، غير أن النتائج أعترض عليها في أربع ولايات، رأى أولو الأمر فيها أن لا يحجموا عن وسيلة أو سبيل من أجل وضع حد للسياسة التي لا تُطاق والتي يسلم فيها قانون الأغلبية السلطة الفعلية إلى عبدان قدامى، في مناطق عدة من الجنوب.

الحكم بين المرشحين ، بمقتضى الدستور ، من صلاحية الكونغرس . لذلك وعد الجمهوري هايس أنه إذا فاز ، سيسحب من الجنوب القوات المكلفة صيانة حقوق السود وفرض احترامها . ولغة كهذه لا تفتقر إلى الوضوح ، فهي تعني أن التعديلين الرابع عشر والخامس عشر سيبقيان رسمياً جزءاً من الدستور ، ألا أنهما سيغدوان حبراً على ورق في ولايات الجنوب التي قد تحوّل ذاتها بتدليل بنودهما كلها . وهكذا أنتخب روثفورد هايز : فحل ما ربطه لنكون ، جمهوري أفضل من ديمقراطي .

انتهاك حرمة الدستور

شرع الجنوب ، في أمد وجيز في إعادة السود إلى مكانهم . وبكثير من الحذق ، أخذت ولايات الجنوب ، استناداً إلى « سيادتها الشعبية » تُصدر قوانين تحترس ، بمجملها ، من مناقضة التعديل الـ (١٥) بصراحة ومن حيث الشكل . ونصوص هذه القوانين لا تحرم السود من حق الاقتراع بوصفهم سوداً أي بما يخالف نص الدستور الحرفي : بل تعزلهم عن صناديق الاقتراع بطرق شتى ، لاستناد فيها إلى عرق أو لون ، ظلت سارية المفعول حتى العام ١٩٥٧ .

من هذه الطرق (بند الجلد) الذي لا يمنع السود من حق الانتخابات بل سلالة العبيد . وقد أبطلت مفعوله في العام ١٩١٥ ، المحكمة العليا التي تكون قد صبرت مدة نصف قرن لتحقيق من أن هذه المادة (القانونية) تنتهك صراحة التعديل الخامس عشر الذي يُحظر حجب حق الانتخابات ، استناداً إلى حالة العبودية السالفة . كذلك عُدت غير دستورية في العام ١٩٤٤ ، المواد التي تُقصر حق اختيار مرشح الحزب على البيض من أعضائه .

هناك فقرتان ظل مفعولهما سارياً حتى منتصف القرن العشرين وهما :

— الضرائب الانتخابية ، وقدرها ١ — ٣ دولارات ، تُدفع في خمس ولايات جنوبية هي ألاباما واركساس وميسيسيبي وتكساس وفرجينيا ، عند تسجيل القوائم الانتخابية . وهذه الضريبة الخاصة التي اعتبرتها المحكمة العليا غير قانونية في العام ١٩٦٦ ، كانت أشد وطأة على السود ، لما هم عليه من مستوى المعيشة ، من البيض الذي كانوا قادرين على التملص منها عندما تكون التعليمات الصادرة إلى موظفي البلدية المسؤولين عن اللوائح الانتخابية أن يطالبوا السود وحدهم بتأشيرة دفع الضريبة . وفي أوائل الحرب العالمية الثانية فُرضت هذه الضريبة أيضاً تسع ولايات أخرى (منها) الماساشوستس في الشمال) ثم ألغتها . وفي هومفريس والميسيسيبي ، تمكن ٤٨٥ أسود من دفع الضريبة الانتخابية بعد جهود مديدة (عام ١٩٥٣) . وبعد مرور سنتين ، لم يدفعها منهم إلا اثنان

وتسعون ورضخ الآخرون إلى التهديد . وفي هومفريس ذاتها عام ١٩٥٣ ، كان القتل برصاص مسدس في الرأس مصير القس الأسود جورج لي . وهو يسوق سيارته ، لأنه دعا إخوته في اللون إلى إتخاذ الإجراءات المطلوبة لممارسة حقهم في الانتخاب . وانتهى تحقيق المسؤول عن الأمن إلى الاستنتاج أن الكاهن سقط صريع نوبة قلبية أدت إلى اصطدام سيارته بشجرة وتخطمها . ولما وجد من يلفت نظره إلى أن الطلقة تركت آثار الرصاص على وجهه ، رد بقوله أن الأثر ناجم عن رصاص أسنانه . وعقب محاولة اغتيال زعيم زنجي آخر هو ، غوس كورتس (١٩٥٥ — ٢٥ تشرين الثاني) ، رأى هذا أن من الحكمة أن يغادر المقاطعة هارباً .

— ظلت شهادة معرفة القراءة والكتابة (بعد امتحان الناخب) تطلب حتى عام ١٩٥٧ في تسع عشرة ولاية منها ست في الجنوب . ففي نيويورك ، مثلاً ، كان حملة شهادة الدراسة الثانوية معفيين من الامتحان ، على خلاف الجنوب ، حيث كان موظفون صغار يقررون أن زنجياً أستاذ جامعة ، لا يتمتع بالمستوى الثقافي الذي يخوّله حق الانتخاب . وكان الامتحان ، أحياناً خليقاً بمسرحية اوبو : Ubo الهزلية ، فقد كان يسأل بعض الزنوج أن يذكروا أعمارهم بالأعوام والسنين والأشهر والأيام . وخطيئة في يوم واحد كانت تكفي لرسوبهم (وحرمانهم من الانتخاب) . وفي مقاطعات أخرى كان يُطلب من السود (السود فقط) ، أن يذكروا تاريخ سريان مفعول تعديل ما من التعديلات الدستورية أو متى قبلت هذه الولاية أو تلك في الاتحاد . ومدينة توسكيجي (ولاية الباما) هي مقر معهد توسكيجي التعليمي الشهير المخصص للزواج وبمجموع سكان المدينة ٦٧٠٠ ، منهم ٤٨٠٠ أسود ، لم يُسجل في اللوائح الانتخابية منهم عام ١٩٥٨ ، سوى ٤٢٠ . وهكذا كان عدد الناخبين البيض (٦٠٠ فقط) ، كافياً لرفد المدينة بمجلس بلدي كله من البيض . على أن مستوى السود الثقافي كان جديراً بالتقدير ، وبرغم ذلك رسب بعض الأساتذة من حملة الدكتوراه في امتحان القراءة والكتابة . لم ييأس السود وحاولوا الوصول إلى صناديق الاقتراع بعدد أكبر . فعمد العنصريون عندئذٍ إلى تقسيم الدوائر أو المناطق الانتخابية تقسيماً آخر جديداً ليمزقوا الكتلة السوداء المتجمعة حول معهد توسكيجي ، التي كانت تُنذر بضمّان الأغلبية في أمد وجيز . غير أن هذا التقسيم الجديد لم يدع أمام البيض السمتائة سوى تسعة سود ، فقد ألحق سائر السود بدوائر انتخابية مجاورة . فرد الزنوج على ذلك بمقاطعتهم مخازن البيض ومحلاتهم التجارية في المدينة عامي ١٩٥٨ و ١٩٥٩ .

ليس في إقدام الجنوب على إصدار القوانين المذكورة ما يُثير الدهشة ، فهي بلا شك لا تنتهك

نص الدستور الحرفي ، إلا أنها تشوه في تأثيرها ونتائجها ، روح هذا الدستور . فالمسألة الكبرى التي تهدد طبيعة الحلم الأمريكي هي أبعد تأثيراً وأبعث للقلق : لماذا تحمّل الشمال أفعالاً كهذه وتقبلها خلال ثمانين عاماً ؟ .. وإذا كانت الديمقراطية أمراً جوهرياً عنده ، فكيف استطاع الوقوف موقف المتفرج ، لا يقدم على أي رد فعل على هذا الانتهاك ، المستمر الدائب ، لمبادئ الحق والعدالة التي يعتقد بولائه العميق لها . لقد بقي في موقفه السلبي ، طوال الأعوام الثمانين التي عقت إعلان الاستقلال ، حيال التناقض المذهل بين الديمقراطية والرق ، ثم ، خلال الثمانين عاماً التي تلت حرب الانفصال ظل يغمض العين عن سياسة الجنوب ، التي كانت ، بكل تصميم ، تأتي على السود ممارسة حقوقهم الديمقراطية .

من جيفرسون إلى لنكولن ، ظل الشمال ، ما خلا حفنة من دعاة إلغاء الرق ، أقل اهتماماً بهيمنة الديمقراطية ، منه بصيانة توازن يهتز بين الولايات المؤيدة وجود الرق والولايات المعادية ، وبوساطة سلسلة من « التسويات » . وانتهى إفلاس هذه السياسة مؤدياً إلى نصف مليون قتيل في حرب أهلية . وبعد لنكولن وحتى ١٩٥٠ - ١٩٥٥ ، كان يروق للشمال أن يرى أنه لا يرضخ ، هو ، للتمييز العنصري الصريح الذي لا يزال جرح الجنوب الذي لا يندمل .

ازداد خلال ذلك ، عدد الزوج خمسة أضعاف . ليسوا جميعاً في الجنوب ، بل حملتهم الحريان العالميتان على الهجرة إلى الشمال سعياً وراء استخدامهم في عمل صناعي . وفي العقد الواقع بين ١٩٤٠ و ١٩٥٠ ، وحده ، تناقص عدد السود زهاء مليون في الجنوب وازداد مليونين في الشمال والغرب . في العام ١٩٤٠ ، كان ٨٠٪ من الزوج يعيشون في الجنوب ، بينما انخفضوا إلى ٦٥٪ عام ١٩٦٠ ، وكان انتهاك حقوقهم في الجنوب يطرح ، بلا شك ، قضية مبدأ على مجموع الشعب ، غير أن زحف السود نحو الشمال يُضفي على المسألة المبدئية هذه أبعاداً قومية . فهولاء المواطنون من المرتبة الثانية لا يقيمون في أراضي جيورجيا الزراعية والكاروليتين (الشمالية والجنوبية) فحسب ، بل هم هناك ، في الأحياء المنعزلة وفي مصانع نيويورك وشيكاغو وديترويت وبتسبرغ وغيرها .. إنهم في قلب أمريكا الصناعية والبرالية التي لا تشعر بالأثم لوقفهم على الأعمال الوضيعة والأجور البخسة والأكواخ القذرة ، بل تنبأهم بمعاملتهم معاملة إنسانية أفضل وبرفع مستوى معيشتهم ، وتسهيل سبل العلم والتعليم أمامهم وكذلك سبيل الوصول إلى صناديق الانتخاب ، أكثر من الجنوب . ومع ذلك فالمفارقة عجيبة ، إذ ليس الجنوب الأقل من الشمال ، سكاناً ووزناً سياسياً

وطاقة اقتصادية ، هو الذي يطرح المسألة الجلى والأخطر .. لقد أدركها الشمال في الستينيات عندما اندلعت الإضطرابات العنصرية في مراكز التجمع الكبرى الشاهدة على قدرته .

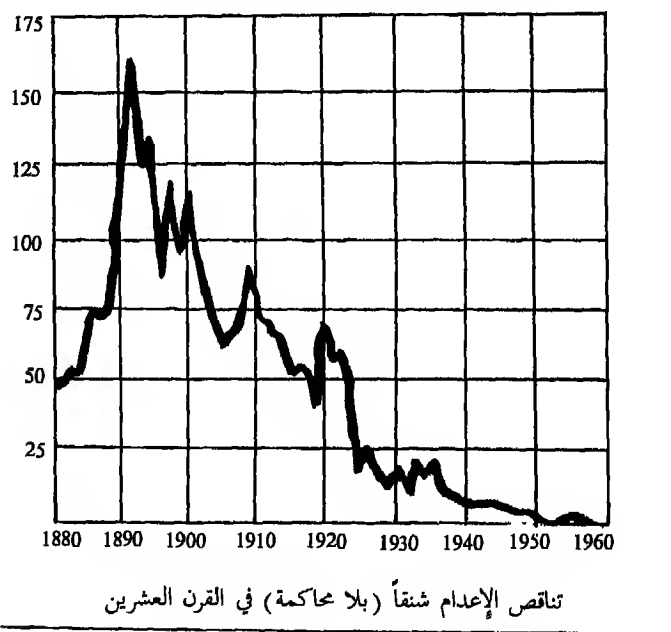
حلم ثانوي

إن ما يزيد الدهشة لعدم إحساس الشمال بالأثم هو أن السود لم يُحرَموا من حقوق المواطنين فحسب . فمنعهم عن الانتخاب من الأمور الخطيرة ، بلا شك ، كذلك تردي وضعهم المهني . ففي العام ١٩١٥ كانت نسبة الأميين فيهم ٥٠ ٪ وعدد العمال الحرفيين أدنى مما كان عليه عند إعلان تحريرهم . ولكن الأخطر من ذلك أن يُقتلوا بلا ذنب اقترفوه ، فبين عامي ١٨٨٥ — ١٩٣٠ ، قُتل منهم شتقاً ٣٢٥٦ فرداً ولم تُقلق راحة القتلة . وقد ضربت جرائم الشنق بين ١٨٩٠ و ١٩٠٠ رقماً قياسيأ ، وفي العام ١٩٢٠ فاق عددها عام ١٨٨٠ (انظر الجدول البياني) . وفي فتنه عنصرية اندلعت ناراها عام ١٩١٧ ، في ايسنت سانت لويس ، سقط سبعة وأربعون زنجياً ، معظمهم قتلى . وفي تموز عام ١٩١٩ ، بينما كان الرئيس ولسون عائداً من مؤتمر باريس ، اقتتل السود والبيض في واشنطن وتدخلت الشرطة لتفريقهم بعضاً عن بعض ، وتركت ستة قتلى على الأرض . وفي الشهر ذاته ، كانت نتيجة ثلاثة أيام من الإضطرابات العنصرية في شيكاغو ، ستة وثلاثين قتيلاً . وكانت تتكرر الحوادث كلما طالب محاربون قدماء من السود الاعتراف بحقوق المواطنين . فهل هي قصة قديمة ؟ . وهل هي قصة الجنوب ، . لا ، ففي دترويت عام ١٩٤٣ ، قُتل خمسة وثلاثون أسود في فتنه عنصرية .

العنف قائم وهو يلتمس إلتفات الشمال . وهكذا كانت « قضية سكوتسبرو » . فاتحة مرحلة جديدة ، كما يبدو . ففي آذار ١٩٣١ ، أُتهم تسعة غلمان سود ، أصغرهم في السن الثالثة عشرة ، باغتصاب فتاتين بيضاوين . فحُكم على ثمانية منهم بالإعدام . لكن المحكمة العليا نقضت الدعوى لأن هيئة المحلفين لم تكن تضم أسود واحداً . وفي العام ١٩٣٦ . أُطلق سراح أربعة منهم ، وفي العام ١٩٤٤ ، أفرج عن ثلاثة بناء على كفالة شفعية ، والآخر هرب من السجن في العام ١٩٤٨ . أما المحكمة العليا ، فقد ردت إلى الديمقراطية وظيفتها الديمقراطية ، بشجها المعايير العنصرية التي اعتمدت في اختيار المحكمين . وما أكثر السود الأبرياء الذين زجت بهم في السجون في مثل هذا التاريخ وأرسلتهم إلى الموت هيئات محلفين حالت الأهواء العنصرية دون إنصافها في الحكم .

لكن مشاق المحاكم لم تنته ، ففي العام ١٩٥٥ ، في سمنر (الميسيسيبي) جرّوت هيئة محلفين ، كلها من البيض ، على تبرئة أبيضين قتلًا الغلام الأسود ايمت تل . وفي ٢٥ نيسان ١٩٥٩ ، في مدينة بولرفيل (ولاية الميسيسيبي أيضاً) ، أختطف من السجن الشاب الأسود ماكس . باركر ، (٢٣ عاماً) ، المتهم بجريمة اغتصاب ، وقُتل شنقاً . واستنكرت أغلبية الشعب الأمريكي الجريمة عندئذ : فقد أثارت جريمة الشنق هذه لا سواها من الاشمئزاز والاستنكار أكثر مما أثير في المرحلة التي كانت تُسجل خلالها مئة وخمسون جناية شنق في العام الواحد . لقد تطور الرأي العام إنما ببطء شديد .

LE DECLIN DES LYNCHAGES AU XX^e SIECLE



جدول بياني ص : ٢٧٣ من الأصل الأجنبي

في العام ١٩٥٤ ، أجّر مواطن اسمه برادن ، السيد والسيدة ويد ، منزله الذي ما كاد يشتره ، وفي اليوم الثاني غرس أمام البيت صليب ملتهب ، هو شعار جمعية كو- كلاكس- كلان السرية ثم أطلق الرصاص على النوافذ ، وأخيراً فُجر المنزل بشحنة ديناميت . استجوبت الشرطة برادن ، الأبيض والسيد ويد وزوجته وهما من السود سائلة عن موقفهم

من الشيوعية، وأتهم الثلاثة بإثارة الفتن مع النية « بتغيير شكل الحكم » ، بإسكانهم أسرة سوداء في حي أبيض . جرى ذلك في ولاية كنتوكي ... لكن بعد مرور ثلاث سنوات ، في ولاية بنسلفانيا ، عندما أقامت السيدة مايرز وأبنائها الثلاثة في ليغتون ، المدينة الجديدة (وعدد سكانها آنذاك ٦٠٠٠٠) وقد بنتها شركة ليفيت التي تصدّر منذ ذلك العهد نماذج منازل إلى أوروبا ، اجتمع حولهم زهاء مئتي شخص وبعد الهزء بهم هاجمهم بالحجارة . تلبية لنداء الكويكرز الذين تابعوا كفاحهم منذ عهد واشنطن الذي كانت ثور ثأرته على المذكرة التي وجهوها إلى الكونغرس مطالبين بإلغاء الرق ، هرع مئتا مواطن أيضاً للوقوف إلى جانب أسرة مايرز التي استطاعت ، في النهاية ، البقاء في المدينة .

إنها بعض أمثلة تدل على عنف التعصب العنصري ، وفي آن واحد ، على امتداده الجغرافي مع الهجرة ، وعلى بطء رد فعل الشمال ، فعلاّم هذا البطء في مجتمع لا يستطيع الجهل أن التمييز العنصري لا يتلاءم والحلم الأمريكي ؟ .

إن عدد الكتاب الأمريكيين الذين طرحوا هذا السؤال لا يُحصر . وكتاباتهم تُتيح لنا محاولة الادلاء بجواب مجمل وملخص . أولاً ، هناك حدثان خطيران مر ذكرهما وهما : أن المستعمرات عندما عمدت إلى انتزاع حريتها ، أبت على السود أن يفيدوا من ذلك . ثم ، عندما اضطرع نصف البلد في نزاع مسلح لم يُسرّ لنكولن الذي كان يشجب الرق تحلقاً ويتقبله سياسياً وبدلي بمحجج ويرى السود دون البيض . وإيجاز نقول إن مكافحة العنصرية ، منذ حرب الانفصال ، لم يكن يُرى أنها أمر جوهري لا بد منه لبناء مجتمع ديمقراطي . وهذا الموقف من العنصرية الذي خلده نزاعان داميان ، وضرب جذوره عميقاً في تاريخ أمة ، من شأنه النزوع إلى الاستمرار والبقاء .

غير أن التاريخ ، بإيجازه على هذه الصورة ، لا يفسر الكثير من الأمور ، بل يكون تماساً بسيطاً يوحي بالسؤال الحقيقي : لماذا لم يول الرجال الذين صنعوا هذا التاريخ انتباهاً أكبر إلى مظاهر العنصرية المتباعدة ؟ .. إن التيار الذي مثله واشنطن وهاملتون ، في خشيته القوى النابذة ، أراد ، في أول الأمر أن يقيم الاتحاد على قواعد متينة ، كما كان شاغل لنكولن الأكبر ، بعد ذلك ، « إنقاذ الاتحاد » : وعند هؤلاء ، ظل الاهتمام بتحقيق التلاحم بين الأمة وقوة الدولة يحتل المكان الأول . لقد أناطوا المساواة العنصرية بمصلحة الدولة . وأناطوا المثل الأعلى الديمقراطي بالذرائعية .

كانت قوة الدولة تقتضي عقد أواصر وثيقة بين المستعمرات القديمة ، وكان لهذه أسباب قوية

تدعوها إلى الاتحاد ملتفة حول حكومة مركزية تتمتع بقوة كافية ويدوم توطدها، على أن هذه الأسباب لا سبيل إلى وجودها إلا في المصلحة الاقتصادية، وقد قال ماديسون، أبو الدستور مفسراً: «إن أول هدف للحكومة ما» هو حماية «تباين ملكات الرجال وقدراتهم، التي تنبثق عنها حقوق الملكية». ثم يشرح قائلاً أيضاً: «إن ملكات الناس وقدراتهم المتباينة والمتفاوتة على سبيل اكتساب درجات مختلفة وأشكال مختلفة من الملكية (أرضية، صناعية، تجارية، مالية)، تقسم المجتمع إلى طبقات، والأسباب التي تبعث هذه الخلافات لا سبيل إلى القضاء عليها، ونحن نعلم علم اليقين، أن لا سبيل أيضاً إلى الاعتماد على دوافع تخليقية ولا على دوافع دينية للسيطرة على المجتمع سيطرة كافية»^(١٨).

كان لا بد من انتظار عام ١٩١٣ لصدور دراسة جادة^(١٩) تبرهن بدقة في التفاصيل لا تدحض، على أن واضعي الدستور قد هدفوا—بقصد وترو—إلى عقد علاقات مصالح بين «الملاكين» والحكومة الفدرالية. وكان المزارعون، والصناعيون والتجار وأصحاب المصارف ينتظرون—ويعلمون أنهم يسعهم أن يتوقعوا—من السلطة المركزية إتخاذ إجراءات (رسوم جمركية، ضرائب مالية، قروض واعتمادات.. الخ)، ستخدم مصالحهم بصفتهم مالكيين، وعلى هذه المصالح—لا على «دوافع تخليقية أو دينية»، إذا ما شئنا استعارة تعبير ماديسون—قامت السلطة—الدولة عن قصد، كي يُتاح السبيل إلى إبقاء الطبقات الأخرى في مكانها، بسهولة أكبر.

إن شكل الحكم ذاته—توزيع السلطات والتوازن بينها—يمليه هذا الاختيار الذرائعي، لاتطلع ما من التطلمات الديمقراطية. وإن ما يحتويه الدستور من ديمقراطية يمثل التنازل الأدنى الذي تحقق أمام ضغط الشعب، أمام مطالب الذين لا يملكون. وإن دولة تقوم على الملكية، لا قبل لها بأن تحوّل نفسها العمل على التفرقة والتنازع بين مالكي الرقيق. بل ينبغي، على النقيض، اشراكهم في الحكم اشراك التجار والمالكين ذاته، وهذا يعود إلى المناقشات الدستورية. وهكذا عمد أوليفر ايلثورث، وهو ابن مزارع من ولاية كونكتيكوت، كان قد درس في يال وبرنستون، إلى مطالبة الكونغرس بالأ يظلم الولايات الجنوبية وقد استعمل تعبيره الجميل هذا: «لننتع عن التدخل في هذا الشأن، فبقدر ما يزداد عدد السكان، يتكاثر عدد العاملين الفقراء تكاثراً يجعلنا في غنى عن العبيد».

(١٨) الفيدرالي—العدد: ١٠.

(١٩) تشارلز بيرد التفسير الاقتصادي لدستور الولايات المتحدة الناشر مكملان نيويورك ١٩١٣.

هذه الرغبة في إقامة سلطة الدولة على الملكية، تحول دون الانتباه إلى «العمال الفقراء» البيض أو إلى السود العبيد، وتحمل في ذاتها أسباب حرب الانفصال وكذلك أسباب الفتن العنصرية (١٩٦٠ — ١٩٦٥). ولواضعي الدستور الخيار: فيما أن تقوم دولة قوية تمارس سلطتها على أوسع قطاع ممكن من الأرض وتستند على المالكين، كما يطلب هاملتون، وعندئذ ينبغي أن تضم المستعمرات السابقة التي يسري فيها نظام الرق، أي أن تقبل بهذا النظام، وإما إقامة دولة ديمقراطية تحقق المساواة الوطنية بين الناس أغنياء كانوا أو فقراء، سوداً أو بيضاً، وعندئذ لن يريح الجنوبيون ولا معظم الأغنياء المالكين الشماليين.

هكذا، يحق للكتاب الجيدين الثناء على حكمة الدستور الأمريكي وذرائعته وعلى إحساسه بالتسوية والتوازن، توازن بين الوجهاء والأغنياء وكرام المحتد، أما سواهم من العمال البيض الفقراء والسود فقد كتب الاقتتال عليهم، والاختيار الذي قام به واضعو الدستور ينم على ذكاء رفيع وصفاء ذهن كبير وواقعية عميقة. وتشاء المأساة أن تكون هذه الواقعية والحلم الأمريكي متناقضين ومتعارضين.

والفلسفة السياسية التي ألهمت الدستور ونشرته بدورها وعممته، تعبى المواطنين لأعمال لا تمت بصلة إلى إلغاء البنى والمؤسسات والأجهزة المشربة بالتمييز العنصري. وإن الشمال الموالي للحلم الأمريكي، وفي الأقل كما تمثله بعض الصور، ما كان له أن يشمل تسعين عاماً من نظام الرق، ثم ثمانين عاماً من التمييز العنصري الذي سمحت به نصوص القوانين. إلا أنه، وهو الوفي لروح آباء الدستور، لم يكن يستطيع إلا القبول بالعبودية، ثم بالتمييز الشرعي الذي أعقبها، وكانت أمامه موافقة المحكمة العليا التي ضمنت، عام ١٨٩٦ عقيدة التمييز العنصري حقوقياً، حين قالت السود والبيض ينبغي أن يكونوا منفصلين ولكن متساوين. وعلى أسس كهذه ينفخ الحلم الأمريكي في قصب. فالحرية والمساواة تغدوان هدفين ثانويين مكانهما وراء قوة الدولة على مسافة كبيرة، ووراء تماسك الاتحاد والإزدهار الاقتصادي.

القانون يبدل معسكره

فسخت المحكمة العليا عام ١٩٥٤ القرار الذي أُنخذ عام ١٨٩٦. فقد لحظت أن السود في الواقع، ولا سيما لانفصالهم عن البيض، ليسوا أنداداً لهم في التعليم. وعلى سبيل المثال، كانت ولاية المسيسيبي تخصص خمسة وثلاثين دولاراً سنوياً لتعليم كل تلميذ أسود يقابله مئة وسبعة عشر دولاراً

لكل أبيض ، حتى في ولاية نيويورك كان الفارق بين الأسود والأبيض من ١ إلى ١٠ وهذا ما ينجم عنه أبنية مدرسية للـسود دون أبنية البيض وأساتذة دون أساتذتهم وتعليماً دون تعليمهم وأعمال بعد انتهاء الدراسة دون أعمالهم ، ينبغي إذاً ، كيما تسود العدالة ، إلغاء هذا التفریق . وهكذا قررت المحكمة العليا أن التمييز المدرسي يخالف الدستور .

كشفت المحكمة العليا بقرارها هذا في ١٧ أيار ١٩٥٤ عن اهتمام أو شاغل ما كان يهتم به آباء الدستور ، فهي بعد ثمانية وسبعين عاماً من إعلان الاستقلال لا تُعيد للأسود حقوقه فحسب ، وهو أمر له شأنه ، بل تقوم أيضاً باختيار للحلم الأمريكي أعمق أساساً ، فعام ١٩٥٤ كان منعظاً في التاريخ إذ لن يحتاج الحلم الأمريكي بعد ذلك إلى أن يجعل في الدستور ما رفض واضعوه بكل ترو أن يجعلوه فيه ، وابتداء من هذا سيقوم الذرائعيون بتقديم براهينهم وحججهم « الواقعية » ليدللوا على أن الحلم لا يقبل التحقيق . وتستمر المعركة ذاتها ، إنما مع انقلاب الأدوار . وابتداء من ذلك الوقت أيضاً وبسبب نضال السود والبيض الاندماجين ، غدا الولاء الأمريكي أمراً لا غنى عنه لتوطيد سلطة الدولة وتلاحم المواطنين وانسجام المجتمع وإزدهاره .

إن إدانة التمييز العنصري في التعليم الرسمي قلبت المناخ الذي يقاتل فيه السود من أجل الاعتراف بحقوقهم ، وما يزيد أيضاً شدة هذا التمييز وفاعليته أن المجتمع ذاته قد تحول بابتداء تصنيع الجنوب ، إذ ظهرت هجرة مزدوجة تدفع السود في الجنوب إلى أن يغادروا الأرياف ، التي كانوا موزعين فيها ، إلى المدن حيث يُتيح لهم تجمعهم أن ينظموا ، ثم إلى أن يغادروا مصانع الجنوب إلى مصانع الشمال حيث يلقون وسطاً أقل عداء ، ولا سيما أن الحق سار سيره الطبيعي في معاملة السود بدلاً من أن يفرضه الواقع الاجتماعي والأعراف والأراء التعصبية .

اتخذ النضال الطويل الذي بدأ لصالح السود بعد حرب الانفصال طابعاً جديداً . ففي العام ١٩٠٨ بعد الإضطرابات الدامية في مدينة سبرينغفيلد (ولاية ايللنوي) وهي مدينة لنكولن ، أسس البيض الأحرار (جمعية تقدم الملونين) التي لم تضم في عضوية مكتبها إلا أسود واحد هو المثقف الكبير و . إ . بورغاردت دوبريس . وفي العام ١٩٤٥ ، لم يتجاوز عدد أعضائها ١٣٠٠٠٠ وما سمع الأسود العادي قط شيئاً عنها . وعام ١٩٥٤ ربح رئيس الدائرة الحقوقية فيها ، أمام المحكمة العليا الدعوى المؤدية إلى إدانة التمييز العنصري في قطاع التعليم العام . وهو محام اسمه تورغود مارشال أصبح بعد ذلك أول قاض أسود في المحكمة العليا ، وبعد مرور عامين على قرار ١٩٥٤ التاريخي ، بلغ أعضاء الجمعية المذكورة ٣٥٠٠٠٠ منتم وفي العام ١٩٧٥ ، ٤٥٠٠٠٠ عضو .

لم تكن هذه الجمعية نسيج وحدها في العمل. ففي أول كانون الأول (١٩٥٥)، رفضت السيدة روزا باركس، في مونتغمري (الباما)، التخلي لأبيض عن مكانها في إحدى سيارات النقل الكبيرة. وكان لهذا الحادث أبعاداً ما تجرأ أحد من الناس على التنبؤ بها، فقد نظم القس مارتن لوثر كينغ تجمع سيارات تنقل السود، البالغ عددهم ٤٢٠٠٠ والذين قاطعوا وسائل النقل المشترك ماداموا يعاملون فيه معاملة مواطنين من المرتبة الثانية. واستمر تنظيم السيارات الخاصة بالسود ٣٨١ يوماً، أما شركة سيارات النقل الكبيرة، فعندما رأت أنها على حافة الإفلاس رضخت وقبلت بالاندماج العنصري، وفي شباط ١٩٥٦ أوقفت الشرطة القس مارتن لوثر ومعه ثلاثة وعشرون قساً آخرون متدربة بأن المقاطعة طعنة لمبدأ حرية التجارة المقدس. وحُكم على لوثر بالسجن ١٤٠ يوماً وبغرامة قدرها ٥٠٠ دولار. وهكذا تكون حرية التجارة فوق حرية السود وفوق المساواة بينهم وبين البيض، وبغرم ذلك، استمرت المقاطعة حتى النصر النهائي. وكانت مطلع الموجة الكبرى في العمل بلا عنف، التي ردت عليها التكتلات العنصرية بالعنف.

سار النضال ابتداءً من ذلك على صعيدين متساندين:

أ— من جهة، عمل الجماهير الذي قام بتنظيمه السود مع اسهام عدد متزايد من البيض لطرح المسألة سلمياً ومبادرات ملموسة كالصعود إلى سيارة نقل كبيرة، أو الدخول إلى مطعم أو مسبح وغير ذلك، مما هو مخصص للبيض، وتحمل المعاكسات والشتائم والضربات التي كان يوجهها إليهم أنصار التمييز العنصري، بينما يحتفظ المعتدى عليهم برابطة جأشهم ويبدون اللباقة التامة، اتسعت هذه الحرب الصليبية بظهور حركة «دروب الحرية» التي كان يقوم بها طلاب من البيض والسود معاً مخترقين قواعد التمييز العنصري، ثم بالحملات التي كان الشبان البيض، يرافقهم السود، يقومون فيها بتسجيل أسماء هؤلاء على اللوائح الانتخابية في المجالس البلدية، ثم بالزحف الكبير على واشنطن في (٣٨ آب ١٩٦٣) الذي خطب خلاله القس مارتن لوثر كينغ قبل اغتياله بخمس سنوات.

ب— ومن جهة ثانية، العمل القانوني والتشريعي، الذي تتابع حتى صدور قانون الحقوق المدنية في ١٩٦٨ العام الذي أُغتيل فيه القس لوثر كينغ، وبعد مرور ثلاثة أعوام على إلغاء التمييز العنصري في التعليم، قضى أول قانون للحقوق المدنية عام ١٩٥٧ بإيجاد فرع خاص في وزارة العدل، مهمته العمل على التقيد بتنفيذه بحق السود. لكن لم يكن هذا الفرع يملك سوى وسائل محدودة. ثم اتسعت سلطته بالقوانين الصادرة في أعوام ١٩٦٠ و ١٩٦٤ و ١٩٦٥ و ١٩٦٨ التي

أناحت أسلحة قانونية جديدة لتحقيق الاندماج في المدارس وضمان حق السود في الانتخاب وحمايتهم القضائية وإلغاء فحوص الانتخابات (١٩٦٥) والسهر على أن تتألف هيئات المحلفين في المحاكم الاتحادية بغير استناد إلى عرق أو عنصر، ومكافحة التمييز العنصري في السكن.. وغير ذلك. وبموجب هذه النصوص القانونية أصبح يحق للحكومة الفدرالية التدخل مباشرة لإزالة كل تمييز عنصري.

ومن العام ١٩٥٤ إلى ١٩٦٨، كانت مرحلة تكاثر خارق في المبادرات والحركات^(٢٠) هدفها، في واشنطن وفي كل مكان آخر، استئصال كل أثر لتمييز عنصري. وكان الفوز تاماً على صعيد القوانين، ودونه على صعيد الواقع، ورغم روح نضالية عبرت عن أصح انتفاضة للحلم الأمريكي، فعمل المناضلين في القاعدة وعمل المشرعين في الكونغرس وعمل الادارة تساندت جميعها وسارت جنباً إلى جنب. وكانت المقاومات حادة جداً، غير أن الأدوار انعكست، فالقوات العنصرية هي التي راحت تتخذ مواقف الدفاع. والنصر الذي حققه الحلم الأمريكي أمام المحكمة العليا عام ١٩٥٤ زوّد حركة النضال بأجنحة تطير بها، حفزت بدورها الكونغرس وحركته. وأخيراً إن الواقعية الغبية التي قامت عليها العبودية، وبعدها التمييز العنصري، تخلت مكرهة عن المكان الأول للمثل الأعلى الديمقراطي في العدالة والمساواة والسماحة. إن أمريكا في طريق العودة إلى ذاتها.

الجزر الأكبر

هذه الإنطلاقة بدأت تلهث في مجرى عام ١٩٦٥ واستولى بعض الاعياء على المناضلين، وتعرض الكثير من اللاعنفيين إلى عنف قوى الأمن المحلية وعنفت التكتلات المتطرفة التي استعملت ضدهم المهرات والمطارق والقنابل مسيلة الدموع والغازات التي تسبب الشلل والتيارات الكهربائية وكلاب البوليس والاعتقالات والنسف بالديناميت. حتى أن بعض الفئات السود راحت تتسلح

(٢٠) لا حاجة للاسهاب في هذه الحوادث الحديثة العهد التي وُضعت فيها مؤلفات كثيرة وممتازة. ويمكن الرجوع خاصة إلى: كتاب شارل كادوكس وعنوانه المحكمة العليا وقضية السود في الولايات المتحدة. باريس ١٩٥٧. كتاب كلير ماسناتا روياتل وعنوانه أمريكا البيضاء وحقوق السود وقانون ١٩٦٤ الناشر دروز ١٩٦٩. وكتاب السود الأمريكيون عام ١٩٦٤ وكتاب ويليام بزنك ولويس هاريس وعنوانه الثورة السوداء في الولايات المتحدة الأمريكية الناشر دونويل. وكتاب جيمس بلدون ومالكون ايكس ومارتن لوثر كينغ عنوانه، «نحن الزنوج» الناشر ماسبيرو ١٩٦٥. وكتاب مارتن لوثر كينغ عنوانه قوة الحب، الناشر كاسترمان ١٩٦٤، وله أيضاً معارك من أجل الحرية، الناشر بايو ١٩٦٨، والثورة الوحيدة، الناشر كاسترمان ١٩٦٨. وغير ذلك من المؤلفات الممتازة.

للدفاع عن نفسها. وهكذا تخللت حركة مقاومة العنصرية مصارع عدد كبير من المناضلين ومن قادتهم في الجنوب. ثم كان اغتيال مالكولم إيكس ومارتن لوثر وظهر الفهود السود.

وحلّ الاعياء بالجمهور أيضاً، إذ بعد قرون من المظالم، لم يسر النضال من أجل أن يسترد الحلم الأمريكي حقوقه، بلا فوضى وبلا اضطرابات إجتماعية، استغلها أبطال القانون والنظام ببراعة، فتدخل هؤلاء الديماغوجيين « الغوغائيين ». الذي كان مستتراً في أول أمره ثم ازداد صفاقة شيئاً فشيئاً، لقي أرضاً خصبة وقام أصحابه يدعون إلى محبة النظام، فبالهدوء ينبغي أن تُزال المظالم، وعلى أن يكون ذلك شيئاً فشيئاً، ورويداً رويداً، شأنه شأن الرق الذي ينبغي أن يُلغى تدريجياً. وما كادت تمضي على هذه الحمى الأهلية سنوات محدودة حتى حفزت هذه السنوات بعض الأوساط على الظن أن السود يستعجلون أمورهم، فراحوا يدعونهم إلى الصبر، ثم أن الكفاح ضد الفوارق العنصرية حث المواطنين على الخروج من جمودهم وعلى الوقوف إلى جانب أصحاب الحق وإلى الشعور بتضامهم. بينما كان قرنان من الزمن قد نمتاً الفردية في التنافس الاقتصادي، وكان من شأن ذلك أن يهز العادات الإجتماعية الراسخة.

لكن هل ثمة رأي عام لا يتغير؟ ابتداء من العام ١٩٦٥، راح الرأي العام الأمريكي يهتم بموضوع آخر، فهذا العام كان عام القصص الجماعي والمكثف على فيتنام الشمالية، بينما كان الجنود الأمريكيون قد بدؤوا الرحيل بمئات الآلاف إلى فيتنام الجنوبية. فقد استرعت الحملة على هذه الحرب الاهتمام وشلته إليها، حتى أن الحملة من أجل الحقوق المدنية قد رُدت إلى المكان الثاني، غير أن المعركتين مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً، ففي داخل حدود الوطن وعلى الصعيد العالمي كان يُطرح مفهوم النظام ذاته: (كلاب البوليس في « سلمى Salma » قنابل ب ٥٢ على هايفونغ، مجزرة في ماي-لي) ولم يدرك الصلة بين المعركتين إلا بعض القادة.

شعر السواد الأعظم من الشعب أنه ينسحق تحت وطأة الرسالة الثنائية التي تدعوه، في بلاده وفي الخارج، إلى أن يُحلّ العدالة محل النظام وأن يقيم النظام، لا على القوة بل على العدالة. ففي العام ١٩٦٤، دخل باري غولد ووتر المرشح الجمهوري للرئاسة، المعركة الانتخابية على أساس تصعيد الحرب الفيتنامية واتباع سياسة قمع لصالح القانون والنظام، تغلب عليه لندن جونسون إلا أنه حصل على تأييد ٢٧ مليوناً من الناخبين أي ٣٨.٥ ٪ من مجموع الأصوات، وهو عدد لا سبيل إلى الاستهانة به، ولا سيما أن جونسون الذي اتبع سياسة غولد ووتر في الفيتنام، سار على سياسة كندي في الصعيد العنصري وحير نقاده.

وإذا كان علينا أن نحدد تاريخاً، فعام ١٩٦٨ هو الذي حدد انعكاس المد . وثمة حدثان كبيران يسمان بداية الجزر هما اغتيال القس لوثر كينغ الذي أثار انفعالاً عميقاً . إلا أنه حرم الحركة من زعيمها الأكبر ، والحدث الثاني انتخاب رتشارد نكسون للرئاسة . وكانت نهاية الأعمال الجماعية الكبرى ، ونهاية جهود السلطتين التشريعية والتنفيذية العاملة لصالح العدالة العنصرية .

ففي دوائر وزير العدل ووزارته ، حل أنصار النظام محل الموظفين المكلفين العمل على التقيد بأحكام القوانين الصادرة في الحقوق المدنية بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٨ . وبرغم استياء الكونغرس ، عين رتشارد نكسون في المحكمة العليا قضاة يرجحون كفة الأغلبية وميلها إلى مواقف محافظة . وفي مجلس النواب ، عمد المدعو جيرالد فورد ، وكان لا يزال مغموراً ، إلى الاتفاق مع الجنوبيين كي يُسمّى زعيم الأقلية الجمهورية ، واعدأ إياهم بدعمه . وكان تدخله حاسماً في الموافقة على تعديل (ويتن Whitten) ، الذي يمنع الحكومة الفدرالية من استخدام سلاح الإعانات المالية من أجل فرض الاندماج المدرسي .

فكيف نُذهش لإقدام جيرالد فورد ذاته ، عندما خلف رتشارد نكسون بعد فضيحة وترغيت ، على التصريح بمخالفته قانون البلاد الخاص بالدمج^(٢١) . ففي أول تموز ١٩٧٥ ، عندما تكلم أمام مؤتمر N.A.A.C.P وجه إلى القادة السود كلاماً عجيباً . فهو لم يحرك ساكناً من أجل المساواة العنصرية ، بل قلب سياسة كندي وجونسون ، في هذا المجال ، رأساً على عقب ، ثم يقر بأن الركود الاقتصادي « أشد مشقة على السود والأقليات الأخرى » . وهذا في نظره ، « واقع سيئ » ، غير أنه دعا سامعيه السود إلى تأييد برنامجه الاقتصادي والمالي . فلماذا ؟ « لأن اقتصاداً غير مستقر لا يُتيح تكافؤ الفرص » كما يقول . والسود ، سواء في عهود الإزدهار أو الركود ، هم ضحايا الاقتصاد والرئيس يود اقناعهم بتقديم دعمهم لسياسة لا ينالون منها سوى الفتات . هذا هو مصيرهم بعينه وتقول « National Urban League » أن نسبة العاطلين من السود ليست ١٤٫٢ ٪ كما تقول وزارة العمل ، بل ٢٦ ٪ وتضيف النشرة المذكورة أن ٢١ ٪ من الأسر السود دخلها متوسط ، بينما ٤٧ ٪ من الأسر البيض من هذه الفئة ، وهي مع ذلك نسبة رديئة .

لم تُبال حكومة فورد بقضايا السود ، كما أكد مؤتمر N.A.A.C.P ، وأن روكفلر نائب الرئيس ، لا يُبدي أن قضايا السود هذه تهمه أو تعنيه ، برغم ما يبذل من جهوده ليعطي ذاته صورة ليبرالية .

(٢١) أول هذا الفصل (الثالث) .

فقد قام في آب ١٩٧٥ ، برحلة إلى الجنوب تودد خلالها إلى جورج ولاس حاكم ولاية الباما ، وإلى
جيمس ادواردس ، حاكم ولاية كارولينا الجنوبية ، وإلى عضو مجلس الشيوخ ستروم ثورمند ، من كارولينا
الجنوبية أيضاً . وأعلن أنه ، مثلهم ، جد متمسك بمبدأ « حق الولايات » ، خلافاً لتدخلات الحكومة
الفدرالية (الاتحادية) ، التي تعرقل وتعيق عنصرية الولايات الجنوبية ، عندما تكون هذه الحكومة تحت
سيطرة الليبراليين . ثم انتقد برامج المعونة الاجتماعية التي تمولها الضريبة لصالح الأكثرين فقراً ذوي
الأغلبية السوداء .

إنها أقوال ، أملتها مرة أخرى ، واقعية جامدة : إذ أن جيرالد فورد ونلسون روكفلر يعلمان
مهما كانا محافظين ، أن ثمة رجالاً يهددونهم على يمينهم كرونالد ريغان وأمثاله ، وهما لا يريدان التخلي
لهم عن احتكار بعض الموضوعات الانتخابية الكثيرة الشعبية ، وفي الجنوب خاصة . فالذرائع
تقتضيها ، من هذه الوجهة ، التزام أكثر الحذر ، حتى لو كان هذا على حساب حقوق السود . وهو
خيار لا يترددان فيه . فالاستيلاء على السلطة جدير بتضحيات كهذه ...

هل تكفي أربعة عشر عاماً (من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٨) لمحاولة رأب الصدوع والأضرار
المتراكمة خلال قرون من العبودية ، ثم خلال قرن من التمييز العنصري الشرعي ؟ .. إنها مدة جد
ضئيلة ومهما كان كبيراً الجهد المبذول في عشر سنوات ، فهو يبدو تافهاً في محاولة تغيير مجرى
التاريخ أو عكسه ... فالتاريخ تتبعه مسيرته المعتادة .. وفي آب عام ١٩٦٥ أدى توقيف فتى
أبيض ، يسوق في حالة السكر ، إلى إغراق حي واتس في لوس انجلوس ، بالنار والدم وكانت
الحصيلة ٣٤ ميتاً . وعامان من قبل ، كان دور حي هارلم . ثم عامان من بعد ، كان دور نيوارك
وديترويت .. وماذا بعد سنوات عشر ؟ ..

في العام ١٩٧٥ ألفى ٥٠ ٪ من سكان حي واتس السود أنفسهم بلا عمل وذاب نصف
أرصدة البرامج المختلفة المخصصة لمكافحة الفقر . وما أن أعلن مستشفى عن حاجته إلى أربعين
مستخدماً حتى انهار عليه ستة آلاف طلب . ازدادت قذارة الأكواخ وتهدمها ، والأوساخ متروكة في
الشوارع . ويقول قائد أسود من حي الواتس : « الهلع أكبر ، والجرائم أكثر ، ومزيد من العنف » ، ...
وليس من يهتم للمشاكل الحقيقية : العطالة^(٢٢) . ويقول غاري ماركس وهو عالم إجتماع « إن
الإضطرابات والفتن تغدو أقل احتمالاً عندما تكون الأوضاع سيئة حقاً ، فالتحسينات هي التي تحفز

(٢٢) نيوزويك ٢٥ آب ١٩٧٥ .

الشهوة إلى العنف .. إذاً ليس ثمة ما يُخشى، ولا سيما أن وضع مخازن الأسلحة المضادة للإضطرابات والتي أقامتها الشرطة، قد تحسن كثيراً منذ عشر سنوات» .

زعيم أسود يؤيد وجهة نظر عالم الاجتماع قائلاً إن تمرداً ما، هو عمل منوط بأمل يلوح، «ومن البدهة التامة، اليوم، أن لا أمل يلوح في أفق السود» .

حلم المساواة بين الناس جميعاً أدى إلى هذا اليأس الكالخ .. لكن العالم والزعيم الأسود المذكورين على ضلالٍ كلاهما، ففي نهاية القرن الأول من تاريخ الجمهورية (الولايات المتحدة)، لم يكن يحفز تمردات العبيد وعصيانهم التي قادها دنمارك فيسي أونات تورنر، أي أمل. إما إذا كان حقاً أن إضطرابات الستينيات وفتنها قد اندلعت في أفق من الأمل المتفتح، فاليأس، في أيامنا، يراكم قدرة تفجيرية ستحدث، بشكل غير متوقع، دماراً وأضراراً أعم وأشمل .

وكما جرى في زمن العبودية، يهدد المجتمع اليوم نفسه بالأوهام مستهيناً بمخطر شأن قضية يرفض أن يراها قضية أولوية .

الفصل الرابع

القومية الاقتصادية ضد الإنطلاقة الديمقراطية

«يؤسفني اختيار النسر الأصلع رمزاً لبلادنا. إنه طير لا يُخلق له، أشبه بالناس الذين يعيشون من النشل والسرقة. والديك الرومي طير أسمى وأوفر، وفي آن واحد، من صلب أمريكا». -
بنجامين فرانكلين
من رسالة في ٢٦ كانون الثاني ١٧٨٤

« نحن، بكل تأكيد، لا نستطيع أن نأبى على شعوب أخرى المبدأ الذي تقوم عليه حكومتنا، وهو أن لكل شعب الحق في أن يحكم نفسه بنفسه مختاراً أشكال الحكم التي تناسبه، وأن يغيّر هذه الأشكال حسب إرادته. » هذه العبارة لجيفرسون توجز جوهر الحلم الأمريكي بكل صفاته، في انطباقه على العلاقات الدولية.

والأمريكيون استطاعوا بحرب الاستقلال أن ينتزعوا من إنكلترا الحق في أن يحكموا أنفسهم كما يشاؤون. غير أن هذا الامتياز ليس وقفاً عليهم، فهم يقرون شرعيته وسريان مفعوله على سكان الأرض قاطبة، فكلهم، لا الأمريكيون وحدهم، يملكون هذه « الحقوق المقدسة، الحياة والحرية والسعي وراء السعادة ».

إن إعلان الاستقلال الذي كُتب بأسلوب وتعابير لها مدى عالمي، يُعلن للبشرية بأسرها « إن على الشعوب، كي تصون هذه الحقوق، أن تُقيم حكومات تنبثق سلطتها العادلة من قبول المحكومين وموافقتهم »، وفي النص ذاته، « عندما ينم التعسف والتعدي المتجهين بثبات إلى الهدف ذاته، على نية إخضاع الناس لاستبداد مطلق، فمن حق هؤلاء، بل من واجبهم قلب الحكم المسؤول عن ذلك. ».

هذه الكلمات، بأبهرتها، لا تحدد ميلاد الديمقراطية الأمريكية فحسب، في الأشكال الخاصة بها، بل الديمقراطية العالمية أيضاً، في الأشكال التي تختارها الشعوب.

هذه الفكرة تملك من القدرة الجذابة ما حمل جورج واشنطن، قبل أن يُجَلَّ علها مفاهيم

أخرى، على الإحساس بالتزامه بها. فهو يقول: «لا يحق لأي أمة أن تتدخل في الشؤون الداخلية لأي أمة أخرى،.. ولكل أمة الحق بأن تُنشئ وتقيم شكل الحكم، أي شكل، تُؤثر العيش فيه».

انقضى قرنان، والمفهوم ذاته،— حرية تقرير المصير، وعدم التدخل في شؤون الآخرين—حق تُمليه قناعة راسخة العمق في وجدان الشعوب، لا يزال سائداً. وبعد الانقلاب الذي أطاح، في أواخر أيلول ١٩٧٣، بنظام حكم الوحدة الشعبية في التشيلي، صرح شلود مان معاون وزير خارجية الولايات المتحدة، قائلاً: «لقد التزمت حكومة الولايات المتحدة بسياسة عدم التدخل في أثناء حكم اللندي». فياله من مبدأ مقدس، سرعان ما كرسه معاون آخر من معاوني وزير الخارجية، هو تشارلز ماير الذي قال: «نحن لم نشتر صوت منتخب واحد، ولم نمول أي مرشح، ولم نكن وراء أي انقلاب». وأخيراً يأتي تصريح هنري كيسنجر ذاته، باتاً وقاطعاً: «إن وكالة المخابرات المركزية لا علاقة لها بالانقلاب».

علم الكونغرس، بعد انقضاء عام على ذلك، أن البيت الأبيض قد خوّّل وكالة الاستعلامات المركزية (مخابرات الجاسوسية الأمريكية) صرف ثمانية ملايين دولار^(١) بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٣ لنسف قواعد حكم اللندي. وقد راجعت عملية التدخل مراجعة نهائية «اللجنة ٤٠» التي يرأسها كيسنجر ذاته، وفي أوائل الأمر، وزعت وكالة التجسس المذكورة مليوناً من الدولارات على أعداء سلفادور اللندي لزيادة الفرص المتاحة أمام هؤلاء للتغلب على المرشح الاشتراكي في انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٠. ولما أخفقت المحاولة، عمدت «اللجنة ٤٠» إلى إقناع المجلس النيابي التشيلي، في أثناء انعقاده لانتخاب رئيس الجمهورية بالتصويت ضد اللندي. ولم تُجد المحاولة أيضاً. وبعد هذا الإخفاق الثاني، الذي مُنيت به الوكالة (C.I.A.) وُضع تحت تصرفها مبلغ ٥ ملايين دولار إضافية، مخصصة «لزعزعة» الوحدة الشعبية التشيلية. وفي آب ١٩٧٣ أضافت «اللجنة ٤٠» إلى القائمة مليوناً آخر، ثم أضيفت مبالغ غيرها للعبة بذاتها^(٢)، إلا أن المبالغ الأولى قد حظيت بموافقة الرئيس الأمريكي ووزير خارجيته، المباشرة.

لم يكن ثمة مجال للإنكار، بعد الكشف عن هذه المعلومات الدقيقة، وعندئذ اعترف جيرالد فورد جهاراً، في أيلول ١٩٧٤، أن الجاسوسية الأمريكية (وكالة الاستعلامات المركزية (C.I.A.))،

(١) حُولت هذه الملايين في السوق السوداء إلى «اسكادوس» عملة الشيلي، فغدت تعادل ٤٠ مليون دولار.
(٢) راجع (على سبيل المثال) انترناسيونال هيرالد تريبون، ١٧ تشرين الأول ١٩٧٤، وقد ذُكرت أسماء عدة شركات متورطة في العملية.

قد أسهمت في الإطاحة بحكم اللندي، وأضاف قائلاً: «إن ذلك» كان لمصلحة شعب التشيلي»، وراغ من كل الأسئلة المطروحة، عن خُلقية مسالك وعمليات كهذه بقوله: «إن الدول الشيوعية تبذل في سبيل هذه العمليات ذاتها من الأموال أكثر بكثير مما نصرف نحن».

دُهل البروفيسور رتشارد. ن. غاردنر، وهو من أفضل المختصين في الحقوق الدولية، ولم يصدق ذاته. وقد قال «على قدر ما أذكر، إنها أول مرة يقول فيها رئيس جمهورية بصراحة: إن المعسكر الآخر يقوم بذلك، ونحن أيضاً». أما فيما يخص اختيار الوسائل..، فهل زال الحد أو الفارق بين الديمقراطية وأنظمة الحكم التي تحارب الديمقراطية؟

في الواقع لم تكن وكالة الاستعلامات المركزية ووزارة الخارجية تؤيدان المناورات الخفية، التي جرت، وكانت بمبادرة هنري كيسنجر^(٣)، لاعتناعهما بأن نظام اللندي سينهار من ذاته. أما هنري كيسنجر، فقد كان قد أبرز خلال أحاديث موجزة كُتبت عن الصحافة منذ ١٩٧٠، الأهمية التي يوليها لسقوط حكم الوحدة الشعبية في التشيلي، ولا سيما بإقناع فرنسا وإيطاليا بالسير على المنوال ذاته. وقد صرح في حزيران ١٩٧٠ أمام «لجنة الأربعين» بقوله: «لا أدري لماذا ينبغي لنا أن نبقى في جمودنا نتأمل بلداً يغلو شيوعياً بسبب لا مسؤولية شعبية».

لقد دُرِس هذا العمل منذ أمد طويل، وكما حدث في الانقلابات التي أُعدت على مصدق في إيران ١٩٥٣، وآرئنز في غواتيمالا في ١٩٥٤، وعلى شدي جاغان في غويانا عام ١٩٦٣ وغيرهما.. لم تكن وكالة الاستعلامات سوى المنفذ الأمين لتعليمات دقيقة صدرت عن أعلى المستويات^(٤). ومن الحق أن نجعل من هذه الوكالة كبش الفداء، بينما يقبع المسؤولون الحقيقيون في البيت الأبيض وفي وزارة الخارجية.

لم يبعث الاعتراف بالتدخل في التشيلي الإضطراب في صفوف أعضاء الكونغرس وحدهم، وهم المؤمنون على سيادة الشعب، بل أثار هذه الإقرار القلق في بلدان أخرى تساءلت عما إذا كانت واشنطن لا تتآمر عليها أيضاً.

إلى هذه النقطة لفتت برقية أرسلها دانييل باتريك مونيهان، سفير الولايات المتحدة في الهند،

(٣) نيوزويك، ٢٣ أيلول ١٩٧٤.

(٤) للمؤلف: الإمبراطورية الأمريكية ص: ٤٠١-٤٤٦ وقصة توسع الولايات المتحدة في الفصول: ٢ و ٣ و ٤ و ٥ من هذا الكتاب.

نظر هنري كيسنجر، حين كتب يقول: «إن السيدة أنديرا غاندي تساورها أسوأ الشكوك»، في النوايا الأمريكية، وأضاف «إنها، بسبب المعاهدة المعقودة بينها وبين الاتحاد السوفيتي، قبل نشوب حرب بنغلاديش، ليست واثقة بأننا لن نُسر برؤية أنظمة حكم أخرى—كحكمها مثلاً—تنقلب.».

وصل هنري كيسنجر في ٣٠ تشرين الأول، أي بعد مرور أسابيع على إرسال برقية السفير المذكور، إلى نيودلهي، في زيارة رسمية، وإذا لم يكن بصدد تفسير بريء لتصريح جيفرسون المبدئي، فقد بادر وزير الخارجية في أول الأمر إلى القول:

«إنني أرفض التلميح إلى أن الولايات المتحدة، قد سعت، على أساس نهجي، إلى الإطاحة بحكومة ما، وفي الأنحص، الحكومات الدستورية، والصحيح أن العكس هو الحقيقي.».

فهل ينبغي الاستنتاج أن حكم اللندي لم يكن «دستورياً»؟ فقبل حدوث الانقلاب بأسابيع صوّت مجلس نواب التشيلي، بناء على اقتراح الديمقراطيين المسيحيين، على قرار يتهم الحكومة بالخروج عن الشرعية. ولكن كيسنجر كان قد اتخذ أول التدابير التي آلت إلى الانقلاب، منذ ثلاث سنوات، وإذا لم يكن يجهل، وهو أقرب معاون إلى الرئيس، المناورات اللادستورية التي تورط فيها نكسون والتي أودت به إلى السقوط، فقد كان يُبيح لنفسه الحكم على دستورية حكومة أخرى...

وفي نيودلهي، حاصرت كيسنجر وأطبقت عليه أسئلة صحفيين عاقدي العزم على عدم إفلات الفريسة، فراح يتخبط في أكاذيبه. وينبغي أن نذكر هنا أقواله بنصها الحرفي:

«إن الولايات المتحدة لم تُثبت انقلاباً على حكومة دستورية في التشيلي، وقد أوضح الرئيس ذلك وضوحاً كافياً. وثانياً، لم تُسهم الولايات المتحدة أي اسهام في انقلاب قبرصي، (على مكاربوس)، وقول العكس لا يعني سوى ترديد دعاوة لا أساس لها البتة. ثالثاً، لم تُقدم الولايات المتحدة، لا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، على أي محاولة للتأثير في الموقف الداخلي في الهند. ولم تسمح أو تتدخل ببرنامج كهذا، بل أوضحت ملحة على أن تدابير شديدة ستُتخذ بحق كل موظف يثبت تدخله في عمل لم يُخَوَّل القيام به.»^(٥).

(٥) انترناسيونال هيرالد تريبون، أول تشرين الثاني ١٩٧٤

ومن الذي يَحْوَلُه ؟ .. بعض أعضاء السلطة التنفيذية ، الموجودين خفية في « اللجنة ٤٠ » في منأى عن كل رقابة من السلطة التشريعية . ولقد حاول الكونغرس تحطيم السر الذي له خطره في بلد ديمقراطي ، والمحيط ببعض العمليات ، كما فعل بعد إخفاق عملية خليج الخنازير ، إنما بحزم أشد في هذه المرة . وفي مجلس الشيوخ والنواب ، حققت لجان في نشاط وكالة الاستعلامات الخفي . وقد صرح عضو مجلس الشيوخ (السناطور) فرانك تشرش بقوله : ينبغي السيطرة على الوحش . كما طالب زميله مايك مانشفلد بتعيين « لجنة رقابة » . أما توماس مورغان ، رئيس لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب فيريد إقرار « الاشراف على الوكالة » ، قائلاً إنه قادر على ذلك ، ويعبر السناطور والتر موندل عن شعور يسود الكثيرين بالرجوع إلى ما قام به الكونغرس ضد رتشارد نكسون ، بعد فضيحة ووتر غيت قائلاً : « قضينا عامين في تنظيف بيتنا الخاص ، وقد آن لنا أن نبدأ تطبيق المعايير ذاتها على فاعلياتنا ونشاطنا في الخارج » . وهذه العبارة تلتقي فكرة جيفرسون القائلة : إن المبادئ ذاتها المشروعة في الولايات المتحدة مشروعة في سائر البلدان . فالحلم لم يمت إذاً . ؟ .

المعسكران

إن أعضاء الكونغرس الذين قضوا أشهراً بعد ذلك ، وهم يحدثون سبلاً حقيقياً من الأسرار ، المكشوفة ، المزعجة ، ليسوا بالأغرار العُقل . إنهم يعلمون أن C.I.A لا وجود مستقل لها ، وإنما برغم قدرتها ، تبقى منفذاً فحسب ، وأن البيت الأبيض هو وحده المسؤول . إنهم يعلمون أن الحلم الأمريكي (الديمقراطية) يقتضي توازناً بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ، والمؤامرات التي تُسجّت خيوطها ، خفية عن الكونغرس في إيران وغواتيمالا وغينيا والتشيلي . وغيرها ، لا تمس سيادة هذه البلدان فحسب ، بل المبدأ الديمقراطي ذاته داخل المجتمع الأمريكي . وقد بلغ الكونغرس أن الوكالة (سي - آي - إي) ، راقبت مواطنين أمريكيين وأخافتهم ، لا أجنب فحسب ، وأنها فكرت متواطئة مع « المافيا » ، لا باغتيال فيدل كاسترو فحسب ، بل مواطنين أمريكيين أيضاً .

جرى كل ذلك استناداً إلى صلاحيات اتخذتها السلطة التنفيذية ، في منأى عن كل رقابة ديمقراطية ، وبطرق غير شرعية . وهذا المفهوم ذاته للسلطة والنظام هو الموحى بالمؤامرات الخارجية وبعملية ووتر غيت . واكتشف الكونغرس ، بعد استمرار جهله تلك الأمور مدة طويلة ، أن البيت الأبيض قد انتهك مبدأ عدم التدخل ، لا في العلاقات بين دولة ودولة فحسب ، بل في الصعيد العائد إلى السلطة التشريعية وفي ميدان اختصاصها . والكونغرس يعلم أيضاً أن وزير الخارجية قد

كذب على صحفيي الهند، كما كذب على ممثلي الشعب الأمريكي ونوابه، وإن السلطة التنفيذية قد انتهكت سيادة بلدان أجنبية، كما انتهكت سيادة السلطة التشريعية في المجال الذي يخولها إياه الدستور.

وجهت السي-آي-إي، الضربة القاضية إلى الديمقراطية في مناطق نائية، كما لغمت طريقة عمل الديمقراطية، في داخل المجتمع الأمريكي، ولم تقدم على ذلك من تلقاء نفسها، بل بأمر السلطة التنفيذية أو بموافقتها. ومراقبتها، في نظر الكونغرس، ليست مراقبة مصلحة إدارية فقط: بل إكراه البيت الأبيض ووزير الخارجية على احترام الشرعية الديمقراطية داخل الولايات المتحدة. وبعث الحلم الأمريكي. وهي أيضاً العمل، بطريقة تكون فيها «السلطة الصحيحة» لحكومة الولايات المتحدة منبثقة حقاً من «قبول المحكومين»، وهو قبول يفترض أن يكون المحكومون ونوابهم المنتخبون مطلعين اطلاعاً حقيقياً، وإلا آلت الديمقراطية إلى مذهب لا تأثير له في الواقع. إن ثورة الكونغرس تقتضي نمطاً جديداً من العلاقات الخارجية، ولا سيما عودة إلى منابع الديمقراطية الأمريكية في الداخل.

أن الاعتراف الرسمي بتدخل حكومة الولايات المتحدة في التشيلي غير كاف لتفسير رد فعل الكونغرس الحاد والحيوي. لقد علم الكونغرس منذها أن سيادة الشعب التي أوتمن عليها، قد رُجّت، خفية عنه، بمغامرات أخرى. لقد بلغه، مثلاً أن واشنطن كلفت السي.آي.إي، الإطاحة بحكومة الرئيس جوزي فالسكو اييارا، في الاكوادور، التي رفضت قطع علاقاتها الدبلوماسية بكوبا. وكان كندي آنذاك، المقيم في البيت الأبيض، ثم أثار قلق «التلاميذ السحرة» أي عناصر C.I.A، تشبث كارلوس يوليوي، الرئيس الاكوادوري الجديد، باستمرار علاقاته بهافانا، فينبغي الإطاحة به إذا بدوره. وهنا انطلقت إلى الحركة «آلة جهنمية» جديدة، وأدرك الرئيس المذكور الخطر، وقد تسلطت عليه ضغوط خارجية شديدة، فاستدعى سفيره من كوبا، وإنما بعد فوات الأوان، فقد تابعت المؤامرة سيرها، وقلب كارلوس يوليوي أروزمينا في العام ١٩٦٣.

كثيرة هي الحالات التي وضعت فيها المخططات في واشنطن، ثم أهملت، إلا أنها بلغت نهاية مطافها وغايتها. ففي عهد الرئيس ادواردو فري، وضعت الوكالة، تصميم مشروع اختطاف الجنرال شنيدر في سانتياغو إلا أنها لأسباب لم تُعرف، وربما لأنها قد عرفت أن ثمة أناساً غيرها سيقومون بهذا، عدلت عن المشروع،.. فياله من تنازل أنيق، فقد جرت محاولة الاختطاف، ولما قاوم الجنرال شنيدر مخطفيه، قتلوه بريادة جأش. كذلك في الكونغو، تخلت السي آي إي (الوكالة ذاتها) عن

مشروع اغتيال باتريس لوموبا، أو هكذا قيل، في الأقل، على الصعيد الرسمي. ومادام الاغتيال قد تحقق، فهذا يعني أن قتلة لوموبا قد حصلوا على موافقة واشنطن.

إن الكونغرس لا يستطيع أن يغسل يديه من المؤامرات التي حاكتها ونفذتها السلطة التنفيذية، في بلدان شتى.. وهو لا يستطيع سبيلاً إلى ذلك لأسباب تُلخّية، ولأسباب تعود إلى فلسفة هذه السلطة، السياسية، وأخيراً لأسباب منوطة بدورها في خدمة مصالح المواطنين.. أسباب أخلاقية، لأن «الديمقراطية، كما يلحظ تشارلز فرانكل، وهي تحاول التقريب بين الحاكمين والمحكومين» قد فرضت حدوداً للتباعد الذي قد يحدثه الحاكمون وقيمونه بين سلوكهم وبين مبادئ الاحتشام المقبولة عامة.^(٦) فالموضوع ليس موضوع أخلاق مجردة، منبثقة من معتقدات دينية، بل خلقية وظيفية حُفرت في آلية سير الأجهزة السياسية وعملها، معروضة على قرار المواطنين الانتخابي. والكونغرس مدفوع أيضاً إلى العمل، لأسباب تعود إلى فلسفة سياسية، وإلا رأى جموده يُعاقب بتوسع جديد تحقّقه السلطة السياسية على حساب صلاحيات السلطة التشريعية وحقوقها. ثم أن المصلحة تحت الكونغرس على إقامة التوازن في سير مختلف أعمال جهاز الدولة: فكلما كان مجلس النواب ومجلس الشيوخ ينخدعان: (حادث خليج التونكين، الحرب السرية في لاوس، وقصف كمبوديا غير المشروع... وغير ذلك) كانت المبادرة الحكومية، البعيدة عن حل المشكلة، تزيد خطورة، وهذا ما انعكس بارتفاع التكاليف في أرقام الميزانية، وعلى الصعد العسكرية والبشرية والسياسية والدبلوماسية وغيرها.. والتي يُحاسب عليها الكونغرس ويُعد مسؤولاً عنها أمام الشعب.

إن ثورة الكونغرس على العمليات السرية في الخارج، لا يمكن أن تؤوّل، شأنها في ذلك شأن العمل المنسق الذي أدى إلى طرد نكسون من البيت الأبيض، بعد وترغيت،.. لا يمكن أن تؤوّل بتنازع مطامع فحسب. ففي الحالتين، يبدو الرهان الحقيقي، وراء ما كُشف عنه من أعمال دنيئة وتكذيب، ومحاولات التهرب والتنصل والتلفيق، ثم في نهاية المطاف، الاعترافات المتأخرة، هذا الرهان الحقيقي المقنع في أحيان كثيرة بطوارئ وتبدلات مذهلة. فلا يكفي الحديث عن خصومات

(٦) تشارلز فرانكل، في كتابه الأخلاق في الولايات المتحدة (١٩٧٥) ص: ٥٧ وهو أستاذ في جامعة كولومبيا، وقد كان معاوناً لوزير الخارجية (١٩٦٥-١٩٦٧) وقد رأس الوفود الأمريكية في مؤتمرات دولية متعددة.

حزبية وصراع على السلطة، غالباً ما تزيد حدة وتثيرها الرؤى والأبعاد الانتخابية. وعبر هذه المحابيات التي تتخللها إجراءات قانونية، تقوم معركة ستكون نتيجتها حاسمة في مصير الديمقراطية في الولايات المتحدة. وأيُّ إرجاع إلى التراث الطهري يحجب إتجاه هذه المعركة الحقيقي: فهذا الإرجاع يجعل منها معركة أو كفاحاً بين المثاليين والواقعيين، بين الشر والخير، بين أبناء النور وأبناء الظلمات أي كاريكاتوراً مانوياً يجعلها لا تُصدق، وغير ممكنة في الواقع.

الواقع هو دون ذلك بساطة. فالأفضل والأسوأ (أو خير الأمور وشرها)، إذ يختلطان في كل جهة من جهتي الحاجز، لا يفصل هذا بينهما فصلاً ينياً. والمعسكران، بتفرعاتهما المتعددة، يتمنيان الحياة والنشاط للديمقراطية الأمريكية، والسلام في العالم والحرية والعدل. وتحفز كل منهما مطامحه وأرجحيته، وشجاعته وصغارته. وهم جميعاً، في العمل السياسي، أقدم من أن يفتقروا إلى الواقعية، بل هم جميعاً أيضاً يتطاحنون من أجل مثل أعلى.

«إن إزدهار أمريكا في السنوات المقبلة منوط بتقاسم إزدهار عالمي تقاسماً أصبح وأعدل». هذه العبارة لرتشارد نكسون^(٧)، ليست من الأدب الخض، إنها تحاكي اعتقاداً صادقاً يشاركه فيه ألد أعدائه. «لقد بلغنا هذا الزمن الذي تحدد لنا فيه المقتضيات الخلقية والعملية والمبادئ القائمة على الذرائعية، جميعها، الأهداف ذاتها». وهذه العبارة لهنري كيسنجر^(٨)، ليس وراءها الرغبة في إرضاء سامعيه.. بل تعبر عن يقين يشاركه فيها أولئك الذين يطالبون باستقالته من وزارة الخارجية.

الطرفان، في الواقع، ينهلان من قيم واحدة، وإن كانا لا يعرفانها تعريفاً واحداً، لذلك تبدو المعركة، الدائرة بينهما منذ قرنين، في كثير من الجاهل. وعلى ذلك، تحمل ثورة الكونغرس في ذاتها، وفي أيامنا هذه أفضل الفرص المتاحة لبعث الحياة في الحلم الأمريكي، الذي تهدده تهديداً خطراً ومزدوجاً، أساليب السلطة التنفيذية المتبعة في داخل الولايات المتحدة وخارجها. وهي لم يبتدعها رتشارد نكسون وهنري كيسنجر ومعاونوهم، بل هي شقت طريقها واتضححت خلال قرنين من التاريخ، لكنها تستند اليوم إلى وسائل هائلة، إذا تمنحها قدرة الولايات المتحدة دوماً لا سبيل إلى

(٧) من رسالته الأخيرة عن وضع الاتحاد، في ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٤.

(٨) من خطاب مونترال، ١١ آب ١٩٧٥، في جمعية المحامين الأمريكيين.

إضافاته عليها في عهد جيفرسون . وقد حوربت هذه الأساليب خلال قرنين أيضاً ، عندما لم يكن يبلغ العالم منها سوى أصداء مخنوقة .

الحلم الأمريكي ، في العام ١٧٧٦ إلى أيامنا ، ما حمل قط أثراً طويلاً ، وما بلغ من الأهمية الساذجة حد الجهل بشؤون المصلحة والخصومات الداخلية . ولم يكن مرئياً عندما كان يُعلن حق الشعوب باختيار شكل حكومتها ، في منأى عن كل تدخل . وما كانت لتعترضه أكثر ، قحة الذين قد ينكرون هذه المبادئ ذاتها . وما كان فيه شيء من التجريد ، وإلا لما طرح على بساط البحث ، ولما كان للولايات المتحدة وجود . إنه محفور في سياق تاريخي واضح ومحدد ، وفي وجه إنكلترا التي كانت تأبى عليه حق التفتح ، وفي خضم المنازعات الأوربية واسبانيا التي كانت تحتل الفلوريدا ، ومع فرنسا أيضاً التي عجلت في توجيه جيش وأسطول عبر الأطلسي ، بينما كانت تسهر على اللوزيانا ، فهذه الدول الثلاث كانت تتنازع ، على ذلك ومعه ، حقوق الملاحة والتجارة في جزر الآنتيل ، المنطقة التي للجمهورية الفتية آنذاك مصلحة حيوية فيها .

والحلم الأمريكي ، كيما يستطيع سبيلاً إلى أن يكون عملاً وفعلاً ، ويمنح الوجود لدولة جديدة مستقلة ، ثم ليحقق لها فرص البقاء والاستمرار ، كان يتوخى أن يكون عميقاً في واقعته . وكان يتكلم عن الحق غير جاهل الذرائعية ، وكان يعطي قروضاً ، وهو لا ينسى المصالح المتضاربة ، وكان يريد أن يكون شمولياً ، كونياً ، غير مهمل حقوق الشعب الناشئ وغير مضجج بها . أما الأسطورة ، فلم تذكر من الحلم الأمريكي إلا ما كان به مديناً لاحترام الحق وللكرم والشمول . وهكذا ، عندما جردت الأسطورة هذا الحلم من الذرائعية والدفاع عن مصالح ملموسة ، وعن قوميته ، فقد جعلت منه مطمحاً ، أو تطلعاً قد يكون فتاناً ، إنما أثرياً وروحياً بكامله ، لا قبل له أن يثبت في التاريخ .

إن سياسة تعبر عن ذاتها بحرب الفيتنام ، أو بعملية سانتياغو ، تبدو ، إذا ما جوهت بهذا التجريد ، إنكاراً قاسياً للحلم الأمريكي الذي ما كان قط هكذا . فهو فاعل في التاريخ ، أرسى أسس أكبر دولة في العالم المعاصر : وكان ذلك يتطلب كرمأ يعدله ويخفف منه النظر إلى أخس المصالح وحساباتها . ولن تجابه تياران في أحيان كثيرة ، فأحدهما لم يمثل قط الغيرة الصافية ، قبالة ثان يزعم بلوره أنه يسعى إلى سيطرة الأنانية القومية ، والأخرى أن الانفصام قد تحقق بين تقديرات شتى للمصلحة الوطنية ، جوهت بتقديرات غامضة لمصالح الشعوب الأخرى .

ومن المناسب، كما نُدرك مدى الخلاف الذي يقسم اليوم الأمريكيين في موضوع سياستهم الخارجية، أن نتقصى منابعه البعيدة. وهذا لا يقتضينا كتابة تاريخ الدبلوماسية الأمريكية، إنما تاريخ النزاع في المراحل الحاسمة، النزاع بين تأويلين أو تفسيرين للحلم الأمريكي بتطبيقهما على العلاقات الدولية. فتمة خيط متتابع يبدأ من أولى المعاهدات المعقودة مع القبائل الهندية، التي غالباً ما أُنتهكت، ليصل إلى اتفاقات باريس المُنتهكة بدورها، وهو خيط ينتهي إلى أحدث التساؤلات الحالية.

سحق أول حرب صغيرة (أول حرب عصابات)

لم تنتظر القبائل الهندية القاطنة قارة الشمال الأمريكي إعلان الاستقلال، كي تعتمد إلى تنظيم شكل الحكم الذي يلائمها بملء حريتها. وبيان إعلان الاستقلال لا يُشير إلى أن تلك القبائل تملك مثل هذا الحق، على أنه لا يجهل وجودها، لسبب واحد فقط، هو أن يلوم «الطاغية» الجالس على عرش إنكلترا لتحريضه القبائل على مهاجمة المستوطنين. فالملك، كما جاء في نص الإعلان، «قد أشعل نار ثورات أهلية وجهد في إثارة الهنود المتوحشين القساة على سكان حدودها، والذين تقضي شريعة الحرب عندهم بالتدمير بلا تمييز بين الأعمار والجنس والأوضاع». وهذه هي النقطة الوحيدة المذكورة عن الهنود في إعلان الاستقلال.

كان اختلال الأمن السائد على الحدود، الشغل الشاغل المستمر. إنما، هل كان الهنود هم «المتوحشون القساة»، كما يصفهم إعلان الاستقلال؟.. إن كاتب «رسائل مزارع أمريكي»، الذي شهد مجزرة وايومنغ الشهيرة، يعطينا صورة عنهم مختلفة عن ذلك كل الاختلاف. فقد راجت أغرب الشائعات، المبالغ فيها كلما رويت، لتثير خوف البيض وحقدهم. فقد كتب سانت جون دوكريفكور ST John de Crèvecoeur، تقريراً وافياً بهذا الشأن لتوماس جيفرسون، يصف فيه سلوك الهنود كما يلي: «من حسن الطالع، أن هؤلاء الرجال الأباة، وقد اكتفوا بموت الذين واجهوهم بالسلاح، قد عاملوا العزل، نساءً وأطفالاً، بإنسانية لم يُعرف لها مثيل حتى الآن.»^(٩)

غير أن شهادات من هذا النوع ظلت عاجزة عن تصحيح الصورة، الشائعة جداً، عن الهندي المتوحش القاسي. فالمستوطنون يريدون أراضي ويدفعون الهنود بعيداً، ويرضى هؤلاء بتوقيع

(٩) سان جون دو كريفكورص: ٢٠١.

معاهدات عدة يظنون أنها ستقيم تجاوز أراضيهم في المستقبل . وما لم يدركوه ، هو أن موجات من المهاجرين تندفق تدفقاً مستمراً ، وأن هؤلاء يسعون بدورهم وراء الأراضي : فحقوق أصحابها وساكنيها الأوائل لا تزن كثيراً قبالة « حقوق » القادمين الجدد ، غير المكتثرين بالمعاهدات المعقودة من قبل .

والهندي في نظر هؤلاء الرواد الحالمين بالحرية ، هو العدو ، وعدو ما فتشوا يشوهون صورته . ومن الأمثلة ما كتبه مؤرخ أمريكي يقول :

« البطل الهندي شخص ذو نبل مدهش ، يتمتع بمناقب تفخر بها الثرية في حضارة رفيعة . لكن هذا البطل هو من نتاج الخطيب والروائي أو محب البشر ، ولا يمت إلى الحقيقة إلا بصلة واهية بعيدة . إن نموذج الهندي العادي ، الذي فرض ذاته على العقلية الشعبية ، هو من طراز الهندي القدر . وهو دائماً يوصف بالحيلة والغدر والقسوة والنذالة ، لا يتمتع بأي سجية رفيعة ، وفي ذلك ، بلا شك نصيب كبير من الحقيقة . وفي الحقيقة ، إن الهنود ذوو حيلة وغدارون قساة ، إلا أنهم محاربون أشداء . والتاريخ ينبئنا أن الهندي الشمالي الأمريكي هو من أبرز المحاربين المتوحشين الذين عُرفوا . وإن عدد القتلى من البيض الذين سقطوا في الحرب مقابل هندي واحد ، يكشف القناع عن التفاوت الكبير في الخسائر . وأن الكابتن جيمس سميث الذي قضى في الأسر عندهم سنوات عدة والذي أسهم في معظم معارك القرن الأخير ، كان يقدر أن خمسين أمريكياً كانوا يُقتلون مقابل هندي واحد . وهذا العدد يتضمن بلا شك النساء والأطفال . وفي معركة بيغ كناوا ، حيث هم ، هزم الهنود رماة البنادق الفرجينيين بقوة عددية دون قوتهم ، وسقط من هؤلاء رجالان مقابل هندي واحد ، ويبدو أن هذا التفاوت لا يزال ظاهراً حتى أيامنا . »^(١٠)

هذه الصورة المشؤومة الكاذبة عن الهندي — التي مازالت تبدو كذلك حتى ماض قريب — تفسر موقف المستوطنين منه تفسيراً كافياً ووافياً . فهل يشاركونهم القادة وجهات نظرهم هذه ؟ إن المؤرخ المذكور يصف موقف واشنطن بما يلي :

« لم يكن فيه شيء من العاطفة المصطنعة (التي تنميها الأسطورة) عن الهندي النبيل التي غدت بعد ذلك ضارة جداً في بعض الأحيان ، كما لم يتبن آراء المستكشف أو رجل الغابات في

(١٠) هنري كابوت لودج : « جورج واشنطن » نُشر في بوسطن ١٨٩٩ ، ص : ٨٤ — ٨٦ .

القتال، التي هي آراء لا تنم إلا على القسوة. كان يعرف الهندي، كما هو، ويراها محارباً متوحشاً، خطراً وغداراً.»^(١١).

وبعد مرور قرنين، هكذا صورت بعض الدعايات، الفرنسية والأمريكية، الفيتنامي والجزائري: إذ يتحتم أن يكون الخصم، في آن واحد، رهيباً ومحتقراً، أي ما يُتيح سبيين أو مبررين لإبادته.

لم تكن حكومة الجمهورية الفتية «تملك الوسائل اللازمة لحماية الهنود من الأذى والظلم، ولا حماية المستوطنين من أعمال الثأر الوحشية التي كانت تعقب الظلم والأذى هذين.»^(١٢) وفي نيسان ١٧٧١، كتب جورج واشنطن يقول إنه يئس من توطيد الأمن على الحدود «ما دام احتكار الأراضي وسلوك المستوطنين الأهوج يستمران بلا عقاب، ومادامت الولايات، لا تألو كل منها جهداً، ولا تفوت فرصة للتدخل فيما هو من صلاحية الحكومة الفدرالية (الاتحادية)، ومنها علاقات المستوطنين بالهنود».

المعاهدات المعقودة مع الهنود، لا تضمن لهم البتة حياتهم، ولا التصرف الحر في الأراضي التي أعترف لهم رسمياً بملكيتها. وثمة مثل نموذجي على ذلك، هو أن معاهدة تُعقد مع قبائل متعددة لا تسري على قبيلة «الوباش»^(١٣)، فيؤدي ذلك إلى وجودها في حالة حرب مع مستوطني ولاية الكينتيوكي..

وقد كتب هنري كابوت لودج يقول: «لم يتردد رجال الغابات هؤلاء، في الرد رداً عاماً مطبقين المبدأ القائل بأن التمييز القبلي باطل، إذ أن كل هندي عدو. وينبغي التسليم بأن هذا المفهوم يحول من دون بذل جهد كبير في التفكير، إلا أنه دفع مستوطني كينيوكي، عندما كانوا يشنون غاراتهم، إلى قتل الكثير من الهنود الذين ليسوا من قبيلة الوباش، بل من قبائل تشملها وتحميها المعاهدة. وكان من شأن هذا الحياد والتجرد (كذا) أن يؤدي، بالإضافة إلى غليان (الوباش) الدائم، إلى أقصى الاحتمال في نشوب حرب عامة، في كل وقت، مع قبائل الشمال، والشمال الغربي كلها»^(١٤). فماذا تفعل الحكومة وقد تحددت المسؤوليات هذا التحديد؟.. هل تحمي حقوق

(١١) المصدر ذاته ص: ٨٧—٨٨.

(١٢) هنري جونز فورد: «واشنطن وزملائه»، ١٩١٨، ص: ٩٥.

(١٣) Wabash.

(١٤) هنري كابوت لودج «جورج واشنطن» ص: ٨٩.

الهنود ؟ .. والرئيس مخول تجنيد ألفي رجل لمدة ستة أشهر . وقد كتب مؤرخ آخر يقول : « لقد خططت الحرب (المعركة) كحملة هدفها تأديب الهنود لردعهم عن ازعاج المستوطنين وإقلاقهم ، لكنها آلت إلى نكبة شجعت الهنود على المضي في أعمال النهب والسلب . »^(١٥) .

إن كلمة « نكبة » لا مغالاة فيها ، لأن نصف الذين زجوا في الحملة التي كان يقودها سانت كلير ، قد أُخرج من المعركة ، ومُتيت في ٤ تشرين الثاني ١٧٩١ بخسائر جسيمة : ٦٣٠ قتيلًا ، بينهم الجنرال بتلر و ٢٨٠ جريحًا ، بينما كانت طفيفة خسائر الهنود .

إن ما تبع ذلك من عمل الحكومة لم يحسب حساب أكبر حقوق الهنود . ولم يكن لتقدير العدالة وزن يُذكر أمام الواقعة الحاسمة ، وهي أن الجيش الأمريكي قد مُني بهزيمة دامية تستدعي عقابًا نموذجيًا . ففي ٥ آذار ١٧٩٢ خول الكونغرس السلطة التنفيذية تجنيد ثلاثة أفواج جديدة ، يقودها الجنرال واين ، على أن يُعطى كل المدة اللازمة لتدريب جنده وضبطهم ، إذ أن الرأي العام بعد إخفاق آرثر سانت كلير ، غدا أميل إلى التفاوض مع الهنود . ولم يبدأ الجنرال واين تحركه إلا في صيف عام ١٧٩٤ ، وفي ٢٠ آب سحق الهنود في مكان اسمه فاللن تمبرز ، ثم استثمر تفوقه بتوجيه غارات على قراهم ، فأحرق محاصيلهم ومساكنهم ، وأمام هذا الفوز التام ، طلب الهنود الصلح ووقعوا في صيف ١٧٩٥ معاهدة غرينفيل التي تخلوا فيها للولايات المتحدة عن مساحة أرض كبيرة .

تلك هي أوائل الجمهورية في علاقاتها بالهنود ، والتتمة جديرة بالرواية ، إلا أنها ليست في الواقع ، ومن جوانب متباينة ، إلا إعادة وتكراراً للسيناريو ذاته ، الذي استمر طوال القرن التاسع عشر .. وفي كل مرة كانت الحدود تتقدم إلى الغرب ويُردّ الهنود ويُحصرون في مقاسم من الأرض نادراً ما يحترمها المستوطنون .

لكن تفوق المدنية البيضاء خُلقيًا ، لا سبيل إلى إعادة النظر فيه برغم ذلك . وقد كتب جورج واشنطن يقول : « لا شك عندي أبداً ، في إتخاذ جميع الإجراءات الحريّة بايصال خبرات التعليم والمجتمع إلى هذه العقول (عقول الهنود) الجاهلة »^(١٦) .

نعم . ولكن ينبغي ، أولاً وقبل ذلك ، إخضاعهم وحماية مواطني الولايات المتحدة حتى لو

(١٥) هنري فورد ص : ٩٧ واشنطن وزملاؤه .

(١٦) مؤلفات واشنطن الجزء العاشر ص : ٢٢٩ .

كان المستوطنون هم الذين يثيرون القلاقل والاضطرابات باغتصاب الأراضي وبأعمال عنف لا مبرر لها (١٧).

بعد مرور قرنين استأنف الرئيس لندن جونسون سياسة جورج واشنطن وطبقها، إنما على نطاق أوسع. فقد اقترح على الفيتناميين، بعد أن شن في شباط ١٩٦٥ الغارات الجوية المكثفة والهمجية على شمال الفيتنام، أن يمنحهم، إذا ما قبلوا بالصلح، مآثر «المجتمع الكبير»، هذا البرنامج الطموح الذي سيقضي على ما يعانيه من بؤس ثلاثون مليوناً من السود والبيض الفقراء في الولايات المتحدة، وقد صرح في ٢٨ تموز ١٩٦٥ بقوله:

«بينما يستمر أوار الحرب، سنتابع، قدر استطاعتنا مساعدة سكان جنوب الفيتنام الطيبين بتحسين شروط حياتهم، وبإطعام الجائعين، والاعتناء بالمرضى، وتعليم الأحداث، وإيواء من لا مأوى لهم وبأن نتيج للزراعة زيادة المحاصيل، وللعامل أن يجد عملاً».

ردّد ريتشارد نكسون وهنري كيسنجر الفكرة ذاتها بصيغة مختلفة، عندما عرضا على هانوي مبالغ كبيرة، كيما يعوضوا الدمار المادي البشري الذي خلفته الحرب ركاماً متراكماً، إنما بعد استتباب السلم. أي بعد استسلام الفيتناميين. وبعد توقيع اتفاقات باريس، لم يُذكر شيء عن هذه العروض.

الولايات المتحدة، تواجه الفيتناميين كما واجهت الهنود، بالحرب التي تخوضها برغم أنفها، باسم الحرية. في فيتنام، لا تسعى إلى اغتصاب أرض لا حاجة لها بها، لكنها تهدم القرى والمزارع، وتدمر الغابات وحقول الرز بالسموم القاتلة والحشرات المبيدة، ولا تحجز الفيتناميين في أراض معينة ضيقة، بل في مخيمات اللاجئين، بعد أن أشعلت النار في أكوامهم، وكان التشابه بين الحربين شديداً، غريباً، وهكذا نرى أن المخرج رالف نلسون، عندما أراد أن يدين مجزرة سكان ماي-لاي، صور في فيلمه تدمير قرية هندية «الشيبيين» عندما أغار بغارة خيالة فورت أونيون عليها انتقاماً لما قام به لوب تاشتي أحد شيوخ القبائل. وهذا الفيلم — Blue Soldier، هو من الوجهة التاريخية، صحيح كل الصحة. وقبل عرضه بعام، أخرج ارثور بن فيلم «ليتل بيج مان Little Big Man» ليصف كيف ذبح جنود الجنرال كاستر الهنود في معركة لتل بيج هورن Little Big Horn. إن مجازر كهذه، يُنظر إليها في هذه الحال بتسامح. ففي تشرين الثاني ١٩٧٤،

(١٧) حرّض الإنكليز الذين كانوا لا يزالون يحتلون قلاع الغرب، الهنود على الحرب وزودوهم بالسلاح، كما فعل، فيما بعد (مثلاً) السوفييت والصينيون بتزويد الفيتناميين بالعتاد العسكري.

أطلق وزير الجيش، هوارده. كلاويي، على عهده، سراح الملازم الأول كالي، وهو المتهم الوحيد الذي أُدين لاشتراكه في مجزرة ماي—لاي.

اغتنم وزير الجيش هذه المناسبة لينشر الفقرات الهامة من التقرير الذي وضعه الجنرال ويليام ر. بيرز بعد تحقيق استمر ثلاثين شهراً، وجاء فيه أن ثلاثين شخصاً ارتكبوا في ماي—لاي « جرائم قتل فردية أو جماعية، سرقة ولواط وبتر أعضاء ومهاجمة أفراد غير مقاتلين، وتعذيب معتقلين أو قتلهم ». ومن هؤلاء الثلاثين، استفاد اثنا عشر لأنهم مجهولوا الإقامة، وبرتت ساحة ثلاثة. أما الآخرون، فلم يقلق راحتهم أحد. ولم يُدّن سوى الملازم كالي الذي أمضى في السجن جزءاً من عقوبته. ومع ذلك عقب وزير الجيش بقوله: « ليس بيننا من يفخر بما حدث ». كذلك ليست أمريكا أكثر اعتزازاً بمعاملتها الهنود.

هذا الاعتزاز لا يحتل المكانة الأولى في واقعية دولة كبرى أياً كانت. واختلال ميزان القوى أكره الهندي، كما أكره فيما بعد شعوباً غيره، على خوض حرب العصابات: « أغدر » أساليب الحروب وأشكالها، لأنها تأخذ العدو على غرة. أما الأبيض الذي يوقع مع الهندي معاهدة ثم ما يلبث أن ينتهكها، فليس « بغادر » لأنه ينصاع لعقلية من طراز آخر..

في الواقع، « إن العالم الغربي على قناعة عميقة بالمبدأ القائل أن عالم الواقع هو خارج عن الذي يراقبه ». فالمعرفة، في نظره، تقوم على جمع عناصر إعلام وتصنيفها، تزداد جودتها بقدر ما تزداد صحتها. والثقافات التي فاتت رائر الفكر النيوتوني، قد أخذت المفهوم، ما قبل النيوتوني والقائل « إن تدني عالم الواقع عن الذي يراقبه يكاد يكون تاماً » هذا الفرق والاختلاف في الرؤية « يعكس التباين بين خطي الفكر، الذي ميز الغرب عن هذا الجزء من العالم المسمى بالمتخلف، منذ عصر النهضة ».

عندما أقدم جورج واشنطن، توطيداً للأمن على الحدود، على تجنيد الوحدات الأولى التي عهد بقيادتها إلى ارثور سانت—كلير، ثم إلى الجنرال واين، كان الهندي يمثل في نظره غير ما يسمى اليوم بالعالم المتخلف. غير أن التمييز بين الأفكار السابقة للنّيوتونية والأفكار اللاحقة، ليس من جورج واشنطن. وبرغم انطباق هذا التمييز انطباقاً جيداً على العلاقات المتنافرة القائمة بين الأبيض والهندي، فقد عاد إلى صيغته على لسان هنري كيسنجر^(١٨). وتنافر الثقافات هذا لا يمكن

(١٨) هنري كيسنجر، American Foreign Policy، الناشر Norton. W. W نيويورك ١٩٦٩ ص: ٤٨ — ٤٩.

التكفير عنه : أي أن على الثقافة الأقل تطوراً أن تنحني أمام « المتفوقة » . وما يرفضه الهندي هو بكل دقة ووضوح ، ما رفضه بعده بعض زعماء العالم الثالث . « وهو أقل اهتماماً بما هو ممكن منه بما هو عادل ، ومنطقه خارج عن الزمن ، ومستقل عن الظروف » : هذا ما كتبه هنري كيسنجر بصدد « الرسول » الذي يدعو إلى الثورة ، في القارات المتخلفة^(١٩) .

الهندي يرى أن من العدل أن تُطلق له حرية التصرف في أراضي الصيد ، وفي قراه ومحاصيله . هذا ما يهيمه في الجوهر والأساس . وعندما أكرهه على التخلي عن ذلك أمام قوة العدو ، تراجع ووطن النفس على التخلي عن الأرض ، ورسم حدوده الجديدة بمعاهدة ، وهو يتحمل العيش هكذا ، على أن تُحترم المعاهدة ، لكن ، إذا ما انتهك المعاهدة زحف جديد للبيض ، فهنا يتمرد ويثور باسم ما هو عادل .

العالم الغربي ، في نظر كيسنجر ، لا يبالي بذلك ، فهو يعلم أن « بإمكانه » الحصول على أراضي أخرى حتى لو كان هذا الاغتصاب مظلمة جليلة . وهو إذاً يزداد توغلاً في الغرب ، كما فعل بعدئذ ، عندما دعم قبضته و شدها على الشعوب المستعمرة أو الخاضعة للاستعمار الجديد . فعالم الواقع الخارجي ، وهو يلقي عليه نظرة موضوعية : ويتدفق مهاجرون جدد يحتاجون إلى أراضي وهم يملكون السلاح المتفوق ، فيدفعون الهنود إذاً ويردونهم أيضاً إلى الغرب ، هؤلاء الهنود ، سجناء فكرتهم السابقة للنيوتونية ، الذين يرون أن « عالم الواقع » هو عالم داخلي ، ويتشبثون برؤية ذاتية محضة لما هو عادل ، ويتمنون في منطق هو « خارج عن حدود الزمن » وكأن الـ Mayflower لم تدن قط من سواحل أمريكا ، منطق « لا يرتبط بالظروف » ، وكأن المد الأبيض ليس بالذي لا يُقاوم . إن الإصلاح الزراعي في كوبا ، وتأميم مناجم النحاس في التشيلي ، وإرادة بعض بلدان العالم الثالث أن تسترد حرية التصرف بمواردها وثرواتها الطبيعية ، .. كل ذلك يلتقي برغبة الهنود ، آنذاك ، في الاحتفاظ بأراضي صيدهم .

والهندي ، بطموحه غير العقلاني إلى أن يجعل ما هو عدل ينتصر ويتغلب على ما هو ممكن ، يرفض أن يحسب حساباً لميزان القوى ، ويمضي سادراً في حرب عصابات ، لا قبل له بالخروج منها منتصراً . « فحرب العصابات تنتصر إن لم تخسر ، والجيش التقليدي يخسر إن لم ينتصر » .^(٢٠)

(١٩) المصدر ذاته ص : ٤٧ — ٤٨ .

(٢٠) المصدر ذاته ص : ١٠٤ .

هذا ما كتب يقوله أيضاً هنري كيسنجر بصدد الفيتنام. فالغلبة لم تكن للقبائل الهندية، وبعد قرنين من الزمن، وبرغم ٥٠٠.٠٠٠ جندي أمريكي، وبرغم أقوى أسطول جوي في العالم، وبرغم الأسطول البحري ووسائل الحرب الالكترونية والكيميائية،.. لم يستطع الجيش الأمريكي التغلب على الفيتنام. هذا هو المبدأ الفارق الوحيد بين الحريين (حرب الهندود وحرب الفيتنام). وإذا ما كانت صحيحة تعاريف كيسنجر وتمييزه بين الفكر ما قبل نيوتن والفكر بعده، فهذا الفارق يعني أن «العالم الواقعي» قد تبدل تبدلاً عميقاً، وإن التناقض بين «الصحيح أو العادل» و«الممكن» يمضي ويؤول. وهنا يبدو أن مفهوم كيسنجر هو ذاته «خارج الزمن ومستقلاً عن الظروف». فلأن سياسته الواقعية قد أبرزت قيمة القدرة الموضوعية وتفوقها على نظرات ذاتية في الأخلاق متأتية عن «استيطان» «العالم الواقعي»، ألقى التاريخ بذور الشك في واقعية الواقعية^(٢١). إذا، فهل ثمة أمر خطير قد يقع في يوم من الأيام.

«الواقعية» الثوريين

هذه الواقعية المربية، في توزيعها المسؤوليات، تعطي الامتياز لميزان القوى الاقتصادية العسكرية الدقيق، قبالة الهندود والفيتناميين والبلدان المتخلفة في عالم اليوم. وهي لا تستنتج من ذلك أن ثمة رسالة تقع عملياً على عاتق الأقوى: فالقوة المادية تُضفي، بحق، على كل من يملكها وتلقي على عاتقه دوراً أولياً أساسياً في تنظيم العالم، لأنها تتحوّل مناقب لا غنى له عنها في النهوض بواجبه، وهذا هو هنري كيسنجر يقول:

«إن مكتشفاتنا التكنولوجية، وقدرة استثمارنا الزراعية والصناعية على الإنتاج، وشعبنا الصناعي والمتعلم، والموارد الطبيعية التي نملكها.. كل ذلك زودنا بالقدرة وبالإحساس بالمسؤوليات الضرورية لممارسة زعامتنا.»^(٢٢).

إن التفوق المادي يوسّع مجال الممكن وهو الذي يقوم عليه الحق في تزعم العالم. وهذا المبدأ ليس إلا امتداداً لما أعلن وسرى على الصعيد الداخلي سريانه على الصعيد العالمي. فعندما كان جون جاي John Jay يؤكد «أن على الذين يملكون البلد أن يحكموه»، وعندما كانت فاندربيلت وغيره من ملوك الصناعة ينتحلون، استناداً إلى القوة التي يزودهم بها المال، الحق في انتهاك القانون، كانوا

(٢١) شارل فرانكل ص: ٥٧.

(٢٢) هنري كيسنجر من خطاب ألقاه في ١٤ آب ١٩٧٥ في برمنغهام (الباتا) ص: ٣٢.

الوجهة الخلقية، لأنها تملك كلها القيمة ذاتها السامية خلقياً. ولقد أملت بالبالعنوان ذاته الواقعية والمثالية الأمريكيتان. وزير الخارجية يتساءل قائلاً^(٢٤): «هل نتحدث السياسة التي نتبعها في الخارج المصالح والمثل الأمريكية؟» ثم يجيب عن سؤاله بالتأكيد في خطاب طويل لا يشمل أي نقاش. إن أسمى مثل أعلى، لا ينفصل في نظره عن المصلحة المباشرة والملموسة، إلا إذا كان معرضاً للزوال. وهذا ما لم يدركه الثوريون الذي يرتضون التضحية بمصالح ملموسة لبلوغ مثل أعلى شاق ومعضل، وأن يصابوا بخسائر بشرية ومادية وأن يبذلوا الحياة إذا اقتضى الأمر.

ويكتب كينسنجر قائلاً أيضاً: «وبرغم استمرار هذا الوهم في الغرب، نادراً ما يجد الثوريون دوافع لهم في الشروط الاقتصادية، ولو أن كاسترو وسوكارنو أوليا الاقتصاد جعل اهتمامهما، لحققت لهما مواهبهما نجاحاً لامعاً في المجتمعات التي قلبا أنظمتها.»^(٢٥).

إن فيدل كاسترو، إذا ما اكتفينا بإتخاذ مثلاً، يستطيع الرد على كينسنجر بأن مرافعته في دعوى (مونكادا Moncada)، ودكتاتورية باتستا، كانت تغص بالمعطيات الاقتصادية التي تبرر ثورته، ففيها أرقام دقيقة عن الأراضي الزراعية الواسعة التي يسيطر عليها الأجنبي، وعن المساحات التي أهملت زراعتها فيها، عن تقلبات أسعار السكر، وعن تصدير المواد الغذائية، وعن مدى البطالة المزمنة وازديادها، وعن تهريب رؤوس الأموال، ناهيك عن نسبة الأمية وموت الأطفال اللذين هما من المؤشرات الاقتصادية أيضاً.

لكن الواقع، كما هو، ليس له من الشأن ما للواقع، كما يراه الرجل الذي يعلم، بسبب قوته، أنه خارج عنه، فينظر إليه نظرة موضوعية، ويملك، في آن واحد، الحق المعنوي والحق المادي في تحويره، دون أن يرجع إلى رؤى ثورية ما قبل نيوتن. وقد لامت بعض أقوى أوساط الأعمال وأقدرها وزير الخارجية على أنه بخس، في إدارة الدبلوماسية الأمريكية، العوامل الاقتصادية حقها من الأهمية. إلا أنه لم يعبأ بنقد كهذا ويشعر أنه مخول تلقين الناس درساً في الواقعية، فيقول:

«إن للواقع التجريبي معنى مختلفاً عند الشعوب الناشئة وفي الغرب، لأنهم، من جهة ما، لم يقوموا باختيار اكتشافهم»^(٢٦). والاتحاد السوفييتي ذاته، الذي هو دون أمريكا تنمية اقتصادية، لم يصل إلى هذا الاكتشاف ويجد نفسه، في رأي كينسنجر، «في موقع وسيط».

(٢٤) هنري كينسنجر في خطاب ألقاه في ١٤ تموز ١٩٧٥ تحت عنوان القضايا العالمية والتعاون الدولي.

(٢٥) American Foreign policy ص: ٣٩.

(٢٦) المصدر ذاته ص: ٤٩.

« فالحقيقة التجريبية » الوحيدة، الجديرة بالنظر، هي حقيقة البلد الأكثر تقدماً اقتصادياً وتكنولوجياً. وكل بلد سواه، ينبغي أن يُلقَى به على بعد متفاوت، في غياهب العصر ما قبل النيوتوني. لكن وزير الخارجية يقر بأن « أسلوب » الزعماء الثوريين « السياسي » ونظراتهم الفلسفية « تطرح أعمق مسألة عرفها الصعيد الدولي المعاصر .. »^(٢٧)، بينما هي تنكر الواقع كما يحلله ذهن عقلائي.

من هنا خلجة القلق الذي يبعثه تصميم بلد من بلدان العالم الثالث، لا يززع ثباته التدمير الذي يحل به. فقد أعلن هنري كيسنجر، بعد دخول القوات الأمريكية كمبوديا، في ٩ أيار ١٩٧٠ قائلاً: « ليس من الممكن، مع ذلك، أن يكون الفيتناميون الشماليون، أول شعب في التاريخ لا يناله أي اعتبار مادي مهما كان شأنه. » لكن السياسة الواقعية كانت تحلق آنذاك في أوهامها: فالفيتناميون الشماليون ما كانوا محصنين في وجه أي عمل مادي، فقد تأثروا كل التأثر، كما يتأثر كيسنجر لو تعرضت بلاده، مثلهم، بما أحدثته طائرات ب ٥٢ من دمار بالقنابل المحرقة، ومن الجروح بقنابل الاقلام والسهام الصغيرة، ومشاق حرب دامت ثلاثين عاماً. إلا أنهم وجدوا في أنفسهم القوة المعنوية على الثبات والمقاومة.

إن الحلم الأمريكي، البعيد عن كل فكرة في سيطرة شعب على آخر، لم يكن في هذا النزاع إلى جانب المعسكر الأمريكي، إنما على طريقته وعاداته، كان في المعسكر الآخر. « من أين يأتي هؤلاء البيض؟. فمن كان دليلهم في عبور البحيرة الكبيرة المالحة؟ لم لم يصم أباًؤنا آذانهم عن كلام أولئك الثعالب المعسول، فقد كانوا جميعاً كاذبين خداعين كالظلال التي تلقىها الشمس الغاربة » هذه الأقوال التي ينقلها الكاتب سانت جون كريفكور^(٢٨)، عن لسان فتى هندي من قبيلة المسكينونج، يمكن أن تصدر عن أي فيتنامي.

« ما خير المال الذي يكدون من أجله هذا الكد؟ هو أن يجعل بعض الناس أغنياء وآخرين فقراء، وأن يوطد أركان الجريمة، والحق، والحسد والبغضاء بينهم، فإذا ما حذونا حذوهم، فسيطمح كل منا أن يكون غنياً على حساب الآخرين.. وسنقوم، كالبيض، بكل ما يُطلب منا القيام به، من أجل المال. فالأغنياء يريدون حكم الفقراء والأكثرين فقراً. فما يفعل عندئذ هؤلاء البؤساء؟.. هل سيكون مصيرهم إلى العبودية والعمل من أجل الذين ستلتهم بشرتهم شحماً؟.. ».

(٢٧) ص: ٤٧ المصدر ذاته.

(٢٨) Crevecoeur's Eighteenth Century Travels in Pennsylvania & New York, P.85

لن يكون هذا الكلام الذي يقوله هندي من قبيلة الموينغون^(٢٩) مجرداً من المعنى في نظر مستخدمي الشركات المتعددة الجنسيات المقيمة في كوريا الجنوبية وسنغافورة أو البرازيل، الذين يعملون بأجور لا تقيهم شر البؤس والجوع. فإذا ما رضخ هؤلاء واستسلموا لمصيرهم، تحقق استقرار الأمن العالمي.. أما إذا تمردوا زاعمين أن المعاملة المفروضة عليهم ليست «عادلة»، أجابهم الأقوياء القادرون أن ليس «بالإمكان» تحسين شروط حياتهم لأن ذلك سيؤدي إلى تحطيم الآلة الاقتصادية وإن لم يفقهوا هذه اللغة، ينبغي إعادتهم بأسلوب واقعي إلى الصواب.

ومثلما كان رغد حياة الهنود مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بإزدهار أمريكا البيضاء التي كانت محتاجة إلى أراض، كذلك شأن «البلدان المصنعة والشعوب النامية التي هي جزء من نظام اقتصادي دولي نسيج وحده ومنوط به إزدهار الجميع». ^(٣٠) لكن هنري كيسنجر يضيف قائلاً أن ينبغي ألا تغرب عن رؤية أحد «الأهمية الضخمة التي يكتسبها اقتصاد أمريكي مزدهر من أجل استقرار العالم الاقتصادي». ^(٣١) فما يصلح لأمريكا وفيها، يصلح في سائر العالم...

قال ذلك الرئيس فورد إنما بعبارة أقل فظاظاً: «من أجل إعادة ثقة العالم بمستقبل العالم، يستطيع إزدهار الاقتصاد الأمريكي القيام بأكثر مما يمكن لأي إجراء نتخذه أن يقوم به» فلا يخطرون إذاً في بال أحد أن يعيق تقدم هذا الاقتصاد، لأنه كسب للجميع. على أن هذا ما يقوم به منتجو بعض المواد الأولية، إذ ينتظمون في شركات كارتل، للدفاع عن أسعارهم. وهنري كيسنجر «يأسف» لجهود بلدان متعددة في العمل على سلب الولايات المتحدة منافع اقتصادية، ويحذرهم قائلاً: «لن نسمح أبداً بالضغط التي تمارسها هذه التكتلات، ولا بالابتزاز» ^(٣٢)، فتصرف هذه البلدان يهدد، في آن واحد، إزدهار الولايات المتحدة، واستقرار النظام الدولي الشرعي الوحيد...

شرعية واستقرار عالمي

كما أن دستور الولايات المتحدة، أساس الشرعية الجمهورية، يحقق الاستقرار بتنظيم التوازن بين السلطات، كذلك، على المسرح الدولي، يتطلب الاستقرار توازناً بين الدول، كما يقول هنري

(٢٩) المصدر ذاته. ص: ٨٩ — ٩٠.

(٣٠) كيسنجر، خطبة في ١٤ آب ١٩٧٥.

(٣١) المصدر ذاته.

(٣٢) المصدر ذاته.

كيسنجر شارحاً^(٣٣) هذا الاستقرار العالمي الذي لا سبيل إلى فصله عن تعريف للشرعية على الصعيد العالمي . وهذا ما ينصب عليه اهتمام وزيرا الخارجية ، بلا انقطاع ، كما يبدو في كل ما يكتبه . قبل وصوله إلى الحكم ، وهو يعبر عما يريد بالكلمات التالية :

« إن مسألة الشرعية السياسية هي مفتاح الاستقرار السياسي في المناطق التي تضم ثلثي سكان العالم . وإن نظاماً داخلياً مستقراً عند الأمم الحديثة العهد بالاستقلال ، لن يؤدي آلياً إلى أمن عالمي . وينبغي أن يتضمن برنامج أمريكا مفهوماً لما نقصده بالشرعية السياسية . »^(٣٤) .

لا شيء أصعب من تعريف هذه الشرعية السياسية المشروطة باستقرار عالمي ، لا بد منه لإزدهار عام . وهنري كيسنجر ، عندما يقول ان « الشرعية هي مفتاح الاستقرار » ، يبدو أنه يضع معادلة بين الكلمتين ، والعبارة التالية توحى أن الاستقرار ، في الواقع ، هو الذي يحدد الشرعية وإذا كانت هذه منشأ المعضلة الكبرى في الشعوب المتخلفة وهي « ثلثا سكان العالم » فالصين الشعبية ، من هذين الثلثين حتماً ، وشرعيتها السياسية مشكوك فيها إذن .

وعلى ذلك ، إن هنري كيسنجر هو الذي أقنع رتشارد نكسون بالعدول عن الخصومة العدائية التي ظل يبدئها نحو الصين مدة ربع قرن . فلماذا؟؟.. القصد كما يشرح نكسون ، هو إدخال الصين في « علاقة بناءة ، بالاجتماع الدولي » ، لأن « الأمن الدولي لا يمكن أن يتوطد إذا ما بقيت إحدى الدول الكبرى (الأساسية) خارجة عنه خروجاً واسعاً ، ومعادية . »^(٣٥) .

أرست الولايات المتحدة أسس توازن أفضل ، بانتزاعها الصين من عزلتها . والاستقرار الذي يرفد به اسهام الصين هذا التوازن ، هو الذي وطد « شرعية » بكين السياسية ! ...

ومادام التوازن بين السلطات الثلاث ، التشريعية والتنفيذية والقضائية هو الأساس الذي تقوم عليه الشرعية الجمهورية التي تختل إذا ما سيطرت إحدى هذه السلطات على أخرى ، فالتوازن بين الدول العظمى ليس تمريناً بهلوانياً على الحبال ، أو دور ممثل بارع في اللعب بتوازن القوى فحسب ، بل إنه يوجد استقراراً يرسى أساس شرعية النظام العالمي .

(٣٣) من خطاب له في ١١ آب ١٩٧٥ .

(٣٤) American Foreign policy ص : ٨٥ .

(٣٥) في رسالة لنكسون عن وضع العالم ، ٢٦ شباط ١٩٧١ (وهي ككل تصريحات الرئيس في السياسة الخارجية يضعها أو يوافق عليها كيسنجر .

كثيراً ما ارتكب خطأ بالظن أن لكيسنجر مفهوماً، يجعل به من التوازن بين الدول غاية بمحد ذاتها، فمما لا شك فيه أنه يرى، منذ ١٩٥٥، أن « واجبه الدولي هو التفريق بين الاتحاد السوفييتي والصين . »^(٣٦) وبعد خمس عشرة سنة، وإذ هو مستشار في البيت الأبيض، وقبل قيامه برحلة إلى الصين، قال يشرح أيضاً: إن « النزاع الدولي الأعظم في عالم اليوم، ليس النزاع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي بل بين الاتحاد السوفييتي والصين . »^(٣٧) وراح كيسنجر يستغل هذه الخصومة، فالإتحاد السوفييتي، حين الصين تزداد قوة، سيرغب في « مرحلة انفراج مع الغرب كيلا يرى نفسه مضطراً لمواجهة جبهتين في آن واحد » .

إن دبلوماسية كيسنجر، إذا ما اقتصرنا على هذه المعطيات، ستعطي صورة الألعاب الخطرة التي يقوم بها لاعب توازني بلا حبال. إلا أنه أبعد نظراً. فهو يقول: « إن هدفنا الأساسي، في السياسة الخارجية لا بد له من أن يقوم على توطيد أمن دولي مستقر وقائم على التعاون إنطلاقاً من مصالح متباينة ومتعارضة. ولكن هذا لا يكفي، فالاهتمام بصيانة المصالح والقوة هو، في أفضل الأحوال، عقيم، وفي أسوأها، دعوة إلى اختبار دائم للقوة. وإن السمة الحقيقية للحكم العقلاني هي توليد قدرة متزايدة من توازن السلطات، على تحسين الوضع الإنساني .. ولا يمكن لنظام دولي أن يكون مستقراً أو عادلاً إن لم يقيم على قواعد في السلوك مقبولة قبولاً عاماً. وإن الحقوق الدولية تُتيح لنا الوسيلة لبلوغ غايتنا. »^(٣٨)

لكن تفسير الحقوق الدولية يختلف بين بلد وآخر^(٣٩)، لذلك يتمنى هنري كيسنجر « توسيع الاتفاق على تفسير حقوقي واحد » . وحقاً، « في عالم يتصف بالترابط، لا بد من أن تؤدي الإجراءات الوحيدة الطرف والسعي المحموم وراء منافع قومية، وما يتبعها من ردود فعل، إلى أعمال تقابلها، ومن نوعها، وهذا ما يؤول إلى الإخفاق والفوضى. »^(٤٠)

وحيال ما تتمتع به الأسلحة الحديثة من قدرة تدميرية، ينبغي حماية النظام الدولي من هذه الفوضى التي ستودي به إلى الهلاك. وإن مبدأ النظام من أجل النظام، سواء على الصعيد العالمي أو

(٣٦) هنري كيسنجر « الشؤون الخارجية » « Defense of Grey Areas » نيسان ١٩٥٥ .

(٣٧) في سان كليمانت، ٢٦ حزيران ١٩٧٠ .

(٣٨) من خطاب في ١١ آب ١٩٧٥ .

(٣٩) « خارج الولايات المتحدة مفاهيم مختلفة للعدالة والشرعية في جهاز الدول الداخلي الحالي تحدوها أهواء عنيفة »

(تشارلز فرانكل ص: ٥٦) .

(٤٠) من خطابه في ١١ آب ١٩٧٥ .

الصعيد القومي هو مبدأ عقيم . أما توازن السلطات في الداخل ، وتوازن الدول في الخارج ، فهما كإحيا روح المغامرة . وهذان الكابحان لا يعيقان كل حركة بل يدعان للجهاز بعض المرونة ، وزوالهما لا بد من أن يؤدي إلى إطلاق العنان للعنف والفضوى . وفي غياب إجماع أو اتفاق حقوقي دولي ، وغياب « قواعد في السلوك مقبولة عامة » ، يردع التوازن بين الدول كلاً منها عن إتخاذ « تدابير وحيدة الطرف » قد تحمل إليها « منافع قومية » . وهكذا يحقق التوازن بين القوى استقراراً يُضفي الشرعية على النظام القائم ويدعو إلى حمايته ! .

ومادام السعي وراء « مكاسب قومية » حين يقوم به بلد ما ، لا سبيل إليه إلا على حساب دول أو بلدان أخرى ، فالنظام الدولي لا يحتفظ بشرعيته إلا بحماية المنافع المكتسبة والشرعية في هذا المفهوم الذي يعني المحافظة على الوضع الراهن . وهذا المبدأ في محتواه ذاته ، لا يسري إلا على الدول المسهمة في تحقيق التوازن العالمي ، وهو لا تحدده قواعد أو أعراف حقوقية ، بل ينبجم عن توازن القوى الذي يحقق الاستقرار .

لم يُتَّح للدبلوماسية الأمريكية ، قبل كيسنجر ، تعريف متأسك كهذا . وهو تعريف لا ينبغي صيغ الحلم الأمريكي ومقولاته الأولى ، ولا سيما الحق المعترف به لكل شعب بشكل الحكم الذي يختاره ، في منأى عن كل تدخل خارجي . وفي عالم أكثر تعقيداً وترابطاً ، يكمل هذا التحديد مقولات الحلم الأمريكي .

هكذا ، لم تعارض الولايات المتحدة في العام ١٩٦٨ حق الشعب التشيكي في تغيير نظام حكمه السياسي ومنهجه الاقتصادي ، بل يسرها ذلك ، حتى لو لم ير فيه الاتحاد السوفييتي خسارة حق مكتسب ، وتعديلاً محتملاً للتوازن الدولي . إن دخول الدبابات السوفييتية براغ يسبب ألماً وجدانياً لواشنطن ، إنما ليس من شأنه ، في أي حال ، أن يحملها على مبادرة ما ، في محاولة لقلب الوضع الراهن .

ومادام التوازن لا يُقاس علمياً ، فهو عائد إلى تقدير الدول التي تضمنه ، والتي ستكون متأهبة حين تدعو الحاجة إلى تدمير العالم ، إما لتغييره لصالحها ، وإما للحيلولة دون تعديله لصالح دولة أخرى .

قَدَّرت الولايات المتحدة ، حسب هذه الرؤية ، أن أنظمة حكم فيدل كاسترو وجوان بوش وسلفادور اللندي مخلة بالتوازن العالمي لغير صالحها . ومن هنا كانت عملية خليج الخنازير ، ثم إنزال

الوحدات البحرية في سانت دومنك وانقلاب سانتياغو، أي العمليات التي لم تنجح منها سوى الأخيرتين. والنفوذ المتصاعد الذي تحدته الولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية، هو جزء لا يتجزأ من التوازن العالمي الذي يُضفي على هذا النفوذ شرعيته. وموسكو، تقبل بوجهة النظر هذه، ولا حيلة لها إلا سحب صواريخها من كوبا في العام ١٩٦٢، وإلا إتخاذ موقف سلبي من الحرب الأهلية في الجمهورية الدومنيكية عام ١٩٦٥، ويقطع علاقاتها الدبلوماسية بـسانتياغو عام ١٩٧٣. وهكذا ما كانت موسكو أيضاً، لتحرك ساكناً لو أن «الوحدات البحرية» الأمريكية نزلت كوبا منذ ١٩٥٩، أو لو أن حملة خليج الخنازير حققت غرضها باستخدام وسائل أكبر.

أما حرب الفيتنام وأزمة الشرق الأدنى، فهما مثالان يوضحان أكثر من سواهما مفهوم الشرعية هذا، وهما تمتدان إلى مرحلة طويلة تسبق التعريف الجديد الذي تضعه الولايات المتحدة للشرعية، وترافقانه وتليانه. هذا التعريف أجمله هنري كيسنجر إبان الحرب الباردة حينما لم يكن في الحكم. وبدأ يتضح ويأخذ سبيله، بعد سحب الصواريخ السوفيتية من كوبا، عندما عقب المرحلة المسماة بالحرب الباردة سياسة «انفراج». ثم ترسخ التعريف بوضوح أكبر عندما عمد ريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر عام ١٩٧١، إلى تعديل لعبة التوازن بإقامة علاقات بالصين. وابتداءً من هذا، لم تُطرح وتُفهم مبادئ النظام الدولي الجديد فحسب، بل أتاح، ميزان القوى فرصة فرض احترامها. وعندئذ استطاع العنف الإنطلاق مفلتاً من عقاله.

تتجابه، في الفيتنام والشرق الأدنى الدول العظمى التي تحدد التوازن العالمي متخذة من بعض البلدان الصغيرة وسائل لصراعها. فالنزاعان، من وجهة نظر عسكرية، محصوران داخل حدود معتدلة. طول مدة المرحلة المسماة بـ«الحرب الباردة» التي كانت الدولتان العظمتان في أثنائها، تزود كل منهما حلفاءها وزبائنهما بوسائل متواضعة، إلى حد ما. غير أن النزاعين (الفيتنام والشرق الأدنى) ازدادا حدة بعد بدء المرحلة المسماة بـ«الانفراج» (١٩٦٢): ففيها بدأ جونسون القصف المكثف على الفيتنام ووجه إلى جنوبيه أكثر من نصف مليون جندي. وفي الشرق الأدنى، بلغت حرب الأيام الستة اتساعاً لم تعرفه حرب عام ١٩٥٦، عندما تلاقت جهود موسكو وواشنطن لإيقاف الأعمال العدوانية. ثم أُجبرت درجة ثالثة في التصعيد، عندما بلغ النزاعان ذروة سعي الحرب، بقصف الفيتنام عام ١٩٧٢، وبحرب تشرين ١٩٧٣، وذلك عندما كان «الانفراج» في أوجه، وكيسنجر قد وضع أسس أمنه الدولي.

هكذا تقول « شرعية » الأمن الدولي ، في نظر كيسنجر استخدام وسائل تدمير لم تعرفها المرحلة المسماة بكل غرابة « الحرب الباردة » . ولا يبدو ما في هذا الوضع من تناقض غريب واضح ، إلا إذا أخذنا عبارتي « الحرب الباردة » و « الانفراج » بمعناها الحرفي . فنحن ، في الواقع ، بصدد معان تخلو من كل جدوى ، عند التحليل ، ولا مبرر لوجودهما إلا لأغراض الدعاوة ، كوسيلة لتدعيم المعسكرين وللإقناع بتقبل أعباء التسليح بعد الحرب العالمية الثانية .

هاتان المرحلتان المتميزتان تمييزاً اصطناعياً يتسمان معاً بملامح ثابتة هي : جمود الولايات المتحدة أمام دخول الدبابات السوفيتية بواشنطن عام ١٩٥٦ (حرب باردة) وبراغ عام ١٩٦٨ (انفراج) ، وجمود الاتحاد السوفيتي حيال التدخل الأمريكي في إيران (١٩٥٣) وغواتيمالا (١٩٥٤) ولبنان حيث نزل ١٠.٠٠٠ جندي من الأسطول الأمريكي (١٩٥٨) ، وكل ذلك في مرحلة « الحرب الباردة » ، وكذلك أمام الضربات المماثلة التي جرت في أمكنة أخرى وفي مرحلة « الانفراج » .

أما البلدان الصغيرة التي جرت على أرضها تلك التدخلات الخارجية أو حدثت تلك التغيرات في أشكال الحكم ، فلا شيء عندها يميز بين « حرب باردة » و « انفراج » ، وهذا شأن الدولتين العظيمتين اللتين اتبعتا كلتاهما ، في المرحلتين ، هدفاً هاماً وأساسياً هو المحافظة على مناطق نفوذها الخاصة أو تدعيمه . تتابع السيناريو ذاته ، عندما استطاع كيسنجر ، وهو يستغل الخلاف السوفيتي الصيني ، الإقناع بقبول تعريفه (أو تحديده) للتوازن الدولي (١٩٧١) . ومنذ هذا الوقت حلت لعبة مثلثة الزوايا محل اللعبة المزدوجة المؤلفة من اثنين ، التي كانت تلعبها ، من قبل ، موسكو وواشنطن من جهة ، وموسكو وبكين من الجهة الثانية ، عندما رفضت واشنطن اللعب مع بكين . وسواء تعلق الأمر بـ « الحرب الباردة » أو « الانفراج » أو « بالنظام الدولي الجديد » ، ففي الفرضيات الثلاث تأتى الدولتان العظيمتان الدخول في نزاع مباشر ولا تتجابهان إلا بواسطة بلدان صغيرة . لكن الفرصة الثالثة التي تصورها كيسنجر والتي ظهرت إلى الوجود في رحلته الأولى إلى بكين ، تُحدث تغييراً كبيراً في معطيات المسألة ، فهي إذ تدخل الصين في نظام التوازن ، ترى ليونيد برجينيف يستقبل ريتشارد نيكسون في موسكو بينما تسقط الصواريخ السوفيتية طائرات أمريكية في الفيتنام ، ونرى السوفييت والولايات المتحدة يزودون بأقوى أنواع العتاد العسكري أصدقاءهم في الشرق الأدنى .

والنظام الدولي لا يستقر إلا من أجل الكبار ، لأنهم وحدهم القادرون على المحافظة على توازنه أو الإخلال به ، والقادرون إذاً على إضفاء الشرعية عليه ، حسب تعبير كيسنجر . وفي هذا السياق

تمثل حقوق البلدان الصغيرة حقوق قبائل الهنود . وقد كان جورج واشنطن يريد أن تبلغ الولايات المتحدة « قوة امبراطورية » لتغزو أبعد مناً ، عن دسائس إنكلترا التي كانت تحتل كندا والغرب ، ودسائس اسبانيا المقيمة في الفلوريد ، وفرنسا التي كانت ولا تزال في لويزيانا . وأمام هذه الضرورة القومية ، كانت حقوق الهنود منوطة بلعبة التوازن بين هذه الدول الكبرى الأربع . ومن قبل كان الكسندر هاملتون يقوم بالاتصالات الكثيرة ويضع الخطط ليفصل أمريكا الاسبانية عن مدريد .

ليس من قبيل الصدف ، في نظام دولي يسير حسب أماني كيسنجر ، أن يقترن « الانفراج » في العلاقات بين الدول العظمى بازدياد حدة النزاع في البلدان الصغيرة ، ازدياداً قد يؤدي تطوره إلى تعديل التوازن العالمي . وهي حدة تستجيب لضرورة واقعة ، ثم هي شرعية بقدر ما تكون الشرعية قائمة على الاستقرار . وزير الخارجية الأمريكية يمضي إلى أبعد من ذلك . فحدة النزاعات المحلية هذه ليست نتيجة للتوازن بين الدول العظمى ، بل هي شرط لا غنى عنه . فكلما الدولتين العظميين ، كيلا تقدما على غلطة جلّ في الحساب ، ينبغي لأي منهما ألا يخامرها الشك في تصميم شركائها على المحافظة على الوضع الراهن . وإن ما تبرهنان عليه من الحزم في تجابههما على ساحات قتال محدودة يدل على إرادة صيانة المنافع المكتسبة ، ويردعهما ، في آن واحد ، عن المجازفة الطائشة باصطدام مباشر « فالانفراج » بين الدولتين العظميين لا ينفصل عن نزاعاتهما .

هذا القانون الأساسي الذي يُضفي الشرعية على النظام الدولي ، قد جعل منه كيسنجر مفهوماً قبل أن يستدعيه ريتشارد نكسون إلى الاشتراك معه في الحكم . وهو ، في نص نُشر عام ١٩٦٩ ، يرثي ، في الأنحص لسير الحرب في الفيتنام . فتصعيد حدتها منذ العام ١٩٦٥ لم يؤل إلى النصر الحاسم ، وطولها جعلها مكروهة في الولايات المتحدة . فمن « الواضح إذاً أنها أضعفت كثيراً لدى الأمريكيين إرادة التورط في حرب من طرازها في مكان آخر . وفائدتها ، كسابقة ، قد تقوضت تقوضاً هاماً »^(٤١) ، وقد يستخلص منها السوفييت نتائج تُسيء إلى التوازن بين الدولتين .

غير أن كيسنجر الذي غدا مستشاراً لنكسون ، سيجد في تصحيح هذا الغلط الخطر ، والفيتناميون سيدفعون الثمن ، لكن الدرس ستفهمه موسكو . وكيسنجر يسجل إذاً أن ثمة عملاً محلياً له دلالة تتجاوز ساحة المعركة ويقول : « إن ما نقوم به في الفيتنام ينبغي أن يُقاس بمحدود تتجاوز

(٤١) Agenda For a Nation : (مفكرة للأمة) — هنري كيسنجر ١٩٦٩ .

تجاوزاً واسعاً الفيتنام ذاته. ^(٤٢) فالقنابل المتساقطة على هانوي وهايفونغ تخاطب السوفييت بلغة جد فصيحة .

إن كيسنجر، بعد دخول القوات الأمريكية كمبوديا، يشرح بمزيد من الوضوح دور الحروب المحلية في «الانفراج» بين الدولتين العظميين، قائلاً: «من الحق البدهي القول إن ما قمنا به في كمبوديا هو من أجل الضغط على الروس في الشرق الأدنى. إنما ينبغي ألا يغرب عن بالنا أن الروس، في الواقع، سيحكمون علينا، استناداً إلى حساب نتائج أعمالنا العام، في العالم.» ^(٤٣).

وبعد مضي أربعة أشهر على ذلك، أثبت هنري كيسنجر وجهة نظره تلك، في تعقيبه على إظهار القوة الذي أبدته الولايات المتحدة في الحرب الأهلية التي أدت إلى تضييع الفلسطينيين في الأردن، إذ يقول: «أعتقد أن عملنا في كمبوديا قد برهن على صحة العمل الذي قامت به الولايات المتحدة في الأردن.» ^(٤٤).

إن «الانفراج» بين الدولتين العظميين في عصر Overkill ^(٤٥)، هو قانون النظام الدولي، الأسمى. فهما تتفاوضان في الحد من الأسلحة الاستراتيجية التي تُثقل ميزانيتها. بيد أن هذا «الانفراج» لا ينبغي أن يُفسر على أنه علامة إعياء أو ضعف، ولكي تتبادلا الاقتناع بصدق عزيمتهما بينما هما تتابعان تعاونهما السلمي المثمر، أمامهما مجال الحروب المحدودة، تبديان فيها تصميمهما مع تفاديهما نشوب حرب عامة. أما البلدان الصغيرة التي تجري على أراضيهما هذه النزاعات المحدودة، فهي تدفع بهذه الطريقة ضريبة السلام العالمي. وأما ما ينزل بهذه البلدان الصغيرة من خسائر بشرية ودمار مادي، فهو يمنحها امتياز ضمانها الاضطرابي لشرعية نظام عالمي نذر نفسه للمحافظة على وضع راهن يسحقها.

فالويل للبلدان الصغيرة التي يؤدي تطورها الداخلي إلى تغيير نظام الحكم، فسترى إحدى الدولتين العظميين أن هذا التطور من شأنه أن يزعزع التوازن العالمي. فكل شعب، مهما كان صغيراً يحق له بلا ريب، كما كان يقول جيفرسون «أن يحكم نفسه بنفسه بالشكل الذي يناسبه» وهذا ما قامت به الولايات المتحدة، باسم الحلم الأمريكي، عندما قطعت صلاتها بالتاج البريطاني.

(٤٢) هنري كيسنجر Background Briefing، ٢٦ حزيران ١٩٧٠.

(٤٣) المصدر ذاته.

(٤٤) المصدر ذاته Background Briefing، ١٢ تشرين الأول ١٩٧٠.

(٤٥) التنكيل والتثقيل.

غير أن الحلم الأمريكي لا سبيل له إلى الإفلات من قوانين التاريخ الصارمة. والتاريخ جعل من الولايات المتحدة أكبر دولة، والعالم في حاجة إلى السلام الذي أُقيم على التوازن بين الدولتين العظميين. وإن مبادئ حق تقرير المصير وعدم التدخل، هي، بلا شك، جد سامية، وتجذب بشدة البلدان الصغيرة التي يعينها جيفرسون بقوله إن لها الحق «في تغيير نظام حكمها حسب مشيئتها». إنما على هذه البلدان الصغيرة أن تُدرك أن حقاً، كهذا، منوط بالمفهوم الذي تتبناه الدولتان العظميان في التوازن الدولي.

مسموح للشعوب، بلا شك، أن تحلم إنما عليها أن تبقى واقعية، وإلا فالدمار مصيرها.

قدرة وديمقراطية

ليس السلام إذاً انتفاء للحرب، إنما هو عدم قيامها بين الدولتين العظميين اللتين ترعيان نزاعات متعددة «محدودة»، وتسيطران عليها سيطرة متفاوتة. نزاعات «محدودة»، والفيتنام وحده، قد تلقى من القنابل، أكثر مما أُلقي في مدة الحرب العالمية الثانية بطولها،... إنما لم يُقدر لقبلة واحدة أن تضرب أرض إحدى الدولتين العظميين. فالسلام إذاً ما فهم كذلك، يغدو مثيل توازن بين القوى، توازن غريب يسحق الشعوب الأقل شأنًا. والسلام هذا، يكرّس نظاماً دولياً يمتاز بأشنع أشكال الفوضى بنهب الثروات الطبيعية، وبالجماعات والتجويع وبانقلابات موصى بها (برقياً) من الخارج، وتصفية حسابات وغير ذلك.. ومهما كان هذا النظام الدولي ظالماً، فالسلام، بلمسة واحدة، يُضفي عليه الشرعية!...

وشرعية النظام الدولي هذه تفترض إعادة الفحص والنظر في شرعية الأنظمة التي تختارها البلدان الصغيرة أو تطمح إلى اختيارها. والحلم الأمريكي أعلن أن للشعوب جميعاً الحق في اختيار شكل حكمها، غير أن هنري كيسنجر يعلن بأبهة «أن الولايات المتحدة ما تقبلت قط أن يكون للاتحاد السوفييتي كل الحرية في أن يطبق سياسة انفراج على أساس اختياري أو تنمويه سعيه وراء مكاسب وحيدة الطرف»^(٤٦)، من شأنها إذا ما طُبّق مبدأ تقرير المصير، أن تعدل توازن القوى لصالحه، وتنزع عن النظام الدولي، شرعيته مع توازنه.

يطبق هنري كيسنجر، في جملة التالية، هذا المبدأ العام على حالة بلد «هو من أمد طويل

(٤٦) من خطبة كيسنجر في ١٤ آب ١٩٧٥.

صديق للولايات المتحدة وحليف» إنه البرتغال حيث، — (وهذا ما يضيفه كيسنجر) —، «وينبغي للاتحاد السوفيتي ألا يدعي قدرة التأثير، تأثيراً مباشراً أو غير مباشراً في الأحداث بما يتناقض مع حق الشعب البرتغالي في تقرير مصيره الذاتي.» (٤٧).

وبعد قرنين مرا على جيفرسون، لا تزال الولايات المتحدة إذاً تستمر في احترام حق الشعوب جميعها في حرية التصرف بشؤونها بعيداً عن تدخل أي دولة أخرى.. وكان هنري كيسنجر بتصريحه هذا الذي يعود به إلى المنابع، يقلب رأساً على عقب السياسة التي اتبعتها بلاده تجاه لشبونة. فالبرتغال قد حُرِم وظل محروماً من «حق تقرير مصيره» مدة نصف قرن، والولايات المتحدة، بعد الحرب العالمية الثانية، ثابرت مدة ثلاثين عاماً على دعم دكتاتورية سالازار ثم دكتاتورية كاتانو، اللذين كانا يحركان الشعب البرتغالي من حرية تقرير مصيره هذه، التي يؤكد كيسنجر (في تصريحه المذكور) أن المحاولات السوفيتية تهددها.

يقول وزير الخارجية أيضاً في الخطبة ذاتها: «نحن على أهبة الاستعداد لمساعدة برتغال ديمقراطي». وهذا ما يطابق الحلم الأمريكي، إنما، من العام ١٩٤٥ إلى ١٩٧٤، دعمت الولايات المتحدة حكم البرتغال الدكتاتوري، والبرتغال لا يتمتع بأي حق من الحقوق التي أكد إعلان الاستقلال قدسيته. وإلى هذا يضيف جيفرسون أن الناس عندما يُخضعون «لحكم استبداد مطلق، فمن واجبه الإطاحة بالطغيان». وهذا «الحكم الاستبدادي المطلق» هو الذي ما فتئت الولايات المتحدة، مدة ثلاثين عاماً، تدعمه بالمال وتزوده بالسلاح، حارمة الشعب البرتغالي حقه في التمرد عليه.

على أن كيسنجر يجد السبيل إلى معنى الشرعية الوحيدة التي يقرها إعلان الاستقلال وهي الشرعية الديمقراطية التي تُقيم سلطة الحكم على «قبول المحكومين به». وهو يصرح قائلاً: «لقد عبّر ٨٠٪ من الشعب البرتغالي وأفادوا بوضوح، عن رغبتهم في أن يروا نظام حكم ديمقراطي وأحزاباً ديمقراطية تقوم به في بلادهم» (٤٨).

هذه الرغبة ذاتها كانت قبل ١٩٧٥، وقبل انقلاب ١٩٧٤. وكيسنجر لا يتظاهر بجهله أن نظاماً دكتاتورياً لا يسمح بالتعبير عن رغبة كهذه، وهو يرى أيضاً أن الولايات المتحدة كانت تحتاج

(٤٧) المصدر ذاته في ١٤ آب ١٩٧٥.

(٤٨) المصدر ذاته.

إلى قواعد برتغالية وإلى اسهام البرتغال في حلف الأطلسي، لتحافظ على السلام القائم على توازن القوى. وهذا التوازن كان يُضفي الشرعية على النظام الدولي الذي يُضفي بدوره الشرعية على الدكتاتورية.

لا جدوى من السؤال عما إذا كانت الولايات المتحدة، المحتاجة إلى البرتغال والتي تزوده بمعونة كبيرة، كانت تستطيع ممارسة ضغط عليه، قد يسبب سقوط نظامه الدكتاتوري. فهي لم تقم بذلك ولم تحاول القيام به، فشرعية النظام الدولي أولى من الشرعية الديمقراطية وهذا ما يعبر عنه كيسنجر بصيغة أخاذة، قائلاً:

«إن حكومتنا لا يغرب عن بالها الفارق الخُلقي القائم بين الحرية والطغيان. كما أننا لن ننسى أن السلام هو أيضاً، مطلب خُلقي.»^(٤٩).

لم يكن هذا المنطق، على كل قحته، أقل انصياعاً، في ذرائعته، إلى تجانس باطني تام. غير أن كيسنجر، إذ يحاول المغالاة في البرهنة، يكشف عن الثغرة في حجته، فهو يعرف أن الفارق بين الحرية والطغيان ليس خُلقياً فحسب بل وعملياً إلى حد رهيب. والسلام ذاته «مطلب خُلقي». له مضامينه المحسوسة حتى الافراط. وبالمعارضة الكاذبة بين هذين الواجبين الخُلقيين والتي يُفضل فيها الثاني على الأول (السلام على الحرية)، يكشف كيسنجر عن أن شاغله الحقيقي ليس هنا.

كان النظام الدكتاتوري البرتغالي، في حرب تشرين ١٩٧٣، الحليف الأوربي الوحيد الذي وضع قواعده في خدمة الطيران الأمريكي لنقل العتاد الحربي إلى إسرائيل، فدكتاتورية كهذه تُفضل إذاً على الديمقراطيات: البريطانية والألمانية والبلجيكية والفرنسية أو الطليانية اللواتي رفضن أن تستخدم القوات الجوية الأمريكية قواعد أنشئت على أراضيهم. فكل حكومة ديمقراطية أو غير ديمقراطية، تستمد شرعيتها من الدور الذي تقوم به في خدمة سياسة الولايات المتحدة الشمولية التي لا تتجه إلا إلى المحافظة على السلم بعيداً عن كل أنانية قومية.

تكلم كيسنجر في واشنطن «١١ آذار ١٩٧٤» مخاطباً سامعيه، وجاهلاً أن بينهم صحفيين أمريكيين، وذلك بعد انقضاء خمسة أشهر على رفض الحكومات الديمقراطية الأوربية وضع قواعدها تحت تصرف الطيران الأمريكي. فتحدث بلا تحفظ مصرحاً عندئذ أن أوروبا ما نهضت

(٤٩) المصدر ذاته.

قط ، ولا شُفيت من آثار الحرب العالمية الأولى ، لا لأسباب مادية ، بل تخَلقية ، لأن الحكومات الأوربية ، في نظره ، لم تسترد ثقة الشعب ، ثم أضاف الجملة التالية :

« نادراً جداً ما قامت في أوروبا حكومات تامة الشرعية ، وفي أي بلد منها ، منذ الحرب العالمية الأولى . » (٥٠) .

ما كان لأقوال كهذه إلا أن تُثير عاصفة ، لا في أوروبا وحدها ، بل في الولايات المتحدة أيضاً ، حيث يعتقد الكثير من الأمريكيين أن سيادة الشعب هي معيار الشرعية السياسية الوحيد ، لذلك عمد وزير الخارجية في ١٤ آذار ، إلى تصحيح بارع من شأنه أن يخفف الاستياء ، لكنه لا يحل المشكلة الأساسية .

إلا أن كيسنجر بعد أن بدا آسفاً لواحدة من ملاحظاته « طرحت موضوع شرعية الحكومات الأوربية أو شككت فيها (أو بدت كذلك) » ، يصرح أيضاً :

« المسألة هي أن نعرف ما إذا كانت الشخصية الأوربية تستطيع سبيلاً إلى النمو بالتعاون مع الولايات المتحدة أو ما إذا كان عليها أن تنمو ، بطبيعتها ذاتها فقط ، بمعارضة الولايات المتحدة أو منفصلة عنها . أما نحن ، فنعتقد أن وحدة الغرب ، كانت حجر الزاوية في سياستنا الخارجية ، وستبقى حجر الزاوية في سياستنا الخارجية ، وكل نزاعاتنا ينبغي أن تُعالج بغية حلها ، ونحن نضع هذا الهدف نصب أعيننا . » (٥١) .

هكذا تخون الكلمات مرة أخرى السرائر وتكشفها ، إذ ليس ثمة ما يحول دون تفتيح الشخصية الأوربية ، سواء كانت منفصلة عن الولايات المتحدة أو متعاونة وإياها ، والأصح والأدق هو أن أوروبا لا تستطيع التعاون والولايات المتحدة إلا إذا كان لها كيان منفصل ، غير أن كيسنجر يعطّر خياراً بين التعاون من جهة ، وهو وحده المقبول ، ومن جهة ثانية ، الانفصال أو المعارضة وكلاهما مرفوضان ، وعبارته تفرض أن الانفصال ليس أفضل من المعارضة ، كما لو أن ثمة حركة (ديناميكية) باطنية تؤدي حتماً من الأولى إلى الثانية (من الانفصال إلى المعارضة) . قد لا يكون كيسنجر مخطئاً فيما ذهب إليه ، إلا أنه عندئذ لا يستطيع سبيلاً إلى اقتراح التعاون ، إلا إذا أضفى

(٥٠) صحيفة لوموند ١٣ آذار ١٩٧٤ .

(٥١) صحيفة لوموند ١٦ آذار ١٩٧٤ .

على هذه الكلمة (تعاون) المعنى الذي اتخذته في أوروبا، في أثناء الحرب العالمية الثانية، عندما كان التعاون يعني تنفيذ إرادة الأقوى في كل شيء حتى إذا تجاوزت رغباته، وذلك مبالغة في الاندفاع. وكان كيسنجر، لثلاثة أيام خلت، قد أبدى وضوحاً تاماً عندما قال: «إن أعظم مشكلة في السياسة الأمريكية ليست إلى حد كبير السيطرة على المنافسة بين الولايات المتحدة وأعدائها، بل هي إفهام أصدقائنا أن هناك مصالح مشتركة هي فوق رغبتهم وحدها في إثبات شخصيتهم، والولايات المتحدة ليس لها أي اعتراض على سياسة أوروبية مستقلة، إلا أنها تعترض إذا ما اتخذ هذا الاستقلال شكل عداء أساسي لها، وإذا ما اتخذ الأوروبيون، في أزمة يمكن تسويتها بالتعاون بينهم وبين الولايات المتحدة، موقف منافسة قائماً على الدراسة والتروي.»^(٥٢)

هكذا تكون المنافسة مع الولايات المتحدة شرعية إذا ما قام بها أعداؤها لأنها ناجمة عن توازن قوى لا سبيل إلى تعديله، إلا بزعزعة النظام الدولي. غير أن الأوروبيين لا يحق لهم الدخول في منافسة مع الدولة الأمريكية العظمى لأنهم، وهم الأضعف منها، لا غنى لها عنهم لتحقيق التوازن العالمي الذي يُضفي الشرعية على موافقة الأوروبيين التامة لوجهات نظر واشنطن. والولايات المتحدة تنظر نظرة موضوعية إلى مصالح العالم الغربي المشتركة، بينما يُبدي الأوروبيون استعدادهم لإفساد هذه المصالح المشتركة «ليس إلا للرغبة في إثبات هويتهم»! هنا تبدو عقلية الأوروبيين، عقلية ما قبل النيوتونية، فهم إذ يستبطنون العالم الواقعي، يلقون عليه نظرة ذاتية مع تهيؤهم للتضحية بأكثر المصالح الملموسة من جراء اهتمامهم بتأكيد شخصيتهم، إنه موقف انتحاري يطرح على السياسة الأمريكية، كما يرى كيسنجر، «معضلتها الكبرى».

عندما يقول وزير الخارجية أن ليس لديه أي اعتراض على سياسة أوروبية مستقلة فهو لا يقصد إلا صيغة في الأسلوب، إذ أنه في الجملة ذاتها يماثل ما بين «عداء أساسي للولايات المتحدة» و«مواقف المنافسة»، هذا الذي قد يتخذه الأوروبيون. وهي منافسة تجارية تدفع واشنطن إلى أن تطالب بانفتاح المجموعة الأوروبية الاقتصادية انفتاحاً أكبر على المنتجات الأمريكية، ومنافسة نقدية تحت واشنطن على أن تطالب الأوروبيين بقبول دولارات غير قابلة التحويل، كما لو أنها ذهب خالص ومنافسة سياسية، تُشجب وتُستنكر لدى أول اختلاف في وجهات النظر بين أوروبا والولايات المتحدة.

(٥٢) جريدة لوموند ١٣ آذار ١٩٧٤.

لذلك عندما يحدد هنري كيسنجر ما كان دائماً وما سيبقى «حجر الزاوية» في الدبلوماسية الأمريكية، يتحدث أيضاً عن وحدة بلدان الغرب وليس عن تضامنها، والوحدة تفترض كتلة متجانسة من البلدان. لها في كل مجال مصالح متماثلة تماثلاً مطلقاً، وخاضعة برضاها واختيارها، لإرادة وسلطة مشتركيتين، والتضامن يفرض التزاماً حراً بالأمور الجوهرية وبالتفاهق على ذلك بين حكومات ذات سيادة تتبادل احترام اختلاف مصالحها، في مجالات لا تُسيء إلى الثقة المتبادلة.

أما وزير الخارجية فلا يكفيه هذا التضامن، لأنه يُتيح في بعض الأحيان، للدول الأوروبية أن ترفض ما تتطلبه منها الدولة العظمى أمريكا. ومن أكثر الأمثلة جدة على ذلك—(دون تعداد يتطلب إفاضة طويلة)—ما قام به هنري كيسنجر في نيسان ١٩٧٥، عندما طلب من المجموعة الأوروبية «إدانة عدوان» الشيوعيين الفيتناميين على الجنوب وتصريحه عندما رفضت طلبه، أن موقفها هذا، «ينسف معايير الشعور بالمسؤولية» الدولية. هذه المعايير التي لها دلالتها. ثم عمد إلى المطالبة بتعاون وشورى وثيقين بين الولايات المتحدة والمجموعة الأوروبية في مناطق المصالح الأساسية ومنها الفيتنام، ومع أن الولايات المتحدة قامت بمبادرات في الهند، لم تستشر فيها حلفاءها، يرغب هنري كيسنجر في أن تكون المعونة الإنسانية، ذاتها، التي يقدمها الأوروبيون لضحايا الحرب موضوع شورى سالفة، بينهم وبين الولايات المتحدة.

أما الاعتراضات التي تستطيع أوروبا توجيهها إلى أماني واشنطن، فليست أكثر شرعية من اعتراضات أمريكا اللاتينية، فكلاهما لا تخدمان التوازن الدولي إلا بوصفهما قوى رافدة للدولة العظمى، التي هي الحكم الأوحد في نهاية المطاف فيما هو صحيح ومفيد للدفاع عن مصالح العالم الغربي بمجموعه. والحوار بين أوروبا والولايات المتحدة، شبيه، من هذه الوجهة، إذا ما وضعنا جانباً كل اعتبار آخر، بالحوار بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية.

هكذا بدأ هنري كيسنجر «حواراً جديداً» مع شعوب جنوب القارة، وفي آن واحد، دفع إلى التصويت على قانون تجارة جديد يحرم من نص الدولة الأكثر رعاية، البلدان الأعضاء في المجموعات التي تحدد سعر البترول أو مواد أولية أخرى. وهذا البند من قانون التجارة المذكور يستهدف بلدين عضوين في منطقة البلدان المصدرة البترول «الأويك»، هما فنزويلا والأكوادور، اللذين تُناط سيادتهما بما تعترف به لهما واشنطن من شرعية، بموجب سلطتها التقليدية. ومادامت قرارات الدولة السيدة لا تقبل المراجعة و«الاستئناف»، لم يكن لبلدان أمريكا اللاتينية إلا التضامن

مع فنزويلا والأكوادور، وإلا أن تُلغى في كانون الثاني ١٩٧٥ الإجتماع التي كانت ستشارك به مع هنري كيسنجر بعد شهرين.

أما أوروبا فقد علمت، من جانبها، برغم مقاومة ميشيل جوبير، أن ليس عليها إذاً أن تحسب أي حساب للاختلاف بين أوضاعها، ومصالحها، وأوضاع الولايات المتحدة ومصالحها، فالولايات المتحدة هي أول بلد منتج للبترول، بينما تكاد أوروبا تستورد كل ما تستهلكه منه. ولكن لا شأن يُذكر مادام على الأوروبيين أن يظلوا متضامين وواشنطن، أي أن يقفوا إلى جانب مقرراتها، ومع بعض المدارة الشكلية البحتة. جرى الأمر ذاته في تنظيم الحوار الشمالي-الجنوبي، بين البلدان الصناعية والبلدان المتخلفة.

وكيسنجر، شأنه شأن السلف في وزارة الخارجية، يدعو إلى الشورى، لكن واشنطن، بلا أي مشورة أعلنت في شهر آب عام ١٩٧١، عدم تحويل الدولار وإضافة ١٠٪ إلى ضريبة الواردات. وقد كتب تشارلز فرانكل في ذلك ما يلي:

«إن مريدي فلسفة الواقع، وهنري كيسنجر مثال عليهم، يستطيعون بحق أن يلوموا أنفسهم على عدم إيلاء الأمور الاقتصادية الدولية الاهتمام الكافي، هذه المسائل التي أوجدها توسع الشركات الكبرى عبر الحدود، وكذلك توسع الاستثمارات والتقنيين والنقود، وإذا ما استثنينا حرب الفيتنام، من الصعب أن نجد عملاً أضرب بوضعنا الدولي وبالاقتصاد العالمي أكثر مما أضرت به القرارات الوحيدة الطرف المتخذة بشأن الدولار وعجز الميزان التجاري»^(٥٣).

غير أن تشارلز فرانكل، يتكلم كلام «المثالي» القريب من الحلم الأمريكي، المتطلع إلى شمول الكون بكل أريحية، وهو ينكر «الواقعية» التي تُقيم الشرعية السياسية على القوة: العامل الوحيد القادر على الضغط على توازن القوى الذي يحدد النظام الدولي. وسياسة القوى ليست بكل تأكيد، بالأمر الجديد، وقد كان للأوروبيين دورهم فيها، قبل هنري كيسنجر، وكانت تلائم مفاهيم نابليون ومترنيخ وبسمارك. وهي دون ذلك تلاؤماً وروح الأنظمة الديمقراطية التي هي مضطرة، بلا شك، إلى أن تحسب للعبة الدبلوماسية حسابها، لعبة الدول التي لا تعرف حقاً سوى حق القوة. غير أن للديمقراطية ما تحسره على الدوام. عندما تضع في نهجها مبادئ غريبة عنها.

(٥٣) تشارلز فرانكل «الأخلاق والولايات المتحدة»: السياسة الخارجية ص: ٥١.

إن دبلوماسية تتلاءم كل التلاؤم والمبادئ الديمقراطية التي يتكون منها جوهر الحلم الأمريكي، لا سبيل إلى نهجها في عالم يسوده النزاع، ومع ذلك فالفارق (بين ديمقراطية تنقاد، غير راضية ولعجزها عن تصرف مغاير— إلى التضحية— أمام بعض نسب القوى، بأحد مبادئها، وبين ديمقراطية تنهج في إقامة دبلوماسيتها على إنكار حقوق تدعي الولاء لها)، هو فارق نوعي لا نسبي.

لقد أضفى هنري كيسنجر الشرعية على نظام «ثيو» في ساينغون وعلى عسكري البرازيل وعلى «كايتانو» في البرتغال و«بينوشي» في الشيلي، بتعريف مشين للنظام الدولي. وقد قصد الرئيس فورد في أوائل عام ١٩٧٥، مدريد استناداً إلى مبادرة كيسنجر ليجدد تبيينه النهائي لشرعية «فرانكو» العابرة كالذي ما لبث أن دخل في طور الاحتضار. فأنظمة كهذه، مهما بلغت في استبدادها، تتسم، إذا ما صدقنا هنري كيسنجر، بشرعية لا تملكها الدول الديمقراطية الأوروبية في المستوى ذاته، لأنها أكثر ارتباطاً وتبعية، بلا شك، وأكثر انصياعاً وعبودية.

فهل تكون هذه الأنظمة أكثر نفعاً للدفاع عن مصالح الغرب؟ هل تكون أكثر فائدة في خدمة مصالح الولايات المتحدة، القومية البحتة؟ قد يكون الجواب نعم، إنما لا برهان عليه، إذا ما أعطينا هذه المصالح تعريفاً مادياً صرفاً، لكن الجواب، في المقابل، هو بالضرورة سلبى، إذا كانت هذه المصالح المادية لا تنفصل عن الحقوق الأساسية التي تميز نظاماً ديمقراطياً.

إن هنري كيسنجر يوحى، في بعض الأحيان، الانطباع بأنه، في صميمه، يوافق على هذا التعريف الأوسع لمصالح الغرب، فهو الذي يصرح، «على سبيل المثال»، في سعيه وراء التنمية قائلاً: «ينبغي أن نحسب للتجربة حسابها». ثم يضيف على الفور: أن الخبرة تعلمنا ما يلي وهو «أننا نعرف ما هي الأنظمة الاقتصادية التي حالفها النجاح، وما هي التي أخفقت، وإننا نعرف المجتمعات التي تقدمت على الصعيد الاقتصادي وتلك التي ركدت في مكانها»^(٥٤).

فما هي المجتمعات التي يخطر له، هكذا، أن يضرب بها المثل؟ هل يقصد المجتمعات الديمقراطية التي حاولت تخفيف جشع المصالح الكبرى الخاصة الأعمى، حين أدخلت في إتخاذ القرارات الاقتصادية السياسية هذا الجمهور من المواطنين الذين يمثلون اقتراباً من المصلحة العامة أكثر صحة؟ فخطابه يُشير إلى أنه أقرب إلى التفكير بالأنظمة الرأسمالية، فهو، الذي كان أستاذاً

(٥٤) هنري كيسنجر، من خطاب له في ١٤ تموز ١٩٧٥.

جامعياً، لا يستطيع أن يجهل أن النظام الرأسمالي الحديث لا ينفصل عن ديمقراطية متعددة الجوانب .

ومهما كان الأمر ، فالمجتمعات الأوربية سواء منها الرأسمالية أم الديمقراطية ، لا تتمتع في نظر هنري كيسنجر إلا بشرعية غير ثابتة ، وهو لا يُبدي حكمه هذا متسرعاً ، وفي وقت هو مُطلع فيه كل الاطلاع على تصرفات الرئيس غير الدستورية ، هذا الرئيس الذي جعل منه وزيراً للخارجية ، هو الذي سيكره ، بعد مرور أشهر معدودة ، على مغادرة البيت الأبيض .

إن صحيفة «نيويورك تايمز» خوّلت نفسها عندئذٍ توجيه هذا الرد إلى ملاحظة كيسنجر التي «لا تُصدق» قائلة : «إن للديمقراطيات النيابية الأوربية الحق في الرد بأن ليس لها أن تتلقى دروساً في الشرعية من الحكومة التي يخدمها السيد كيسنجر»^(٥٥) .

وثمة سؤال وجيه جداً لا يزال مطروحاً ، عبر مفاهيم رجل دولة لا يُقيم شرعية النظام الدولي إلا على حركة التوازن بين الدول ، وعبر إضافته الشرعية على الأنظمة السياسية استناداً إلى اسهامها الإرادي الضعيف بتسيير دبلوماسيته ، هذا السؤال هو : ألا يكون الحلم الديمقراطي قد شوّهته ، تشويهاً لن يزول أثره ، سياسة قوة لم تحل دون امتداد الشيوعية إلى كوبا والفيتنام ولاوس . بينما تتكاثر الأنظمة الدكتاتورية العسكرية في قارات تُثبت فيها مواقفها بفضل ما تتلقاه من دعم واشنطن ؟ وهل يستطيع الحلم الأمريكي البقاء عندما نرى السلطة ، التي تدعي أنه حلمها ، تسحق أنظمة ديمقراطية هشة وفي كل مكان تقريباً ؟ .

ازدواجية أخلاق

بدأت فضيحة وترغيت تفتح عيون الكثير من الأمريكيين على نقطة جد هامة ، هي أن ثمة صلة وثيقة العرى بين الوسائل اللاشرعية التي تلجأ إليها حكومة عبر حدودها ، وبين الوسائل التي تماثلها لا شرعية ، والتي لا تتردد هذا الحكومة في اللجوء إليها أيضاً في سياستها الداخلية . إنها السلطة ذاتها التي سحقت الديمقراطية في الداخل ، ودعمت أنظمة دكتاتورية في بلدان عدة ، والتي عاقت السير الديمقراطي الأمريكي الشرعي بالكذب والفساد والسطو على المنازل وانتهاك حرمة الدستور .

(٥٥) لوموند ١٤ تموز ١٩٧٥ ..

من الأمور التي يسهل كثيراً تقبلها، أن بعض التصرفات التي لا تُعد مقبولة داخل بلد ما، يمكن تحملها وقبولها في السياسة الخارجية^(٥٦). فعند بضعة سنوات استنكر الكونغرس أن تُنشر على الرأي العام الأمريكي وثُبت دعاوات مخصصة للخارج تمولها مصادر مكتومة، أي أن الكذب ذاته إذا ما وجه إلى حاملي جنسيات دول أخرى، فهو عمل مشروع، إلا أنه يفقد شرعيته هذه في حالة توجيهه إلى مواطنين أمريكيين^(٥٧)، كذلك شأن التدخلات في الحياة الخاصة. وكذلك الانغتيال السياسي، أمور تُدان بشدة في داخل الولايات المتحدة، إنما يمكن التساهل فيها عبر حدودها. وهذا يعني نسيانهم أن الثورة الأمريكية ما كانت تسعى وراء الحلم المستحيل، في إقامة «الديمقراطية في بلد واحد»، بل إن هذه الثورة، على نقيض ذلك، بما تقدمه من مثال، وبما تعلنه من مبادئ على العالم قاطبة، تتوخى، بشيء من الواقعية، مدى عالمياً.

السلطة ذاتها هي التي توجه السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، وهي ذاتها التي تُحدد الأهداف على هذين الصعيدين، وتختار الأساليب وتعين المسؤولين في مناصبهم. ومن السذاجة المفرطة الظن أن هذه السلطة الواحدة تنهل من مفهوميين سياسيين ومن تربيين للقيم ومن نهجين في الأخلاق مختلفين، وذلك حسب عملها على الصعيد الداخلي أو عملها على الصعيد الدولي. فالقطاعان يتفاعلان (ويؤثر كل منهما في الآخر).

سيكون من الصعب دائماً أن نعرف ما إذا كان انعدام الضمير في الشؤون العالمية قد نقل عدواه إلى السلطة ولوثها إلى حد جر الرئاسة إلى فضيحة وترغيت، وجر C.I.A إلى التجسس على شخصيات أمريكية، أو على النقيض، أن نعرف ما إذا كان فساد الحياة السياسية في الداخل قد امتد شيئاً فشيئاً إلى الصعيد الدبلوماسي. ولعل هذين التيارين قد تواجها. ولعل تفاعلها قد شجعت عليه شخصية ريتشارد نكسون، الذي أبان منذ حملته الانتخابية الأولى في كاليفورنيا، أن الغاية تبرر الوسيلة في رأيه. فالرجال الذين أحاط نفسه بهم في البيت الأبيض، لم يكونوا أنقى وجداناً منه، في الأعم، والسياسة الواقعية هي السائدة على المسرح الدولي وعلى المسرح الأمريكي في آن واحد.

إن الفضائح التي لا حصر لها، مما انكشف منذ إعادة انتخاب نكسون (١٩٧٢)، كان

(٥٦) ما كتبه تشارلز فرانكل في كتابه المذكور (ص: ٥٧).

(٥٧) الإمبراطورية الأمريكية (للمؤلف) ص: ٣٨٨-٣٨٩.

أدرك انتوني ليويس، من محرري (صحيفة نيويورك تايمز)، أكثر من أي معلق أمريكي آخر، موقف كيسنجر «وسواس النظام والسلطة على حساب الإنسانية»، وفي آن واحد «تعصب شديد ضد الديمقراطية، فيا حبذا لو كان مستشاراً للملك مطلق». ^(٥٩) إن الحلم الأمريكي يغدو نفيًا لذاته، إذما جُرد من هم ممارسة السلطة ممارسة إنسانية، وفي حدود احترام قواعد الديمقراطية.

الاعتراف بحق الشعوب في اختيار شكل حكمها، ثم، في آن واحد، العمل على قيام أنظمة دكتاتورية ودعمها باسم توطيد النظام الدولي— وإعلان الحرية حقاً مقدساً، ثم تلقين قوى الأمن الأمريكية— اللاتينية دروساً في التعذيب، وتمويل «أقفاص التمور» في الفيتنام— تمجيد مناقب الديمقراطية، ثم تبرير تجاوز كينيديكوت وأنكوندا في التشيلي وشركات كبرى أخرى متعددة الجنسيات في العالم الثالث. هذه الوجوه المختلفة، في دبلوماسية ما، تلتقي بالمعارك الداخلية القائمة بين المساواة والتمييز العنصري ^(٦٠). وفي صور متباينة، يقف وجهاً لوجه، في النزاع على صعيد السياسة الداخلية، وعلى صعيد السياسة الدولية، الأمريكيون المصممون على أن يعيشوا حلمهم، والأمريكيون الذين يرون في أسوأ الأحوال، هذا الحلم ضرراً، وفي أفضلها، قناعاً يستر مرامي أقيح.

العلاقة بين انتهاك القواعد الديمقراطية، في الداخل والخارج، غدت في مجرى السنوات الأخيرة محسوسة جداً. ففي شهر آب ١٩٧٥، اعترفت شركة البترول (Ashland Oil Inc) بأنها رشّت سياسيين أمريكيين، كما رشّت رؤساء دول أجنبية: قدمت معونات مالية انتخابية إلى رشارد نكسون (١٠٠,٠٠٠ دولار) وإلى عدد من النواب، وفي آن واحد كانت «تشتري» مع آخرين، الرئيس بونغو، رئيس الغابون (١٥٠,٠٠٠ دولار) ^(٦١).

هنات بسيطة، فشركة Gulf Oil Corp. أدينّت قضائياً، وحُكم عليها لأنها استعملت استعمالاً غير قانوني، ولغايات ماثلة، ١٠٣ ملايين دولار، وذلك بين عامي ١٩٦٠ و ١٩٧٣. وتزوير الحسابات الذي لا غنى عنه، كان يجري مع فرع مستقل من فروع الشركة المقيمة في «فرع

الأمريكيين يرون كلام هنري كيسنجر كالأنجيل. «وقد اتهم الرئيس السابق نغوين فان ثيو نيكسون وكيسنجر بإخلاف وعودهما بأنهما برهنا على أنهما «غير مسؤوليين وغير إنسانيين، في معاملة حليف». (يو. اس. نيوز اند ورلد ريبورت، ٥ أيار ١٩٧٥).

(٥٩) انترناشيونال هيرالد تريبيون ٢٨ شباط أول نيسان ١٩٧٥.

(٦٠) الفصول ١-٢-٣ من هذا الكتاب.

(٦١) التام ١ أيلول ١٩٧٥.

جزر الباهاما». وكانت المبالغ السرية تمضي إلى رتشارد نكسون (١٠٠.٠٠٠ دولار عام ١٩٧٢)، وإلى أعضاء في مجلس النواب والشيوخ (ويلبور ملز، نائب، وهنري جاكسون عضو مجلس شيوخ. وغيرهم)، وإلى «شخصيات أجنبية» (٦٢) أيضاً، ولا سيما في كوريا الجنوبية: التي لا تربطها صلات وثيقة بالديمقراطية وإلى غيرها من البلدان أيضاً.

وأما أقوى شركة بترولية (اي إكسون كورب) (Exxon Corp.) التي كان لها أن تحرز قصب السبق، فقد اعترفت بتوزيعها ٤٦ مليون دولار، في الأقل (٢٠٧ ملايين فرنك) إلى أحزاب سياسية إيطالية بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٧٢، بغية الحصول على مزايا تشريعية. وقد كشفت الشركة المذكورة عن أساليب مدهشة في إدارتها حين أوضحت أنها أمرت بصرف ٢٧ مليون دولار، وأن فرعها، إيسو الطليانية، وزعت مبلغاً بين ١٩ مليون و ٢٢ مليون دولار «بلا أمر صرف». وفسرت الشركة (رشواتها) هذه برغبتها في السعي إلى «تقدم الديمقراطية» في إيطاليا. وفي توزيع هذه الهبات، نال الحزب الديمقراطي حصة الأسد، كما وصلت بعض المبالغ إلى الحركة الاجتماعية الإيطالية (الفاشية الجديدة) وإلى صحف لها ميول شيوعية... وبلا توضيح، اعترفت الشركة (إكسون كورپيشن) ذاتها، أنها قدمت «معونات سياسية» إلى بلد آخر من أوروبا الغربية، وإلى كندا. وكانت بكل انتظام تُعلم سفير الولايات المتحدة في روما، غراهام مارتن، الذي طلب من سي-آي-إي C.I.A. (وكالة الاستعلامات المركزية)، عام ١٩٧٠، أن تستأنف تمويلها السري للحزب الديمقراطي المسيحي، ولم يُلب طلبه، فالوكالة الجاسوسية المذكورة، لا يسعها أبداً أن توزع مبالغ تعادل ما تستطيع توزيعه الشركات البترولية الكبرى. وقد تابع غراهام مارتن نشاطه في خدمة الديمقراطية وهو سفير في ساينغون. فالفساد، وهذا ما يصرح به فرانك تشورش، رئيس لجنة التحقيق في أعمال الشركات الكبرى المتعددة الجنسيات «هو سرطان ينتشر متكاثراً في نشاط الشركات في الخارج، وعلينا أن نجد وسيلة لإيقافه» (٦٣).

عمدت شركة موبيل أويل كورپيشن (لدعم الديمقراطية السياسية في إيطاليا) أيضاً، إلى دفع ٢٠٠.٣٦٠ دولار إلى أحزاب سياسية إيطالية بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٣، وقد لفت عضو مجلس الشيوخ (السناتور) فرانك تشورش نظر الشركة المذكورة وتعقيباً على اعترافها بتقديم

(٦٢) واشنطن بوست ١٣ آذار ١٩٧٥.

(٦٣) انترناشيونال هيرالد تريبيون ١٤، ١٦، ١٨، ٢١ تموز ١٩٧٥. في كانون الأول ١٩٧٥ وافق جيرالد فورد على مدفوعات (C.I.A.) إلى الحزب المسيحي الديمقراطي الإيطالي.

المبالغ المذكورة، إلى أنها زورت بذلك حساباتها ذاتها، فغشت إذاً الديمقراطية الأمريكية . وفي الواقع يبدو أن غرض الشركة كان، كما يبدو، تشجيع الإيطاليين وحشهم على بناء محطات لتوليد قوة كهربائية تعمل بالمازوت، وليس مفاعلات الطاقة النووية^(٦٤).

إنها بعض أمثلة، مما هو حديث عهد ومن التي تخص بلداً أوروبياً . وقد أتبعنا الطرق ذاتها على صعيد واسع في أمريكا اللاتينية وإفريقية وآسية، حتى لا نرى أن من الضروري، التذكير بالمليون دولار التي قدمتها (I.T.T) شركة البرق والهاتف للإطاحة بنظام حكم سلفادور اللندي . فالمال الموزع هكذا، وإن لم يصل إلى حد العمليات الانقلابية، يفسد الديمقراطية، ويعطل سيرها، سواء في الخارج أو في الولايات المتحدة.

أما على الصعيد الداخلي فمن شأن القانون الخاص بالحملة الانتخابية^(٦٥) على ما فيه من نواقص، أن يسهم في إصلاح هذا الوضع . والاهتمام ذاته دفع الكونغرس إلى التحقيق فيما لجأت إليه الوكالة المركزية (C.I.A) في الخارج، والشركات الكبرى من طرق تنافي الدستور . وقد أدرك عدد لا بأس به من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب أن خطباً جميلة في مدح الديمقراطية، في داخل الولايات المتحدة وخارجها، أُلقيت لتقويه أهداف لا تمت بصلة إلى الحلم الأمريكي . وإنما صلتها البحتة بالإتجاه الرأسمالي . فهذه الشركات الكبرى، في سبيل بلوغ غاياتها، لا تضيق ذرعاً بتقديرات قانونية أو شرعية بل الأصح، أنها تُضفي الشرعية على الوسائط غير القانونية التي تستخدم مآربها .

إن الفلسفة التي تستوحي منها تلك الشركات أعمالها في الخارج تذكرنا بسياسة قوى المال بعد الاستقلال وفي القرن التاسع عشر بطوله . فالكسندر هاملتون وجون جاي ومن لف لف لفهم من أصدقائهم، ثم بعدهم « قادة الصناعة » و« البارونات اللصوص »، كانوا يلحون بلا حرج على دعم حقوق قوة المال، وحقوق سلطان المالكين . هذه الحقوق التي كانت تُتيح لهم إما إخضاع القانون لمصالحهم، وإما وضع أنفسهم فوق القانون^(٦٦)، ولكن الرأي العام قد تطور، والتعبير بهذه الفظاظ أصبح اليوم من المحال . وغداً على واقعية العمل، من الآن فصاعداً، أن تتستر في طيات الخطب الديمقراطية أو الوطنية .

(٦٤) انترناشيونال هيرالد تريبيون، ١٩ — ٢٠ تموز ١٩٧٥ .

(٦٥) الفصل الأول من هذا الكتاب .

(٦٦) الفصل الأول .

ومن البدهي أن غضب الكونغرس الشديد لا يعني أنه يريد التضحية بالواقعية الاقتصادية على مذهب فكرة مجردة، قد تُدعى التشبث بالحلم الأمريكي، إلا أن الكونغرس يأبى أن تحطم هذا الحلم نزعة تجارية تشل سير المؤسسات الديمقراطية وتفسده.

وتزداد مهمة الكونغرس صعوبة، ولا سيما وهو يحاول، بصورة ما، مجابهة مجرى التاريخ. فقد كان للإلتجاء الرأسمالي، في عقلية الآباء والأجداد المؤسسين، الغلبة الواضحة على الإلتجاء الديمقراطي. وتحديد الأفضليات هذا ظهر، أول الأمر في تنظيم المجتمع الأمريكي، ثم ظهر بعدما اكتسب هذا المجتمع قوة لا تُتيح له الزيفان من التزاماته العالية في سياسته الخارجية، وفي كلا الحالين كان تنظيم السلطات ذاته يلائم هذا الاختيار (ترجيح الرأسمالية على الديمقراطية). وقد اتجه الكفاح الشعبي ترافقه أعمال قمع عنيفة وفضائح سياسية أو قضائية، إلى أن يُعيد للإلتجاء الديمقراطي رويداً رويداً، حقوقه في داخل الولايات المتحدة، فهل تستطيع مقاومة مرامي الامبراطورية الأمريكية، التي رافقتها أيضاً وحشية وفضائح، أن تُعيد للروح الديمقراطية حقوقها في تحديد سياسة خارجية وفي توجيهها؟.

إن ثورة كهذه لا بد لها من جهد يتوخى انعاش الديمقراطية في الداخل، ولا بد لها من شد أزر مراقبة برلمانية (من الكونغرس) للعمليات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي تقوم بها الحكومة الأمريكية في الخارج.

كان ينبغي، عملياً، انتظار زعزعة المشروع الرأسمالي من جراء أزمة ١٩٢٩ — ١٩٣٠ الكبرى، كما رأينا، كي يسترد الإلتجاء الديمقراطي حقوقه مؤقتاً، في «العهد الجديد». لكن على الرغم من «سياسة حسن الجوار» التي اتبعتها روزفلت لإزاء أمريكا اللاتينية، لم يتجاوز قلب ترتيب الأفضليات الصعيد الداخلي حيث كانت تُطرح أشد المسائل حاجة إلى الحلول. وأضحى المقصود آنذاك معرفة ما إذا كان قلب ترتيب الأفضليات يمكن أن يتحقق في آني واحد، لأن الوجهين غير منفصلين في السياسة الداخلية وفي السياسة الخارجية.

وإذا كانت المسألة تتطلب عندئذ معركة ذات مدى لم يسبق له مثيل، وعلى مستوى دور الولايات المتحدة العالمي، إلا أنها مع ذلك، كانت مطروحة منذ ميلاد الجمهورية الأمريكية.

دبلوماسية تجارة

اهتم الآباء المؤسسون، وهم يعطون المكان الأول لحقوق المالكين، بتنظيم علاقات القوة في أول الأمر على المسرح القومي، غير أن المفاهيم التي عرضوها ونشروها، كان لا بد من انعكاسها على المسرح العالمي.

المدوبون الذين اجتمعوا في فلادلفيا لوضع الدستور، كانت تعيينهم مجالس المستعمرات التشريعية التي كان ينتخبها دافعو الضرائب^(٦٧)، ولكي ينتخب أحدهم نائباً كان ينبغي أن يكون دخله مئة ليرة (في نيوهامبشاير والماساشوستس) وعشرة آلاف (كارولينا الجنوبية). أما أعضاء مجلس الشيوخ فلم يكن ينبغي أن يكونوا من البروتستانت (في هامبشاير وجورجيا) فحسب، بل أن يملكو أيضاً ١٢٠ هكتاراً (كارولينا الجنوبية) أو عقاراً ثمنه ١٠٠٠ ليرة (نيوجرسي وماريلاند) و ٢٠٠٠ ليرة (كارولينا الجنوبية).

إن الشروط المطلوب توافرها في الناخبين والمرشحين، في آن واحد، كانت تُتيح أن يكون واضعو الدستور (المجلس التأسيسي لوضع الدستور)، ساهرين وغيورين على مصالح طبقتهم، وهي مصالح لا تخدمها أعمال الحكومة على الصعيد الداخلي البحت فحسب — كنزيع الأراضي، ووفاء الديون بقيمة إصدارها^(٦٨) — بل ما يخص التبادلات الخارجية أيضاً، كالرسوم الجمركية، والمعونات التي تمنحها الحكومة من أجل بناء البواخر التجارية ولإصلاح المرافق العامة وغير ذلك. وكان النضال الطبقي يفرض سياسة خارجية معينة، فالأغنياء كانوا يرغبون في قيود جمركية، وضرائب جمركية مرتفعة من أجل تقدم الصناعة، ترفع أسعار الواردات وترهق الفقراء^(٦٩).

كان واضعو الدستور قد أحيطوا علماً بكل وضوح بما يُنتظر منهم، «وما له شأن هام في نظام جمهوري أن نحمي جزءاً من المجتمع من ظلم الجزء الآخر... فالمجتمع ذاته سينقسم إلى عدد

(٦٧) ينبغي للأمريكي كي يكون نائباً أن يملك عشرين هكتاراً (في ولايات: ديلاوار، ماريلاند، فيرجينيا، كارولينا الشمالية، كارولينا الجنوبية)، أو أن يكون دخله كبيراً، إنما قابلاً للتغيير. لم يكن باب الاقتراع مفتوحاً بسعه إلا في ولاية نيوهامبشاير.

(٦٨) الفصل الأول.

(٦٩) الفيدرالي العدد ٥١.

من الأجزاء (كتكتلات المصالح المتضاربة وطبقات المواطنين) ، يبلغ من الكثرة ما يحول دون تهديد حقوق الأفراد أو الأقلية ، من قبل التدابير التي تخدم مصالح الأغلبية »^(٧٠) .

والأثرياء يؤلفون هذه الأقلية ، التي تجيد حماية حقوقها من جشع أغلبية من الناس المتواضعين ، أو الفقراء الذين يؤلفون ، كما يقول رئيس المحكمة العليا جون مارشال^(٧١) : « في كثير من الولايات أغلبية واضحة من الشعب ، وكانوا أقوياء فيها جميعاً » .

يقول الكسندر هانسون ، مندوب ولاية المارييلاند ، في نشرته التي يؤيد فيها تعديل الدستور ، عارضاً بكل صراحة حجج الأغلبية من واضعي الدستور : « لقد قيل لكم ان المشروع المعروض عليكم قد وُضع في الأنحص لصالح الأغنياء . وفي الحكومات كلها ، لا في الحكومات المستبدة فحسب ، ينبغي للأغنياء في كل شؤون الحياة ، أن يجدوا ميزة في امتلاك ما ليس هو سوى غرض الإنسان وهدفه . والخطة المقترحة عليكم ، ليس فيها شيء من التمييز لصالحهم .. أمن الإنصاف أن يُلام الدستور على ضمان الملكية ؟ .. أم أن المعارضين يريدون إثارة عراك عام ؟ » .

ويستنتج تشارلز بيرد ، في دراسته لدستور الولايات المتحدة أن المالين وحاملي السندات وأصحاب المصانع والتجار ، وتجار الأسلحة ، قد دعموا الموافقة على الدستور . وهو يبين كيف أن الشروط المطلوبة في الناخب والمرشح وتقسيم المناطق الانتخابية ، قد ساعدت على أن يمثل المالكون في المجالس التي تأسست في كل ولاية ، لدراسة مشروع الدستور ، وهكذا لم يوافق على الدستور ، في نهاية المطاف ، سوى قلة من السكان .

الأكثر من ذلك ، كما يلاحظ شارلز بيرد ، أن الأعضاء المؤسسين أنفسهم ، إذ يمثلون طبقة معينة ، كانوا بمعظمهم ، يجدون كسباً شخصياً في بنية دستورية وضعت لتخدم مصالحهم الاقتصادية ، ويقول :

« إن أغلبية ساحقة من المندوبين لمؤتمر فلادلفيا ، أو خمسة أسداسهم في الأقل ، كانت تهمهم نتيجة أعمالهم (في الدستور) ، آتياً ومباشرة وشخصياً . وقد حققوا كسباً تفاوتت أهميته بالموافقة على الدستور »^(٧٢) . وقد يدعو العكس إلى الدهشة ، والحال دائماً على هذا المنوال ، وفي

(٧٠) الفيدرالي العدد ٥١ .

(٧١) في كتابه حياة واشنطن الموضوع بين عامي ١٨٠٤ — ١٨٠٧ .

(٧٢) تشارلز بيرد . كتاب التفسير الاقتصادي لدستور الولايات المتحدة ص : ١٤٩ .

جميع البلدان عند تنظيم بُنى مجتمع من المجتمعات . وفي الولايات المتحدة ظل أثر هذه البُنى مدة طويلة محسوساً ، في الأخص ، في السياسة الداخلية وفي العلاقات مع أقرب البلدان جواراً ، مثل أمريكا الوسطى وجزر الكاريبي . وبقدر ما كانت ترسخ قوة الولايات المتحدة ، كان يزداد انعكاس هذا الأثر في مناطق أبعد . وبابتداء الحرب العالمية الثانية وبظهور الولايات المتحدة مظهر الدولة الأولى في العالم المتدخلة في سياسة كونية ، غدت الأفضلية التي منحها الدستور للإتجاه الرأسمالي تعني الأرض كلها .

هذا المستقبل تنبأ به الكسندر هاملتون لقد كان هذا يفكر بالاستيلاء على أسواق يتفاوت بعدها عن الولايات المتحدة ، وكان يعلم أن رسوماً جمركية مميزة وقوانين ملاحية ، من شأنها أن تُتيح امتيازات على سائر الشعوب لا سبيل إلى الحصول عليها بقوة السلاح . وهكذا كان يوحى منذ ذلك الوقت بأن بلداناً متعددة ستدفع ثمناً جيداً لصداقة الولايات المتحدة ، أو في الأقل لحياذها . وإن عظمة الأمة وتقدمها الاقتصادي سيكونان منوطين بذلك إلى حد كبير .

كانت الحروب من أجل الاستيلاء على أراض جديدة ، في نظر هاملتون ، تلائم أطماع الملوك الذين كانوا يرون فيها وسيلة لتألق مجدهم ، لكنه يضيف قائلاً : إن التجارة في منظور أمة حديثة « قد بدلت أهداف الحرب » . ثم يشرح هاملتون موقفه بما يلي :

« أليس حب الثروة هوساً لا يقل سيطرة وجسارة عن هوس القوة والمجد . أو لم تكن المصالح التجارية دوافع حروب تساوي عدد حروب الإرادة الجشعة في الاستيلاء على أراض ومستعمرات . » (٧٣) .

إن أقوالاً ، كهذه ، لا تعبّر عن تطور التاريخ فقط ، وهاملتون يمضي إلى أبعد من ذلك فهو يطرح مبدأ عاش في مفاهيم كيسنجر الخاصة بالسياسة الدولية ، بقوله :

« علينا أن نكون متأهين لإدانة الأعمال التي هي في الحقيقة قرارات منصفة تتخذها دولة مستقلة ذات سيادة ، على أساس مصالح تخالف مصالحنا ونرى فيها شراً تُرمى به . » .

هذا هو القانون الذهبي الذي سيكون رائد رؤساء ، ووزراء خارجية ، حتى أيامنا هذه . أليسوا مندوبين عن أولئك الذين كان لمصالحهم ، منذ الموافقة على الدستور ، أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً

(٧٣) الفيدرالي العدد ٦ .

بالسلطة كي تضمن ما كان يسميه جورج واشنطن دوغما إيضاح « وجود حكومة صالحة » ؟ ليس ذلك سوى رؤيه جزئية وجد مبسطة للواقع . لقد كان مؤسسو الدستور أبعد نظراً ، فالسلطة لا تستخدم المصالح الأنانية لقلة تملك الامتيازات فحسب ، والسلطة لا تخدم أفراداً أو أسراً امتازوا بالثروة ، إنها تخدم كيانات كاملة كالصناعات والتجارة والمصرف ، ينابيع ثروة البلاد والسكان قاطبةً ومنهم أفقر الضعفاء .

هذا التعريف للمصلحة القومية ، على كل قدمه ، لا يزال سارياً ، وهو الذي يهاجمه ممثلو الشعب كلما حاولوا الانقضاض على عمالقة الاقتصاد المسيطرين على سياسة البلاد الداخلية والخارجية .

وتعبير هاملتون يُنبئ عن قرنين من الممارسة الدبلوماسية ، فالولايات المتحدة بعيدة عن الدول الأوروبية التي قد تستطيع وحدها تهديد سيادتها ، وهدف الولايات المتحدة ليس أمن حدودها بل ثروتها الاقتصادية . ومن هذه الوجهة تكون الأمة الأمريكية مثلاً نسيج وحدها في العالم الحديث ، فهي ما عرفت غزواً أجنبياً ، وقبل اختراع الصواريخ عابرة القارات ما خشيت قط أن ينال منها على أرضها ، ولمدة طويلة ظلت الدبلوماسية في أوروبا تستهدف الأمن ، أما في الولايات المتحدة فقد استهدفت الإزدهار .

هذا الإزدهار ليس بعيداً عن مسألة الحدود التي من الخير ردها إلى الوراء ، إلا أن العقبتين الكبيرتين ، الهنود والمكسيك ، ليس لهما هذا الوزن وسيكرهان على الارتداد . بقيت إذاً في نظر هاملتون أداة أساسية هي المصالح التجارية التي تُثير الكثير من الحروب وتبررها ، ولخدمة هذه المصالح التجارية ينبغي ألا يكون المرء ، ساذجاً وعميق الوجدان ، ولا حيي الضمير . إذ عندما تقدم دولة أخرى على ممارسة سيادتها دفاعاً عن مصالحها ، بإتخاذ تدابير لها ما يبررها ، إنما قد تضر بالمصالح الأمريكية ، فمن الخير عدم التردد في أن تُعد إجراءات كهذه أعمالاً هدفها النيل من الولايات المتحدة . هذا هو الحد الذي تقف عنده شرعية سائر البلدان . والحكومات اللاتينية الأمريكية التي ستحاول فرض سياستها على المشاريع والمؤسسات الأمريكية المُقامة على أرضها ، لن تلبث أن تأخذ علماً بذلك .

إن الحلم الذي دوّنه جيفرسون في إعلان الاستقلال كان انتشار الديمقراطية في العالم ، وتضامن الأنظمة الديمقراطية كلها للدفاع عن الحقوق المقدسة التي حمل الشعب الأمريكي السلاح

باسمها . إما الواقعية فهي ، مذ هاملتون حتى كيسنجر ، تستعمل لغة أخرى ، وعندها أن المصلحة المسيطرة ليست الديمقراطية بل التجارة .

وقد جرت العادة ، بغية إظهار عمق جذور الانعزالية الأمريكية ، أن يُذكر Farewel Sddress خطاب الوداع الذي ألقاه جورج واشنطن في ١٩ أيلول ١٧٩٦ عندما غادر الرئاسة . وفي الواقع ينبغي أن نفتطف فقراته الهامة للدلالة على أن هذا النص ، على نقيض التأويلات التي شاعت عنه ، لا يضع الأساس النظري لانعزالية مطلقة .

وهذه الخطبة لا تنفي الصلات السياسية أو الأحلاف العسكرية مع بلدان أخرى ، بل تُبدي الرغبة في أن تكون هذه الصلات نادرة قدر الإمكان . أما ما يرفضه واشنطن فهو الصلات المصطنعة . ومن الجملة الأولى من الفقرة الخاصة بالسياسة الدولية ، يُعطي واشنطن الأفضلية إلى « تطوير علاقاتنا التجارية » التي ينبغي تفادي تعكيرها باتفاقات سياسية أو عسكرية . والمثل الأعلى من أجل تنمية التجارة هو الحياذ ، ولكن من أجل هذه المصالح التجارية ، وهي المصالح الوحيدة التي يمكن تهديدها ، في أواخر القرن الثامن عشر ، لبعد الولايات المتحدة الجغرافي ، تستطيع هذه أن « تختار بين السلم والحرب » . وخطاب الوداع هذا يوصي بدبلوماسية ، الأفضلية فيها لمحور مصالح الولايات المتحدة التجارية . وهي مصالح يمكن أن تُخدم ، بحسب الظروف ، إما بالانعزالية وإما بالتدخل في الاتجاهات كلها . وفيما يلي الفقرات الأساسية الثلاث من الخطاب الذي يهمننا التذكير بأن الكسندر هاملتون هو الذي كتبه :

« إن قاعدة سلوكنا الكبرى ، فيما يخص الدول الأجنبية ، هي توسيع علاقاتنا التجارية ، وأن تكون ارتباطاتنا السياسية بهذه الأمم في أدنى حد ممكن . وحتى الآن ، مادما قد قمنا بتعهدات وبالتزامات ، فلنف بها بكل نية حسنة . إنما لنقف عند هذا الحد » .

« إن لأوروبا جملة مصالح أساسية لا تربطنا أي صلة بها سوى ما كان منها جد بعيد . ومن جراء ذلك ، زجت أوروبا نفسها بخلافات متعددة أسبابها غريبة في جوهرها عن اهتماماتنا . إذاً ليس من سداد الرأي أن نورط نحن أنفسنا ، بصلات مصطنعة ، في تقلبات السياسة الأوروبية أو في صداقات أوروبا وخصوماتها » .

« إن وضعنا المفترق والبعيد يدعوننا إلى اتباع مجرى آخر ويُتيح لنا القدرة على اتباعه . فإذا ما بقينا شعباً متحداً تقوده حكومة فعالة ، فالزمن الذي نستطيع فيه تحدي الأخطاء والأضرار المادية

التي قد تأتينا من بعض تصرفات خارجية، ليس بعيداً جداً. وعندما نستطيع إتخاذ موقف، كهذا يحدد حياتنا فسيضعنا أن نوقن، في أي وقت كان، بأننا سنكون محترمين، عندما نستطيع الاختيار بين السلم أو الحرب حسباً تُشير به مصلحتنا التي توجهها العدالة، سنختار» .

أُقيمت هذه الخطبة بعد مرور عامين على توقيع المعاهدة التي فاوض جون جاي إنكلترا فيها، هذه المعاهدة التي يصفها توماس جيفرسون «بالشيء الكريه» والتي، من أجلها، شق سواد الشعب جون جاي وأحرقه، بسبب مودة هذا الشعب للثورة الفرنسية وكرهه لإنكلترا^(٧٤).

إن الخطاب يُهيل التراب على الحلم بديمقراطية عالمية، ونص المعاهدة التي وقعها جون جاي في لندن يجعل أغلبية الشعب تهب في وجه الوجهاء القائمين على السلطة، لأنه يُعطي الأفضلية لمعاهدة الصلح المعقودة مع إنكلترا على التحالف السابق مع فرنسا في أثناء حرب الاستقلال. وقد جددت لندن قبل المعاهدة المذكورة، الأمر الذي يكلف البحرية البريطانية أسر البواخر الأمريكية وغيرها التي تنقل مواد غذائية إلى فرنسا، وعلاقات القوة والمصالح التجارية دفعت الولايات المتحدة إلى التقرب من إنكلترا التي قبلت، تسهلاً للأمر، بإخلاء المخافر العسكرية من قواتها في الغرب. أما جيفرسون فقد استنكر المعاهدة ووصفها «بالعمل الوغد الذي ليس إلا تحالفاً، بين إنكلترا وعملاء الإنكليز في البلد، ضد برلمان الولايات المتحدة وشعبها». ولم تكن سياسة واشنطن الخارجية أحب إلى الشعب من سياسته الداخلية، فكلاهما تقسمان البلد حسب الفوارق الطبقية ذاتها.

غير أن خطبة واشنطن ليست ثمرة تجربته في الرئاسة، وثمره متاعبه أمام النزاع الذي وضع فرنسا وإنكلترا وجهاً لوجه، فهو منذ زمن طويل قد حسم موقفه وحدده. وهذا الموقف هو شبه اختيار دُرس بروية وتؤدة، وهو يُخضع كل اعتبار لمصالح الولايات المتحدة التجارية، التي هي هدف الدبلوماسية الأمريكية الأكبر. حتى أن واشنطن كتب قبل اختياره رئيساً إلى السير ادوار نوينهان يقول:

«إني آمل أن تصبح الولايات المتحدة قادرة على البقاء بعيدة عن متاهة السياسة الأوروبية والحروب الأوروبية، وأن لا يمضي زمن طويل قبل أن تُصبح محترمة في عيون العالم بإقامة حكومة صالحة قوية. فلا تجرؤ أية دولة من الدول البحرية، ولا سيما التي لها ممتلكاتها في العالم الجديد، وفي الهند الغربية (الأنثيل)، أن تعاملها باستهانة أو ازدراء. وينبغي أن تكون سياسة الولايات المتحدة

قادرة على سد حاجات هذه الدول ، بلا تدخل في خصوصاتها ، ولن تستطيع أعز أمة وأرقى أمة على وجه الأرض أن تحول بيننا وبين قدرتنا على أن نصبح أمة عظيمة ، أمة محترمة ، أمة تاجرة ، إذا ما بقينا متحدين ، وأوفياء لأنفسنا » .

وكتب واشنطن في تموز ١٧٩١ ، إلى موريس^(٧٥) ، الوزير المفوض في باريس طالباً منه أن يحذر من جر الولايات المتحدة إلى النزاع القائم بين الثورة الفرنسية والتحالف . وهذه تعليماته إليه :

« آمل ألا تغرب مصالحنا وسعادتنا عن أنظارنا ، إلى حد تدخلنا عبثاً في هذه الخلافات السياسية » . جميلة الكلمة الأخيرة ، لكن النصيحة عبثاً كانت أو بعد فوات الأوان . فموريس المذكور تصرف تصرف عميل للويس السادس عشر ، وقبض منه مالاً وزعه من أجل قضية لم تكن حقاً قضية الجمهورية ، بل فعل أكثر من ذلك إذ اشترك في خطط تهريب لويس السادس عشر من باريس . وفي عهد الإرهاب بذل قواه في سبيل إنقاذ بعض أنصار الملكية ، أما واشنطن الذي تهمة كثيراً حماسة الثوريين الأمريكيين لوزير فرنسا في الولايات المتحدة ، فلا تقلقه تصرفات موريس في باريس إلا أقل من ذلك بكثير . وفي النهاية استدعت العاصمتان موفديهما الخاصين .

لا تحالف ولا تضامن إلا ما كان من شأنه خدمة مصالح الولايات المتحدة التجارية . وزمناً طويلاً ظل هذا المذهب بعيداً عن سبيل التطبيق إلا على مستوى متواضع ، غير أن فكرته المركزية ظلت خلال أجيال متعاقبة تراود أذهان رجال السياسة والناس : إن هدف الدبلوماسية الأمريكية الأول هو خدمة مصالح الولايات المتحدة التجارية . والسياسة الخارجية هي ، أولاً وقبل كل شيء ، التجارة حتى أن التضامن بين الأنظمة الديمقراطية والدفاع عن الحريات مرتبطان بها .

حدود عدم التدخل

لا تدخل في الخصومات الأوروبية كي نتمكن من انتزاع كسب مادي منها ، هذه هي النصيحة التي يسديها جورج واشنطن : « وكلما قام نزاع هام بين الدول الأوربية نستطيع أن نستغل جنونها^(٧٦) إذا ما عرفنا ، استغلال المزايا التي وهبتنا إياها الطبيعة » . وهذا ما نجح ولمع في القيام به وودرو ويلسون من ١٩١٤ إلى ١٩١٧ ، ثم فرانكلين روزفلت من ١٩٣٩ إلى ١٩٤١ ، فالحياد

(٧٥) انظر الفصل الأول ، حاشية ٤ .

(٧٦) مؤلفات واشنطن — الجزء الرابع ص : ٢٩٩ .

به في أول الحربين العالميتين قد أفاد الاقتصاد الأمريكي أعم الإفادة^(٧٧). وتحقق هذا حساب الديمقراطية الأوروبية وهو شأن ثانوي. وإذا كان على روزفلت أن ينتظر بيرل الولايات المتحدة إلى الحرب العالمية الثانية، فمرد معظم ذلك إلى أن عقولاً كثيرة قد كرهة القائلة إن الحرب على النازية هي ذاتها من هذه الخصومات أو من فنون هذا الجنون الأوروبيون.

أن الولايات المتحدة، على نقيض ذلك، بادرت إلى القيام بأعمال حربية، عندما كانت صبة للتوسع توسعاً لا يحقق أمناً أفضل لحدودها، بل مكاسب مادية اقتصادية لها، الهنود، برغم طول أمدتها، لم تعبى طاقات كبرى، لأن القتال كان جد متفاوت والمعرفة تجر في الغرب وإنما في الجنوب..

سيف ١٧٩٠، بدا أن الحرب لا بدّ واقعة بين إنكلترا واسبانيا التي كانت تحتل فلوريدا، سون إلى القائم بالأعمال الأمريكي في مدريد تعليمات، يحدد له فيها أهداف حكومته، الاسبان على حرية الملاحة في المسيسيبي، وعلى إقامة مرفأ تستطيع أن تأوي إليه سفن ثم يعين له وسيلة بلوغ هذا الهدف قائلاً إن الحرب ستكون قد بدأت، في افتراضه، رسالته هذه إليه، وعندئذ يستطيع (القائم بالأعمال) أن يعرض على اسبانيا وقوف حدة على الحياد، على أن توافق اسبانيا على حرية الملاحة وعلى بناء المرفأ. وصفقة كهذه أمريكا ستكون على استعداد لدخول الحرب إلى جانب إنكلترا، إذا ما رفضت مدريد لذا ما يعبر عنه جيفرسون بوضوح عندما يكتب إلى القائم بالأعمال قائلاً له: إنه يفكر وسائل أخرى لبلوغ هدف، نحن، نهائياً عازمون على بلوغه مهما كلف الأمر^(٧٨).

ب جيفرسون أيضاً إلى القائم بالأعمال الأمريكي في باريس قائلاً له: إن فرنسا في حالة ب بين إنكلترا واسبانيا، ستنتجر إليها بموجب تحالفها مع مدريد، ومادامت تهمها ي ستوقع من اسبانيا «بذل كل جهودها لإنقاص عدد أعدائها»..

سيف جيفرسون: «نريد أن نرفع هذا العدد، بلا شك، إذا لم تقبل مدريد الاعتراف بحققنا

لمت أثار هذا الحياد الاقتصادي في كتاب الإمبراطورية الأمريكية للمؤلف - الفصل الخامس : ٢٠٩ - ٢٧٠ منشورات كتاب الجيب.

برسون مذكرات ومراسلات الجزء الثالث. ص: ٦٤.

باستخدام المسيسي وبوسائط ضمان هذا الاستخدام (بناء مرفأ)^(٧٩)، ويدع جيفرسون للقائم بالأعمال مهمة التشاور مع لافاييت في الطريقة اللازمة لتشديد وطأة هذا التهديد على الحكومة الفرنسية..

إن مساومة، كهذه، تشبه شبيهاً غريباً الحياد الذي ستشجبه بعد ذلك الولايات المتحدة، على لسان وزير خارجيتها جون فوستر دالاس، لأنه غير أخلاقي، ولأن البلدان التي تتخذ موقفاً تحاول من وراء ذلك الحصول على مكاسب من الأطراف كلها.

غير أن هذا البناء الخاذق انهار فمعاهدة الاسكوريال، الموقعة في تشرين الأول عام / ١٧٩٠ /، بين لندن ومدريد، أعادت الأمور إلى نصابها، وحرمت الولايات المتحدة من بيع «حيادها» بثمان مرتفع..

لكن اللعبة لم تنتهِ. ففي الصيف ذاته / ١٧٩٠ / بذل جورج واشنطن جهوده لحمل فرنسا على التخلي عن احتكار التجارة مع ممتلكاتها في الأنتيل، وإذا كانت الثورة الفرنسية تعد لهذه المستعمرات نظاماً أساسياً جديداً، فمما لا ريب فيه أنها أي المستعمرات «ستطالب بحق استيراد المواد الغذائية ممن يزودها بها بأدنى الأسعار»، كذلك كتب جيفرسون يقول إلى المكلف بالأعمال الأمريكي في باريس: إن الأنتيل ستبتاعها من الولايات المتحدة جارتها القريبة المهتمة بالتجارة. ويضيف جيفرسون، وزير الخارجية آنذاك، قائلاً: «ومن الخير الدخول، بهذا الصدد، في محادثات مع مندوبي المستعمرات، على أن يتم ذلك في شيء من التحفظ، وفي حشهم على المطالبة بذلك إذا ما دعت الحاجة. وهذا تطبيق ممتاز لمبدأ عدم التدخل..»

إن جيفرسون يملك وسيلة أخرى ليجعل من الولايات المتحدة المصدر الأساسي للأنتيل على أن تدفع حكومتها لفرنسا المبالغ التي قدمتها إليها في أثناء حرب الاستقلال، ويوصي جيفرسون القائم بالأعمال باختيار التاريخ المناسب للدفع الأولى «قياماً بهذا الغرض الهام»، وهكذا تكون توارينغ وفاء الديون المعترف بها مجال مفاوضة تقابلها امتيازات تحصل عليها الولايات المتحدة في مبادلاتها التجارية مع الأنتيل... وكتب جيفرسون أيضاً يقول: وعندما يقوم المكلف بالأعمال بالإجراءات اللازمة لتسليم المبلغ الأول سيؤكد للوزير الفرنسي «أن تسوية حسنة لعلاقتنا التجارية بمستعمراتهم، من شأنها أن تجعلنا مستعدين لوفاء ديننا قبل موعده المحدد»^(٨٠).

(٧٩) المصدر ذاته ص: ٦٩.

(٨٠) جيفرسون المصدر السابق ذاته ص: ٧٩.

ويلح جيفرسون على أهمية التجارة ليشمل الوضوح كل شيء، ويعرض فكرة من الصعب أن نرى فيها جهرًا برأي سياسي ضد الاستعمار ورغم كل المظاهر، فهو يقول:

« كلما أبدى الطرف الآخر قلقاً عن مرامينا المفترضة في السيطرة على الهند الغربية (الأنثيل) فلن أتجاوز حدود الحقيقة إذا أكدت أن لا نية لدينا من هذا النوع، وإذا كان ثمة مبدأ أعمق رسوخاً من أي مبدأ آخر في نفس كل أمريكي، فهو مبدأ الابتعاد التام عن أي غزو، أما فيما يمت إلى التجارة فلنا، حقاً، أحاسيسنا الشديدة الحدة»^(٨١).

نعم، لذلك لم يمض العقل الديمقراطي إلى حد الدعوة إلى تصفية الاستعمار، فالأنثيل يمكن أن تبقى مستعمرات، على أن تخول الولايات المتحدة القيام بتجارة رابحة وإياها، ويلوح جيفرسون مهدداً بتدخل عسكري ومضيفاً: «إن فرنسا، بروح السياسة، إن لم يكن بروح العدالة» ستلهم التخلي عن سيطرتها على الأنثيل إذ أن «هذا الضغط الذي يصيبنا كما يصيب مستعمراتها، قد يزين لنا القيام بعمل مشترك» مع هذه المستعمرات ضد باريس..

لقد كان الاستعمار الفرنسي في الأنثيل وفي غيرها استعماراً بغضباً، وثمة جزيرة توليها الولايات المتحدة جل اهتمامها، هي جزيرة هايتي الغنية جداً آنذاك، قد بلغت من الغنى ما دفع نابليون، أملاً بالاحتفاظ بها، إلى القبول ببيع لويزيانا إلى الولايات المتحدة. وفي تمرد توسان لوفرتور (١٧٩٦-١٨٠٢) بلغ القمع غاية فظاعته. وبعد استقلال هايتي، عمدت الولايات المتحدة إلى المتاجرة وإياها، حتى أن تيودور روزفلت سيطر عام ١٩٠٥/ على جماركها التي أصبح ٥٥٪ من دخلها يعود إلى الولايات المتحدة. وعام ١٩١٦/ عمد ودرو ويلسون إلى إنزال قواته المسلحة ليضع حداً لفوضى تهدد بعدم وفاء ديون الأمريكيين، ولا سيما مصرف كوهن وشركة لوب، وليس هذا بالغزو الذي هو فكرة بعيدة عن العقلية الأمريكية، كما يوضح جيفرسون، بل إنه الاستعمار بالتجارة، يتبعه بعد ذلك وصول القوات البحرية الأمريكية...

وتصفية الاستعمار، على ملامتها التامة لروح إعلان الاستقلال، لم تكن آنذاك جزءاً من مجموع الدبلوماسية الأمريكية. والثورة الفرنسية كذلك، لم تضع حداً للاستعمار، حتى أن الجمهورية أعطته اندفاعاً جديداً..

(٨١) جيفرسون المصدر ذاته ص: ١١٩.

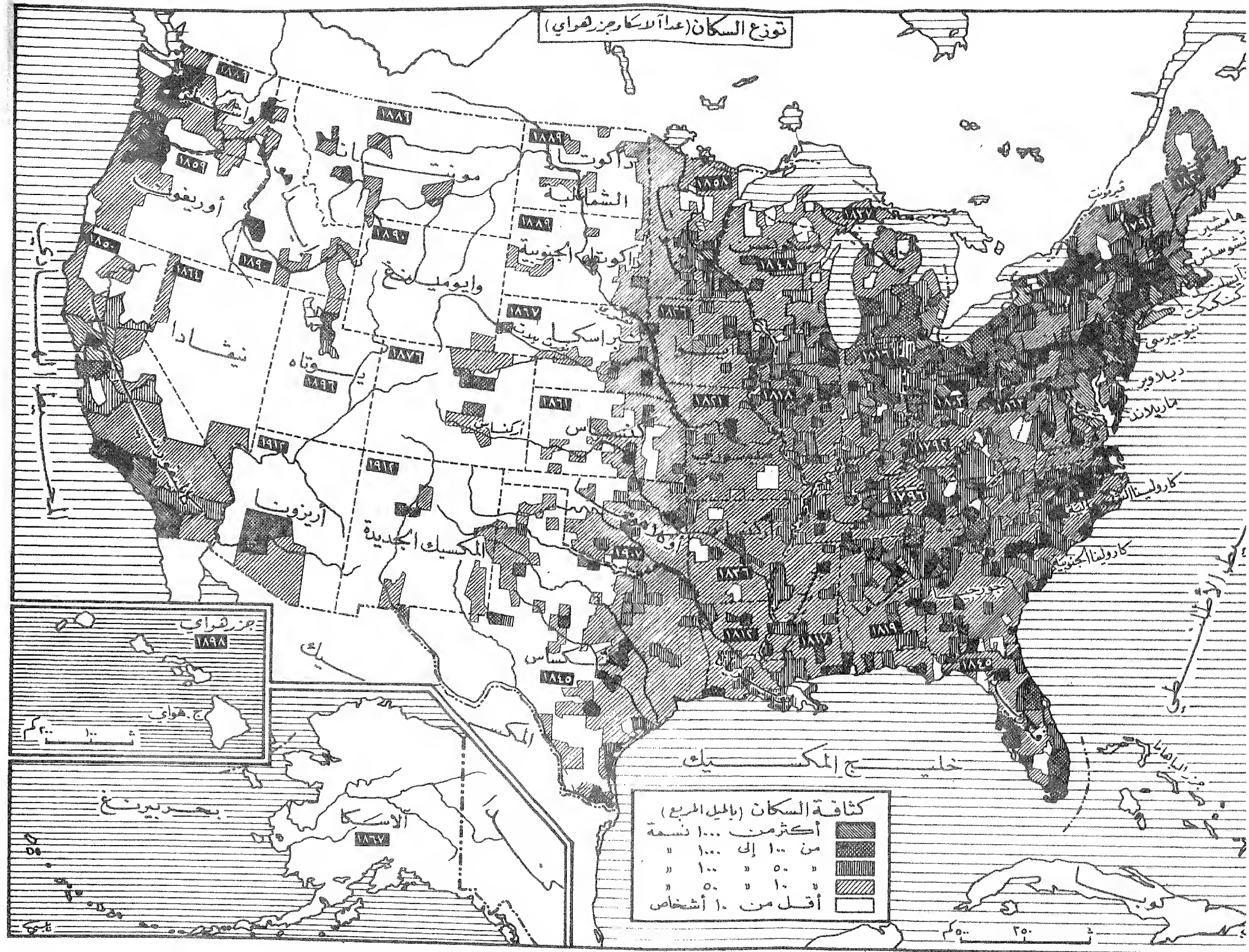
كان ينبغي انتظار الحرب العالمية الثانية أي رئاسة فرانكلين د. روزفلت لتحتل تصفية الاستعمار حيزاً أساسياً في سياسة الولايات المتحدة الخارجية. فهل ستبادر «الدعوة الديمقراطية» إلى القيام بدور من الأدوار لصالح الشعوب المضطهدة؟ لعل هذا كان يمكن حدوثه، لو أن الولايات المتحدة دعمت أنظمة ديمقراطية مأخوذة عن الحلم الأمريكي، في المستعمرات القديمة الإنكليزية والفرنسية والهولندية والبلجيكية، وفي أمريكا اللاتينية المتحررة من نير الاستعمار الإسباني..

إن مكافحة الاستعمار، في مفهوم روزفلت، مطلب آخر. فمنذ الحرب العالمية الأولى جاءت في بنود ويلسون الأربعة عشر. وبعد ذكر حقوق الشعوب في حق تقرير مصيرها، تأتي مباشرة عبارة «الحصول على المواد الأولية بطريقة أكثر عدالة». كذلك أبرز ميثاق الأطلسي الذي وقعه روزفلت عام ١٩٤١ حق الدول جميعاً «في الحصول على قاعدة في تجارة العالم ومواده الأولية التي لا غنى عنها لإزدهارها الاقتصادي، وعلى قدم المساواة»^(٨٢).

كل إمبراطورية استعمارية، بما تتمتع به حيال مستعمراتها من أفضليات، تحرم الولايات المتحدة ودولاً أخرى من حرية التجارة المذكورة التي ينبغي التغلب على الاستعمار للحصول عليها. وهذا ما سيُتاح السبيل إلى تحقيقه في أمد وجيز، وعندئذ تستطيع الولايات المتحدة بشبكة شركائها التجارية الكبرى وفروعها المتعددة الجنسيات، أن تزيد في استهلاكها المواد الأولية المستوردة بسعر بخس، وأن تزيد في إمكان حصولها على المناجم التي كانت تسيطر عليها الدول الاستعمارية الأوربية.

ومكافحة الاستعمار هذه كانت تُشعر بالخوف من أن تؤدي سيطرة طويلة الأمد، يوماً ما، إلى قيام أنظمة حكم شيوعية، وهذه فرضية جرى التشبث بها في مُثل الهند الصينية القديمة، حيث دعمت الولايات المتحدة حتى العام ١٩٥٤ الحرب الاستعمارية الفرنسية، وذلك قبل أن تخوض هي هذه الحرب (أي الولايات المتحدة) في كانون الثاني ١٩٧٣. وبعد حصول المستعمرات القديمة على استقلالها تدبرّت الولايات المتحدة أموراً في البلدان الحديثة العهد بالاستقلال، مع أنظمة لا تمت

(٨٢) شُرحت هذه الحاجة في حرية الحصول على المواد الأولية من بلدان العالم الثالث في كتاب الإمبراطورية الأمريكية، بين براهين أخرى عسكرية وسياسية وغيرها، وهو كتاب (المؤلف ذاته) الذي خصصت مجلة «اسبري» الفرنسية ٨٦ صفحة لادحض فرضياته ولا سيما بحجة حان بواسونا القائلة إن المواد ومصادر الطاقة يتضاءل دورها يوماً فوما في التنمية الاقتصادية وهذا أكثر صحة وحقيقة في مرحلة المنتجات التركيبية والطاقة النووية (ص: ٥٦٥) Eijrit, Avril 1969 غير أن الوقائع ما لبثت، بلا شك أن يثبت خطأ هذا.



بصلة واهية إلى الأنظمة الديمقراطية، على أن تقبل هذه الأنظمة بتوظيف رؤوس الأموال الأمريكية .
ومثلاً اندونيسيا وزائير في هذا المجال واضحان كل الوضوح .

غير أن المرامي الأمريكية تتوخى أيضاً نظام العالم النقدي، وقد أبان ميكائيل هدسون بجلاء تام، كيف بذلت الولايات المتحدة الجهود لإضعاف منطقة الليرة الاسترلينية وفصمها، سعيًا وراء ضم مجموع الدول الدائرة في الفلك الغربي إلى منطقة دولار واسعة^(٨٣) . وكان توسع التجارة الأمريكية يتطلب تعظيم الحواجز التي أقامتها مناطق النقد المنظمة حسب النقد الأوروبي، وكان ينبغي من، وجهة النظر الأمريكية، أن يغدو الدولار النقد الاحتياطي الوحيد الأساسي، والمرجع الوحيد عملياً ..

وتاريخ الإمبراطورية الأمريكية كان يشهد، في كل مرحلة من مراحلها، تصارعاً بين الناس الذين يخفون حلمهم بالقوة تحت فصاحة واقعية تبرر انتهاك حقوق شعوب، من جهة، والرجال الذين يرون أن من واجهم تشجيع انتشار الديمقراطية في العالم، من جهة ثانية .

والجمهورية الأمريكية أحسست منذ مولدها، أنها تحمل رسالة إلى العالم . وهذه الرسالة كما كان يقول الرئيس فيللمور عام ١٨٥١ « لا تقوم على فرض شكل نظام الحكم الأمريكي، على العالم حيلة أو عنوة، بل أن نعلّمه للآخرين بمثلنا ونجاحنا » .

وكانت الفاجعة يوم بدأت الولايات المتحدة باستعمال القوة، وكانت المغامرة الدامية التي شُرِع بها في الكاريبي ثم تابعت حتى وصلت إلى الفيتنام وكمبوديا، ويوم شقت الأعياب دبلوماسية الدولار، التي اختطها الرئيس تافت، « الطريق » إلى حيل المخابرات الأمريكية القذرة المعروضة اليوم على نطاق واسع في الساحة العامة . غير أن المأساة بلغت حدة نادرة—وفي آن واحد أنعشت الأمل—يوم أقحمت القضيحة البيت الأبيض مباشرة، فألقت بذور الشك في جدارة الديمقراطية الأمريكية بالانتشار في العالم بفضل المثل الذي تضره ..

لقد حُرف الحلم الأمريكي وأُفسد بلا ريب، عندما نُحِيل لكثير من الأمريكيين، باسم « قدر واضح » أن لهم حقاً طبيعياً في امتلاك كل الأقاليم حتى المحيط الهادي، وامتداداً لذلك، أن لهم دوراً خاصاً يشمل القارة بأسرها (مبدأ مونرو ١٨٢٣) فتطور في العقول، كهذا، يجعل من حرب

(٨٣) ميكائيل هدسون: « استراتيجية الإمبراطورية الأمريكية الاقتصادية »—نيويورك ١٩٧٢ .

المكسيك حدثاً محتملاً (١٨٤٧) استولت به الولايات المتحدة على كاليفورنيا والمكسيك الجديدة والنيفادا والأريزونا واليوتا، وعلى أجزاء هامة من المكسيك الجديدة والكولورادو والوايومينغ.

وفي هذا الظرف، مثلما وقع في ظروف غيره، اصطدمت إرادة القوة بنقاء الحلم الأمريكي. وعندما دُعي الكونغرس إلى قول كلمته في اغتصاب المكسيك، ساعد النائب ابراهام لنكولن، الذي لم يكن مشهوراً آنذاك، نائباً آخر هو جورج اشمن في الحصول على موافقة الكونغرس على نص يقول: إن تلك الحرب كانت «منافية للدستور وإن الرئيس قد شنها حرباً لا جدوى فيها». غير أن الغلبة كانت، في الحقيقة للواقعيين على منتقديهم..

شوهوا الحلم، ثم خانوه، متروين عامدين، بغزوات الحرب الاسبانية الأمريكية (١٨٩٨)، التي عارضها مارك توين والنقاييون والكنائس وغيرهم...، بلا جدوى وخلال الحملات العسكرية والانقلابات، من عهد تيودور روزفلت حتى وودرو ولسون، وخلال تطبيق الشيوعية والسياسة الشاملة المطبقة بعد الحرب العالمية الثانية، لم تكن إرادة القوة أمام المقاومة الصامدة في وجهها داخل البلاد.

إن صفحات التاريخ هذه، المساوية في البلدان الخضعة لإمبراطورية الولايات المتحدة، والمساوية على الجماهير التي، بعد أن ضُحي بمحاولاتها الديمقراطية من أجل مطالب أخرى، راحت تشهد توطد دكتاتوريات بوليسية تدعمها الولايات المتحدة، ومساوية على الشعوب التي كانت تأتى الركوع أمام النبل وقنابل الكرات والقنابل الانشطارية، هذه الصفحات ليست أقل سواداً عند الشعب الأمريكي ذاته، الذي أبطأ في الإدراك أن أصحاب سياسة القوة هذه، قد تمكنوا من تطبيقها بإضعاف الحيوية الديمقراطية في داخل البلاد.

من هنا كانت انتفاضة أخرى للأفراد والجماعات الذين لا يستطيعون توطين النفس على رؤية الحلم الأمريكي يُخان في بلدهم، وفي آن واحد، في البلدان التي تمتد إليها هيمنة الولايات المتحدة..

هذه الحلم، على الرغم من خيبات لا حصر لها، ما فتئ متوقداً وأخاذاً حتى ليعمي أنفد البصائر^(٨٤)، ممن لا يزالون ينتظرون اليوم الذي تُتيح به الظروف لسياسة أمريكية أن تخدم، في آن

(٨٤) هكذا كتب ريمون آرون في أواخر عام ١٩٧٢ ما يلي (بإذلاً جهوداً جديرة بالثناء ليبرهن على واقعيته): «لقد وقف واشنطن من تجربة الجبهة الشعبية التشيلية موقفاً قريباً من الحياد.» (جمهورية إمبراطورية، ١٩٧٣ ص: ١٩٧) فالمرآب على المسرح الدولي هذا يجهل إذاً أن الحكومة الأمريكية منعت كل مساعدة مالية ورصيد عن حكومة

واحد، حسب تعبير هنري كيسنجر «المصالح والمُثل الأمريكية»، من دون أن يلوح الإغراء بتضحية المثل على مذبح المصالح، وليس من رؤية تستطيع التوفيق بين مصلحة اقتصادية لدولة عظمى ومثلها الأعلى، إلى حد المطابقة بينهما، إلا رؤية للعالم طوباوية. فالتناقض بين الاثنين محفور في بنية أمة وفي تاريخ أمة أرادت أن تكون الغلبة للإتجاه الرأسمالي على الإتجاه الديمقراطي..

وعندما اقتضى الأمر الاختيار، لم يكن يسع المصلحة القومية، عندما تُفهم على هذه الصورة، إلا أن تُضعف نداء المثل الأعلى. وإذا كان هذا المثل، الذي يرفده النفس الجاري عبر إعلان الاستقلال، مقدساً فهو يتطلب إعادة النظر في تعريف المصلحة الاقتصادية القومية التي لا سبيل لها، في كل الأحوال إلى أن تمنح سوى المصالح الاقتصادية القصيرة الأمد مكاناً ممتازاً. فإرادة الشعب الفيتنامي أن يستقل كانت، في آن واحد، تلائم المثل الأمريكي والمصالح الاقتصادية الأمريكية في فهمها الصحيح.. والإرادة الديمقراطية التي أبدتها نظام حكم سلفادور اللندي كانت شديدة الوطأة على تمادي مصالح الشركات الأمريكية القائمة في الشيلي، إلا أنها كانت منسجمة ومصلحة الديمقراطية الأمريكية. فسينهار الحكم العسكري في يوم من الأيام مُتيحاً المجال لقيام نظام لن تكون علاقاته بواشنطن على ما ينبغي من المودة..

وإن الأفضلية الممنوحة للإتجاه الرأسمالي تُفرغه من حيويته، بينما هو يفترض، سواء في الداخل أو الخارج، تريبياً آخر للقيم. والحركات الثورية التي تضطرب فيها بعض بلدان العالم الثالث تُماثل في شرعيتها حركات العمال الأمريكيين، في القرن التاسع عشر..

وهي مثلها، تصطدم بسياسة قمع، فالرأسمالية تتغلب على الديمقراطية على الصعيد العالمي، وعلى الصعيد القومي، كما يتغلب النظام على العدالة، والعنصرية على المساواة..

سلفادور اللندي، وأنها تتلاعب بأسعار النحاس وتقول إضراب سائقي سيارات الشحن التشيلية. أو بتعبير أصح قد رفض ريمون آرون أن يحمل هذه المعلومات على محمل الجد لشيوعها على الملأ، فهو يمزوها إلى دعاوة دنيئة وهذا ما يسمح له في نهاية كتابه المذكور بأن يصيغ هذه الخاتمة النظرية قائلاً فيها: «إن المسؤولين الأمريكيين، حسب كل احتمال، سيتكيفون والحركة الثورية، حتى لو كانت موالية للماركسية اللينينية، وهو ولاء لفظي في أغلب الأحيان، عندما لا تكون البلدان متاخمة للاتحاد السوفيتي» (ص: ٣٢٧) أن مداد كتابه: «جمهورية إمبراطورية» ما كاد يجف (كانون الأول ١٩٧٣)، حتى كانت الولايات المتحدة توجه الضربة الأخيرة والقاتلة لنظام الليندي (أيلول ١٩٧٣) وتقدم معونتها لبيوشيه، هذا هو صفاء قائد من قادة فكرة يمين فرنسي يتظاهر بتبنيه تعريفاً كاذباً للحلم الأمريكي..

والمأساة لا تفتأ تجرى أمام أعيننا، والمعركة لم تنته . والواقعية إذاً أخطأت الهدف ، ضلت السبيل . ولا يزال الانتصار ممكناً أمام الحلم ، بشرط أن يُقلب ترتيب الأفضليات ، سواء في سياسة الولايات المتحدة الداخلية أو سياستها الدولية . فعلى الصعيدين لا خطر على الديمقراطية إلا عندما لا تكون لها الأفضلية في تحديد الأهداف والوسائل ..

إن الواقعية الحقيقية تنضوي تحت لواء الوفاء للحلم الأمريكي ..

خاتمة

انبعاث الحلم

التاريخ لم يف بوعود الحلم كلها ويحمل على الشك في الفرص التي قد تُتاح لهذا الحلم ليسوي المجتمع الأمريكي، على أن التناقض بين تطلعات ثورة ما وبين منجزاتها، لا يقتصر على الولايات المتحدة، فالسمة المميزة والأساسية في كل انتفاضة شعبية كبرى هي بلا شك، بعث أمل رجب يُتيح للمضطهدين، وهو يعبئ طاقاتهم، أن يطيحوا بنظام سير الأمور السابق، يبرز إلى الوجود، في آن واحد قوى جديدة، سرعان ما تفرض المثل الأعلى الثوري وتنحته وتشوّهه. إن ثورة ١٧٨٩ (الفرنسية) أدت إلى نظام نابليون ثم إلى ديمقراطية ليس فيها الكثير من الليبرالية والتقدم. وإن السوفييت عام ١٩١٧ انتهوا إلى مجتمع تحصره بيروقراطيته. وإن الثورة الأمريكية شقت الطريق لمظالم وفوراق سجّلت تفوق الإتجاه الرأسمالي على الإتجاه الديمقراطي.

إن الحلم الذي أنكره وخانه المسكون بزمام السلطة الاقتصادية والسياسية، لو لم يكن يُلهم أفراداً وجماعات يرفضون اليأس، لكانت هذه النهاية تافهة. وهؤلاء الأفراد والجماعات، سواء فيما يخص شروط حياتهم المادية أو حرياتهم، أمامهم من كثرة ما ينبغي لهم الحصول عليه، ما يحول دون انكفائهم على أنفسهم في استسلام كئيب. فلطالما اعتقدوا أن ما يعانونه من العوائق تفرضه عليهم المدنية الصناعية: هذا الوحش البارد. فإذا كان الحال على هذا المنوال وأن ثمة دعاوة لجوجاً ورعناء تجهد لحملهم على الاقتناع بذلك، فليس عليهم إذاً إلا الاستسلام للقدر المحتوم. والفوارق الاجتماعية والمظالم هي، في هذه الحال، ضريبة التقدم الصناعي التي لا تُطاق، وإنما لا مناص منها أيضاً. فهي تنزع عن العمل شخصيته كما تنزعها عن الحياة في المدن، مع أجور عمل بخسة تجانبها ثروات طائلة، وعطالة عن العمل تعايش ترفاً فخوراً، وأكواخ حي هارلم القدرة على قاب قوس

أو أدنى من دور السكن الفخمة بحميتها حرس مسلح ، ومدارس رديئة في الأحياء الشعبية عاجزة عن منافسة معاهد التعليم الخاصة ، المقصورة على أبناء الأُسَر الكريمة المحتد ، وعدالة متفاوتة وفساد في صميم الحكم — كل هذا سيكون في نظام سير الأمور — .

غير أن الأفراد والجماعات الذين لم يستسلموا ، يصلون إلى اليقين الواضح بأن المدنية الأمريكية ليست المدنية الصناعية بل ليست هي إلا شكلاً من أشكالها الممكنة ، ولعله ، بتعبير أدق ، من أقلها مدنية ، ولا سيما أنه يقدم تضحيات أكثر إلى القوة . لقد اكتشفوا أن التقدم الصناعي ليس مرادفاً للتجمع الصناعي ، وأن الضخامة ليست مصدر الفاعلية^(١) ، وأن الإزدهار لا يمكن أن يكون غاية في ذاته ، وأن الفساد والامتيازات ليست شراً لا بد منه ، وأن الفوارق الاجتماعية ، ليست كما يتمناها جون كاهون ، جزءاً لا يتجزأ من التقدم .

أن أعمق الأمريكيين ادراكاً لمواطن النقص الخطيرة في مجتمعهم ، بدؤوا يدركون أيضاً أسبابها العميقة وانتبهوا إلى أن تاريخهم قد قلب مراتب القيم التي عبّر عنها بوضوح إعلان الاستقلال . فهل يستطيعون سبيلاً إلى ترجيح الديمقراطية على الرأسمالية ، والحرية على محبة النظام والمساواة على الآراء العنصرية التعصبية ؟ وهم يتساءلون ، لأن وعود عام ١٧٧٦ لم يتحقق إلا جزء يسير منها ، بينما تمحقق هدف بكامله لم يفكر فيه جيفرسون ، وهو القدرة .

هذه القدرة كان العنف ثمن الحصول عليها . عنف مادي واقتصادي ، عنف لا عدل له في البلدان الرأسمالية ، ولا في المرحلة الزمنية ذاتها ، وعلى أرض هذه البلدان الرأسمالية . فالشراسة الوحشية التي عومل بها الهنود والسود ومنظمات العمال ، هل توضع موضع القمع الذي مارسه الدول الأوروبية في مستعمراتها ؟ ثمّة صلة ناعمة قد تقوم بين مظاهر القوة هذه ، وكأن الهنود الحمر والعبيد والمهاجرين قد عوملوا معاملة المستعمرين في الداخل .

لكن العنف الذي بلغ ذروة حدته في حرب الانفصال ، قد عبر الحدود يوم قبلت الولايات المتحدة تحمل مسؤولياتها العالمية وكانت لإرادتها ، سواء على الصعيد الداخلي ، أو الصعيد الدولي ، بفرض مفهوم ما لنظام ، تتطلب كما ذكرنا وتستدعي وسائل من الطبيعة ذاتها ، وسائل تبلغ من الضخامة ما يثّم على أن ما من شيء يستطيع مقاومتها . فحرب الفيتنام خصوصاً أتاحت فرصة لإبداء قدرة تدمير لم يعهد لها مثيل في حرب من طراز استعماري .

(١) يُنظر في هذا الموضوع كتاب « انتحار الديمقراطية » الفصل الرابع : الإنسان ورأس المال .

حتى آنذاك، أي ابتداء من سحق القبائل الهندية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية، وعبر القتال الأخوي بين الشمال والجنوب—باستثناء حرب كوريا التي انتهت بعودة إلى الوضع الراهن—السابق—لم تعرف الولايات المتحدة حلاً لنزاع سوى استسلام الخصم، بلا قيد أو شرط، إلا أنها لم تستطع بلوغ هذه النتيجة في الفيتنام، وفي الطريقة التي وُجِعت فيها هذه الحرب (كثافة القصف واتساعه، ثم موقف الحكومة الأمريكية من الكونغرس ومن المعارضة). وجدت أمريكا أو بعض منها، في الأقل، دوافع التمرد على مفهوم للسلطة، وعلى مفهوم للنظام الداخلي والدولي كانت الحكومة تتوخى فرضه.

كانت أمريكا، بمساحة أرضها الشاسعة، وسعة مواردها الطبيعية، وقطعان عبيدها، وتدفع يد عاملة لا تملك الدفاع عن نفسها، تملك كل وسائل القدرة ومعطياتها، ولم يكن ينقصها سوى تدريب شاق تقوم به وهو: كيف السبيل إلى استخدام هذه القوة؟ وكان رد فعلها الأول أن تستخدمها بلا حدود، لخدمة النظام الداخلي والخارجي على حد سواء، فهما متساويان في التعسف، وكلاهما قليل الخضوع لمفاهيم الحق. تجربة مريّة توحى الآن إلى أفضل العقول، الإحساس بالمدى وبإمساك النفس، والناس الذي وجهت إليهم هذه العقول انتقاداتها قد تعلموا أنفسهم الدرس، إنما ليس إلى حد تعديل أهدافهم، بل إلى حد يكفي لحملهم على إعادة النظر بمحججهم وبراهينهم. فمدارة الشركات الدولية الكبرى هم أيضاً وانقون بالقدرة التي امتلكها قبلهم أرباب الصناعة في القرن التاسع عشر، إلا أنهم يحترسون من التأكيد، كما فعل هؤلاء، إن هذه القوة تضعهم فوق الحق. وهكذا عمدوا دفعة واحدة، إلى الخروج بتفنن جديد هو: الترابط الاقتصادي الذي سيجعل من فروع شركاتهم في الخارج المخافر الأمامية لمعونة التنمية، وأعمدة عالم موحد.

غير أن القول لا يدل من طبيعة الفعل، والأمر لا يزال مجسداً في السعي وراء مزيد من القوة، قوة اقتصادية تقوم على «التبادل اللامتكافئ»: مواد أولية ويد عاملة بثمن زهيد وتصدير التكنولوجيا بأرفع الأثمان. فما أشد وطأة النظام الذي ينوء على جماهير سكان خاضعة لسيطرة هذه الإمبراطورية الأمريكية.

هذه الإمبراطورية لا تزال ردود فعلها كما لو كانت لا تقدر القوة التي تطأ بها ضحاياها حق قدرها. وما لا ريب فيه، أن بعض قادتها لا يساورهم أي شك من هذه الناحية. فالرئيس أيزنهاور، الجندي، كان يبدو واعياً لقدرة التدمير التي في قبضتيه، وجون كندي «عند أزمة الصواريخ» (١٩٦٢) قد قدّم الدليل على رباطة جأشه، غير أن لندن جونسون عندما أمر، بعد مرور ثلاث

سنوات ، بالقصف المكثف على الفيتنام الشمالية ثم نكسون — كينسنجر بالغارات الجوية عليها في كانون الأول ١٩٧٢ ، قد برهنوا على أن نظرتهم في الدمار الذي ينزلونه بأعدائهم مقدرين نتائجهم السياسية فوق قدرها بكثير ، هي نظرة مجردة غير موضوعية .

إن عشرات العمال الذين كانوا يُقتلون عند كل إضراب في الولايات المتحدة ، هل يقولون على بعد رهيب من الواقع عند حراس النظام الذين يظنون أنهم قادرون على حصر حركة مطالب عمالية بدعوة عشرين ألف رجل إلى السلاح . إن جون شتاينبك قد أورد في كتابه : « فئران ورجال » استعارة مدهشة عن هذه القوة التي تجهل نفسها . لينّي العملاق ، الساذج المتخلف العقل ، يقتل الفئران التي يحب مداعبتها ، ولا يساروه الشك فيما يفعل ، ويقول كأنه يعتذر :

« ما أصغرها .. إني أداعبها ، فتعض أصابعي ، فأقرص بلطف رأسها فتموت — لأنها جد ضئيلة — . »^(٢) .

وتتكرر المغامرة ذاتها بعد ذلك مع جرو : « لماذا ينبغي لك أن تُقتل ؟ فأنت لست صغيراً كالفئران ، وأنا لم أهزك هزاً شديداً » ، ثم يضيف : « أنا ما كنت أدري أنك ستُقتل بهذه السهولة »^(٣) . وبعد الفار والجرو يأتي الكائن البشري . فهو ، كي يكتم صيحات زوجة كورلي ، يضع يده على فمها قائلاً : إياك والصياح ، ثم هزها فتهاوى جسدها على الأرض كجسد سمكة ميتة ، ثم همدت حركتها ، فلبني قد كسر عنقها فخفض نظره إليها ورفع يده عن فمها بتؤدة ، لكنها ظلت هامة . وقال لها : « أنا لا أريد بك شراً . وعندما لم تجب المنحنى عليها ورفع ذراعها ، ثم تركه يهوي ، ثم بدا شارد الذهن برهة ، ثم مرتعباً ، وتغم قائلاً : لقد قمت بحماقة ، لقد اقترفت شراً آخر »^(٤) .

إن شعور لينّي بإثم « عمله الشرير » ، لم يحل دون مصرعه بيد أفضل أصدقائه . هنا تنتهي الصورة (الاستعارة) بلا شك : فنكسون ، لأنه تجاوز سلطة أساء تقدير مداها ، قد قُتل سياسياً لا جسدياً ، ولم يقتله أحد أصدقائه ، بل قتله تحالف أولئك الذين ، سواء في الكونغرس أو الصحافة ، ما كانوا يشعرون إلا بالاشمئزاز من مفاهيمه للسلطة والنظام والقوة .

وإن موت نكسون هذا لا معنى له ، إلا إذا كان لا يجد نهاية مطاف ، بل نقطة إنطلاق

(٢) ج شتاينبك — فئران ورجال ص : ٢١ — ٢٢ .

(٣) المصدر ذاته ص : ١٤٧ ، ١٤٩ .

(٤) المصدر ذاته ص : ١٥٨ — ١٥٩ .

جهد كبير يتوخى أن يُعيد إلى المجتمع الأمريكي ترتيب الأولويات ؛ ترتيب أفضلياته عام ١٧٧٦ الذي سرعان ما قلبه التاريخ رأساً على عقب ، تلك هي ، كما يبدو ، نية الرجال الذين يدأبون لا في الكونغرس والصحافة فحسب ، بل في أكثر الأوساط تبايناً ، ليُظهروا للملأ ، التجاوزات والتجسس والأكاذيب والفساد وأعمال العنف التي دفعت جميعها أمريكا بعيداً جداً عن حلمها .

وأولئك الرجال الشجعان ينتصب في وجههم أناس يجسدون القوة ويبلون مهيعين لاعتبارها غاية في ذاتها، ويؤمنون بالقوة من أجل توطيد النظام في الداخل والخارج: قوة عسكرية، قوة المال، وقوة وكالات الجاسوسية، وقوة الشراكات والتواطؤات التي تُشرى شراءً. فمن الطبيعي إذاً أن يشجع هؤلاء على ظهور الأنظمة الدكتاتورية ليفرضوا «قانونهم ونظامهم» على العالم، فالمصالح التي كُلّفوا الدفاع عنها لا تمت بشيء إلى الإتجاه المدون في إعلان الاستقلال. إلا أنه أمر طبيعي أيضاً، أن يعمد خصومهم لفضح الدعم المتدفق على نغوين فان ثيو سابقاً، ولا يزال يتدفق على بنوشي حالياً وعلى كثيرين غيرهما— إلى مواجهتهم بتعريف آخر لمصلحة الولايات المتحدة القومية، تعريف لا يضع في المقام الأول القدرة الاقتصادية أو مقاومة الشيوعية فقط، إنما يضع في رأس الأفضليات كلها إنطلاقة الديمقراطية الأمريكية سواء في الداخل أو عبر الحدود في الخارج.

إن عكساً، كهذا، يتحقق في ترتيب الضرورات العاجلة، وإن العودة إلى وحي عام ١٧٧٦ مع تحديثه يفترضان تقدم الديمقراطية على رأس المال، والحرية على النظام العقيم، والمساواة على التمييز العنصري وعلى الدفاع عن الامتيازات، والحق على القوة. هذا ما لا يتسنى بلا تحول يبدو أنه بدأ يتحقق في الرأي العام، إلا بإصلاح المؤسسات وإلا بكفاح يهب في وجه كل من يتجاوز السلطة. فمتجاوزو السلطة هؤلاء هم أعداء يُخشى جانهم. وقد قال بنيامين فرانكلين، منذ قرنين: «إن بعض كبار من قابلت من المختالين كانوا أغنى المختالين».، إنهم لا يزالون في الوجود أغنى وأقوى من أي وقت مضى، ومصقولين أكثر من المحتكرين والمضاربين في نهاية القرن الثامن عشر، وأرهف ذوقاً ورقة من «الغولد والفاندربيلت» في القرن التاسع عشر، ويملكون وسائل أكبر تدفع جشعهم إلى أبعد من ذلك، وتخدمهم مجموعة من الخبراء والفنيين.

خلال هؤلاء نظام بكامله يقوم، رأسمالية تتجاوز شراستها حدود الظن، ينبغي الإطاحة بها
إذا كان للحلم أن ينبعث، فهل يمكن الحلم بذلك؟.. هل يمكن الحلم بتحقيق الحلم؟.....

الفهرس

تمهيد

٩ القتال

المدخل

١٧ الحلم والنزاع

□ الفصل الأول

٣٧ الرأسمالية ضد الديمقراطية

٤٣ السلطة والمال

٥٢ الاستقلال الوطني والنضال الطبقي

٦٠ ثورة رجل الشارع

٦٤ إغراء النظام الملكي

٧٠ موكب الفساد

٧٥ مصالح فردية وخوف من الفوضى

٧٩ عداء الشعب للدستور

٨٣ الجمعيات الديمقراطية

٨٦ التقدم الصناعي وثمنه الإنساني

| | |
|----------|----------------------------------|
| ٩٢..... | معارك سياسية وطوباويات |
| ٩٤..... | أرباح حرب و « بارونات لصوص » |
| ٩٧..... | الكفاح في سبيل الديمقراطية |
| ١٠١..... | « روح الشيوعية الشريرة » |
| ١٠٤..... | « عقب الحديد » |
| ١٠٨..... | معركتان عُماليتان كبيرتان |
| ١١٣..... | حركة ثورية |
| ١١٧..... | « النقابات لا ضرورة لوجودها » |
| ١٢٠..... | أزمة رأس المال ونجاح الديمقراطية |
| ١٢٤..... | انتخابات وقدرة اقتصادية |
| ١٣٠..... | قمع النقابات |
| ١٣٥..... | تضخم نقدي وامبريالية |
| ١٤٠..... | روكفلر والفساد والسلطة |
| ١٤٤..... | المال والديمقراطية |

□ الفصل الثاني

| | |
|----------|---------------------------------|
| ١٥١..... | النظام ضد الحريات |
| ١٥٣..... | القانون والنظام |
| ١٥٧..... | تكم وكذب واستبداد |
| ١٦٥..... | سلطة تعسفية |
| ١٦٨..... | ازدراء الرأي العام |
| ١٧٠..... | مغامرون وطهريون |
| ١٧١..... | ثورة الديمقراطيين الأوائل |
| ١٧٢..... | النظام الطهري |
| ١٧٣..... | أرستقراطية وعبودية |
| ١٧٦..... | الحذر من الجند |
| ١٧٨..... | الوجهاء يسحقون « عصيان الوسكي » |
| ١٨١..... | تعريف الخيانة |
| ١٨٣..... | قمع المعارضة |

| | |
|----------|-------------------------|
| ١٨٨..... | رسالة ديمقراطية |
| ١٨٩..... | القانون والقمع |
| ١٩٢..... | إزدهار وعزة قومية |
| ١٩٥..... | اضطهاد «الويليس» |
| ١٩٨..... | الحكم على ساكو وفانزيتي |
| ٢٠٠..... | الخوف من الأجانب |
| ٢٠٣..... | المتطوعون لتوطيد النظام |
| ٢٠٥..... | مقاومة الشيوعية |
| ٢٠٧..... | مهلة للديمقراطية |
| ٢٠٨..... | المكاثرة |
| ٢١٣..... | الذين ينتهكون القانون |

□ الفصل الثالث

| | |
|----------|---------------------------------|
| ٢٢١..... | العنصرية ضد المساواة |
| ٢٢٥..... | عنف في بوسطن |
| ٢٢٨..... | جيرالد فورد ضد القضاء |
| ٢٣١..... | عندما يزيد الدواء الداء تفاقمًا |
| ٢٣٤..... | التفاوت الاقتصادي |
| ٢٣٦..... | الحكومة لا تطبق القانون |
| ٢٣٨..... | التسوية الأولى |
| ٢٤١..... | حق الملكية |
| ٢٤٢..... | واقعية قصيرة النظر |
| ٢٤٥..... | حركات تمرد العبيد |
| ٢٤٧..... | إزدهار مُهدد |
| ٢٤٩..... | صورة عدو الرق |
| ٢٥١..... | الحق والعادات |
| ٢٥٤..... | تطور بطيء |
| ٢٥٥..... | خط الحديد، والأسود والتمساح |
| ٢٥٨..... | غسل الجريمة بالدم |

| | |
|----------|-------------------------|
| ٢٥٩..... | الأسود ليس مواطناً |
| ٢٦١..... | غموض لنكولن وازدواجيته |
| ٢٦٤..... | العرق الأبيض هو المتفوق |
| ٢٦٧..... | الحكومة لن تهاجمكم |
| ٢٧٠..... | مأزق ثلاثي |
| ٢٧٢..... | بليلة الأذهان |
| ٢٧٥..... | مساومات وتردد |
| ٢٧٧..... | الدم والرماد |
| ٢٧٩..... | عودة الرقاص |
| ٢٨١..... | انتهاك حرمة الدستور |
| ٢٨٤..... | حلم ثانوي |
| ٢٨٨..... | القانون يبدل معسكره |
| ٢٩١..... | الجزء الأكبر |

□ الفصل الرابع

القومية الاقتصادية ضد الانطلاقة الديمقراطية ٢٩٧.....

| | |
|----------|------------------------------------|
| ٣٠٣..... | المعسكران |
| ٣٠٨..... | سحق أول حرب صغيرة (أول حرب عصابات) |
| ٣١٥..... | «لاواقعية الثوريين» |
| ٣١٩..... | شرعية واستقرار عالمي |
| ٣٢٧..... | قدرة ديمقراطية |
| ٣٣٥..... | ازدواجية أخلاق |
| ٣٤٢..... | دبلوماسية تجارة |
| ٣٤٨..... | حدود الجزر وعدم التدخل |

□ خاتمة

| | |
|----------|-------------|
| ٣٥٧..... | البعث الحلم |
|----------|-------------|

الحلم والتاريخ، أو، مئة عام من تاريخ أمريكا = LE REVE ET L'HISTOIRE / تأليف كلود جوليان؛ ترجمة
نخلة كلاس. ط. ٢. — دمشق: دار طلاس، ١٩٨٩. — ٦٦٦ ص. : خرائط؛ ٢٤ سم.

١ — ٩٧٣ جول ح ٢ — ٣٢٠.٩٧٣ جول ح ٣ — العنوان ٤ — العنوان البديل
٥ — جوليان ٦ — كلاس
مكتبة الأسد

رقم الإيداع — ١٩٨٩/٦/٨٠٨

رقم الإصدار ٤٤٦

الحلو و التاريخ

في الذكرى المئوية الثانية للولايات المتحدة،
ألف «كلود جوليان» هذا الكتاب الذي يفرض
نفسه، لكونه تاريخاً عميقاً يجلو التناقضات الحالية
للسياسة الأميركية. فابتداءً من رئاسة واشنطن
الأولى حتى فضيحة «ووترغيت» تستمر المسرحية
(الدراما) ذاتها: كفاح الديمقراطية ضد امتيازات
القرء السياسية، والحريات العامة ضد ما سُمي
بالقانون والنظام، والمساواة ضد التمييز العنصري.
إن «كلود جوليان» إذ يكشف «نفساً»
نصوصاً لم تُعرف إلا قليلاً، ويذكر أحداثاً منسية،
يروي لنا أيضاً تاريخ هذه المعارك الضارية المثيرة،
وكيف تقوم على «راع أوسع يجري على المستوى
العالمي:

- أسيادة الشعوب أو النظام الدولي تحت
اسم السلام الأمريكي؟
- أحقوق الشعوب الكادحة أو قانون
الشركات المتعددة الجنسيات؟
- أتمرد الفئات المضطهدة أو تفوق العرق
الابيض والدول المصنعة؟
- إن «كلود جوليان» رئيس تحرير «الموند
ديلومانيك» يلقي هنا ضوءاً جديداً على اجتماع
الأمريكي بعد أن أظهر جوانب ووجهها أخرى منه
في كتابه: «الامبراطورية الأميركية» و«انتحار
الديمقراطيات».

